من النقل إلى العقل

(الجزء الأول: علوم القرآن)
من المحمول إلى الحامل



حسن حنفي

من النقل إلى العقل: الجزء الأول (علوم القرآن)

من المحمول إلى الحامل

تأليف

حسن حنفي



من النقل إلى العقل: الجزء الأول (علوم القرآن)

حسن حنفي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٧٦ ١

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

الإهداء

إلى الذين لا يخشون النظر، في الحامل دون المحمول.

حسن حنفي
٦ أكتوبر، ٢٠٠٨م

تصدير

نهاية المطاف للجبهة الأولى

«من النقل إلى العقل» هي محاولة لإعادة بناء العلوم النقلية الخمسة بعد أن تركها القدماء والمُحدَثون كما وضعها الأوائل مكتفين بوضعها تاركين للزمن تطويرها، وهي: علوم القرآن، علوم الحديث، علم التفسير، علم السيرة، علم الفقه، بصرف النظر عن الترتيب. وهي العلوم السائدة في الكليات الأزهرية والكليات الدينية والتي تخشى كليات الآداب عامة وأقسام الفلسفة خاصة الاقتراب منها، وهي الأقدر على دراستها، خاصة وأنها كليات الآداب والعلوم الإنسانية.

وهي أكثر العلوم تأثيرًا في الحياة العامة والخاصة استشهادًا بحجة القول «قال الله» و«قال الرسول» القائم على منهج الانتقاء والانتزاع من السياق والاختيار وفقًا للأهواء، اعتمادًا على سلطة النص منفصلًا عن سلطة العقل؛ فيتحول النص إلى مُقدَّس، يدخل في معارك التفسير والتأويل والتي تصل إلى حد التكفير، وتقوي جذور السلفية منذ أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب.

والسؤال بالنسبة لنا: لماذا تبقى هذه العلوم نقليةً خالصة ولا تنضم على الأقل إلى مجموعة العلوم النقلية العقلية مثل الكلام والفلسفة وأصول الفقه والتصوف؟ لماذا لا يتم تحويلها إلى علومٍ إنسانية؛ فالقرآن علم النص، والحديث علم الرواية، والتفسير علم الهرمنيطيقا، والسيرة علم التاريخ، والفقه علم القانون؟ إن العقل أساس النقل، ومن قدح في العقل فقد قدح في النقل، النقل دون عقل يبقى ظنيًّا خالصًا في حين أنه بتأسيسه على

العقل يصبح أقرب إلى اليقين، ولماذا ندافع عن العقلانية ولا نقضي على جذور اللاعقلانية من تراثنا القديم؛ أي من ثقافتنا الشعبية بعد أن تحولت أجزاء فيه إلى أمثالٍ عامية؟ وهل تنجح المشاريع العربية المعاصرة مثل «نقد العقل العربي» في إرساء قواعد العقلانية في أرضٍ ثقافتها نقلية؟ وهل تنجح عقلانيةٌ عربيةٌ مستمَدَّة من العقلانية الغربية العلمية أو الرياضية ومقلِّدة لها والعقلية العربية مغروزة في العلوم النقلية؟

ولماذا تظل العلوم الإسلامية القديمة ثابتة في لحظةٍ تاريخيةٍ واحدة لا تتطور، والزمن يتغير؟ إن العلوم جزء من الثقافة، والثقافة تتغير بتغير العصور والأزمان. العلوم مثل الفلسفات والفنون، جزء من تصورات العالم التي تعبر عن تطور الوعي الإنساني.

إن أخطر ما يهدد العلم نزعتان متناقضتان: القطعية والشك. الأولى تجزم باليقين المطلق الثابت الذي لا يتغير حتى لو عارضت اليقين العقلي أو اليقين الحسي، والثانية الشك في كل شيءٍ وعدم التسليم بشيء حتى لو كان البداهة العقلية أو الحسية، وهما النزعتان اللتان تؤديان إلى الإثبات المطلق أو الرفض المطلق، وقد تكون مرحلتَين متتاليتَين؛ البداية بالقطعية والنهاية أو البداية الثانية بالشك. هكذا كان الحال في الغرب عندما بدأ بالقطعية عند بوسويه وليبنتز، وكانت البداية الثانية بالشك عند ديكارت في القرن السابع عشر. ويكفينا نحن أن نتساءل دون إصدار حكم، ونترك إصدار الأحكام إلى الأجيال القادمة. والتساؤل جزء من ثقافتنا داخل في قلب النص «ويسألونك عن ...» سماه ياسبرز الفلسفة «التساؤلية». وكانت الأسئلة قديمًا من وحي عصرها: المحيض، الإنفاق، الخمر والميسر، الأهِلَّة، الشهر الحرام، اليتامى، الجبال، الروح، ماذا ينفقون، ونسأل نحن في هذا العصر عن: الاستبداد، والقهر، وحقوق الإنسان، والفقر، والظلم، والاستعمار، والصهيونية، والعولمة. والأحكام تتغير وتتبدَّل فيما عُرف باسم الناسخ والمنسوخ طبقًا لتغيُّر الأزمان؛ فالأحكام الشرعية تسير وفقًا للمصالح العامة.

لقد آن الأوان أن نبدأ الإصلاح من الجذور بدلًا من أن نبدأه منذ قرنَين من الزمان، ويكبو جيلًا وراء جيل، حتى نحصل على ثورةٍ دائمة بدلًا من مجرد الطموح إليها ولا تأتي بل تكبو؛ إذ إنها تبدأ عاجزة. لذلك أصبح التقدم لدينا دائريًّا أو متجهًا إلى الخلف وليس متجهًا إلى الأمام. ونؤجل معركته خوفًا من الصدام مع معوقاته، وفي نفس الوقت نعجب بمفهوم التقدم المستمر إلى الأمام في الغرب الذي دخل معاركه وانتصر فيها.

لقد ظهر الجزء الأول من «من النقل إلى العقل» عن «علوم القرآن»، والجزء الثاني عن «علم الحديث» في بيروت ٢٠١٠م لما عرفت عنه من شجاعةٍ فكرية وحرية رأيٍ، ويبدو

أنه لا عاصمة عربية تعلو على القاهرة التي احتضنت الأجزاء الخمسة: القرآن، والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه كمقدمة للطبعة الثمانينية لأحد مفكريها. تتلوها «من النص إلى الواقع» في علم أصول الفقه، ثم «من الفناء إلى البقاء» في علوم التصوف ثم «محمد إقبال». وعسى أن يطول الأجل لإتمام باقي الأجزاء وآخرها الجبهة الثالثة «الموقف من الواقع» أو «نظرية التفسير». وتظل الهيئة العامة للكتاب الأمينة على حرية الرأي منذ بولاق حتى الضفة الأخرى كورنيش النيل. وحاضنة لمفكريها الأحرار بالرغم مما يبدو عليها من كبواتٍ وقتية سرعان ما تنهض بعدها لتستأنف تاريخها.

حسن حنفي
مدينة نصر، ٣٠ / ٦ / ٢٠١٣م

مقدمة

(١) من «الفناء والبقاء» إلى «العقل والنقل»

البداية كالعادة نقد العمل السابق من أجل الاستعداد للعمل اللاحق بعد مزيد من الوعي بحدود العمل السابق والتي لا تظهر إلا بعد الاكتمال. فقد تم نقد «من العقيدة إلى الثورة» في بداية «من النقل إلى الإبداع». وتم نقد «من النقل إلى الإبداع» في بداية «من النص إلى الواقع». وتم نقد «من النص إلى الواقع» في بداية «من الفناء إلى البقاء» والآن يتم نقد «من الفناء إلى البقاء» في «من النقل إلى العقل، علوم القرآن».[١]

(أ) جاء «من الفناء إلى البقاء» في جزأين؛ الأول «الوعي الموضوعي» والثاني «الوعي الذاتي». وهي نفس قسمة «من النص إلى الواقع» في جزأين؛ الأول «تكوين النص»، والثاني «بنية النص». ويبدو أن قصر الوقت بين العملَين لم يُتِح الفرصة للتغير والنسيان والبداية الجذرية الجديدة. وربما أن «التكوين» و«البنية» قسمةٌ منهجيةٌ صرفة لا شأن لها بعملٍ معين، أصول الفقه أو التصوف، أو بطول المدة وقصرها بين العملَين. فالأشياء إما متحولة أو ثابتة، تاريخًا أو بنية، والوحي كذلك يتطور من أول مرحلة حتى آخرها ثم يثبت في آخر مرحلة، وإذا كان ذلك ينطبق على العلوم العقلية النقلية الأربعة، الكلام والفلسفة وأصول الفقه والتصوف فإنه لا ينطبق على العلوم النقلية الخالصة. فلم تنقسم علوم القرآن هذه القسمة وإن بقيت قسمةً ثلاثية في الأبواب. ومع ذلك هناك تشابه غير مباشر بين القسمة

---

[١] من النقل إلى الإبداع مج١، ج١، التدوين، ص٧–١٤؛ من النص إلى الواقع ج١، تكوين النص، ص٩–١٧؛ من الفناء إلى البقاء ج١، الوعي الموضوعي، ص٧–١٣.

إلى تكوين وبنية، وبين الموضوع والذات. فالتكوين هو الموضوع، والبنية هي الذات. وقد يمكن ذلك في القسمة الثلاثية في «علوم القرآن»: الحوامل الموضوعية، الحوامل الموضوعية الذاتية، الحوامل الذاتية.

(ب) خرج «الوعي الموضوعي» استعراضًا وعرضًا وتحليلًا لأسماء كتب الصوفية مرتبةً طبقًا لأشكالها الأدبية التي تعبر في نفس الوقت عن أبعاد الوعي الموضوعي. أولًا: الوعي التاريخي، والوعي التاريخي الخالص، والوعي الموضوعي الخالص. ثانيًا: الوعي النظري؛ تطور الوعي النظري من المعرفة إلى الوجود، تقنين المصطلح، مناهج التفسير، الأشكال الأدبية، تأثير البنية، الشروح، الملخَّصات. ثالثًا: الوعي العملي؛ العودة إلى التاريخ، العودة إلى علم الكلام، العودة إلى العلوم النقلية علوم الحديث والسيرة، الاغتراب في المعجزة والخرافة، المناقب والكرامات، الطريق والطريقة والشيخ والمريد والمجتمع المثالي. رابعًا: الوعي العلمي وهو البُعد الوحيد الذي تجاوز تصنيف الأعمال إلى تصنيف الموضوعات بداية بمقاييس التصنيف وعلوم الذوق وعلوم التصوف، ومع ذلك جاء العرض وكأنه أقرب إلى الفهارس العامة وشبكات المعلومات، خاليًا من أي إبداع في الأبعاد الثلاثة الأولى للوعى الموضوعي؛ الوعي التاريخي، والوعي النظري، والوعي العملي، وهي نفس أبعاد الوعي في «بنية النص» في علم أصول الفقه.[٢]

كان الهدف هو تفكيك النص الصوفي القديم، وضياع رهبته وقدسيته ببيان تركيبه كصنعة، وبنيته كرؤية لإفساح المجال لنصٍّ صوفيٍّ جديد، «من الفناء إلى البقاء». الهدف نبيل إلا أن الوسيلة كانت مدرسيةً مكتبيةً «أرشيفية»؛ مما يصيب القارئ بالملل نظرًا لغياب الرؤية الكلية التي في عنوان الباب وأقسامه.

ومع ذلك كانت الفائدة جمة من أجل إعادة الوعي بالنص الصوفي، شكله الأدبي وتطوره. وإذا سقط نصٌّ هنا أو هناك فإنه لا ينفي الشكل الأدبي ومراحله نظرًا لكثرة النصوص. فالنصوص وقائعُ متتالية، تاريخ يكشف عن بنيةٍ ممكن أن تستكمل التاريخ وتكتشف مواطن نقصه.

(جـ) وفي الجزء الثاني «الوعي الذاتي» يظهر نقد القدماء مبينًا أثناء العرض طبقًا لآليات التخفِّي. لم تكن هناك ضرورة لذلك نظرًا لأن التصوف ليس عقيدة. وهو نفسه

[٢] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص.

متهم بالخروج عليها كما وُجِّه إليه النقد في الحركات الإصلاحية خاصة محمد إقبال.[٣] لذلك صعب التمييز بين الجديد والقديم بعد أن توارى الجديد في ثنايا القديم على نحوٍ طبيعي. تكفي الولادة دون نمو الجنين حتى لا يترك الناس الأم ويجهضوا الجنين. فالأم هي الأساس. ويمكن أن تلد أكثر من مرة حتى لو تم إجهاض الجنين الأول.

كانت طريقة عرض مادة القدماء تركها تتحدث بنفسها عن نفسها من خلال التعريفات الكثيرة للتصوف وموضوعاته. أولًا: التصوف الخلقي، الفقه والأخلاق، الفضائل والرذائل. وثانيًا: التصوف النفسي، النفس وأنواعها، المقامات والأحوال والتوحيد ومستوياته. وثالثًا: التصوف الفلسفي والإنسان الكامل والحقيقة المحمدية، النبوة والمعاد. ورابعًا، التصوف العملي، الطريق والوحدة والطريقة. غلب فيها القديم على الجديد، والتعريفات القديمة على التأويلات الجديدة؛ فغاب الهدف من «تثوير» التصوف، ولم يتم التعرف على كيفية التحول من «الفناء» إلى «البقاء» كما يصرح العنوان، ولم يظهرا إلا كحالَين أو مقامَين في فصل المقامات والأحوال في التصوف النفسي. ربما كان السبب تقديس القديم وتعظيم القدماء والتواضع أمامهم أكثر من إبراز الجديد والاعتزاز به لدرجة الغرور عند بعض المجدِّدين، وإبراز الذات على حساب الموضوع.

(د) تاه الجديد في الحضور الطاغي للقديم، وأصبح من الصعب العثور عليه إلا بعد تفتيش وتدقيق وقراءة ما بين السطور. ربما فرض ذلك طبيعة الدراسات التكوينية التي يهمُّها رجُّ القديم وهزُّه ونفضه من الغبار الذي تراكم عليه عبر السنين. وجلاء المرآة في حد ذاته عملٌ جديد أفضل من صنع مرآةٍ أخرى لا تعكس إلا صورها. ومن كثرة ضغط القديم على الجديد، وضغط الرحم على الوليد حدث في النهاية ضيقٌ شديد لدرجة الاختناق. كان الحل هو الانتظار حتى ينتهي «من الفناء إلى البقاء» دون العودة إلى طريقته في العرض، وأساليبه في التخفِّي. ربما كان السبب أن المؤلف نفسه من القدماء، خارجًا من بين القبور، بالرغم مما يبدو عليه في مقاصده من التوجه نحو الجديد كما تدل عليه أجزاء مشروع «التراث والتجديد» وعناوينها «من ... إلى». فالأم هي الأصل. والوليد هو الفرع. ربما لأن المؤلف، باعتباره كائنًا تراثيًّا، ماضوي الروح، سلفي النزعة كما يتهمه العلمانيون، ربما كانت روح الحضارة الإسلامية كلها ما زالت متجهة إلى الماضي؛ نظرًا لأزمات العصر وانسداد التاريخ، ربما توقفه كليةً وانقسام الأمة إلى غالبيةٍ سلفية وأقليةٍ

---

[٣] انظر كتابنا: محمد إقبال، فيلسوف الذاتية، دار الأمير، بيروت، ٢٠٠٨م.

علمانية، وكلما زاد انسداد الحاضر وانعدام المستقبل اشتدَّ التوجه نحو الماضي الذي تجد فيه الأمة هويتها وسبب انتصارها، والحافظ لها من الاندثار.

(هـ) حدث نوع من التكرار نظرًا لعشرات التعريفات للموضوع الواحد وإيثار عرضها كلها، قصدها واحد وصياغاتها وفروعها متعددة، لم يُنسَب كل قول لصاحبه إلا أحيانًا في الهوامش حتى يبقى الموضوع مستقلًّا عن صاحبه، وأحيانًا يوضع التعريف بنصِّه وقصده، وأحيانًا تُعاد صياغته بعبارةٍ شارحة أطول أو أقصر حتى يسهل توليد الجديد منها. فغلبت تعريفات القدماء وتكررت حتى أجهضت الموضوعات وغلَّفتها بعشرات من الصياغات. وفي نفس الوقت غابت التحليلات الذاتية، ووصف التجارب الشعورية، وهو منهج الصوفية، طريق الذوق. فبدأ التصوف نصوصًا وتعريفات وصياغات يفهمها القارئ بعقله ويتوه فيها لكثرته أكثر منها تجارب وحقائق يشعر بها شعورًا مباشرًا ويدركها بحدسه.

العلم هو ما يخطر بالذهن، والخواطر جزء من تحليلات النفس عند الصوفية، ولكن ضاع في خضم المعلومات. كان الأولى الإبقاء على الخواطر ذاتها، والمعلومات معروفة، وإبراز الجديد وتواري القديم، ووضعه بصياغاته ونصوصه بين معقوفتَين في الهوامش فصلًا بين الجديد والقديم، الجديد أعلى الصفحة والقديم أسفلها. وبهذه الطريقة يُفصل الوليد عن الأم بعد ولادته في غرفتَين منفصلتَين أو يظهر الوليد بالتبنِّي لغياب عملية الولادة.

حدث تكرار بين أبواب الجزأين. فأبواب الجزء الأول ثلاثة: الوعي التاريخي، والوعي النظري، والوعي العملي، وزاد رابعًا: الوعي العلمي. وأبواب الجزء الثاني: التصوف الخلقي، التصوف النفسي، التصوف الفلسفي، التصوف العملي. فالوعي التاريخي يقابل التصوف الخلقي لأن التصوف في مرحلته الأولى كان علم أخلاق. والوعي النظري يعادل التصوف الفلسفي، والوعي العملي يشبه التصوف العملي. ودخل التصوف النفسي في الوعي النظري، كما دخل الوعي العملي في التصوف العملي. ويبدو أن تسلط البنية على الموضوع جعلها تفرض نفسها عليه، وهو نوع من «الهيجلية» السائدة. نظرًا لغلبة المنهج على الموضوع.

(و) عنوان الجزأين واحد «الوعي»، مرة الوعي الموضوعي أي التصوف كتاريخ، ومرة الوعي الذاتي أي التصوف كتجربة. فالوعي أحد ركائز الإصلاح. ومشروع «التراث والتجديد» هو أحد مشاريع الإصلاح الثاني بعد نهاية الإصلاح الأول بأجياله الخمسة.[٤]

---

[٤] انظر دراستنا السابقة، كبوة الإصلاح، دراساتٌ فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٧٧–١٩٠.

الغاية إعادة بناء التراث القديم على بؤرةٍ جديدة هي الوعي الفردي والجمعي تحولًا من «الثيولوجيا» إلى «الأنثروبولوجيا» لبداية مرحلةٍ جديدة في الحضارة الإسلامية بعد مرحلتَيها السابقتَين؛ عصر الازدهار في القرون السبعة الأولى حتى ابن خلدون، والمرحلة الثانية مرحلة الشروح والملخَّصات والموسوعات في القرون السبعة التالية لابن خلدون، وبداية المرحلة الثالثة في القرن الخامس عشر لإكمال حركتَي الإصلاح والنهضة في القرنَين الأخيرَين. وتشبه بداية العصور الحديثة في القرن السابع عشر في الغرب عند ديكارت وبيكون وما سبقها من إصلاح في القرن الخامس عشر ونهضة في القرن السادس عشر.

وقد تكرر أيضًا لفظ «النص» في «من النص إلى الواقع» في جزأيه؛ الأول «تكوين النص»، والثاني «بنية النص». وقد أمكن تلافي ذلك في «من النقل إلى العقل» في أجزائه الخمسة: «علوم القرآن»، «علوم الحديث»، «علوم التفسير»، «علوم السيرة»، «علم الفقه». بالرغم من أن كل جزء له هدف أيضًا وهو الانتقال من مرحلة إلى أخرى كما حدث في «علم الكلام» في «من العقيدة إلى الثورة». «فعلوم القرآن» «من المحمول إلى الحامل» أو من اللغة والبلاغة إلى العلوم الإنسانية، و«علوم الحديث» «من نقد السند إلى نقد المتن». و«علوم التفسير» «من التفسير الطولي إلى التفسير الموضوعي (العرضي)». و«علوم السيرة» «من الشخص إلى المبدأ» أو «من الرسول إلى الرسالة». و«علم الفقه» «من فقه العبادات إلى فقه المعاملات» أو «من الفقه الشرعي إلى الفقه الطبيعي» أو «من فقه الأحكام إلى فقه الوجود».[٥]

(ز) استمر منهج تحليل المضمون المستخدم في «من النقل إلى الإبداع». كان الهدف هو معرفة اتجاه النص نحو النقل أم نحو الإبداع، نحو اليونان أم نحو القرآن عن طريق تحليل عناصره ومكوِّناته دحضًا لشبهة النقل عن اليونان.[٦] واستمر المنهج في «من الفناء إلى البقاء» لإثبات أن المصدر الأول في التصوف هو المصدر الداخلي للكتاب والسنة وباقي العلوم الإسلامية بالإضافة إلى ظروف العصر، وغياب المصدر الخارجي كليةً باستثناء مراتٍ نادرة يُشار فيها إلى سقراط أو أفلاطون في النصوص المتأخرة. وقد لا يحب ذلك من لا يُقدِّر

---

[٥] انظر محاولاتنا السابقة في علوم التفسير Thematic Interpretation وعلوم الحديث «من نقد السند إلى نقد المتن» وعلوم السيرة «الشخص أم المبدأ»، الدين والثورة في مصر ١٩٥٢–١٩٨١م، ج٧، اليمين واليسار في الفكر الديني، مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٦٣–١٦٧.

[٦] من النقل إلى الإبداع، ج١ النقل، ج١ التدوين، ص٤٥–٥٤.

المناهج الإحصائية، مع أنها مناهجُ مضبوطة وأدلةٌ حسية على صدق الافتراض النظري. وبقي قليل منه في «من النص إلى الواقع» والأقل في «علوم القرآن» باستثناء المكوِّنات العامة لمصنفاته الرئيسية مثل «البرهان» للزركشي و«الإتقان» للسيوطي. واستُعيض عنه بمنهج إعادة قراءة النص القديم وإعادة بنائه طبقًا لظروف العصر وتحدياته الرئيسية.

(ح) ما زالت المحاولات تتسم بالضخامة في عدة أجزاء، على الأقل في جزأين وليس تسعة مثل «من النقل إلى الإبداع» أو في خمسة مثل «من العقيدة إلى الثورة». أو في جزأين مثل «من النص إلى الواقع». كان من الصعب ضغط «من الفناء إلى البقاء» في أقل من جزأين، الأول «الوعي الموضوعي» عن التصوف التاريخي، والثاني «الوعي الذاتي» عن التصوف كطريق. الأول عن تاريخ النص الصوفي وأشكاله الأدبية، والثاني عن التجربة الذوقية الصوفية.

وفي هذه المرة «من النقل إلى العقل»، بدأ المران على الضغط؛ فلم يعد في عمر الكاتب الكثير للكتابات المطوَّلة، ولم يعد وقت القارئ الكثير ليقرأ المجلدات أمام ضغوط الحياة وسرعة الحصول على المعرفة من شبكات المعلومات والكتيبات الصغيرة والمجلات والصحف. فالنية ألا يتعدى كل علم من العلوم الخمسة جزءًا واحدًا. حتى ولو كان ضخمًا. فهو أفضل من جزأين أو خمسة أو تسعة. ومع ذلك ما زال مشروع «التراث والتجديد» يغلب عليه الضخامة. فهذا الجزء «من النقل إلى العقل» في النهاية خمسة أجزاء. وما يشفع ذلك أن كل علم جزءٌ واحد. وقد يكون السبب اللاشعوري في ذلك أن المؤلف من القدماء خارج من ثنايا القبور، يحمل عبق التاريخ.

(٢) العلوم النقلية

بعد أن أُعيد بناء العلوم النقلية العقلية الأربعة، علم الكلام في «من العقيدة إلى الثورة»، علوم الحكمة في «من النقل إلى الإبداع»، علم أصول الفقه في «من النص إلى الواقع»، علوم التصوف في «من الفناء إلى البقاء»؛ جاء دور العلوم النقلية الخالصة. وهي خمسة: القرآن، والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه. تركها القدماء دون إعمال العقل فيها لأنها كانت في مرحلة التجميع والرواية والتدوين. وضع القدماء أسسها بناءً على معطيات عصرهم. ولم يُطوِّرها أحد بعدهم، قدماءَ أو محدثين باستثناء بعض الفرقعات الحديثة من بعض مدعي التجديد أثر مقالات بعض المستشرقين عن تاريخية القرآن، ووضع الحديث، وذاتية التفسير، والنيل من حياة الرسول الشخصية، والقطيعة من الشريعة والفقه القديم.

والعلوم النقلية هي أكثر العلوم أثرًا في الثقافة الشعبية والموجودة بوفرة في المكتبات العامة والخاصة وفي المساجد والمعاهد الدينية، والمتوافرة بطبعاتٍ عدة في معظم العواصم العربية بأزهى الألوان، وأجمل الإخراج، وأفخر أنواع التجليد، في عدة مجلدات. وتكتب العنوان على مكعبات الأجزاء كلها بالخط المذهَّب. يوحي ذلك كله بدرجة التقديس لهذه العلوم والهالة التي تحيط بها. علم أصول الدين نخبوي، أحجمت العامة عنه لإبعادها عن المعترك السياسي كما فعل الغزالي في «إلجام العوام عن علم الكلام». وعلوم الحكمة علومٌ نخبويةٌ متهمة في مصادرها اليونانية والفارسية، وفي مناهجها العقلية البرهانية، وفي نتائجها «إنكار وجود الله وخلق العالم وحشر الأجساد». وعلم أصول الفقه علمٌ نخبوي للسادة الفقهاء. إنما علوم التصوف خاصة بمقاماتها وأحوالها وتحوُّلها إلى أمثالٍ عامية عن الصبر والرضا والقناعة والزهد والتوكل؛ تحولت إلى ثقافةٍ شعبية للناس في حياتهم اليومية وفي حلقات الذكر والطرق الصوفية. أما العلوم النقلية فهي العلوم الشعبية التي يستمد منها الخطباء والوعاظ أحاديثهم، وهي التي يصعب إعمال العقل فيها، بل تحولت إلى علومٍ مقدسةٍ موروثة لا يجوز للخلف أن يغير فيما وضعه السلف شيئًا.

والعنوان «من النقل إلى العقل» دالٌّ على مضمون الأجزاء الخمسة، إعمال العقل فيما تركه القدماء للنقل وحده، وجعل هذه العلوم الخمسة: القرآن والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه، علومًا واقعيةً خالصة كما تحوَّلت العلوم العقلية النقلية الأربعة التي تمت إعادة بنائها من قبلُ إلى علومٍ عقليةٍ واقعيةٍ خالصة أخذًا بالتدرج في مهام الأجيال حتى يتعود الناس على إعمال النظر فيها.

«من النقل إلى العقل» هو العنوان الجامع لهذه العلوم الخمسة. وكان من الصعب وضع عنوانٍ آخر لكل جزءٍ يدل على هذا المسار «من ... إلى». كان يكفي «علوم القرآن»، «علم الحديث»، «علم التفسير»، «علم السيرة»، «علم الفقه». القرآن وحده هو «علوم» بالجمع؛ لاعتماده على علوم اللغة والتفسير والفقه وأصول الفقه. في حين أن باقي العلوم «علمٌ» واحد؛ الرواية في علم الحديث، وفهم القرآن في علم التفسير، وحياة الرسول في علم السيرة، والشريعة في علم الفقه. كما أن كسر الرتابة في العناوين أقرب إلى التجديد الداخلي، وحتى لا يتساءل أحد القراء: «تاني من ... إلى». وبالتالي تنتهي النمطية من حيث الشكل وإن لم تنتهِ الغاية والقصد. ومع ذلك فرض العنوان «من ... إلى» نفسه على العلوم النقلية الخمسة كعناوينَ فرعية.

لم يبقَ في العمر الكثير، ستة عشر عامًا في «من العقيدة إلى الثورة»، وثلاثة عشر عامًا في «من النقل إلى الإبداع»، وأربعة أعوام في «من الفناء إلى البقاء»، وثلاثة أعوام في

«من النص إلى الواقع» لأنه إعادة كتابة الرسالة الفرنسية الأولى «مناهج التأويل» التي استغرقت عشر سنوات بعد أربعين عامًا.[٧]

أما هذه المرة فالنية معقودة على ألا يزيد كل جزء من الأجزاء الخمسة عن عامٍ واحد، خاصة بعد التركيز على العلم دون المعلومات، وعلى خواطر النفس وخلجاتها دون التحليلات الكمية والإحصائية للعقل، وإبراز الجديد أكثر من تحليل القديم، وعلى الوليد أكثر من الأم.[٨] ونظرًا لوضوح العلم والقصد فقد يستغرق أقل من ذلك. فمصنفات علوم القرآن وعلوم السيرة وعلوم الحديث محددة وإن كثرت تفاسير القرآن وتمدَّد فقه العبادات.

وتتمثل خطورة العلوم النقلية في أنها تعتمد على الحفظ والنقل؛ فالعلماء هم الحفاظ. والعالم هو الحافظ، السيوطي نموذجًا في كتابه «طبقات الحفاظ»؛ فالمؤلف حافظ، والعلم حفظ بصرف النظر عن العلم والميدان.[٩] وهو العلم النبوي المنقول، ونموذجها العلوم النقلية الخمسة، القرآن والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه. طبقات الحفاظ مجرد أسماء أعلام لأسماء العلماء والأماكن والقبائل وأسماء الكتب مع قلة الشواهد النقلية؛ الآيات والأحاديث والأشعار. هي علوم الرواية وليست علوم الدراية، أقصى غايتها التوثيق

[٧] Méthodes d'Exégèse essci sur les Fondement de la Compréhension, Ilm Usul al. Fiqh .Les le caire, Paris, 1965

[٨] وبالتالي ينتهي «من النقل إلى العقل» في غضون خمس سنوات (٢٠٠٨–٢٠١٢م) ثم تبدأ الجبهة الثالثة «الموقف من الواقع» أو نظرية التفسير في (٢٠١٢–٢٠١٥م) وأكون قد وصلت إلى سن الثمانين. أعود بعدها إلى الجبهة الثانية «موقفنا من التراث الغربي» وأضع في قلادة «مقدمة في علم الاستغراب» أحجارًا كريمةً عشرة بدأتها بثلاثة: هوسرل في «تأويل الظاهريات وظاهريات التأويل»، وهي الرسالة الثانية التي كتبت منذ أكثر من أربعين عامًا: De l'Exégèse de la Phénomeuologie à la Phènomenologie du l'Exégèse. وفشته في «فشته فيلسوف المقاومة»، و«برجسون فيلسوف الحياة»، وبعدها ماكس شيلر والظاهريات الاجتماعية، نيتشه والعدمية المطلقة، ومونييه والشخصانية، وهيجل الفيلسوف المطلق واليسار الهيجلي: باور وشترنر وفيورباخ، وشتراوس، وماركس الشاب، وكيركجارد فيلسوف الوجود، وشلنج فيلسوف الوحدة المطلقة، ويتم ذلك في خمسة أعوامٍ أخرى إن أنسأ الله في العمر كما يقول ابن سينا، وأكون بذلك قد بلغت الخامسة والثمانين (ولكلِّ أجلٍ كتاب) أبدأ كتابة سيرتي الذاتية بالرغم من خطورتها على مشروع «التراث والتجديد» بجبهاته الثلاث؛ إذ سيترك الناس المشروع ويأخذون السيرة، ويقضون على موضوعية الفكر لصالح ذاتية التجربة.

[٩] الحافظ جلال الدين السيوطي (٩١١هـ): طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

والتضعيف والتصحيح والتجريح. وهو تلخيص لكتاب الذهبي «تذكرة الحفاظ» وتذييل عليه، حفظ حافظ عن حافظ، ونقل ناقل عن ناقل.[10]

ويقسم الحفاظ إلى طبقات طبقًا لمدى قربها من النبوة، الصحابة والتابعون، وتابعو التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. ويقسم التابعون إلى طبقاتٍ كبرى ووسطى وصغرى طبقًا لقربهم من طبقة الصحابة، وتجمع الطبقة بين العلم والسلوك. وفيها تتفاضل الطبقات. تخلو حياة العلماء من حوادثَ دالةٍ أثرت عليهم أو تجاربَ حية مرُّوا بها وكأن الحفاظ مجرد آلات تسجيل أو أوعية للتخزين والحفظ، تفيد في التاريخ ومعرفة المؤلفين وأسماء مؤلفاتهم وتواريخ وفاتهم، وتدل على احترام القدماء وضرورة الأخذ عنهم وربما تقليدهم.

والغاية التأصيل النظري أكثر من إعطاء الأمثلة من الآيات والأحاديث حتى لا يتحول العلم إلى أمثلةٍ تطبيقية كما يفعل الأزهريون. فالغاية تحويل العلوم النقلية إلى علومٍ عقلية يتم حولها الحوار، والعلوم النصية إلى علومٍ فلسفية.

(٣) علوم القرآن

تعتمد علوم القرآن على الأدلة النقلية بمفردها دون الأدلة العقلية؛ لأنها علومٌ نقلية خالصة. لذلك كثرت الآيات استدعاءً من الذاكرة في غياب المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن كما هو حادث هذه الأيام. وكانت تُستعمَل حبات الشعير لعدِّ الآيات بالمئات والكلمات بالآلاف والحروف بعشرات الآلاف. وتكثر الأدلة النقلية لدرجة تحول الموضوع إلى مجرد إحصاءٍ كمي ورصد للآيات والأحاديث[11] هو نوع من المعجم المفهرس لآيات القرآن وأحاديث الرسول بناءً على رءوس موضوعات.

وتكثر الشواهد الشعرية بعد الآيات القرآنية؛ فالشعر ديوان العرب، والقرآن نزل بلغة العرب، وكثير من الاختلافات في التفسير يمكن حلها بالعودة إلى الشواهد الشعرية. ويمكن

---

[10] السابق، ص١.

[11] ذلك واضح في النوع السادس والثلاثين «في معرفة غريبه» ٧٣٤ لفظًا غريبًا بالإضافة إلى ٨٩ شاهدًا شعريًّا (الإتقان، ج٢، ٣–٨٨)، والألفاظ التي في القرآن بلغة غير الحجاز ١٧٦ لفظًا (السابق ٨٩–١٠٤)، وبغير لغة العرب ١٢٠ (السابق، ص١٠٥–١٢٠). في الإتقان للسيوطي قرابة ثمانية آلاف آية، ومثلها من الأحاديث وما يزيد على المائة من الشواهد الشعرية.

دراسة التعبيرات الشعرية في القرآن وبيان كيفية استعماله لها لأن الشعر أسبق. والمسافة بين القرآن والشعر ليست كبيرة، فالشعر قرآن لأنه من نفس النوع البلاغي، والقرآن شعر لأنه حُمل عليه. الإبداع الشعري مثل الإبداع القرآني إعجازٌ أدبي يثير الخيال؛ لذلك كان تفسير القرآن بالشعر ضمانًا لغويًّا. ولا يُفسَّر الشعر بالقرآن لأن الشعر أسبق، الشعر حامل والقرآن محمول. لذلك عقدت فصول في الإعجاز لمقارنة أساليب البلاغة في القرآن والشعر.

وتعتمد علوم القرآن على مصدرَين؛ الأول: الروايات الشفاهية، والثاني: النصوص المدونة. وكلاهما مصدران نقليان.

وإذا ظهرت دلالةٌ فقصيرة، والأمثلة عليها كثيرة، الدلالة واحدة وتذكر عليها كل الأمثلة؛ مما جعل علوم القرآن ثبتًا بالآيات وإعادة تبويب لها طبقًا لموضوعات العلم، أشبه بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن طبقًا لكلماته، وفي وقت لم تكن دُوِّنت فيه المعاجم بعدُ.

وقد أعمل المتأخرون من القدماء بعض العقل في علوم القرآن وأكثرهم شهرة «البرهان» للزركشي (٧٩٤هـ)، و«الإتقان» للسيوطي (٩١١هـ). وكانوا أكثر جرأةً وشجاعةً في تناول حوامل الوحي وليس فقط المحمول. والحوامل هي اللغوية والمكانية والزمانية والاجتماعية والتاريخية والثقافية. الحوامل في الجسد، والمحمول هو الروح. وعلوم القرآن هو التنظير التاريخي لكل موضوعات القرآن؛ لذلك جاءت متأخرة.[١٢]

وهناك قدرة على إبداع المصطلحات ووضع المناهج وتأسيس العلوم بعيدًا عن الوافد. بعضها مستمَدٌّ من علومٍ أخرى خاصة مثل علوم اللغة والبلاغة.

وقد تعرض بعض المحدثين لعلوم القرآن، منها الرصين العلمي، ومنها الفرقعة الإعلامية، ومنها ما بدأ رصينًا علميًّا ثم تحول إلى زوبعةٍ إعلامية. فعلوم القرآن للخاصة وليست للعامة، للجامعات ومراكز الأبحاث وليست للصحف وقنوات الفضاء.[١٣]

---

[١٢] ويذكر السيوطي في مقدمته عدة كتب أخرى مثل:

(١) ابن الجوزي: فنون الأفنان في علوم القرآن.
(٢) علم الدين السخاوي: مجال القرآن.
(٣) أبو شامة: المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز.
(٤) شيذلة: البرهان في مشكلات القرآن، الإتقان، ج١، ١٨.

وعلوم القرآن هي علومٌ تجميعية من علوم اللغة والنحو والبلاغة، معظم أبوابها وفصولها في اللغة؛ فاللغة هي الحامل الأول للوحي قبل الزمان والمكان؛ لذلك هي «علوم» بالجمع مثل «علوم» التصوف و«علوم» الحكمة وليست علمًا بالمفرد مثل «علم أصول الدين» و«علم أصول الفقه». هي علومٌ موسوعيةٌ شاملة ظهرت في عصرٍ متأخر استطاعت تجميع العلوم السابقة عليها، وتعتمد على مئات من الاقتباسات مع علامة «انتهى».

ويتم الاعتماد على الحديث بطريقةٍ أقل لأن الحديث لا يحكم على القرآن، وللقرآن أولوية عليه كما هو الحال في تحليل الأصوليين للمصادر الشرعية الأربعة: القرآن والحديث والإجماع والقياس.[14] ومع ذلك لا يعتمد على حل مشاكل التدوين والقراءات للنص القرآني على الحديث لأن الأدنى لا يحكم على الأعلى في ترتيب الأدلة الشرعية الأربعة. القرآن يحكم على الحديث، ولا يحكم الحديث على القرآن. والرسول مُبلِّغ للقرآن وليس راويًا له، في حين أن المُحدِّث راوٍ للحديث، واحتمال خطأ التدوين في القرآن أقل من احتمال خطأ الرواية في الحديث.

والعلم الثالث هو علم أصول الفقه الذي يعتمد بدوره على علم الحديث في الرواية وعلى علوم اللغة في مباحث الألفاظ، وعلى الفقه في المقاصد والأحكام. فعلم اللغة هو المصدر المشترك بين علم أصول الفقه وعلوم القرآن. ويدخل الفقه في علوم القرآن في معرفة الأحكام الشرعية.

ولا تعتمد علوم القرآن على علم السيرة لأن الرسول مجرد مُبلِّغ للوحي وليس موضوعًا بشخصه كما حدث في علم السيرة، وفي الحقيقة المحمدية في التصوف النظري المتأخر ولدى الطرق الصوفية في الدين الشعبي. ونادرًا ما تظهر علوم التصوف أو علوم الحكمة لأن القرآن علمٌ نقلي في حين أن التصوف تجربةٌ ذوقية، وعلوم الحكمة علومٌ عقلية.

ولما كانت علوم القرآن علومًا داخليةً محضة لبيان حوامل الوحي اللغوية والأدبية والمكانية والزمانية والاجتماعية والثقافية فإن علوم الحكمة التي تعتمد على تفاعل الداخل والخارج لم تكن بذي فائدة ولو أنه تظهر إشارات بين الحين والآخر إلى إخوان الصفا أي إلى ممثلي علوم الحكمة في الداخل وليس إلى سقراط أو أفلاطون أو أرسطو.

[13] حسن حنفي: علوم التأويل بين الخاصة والعامة. قراءة في بعض أعمال نصر حامد أبو زيد، حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٤٣٣–٥١٢.

[14] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، الفصل الأول، الوعي التاريخي، ص٩٩–٢٤٣.

وعلوم القرآن ليست علومًا مقدسة بل تُبين الحوامل اللغوية والثقافية والاجتماعية والزمانية والمكانية للوحي. الوحي المقدس هو العلم الإلهي وحده قبل التدوين. ومنذ تدوينه في اللوح المحفوظ، بصرف النظر عن لغته، أصبح مدوَّنًا في اللغة والزمان والمكان، له حوامله المخلوقة، ومنذ نزول جبريل به في ذهنه واللغة العربية التي تكلم بها وسمعها الرسول، وقد تعين الوحي أكثر فأكثر حتى فهم الرسول له ثم فهم الناس من الرسول بعد سماعه منه. ففي كل مرحلة يزداد التعيُّن، وتكثر الحوامل وتبتعد عن المحمول الأول وهو كلام الله في العلم الإلهي.

علوم القرآن موضوع للدراسة وليست موضوعًا للتقديس. وكلما كثرت الحوامل زاد فهم المحمول. هي موضوع للبحث وليس من عقائد الإيمان كما حدث بعد ذلك بما يزيد على ألف عام في الحضارة الغربية بتأسيسها علم «النقد التاريخي للكتاب المقدس» لإعادة النظر في طرق النقل الشفاهي والنقل الكتابي.[١٥]

وعلوم القرآن تجعل القرآن موضوعًا للعلم، وتُخضع الوحي إلى منطق للنزول ومعرفة حوامله اللغوية لأن اللغة كانت العلم الأول من القدماء مثل العلوم الإنسانية عند المحدثين. وهي مملوءة بالخلافيات، مثل علم الفقه، بالرغم مما يوحي به موضوعها وهو القرآن من اتفاق المسلمين والإجماع عليه. وترجع الاختلافات إلى اختلاف الروايات والقراءات.[١٦] ولا يهم رصد الخلافات حول الحوامل اللغوية والمكانية والزمانية بل دلالاتها على المضمون. وقد تكون خلافاتٍ غير مؤثرة. وذلك مثل الخلافات حول المكي والمدني؛ فالمكي للتصور والمدني للنظام، المكي للعقائد والمدني للشرائع.

ودُوِّنت علوم القرآن في عصر متأخر، كانت الأشعرية في العقائد والشافعية في الفقه قد أصبحتا ثقافةً شعبيةً عامة للعامة والخاصة؛ مما يفسر طغيان الغزالي والشافعي في «البرهان» للزركشي.

وإذا كانت البداية تحليل القدماء فليس لنقله وعرضه بل لتأويله وتجاوزه. نقل القدماء عن بعضهم البعض نصًّا، واقتبس المتأخرون عن المتقدمين نصوصًا بعلامة «انتهى» وزادوا عليها كمًّا. والبداية هنا من مادة القدماء معنًى وتقسيمًا لتأويلها وإعادة بنائها. وقد استعملت طريقة النص الأم، مثل الدولة–القاعدة في السياسة، ثم إضافة باقي النصوص

---

[١٥] ظاهريات التأويل، محاولة تفسير وجودي للكتاب المقدس، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٥م.

[١٦] الإتقان، ص٢٣.

قبله وبعده عليه بعد أن اكتملت بنيته ووضعت معالم العلم. والنص-العمدة في علوم القرآن هو «الإتقان» للسيوطي، ويليه «البرهان» للزركشي، وهي نفس الطريقة التي اتُّبعت في «من النص إلى الواقع» حيث كان النص النموذج «المستصفى» للغزالي، يليه «الموافقات» للشاطبي، في حين اتُّبع في «من الفناء إلى البقاء» تطور النصوص كلها من البداية إلى النهاية، منذ «الرسالة القشيرية» حتى «جامع الأصول» للنقشبندي.

(٤) تطور علوم القرآن

وقد استمرت موضوعات علوم القرآن متناثرةً جزئية قبل اكتمالها في «البرهان» و«الإتقان» وبعدها. وزاد التأليف فيها أكثر من علوم القرآن المكتملة وما زال حتى الآن لدرجة أنها أصبحت موضوعات أو حتى علومًا مستقلة بذاتها عن علوم القرآن.

ونشأت محاولاتٌ تجميعيةٌ كلية مثل «البرهان» و«الإتقان» في «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز» لأبي شامة المقدسي (٦٦٥هـ) و«الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان» لابن قيم الجوزية (٧٥١هـ). لقد نظرت علوم القرآن نفسها بنفسها، وبنت نفسها بنفسها بتطور العلم من المتقدمين إلى المتأخرين، من المشارقة إلى المغاربة، ومن المصاروة إلى الشوام.

(أ) «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز» لأبي شامة المقدسي (٦٦٥هـ)

وهو ما زال يتحسس الطريق حتى من حيث العنوان نحو علوم القرآن.[١٧] هو تصنيف يحتاج إليه أهل القرآن خاصة القراءات السبع، ثم كتابة في عهد الخلفاء والضبط[١٨] وعلم القراءات جزء من علوم القرآن دون أن يستقلَّ عنها بعدُ.

---

[١٧] شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة المقدسي: المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، حققه طيار آلتي فولاج، دار صادر، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

[١٨] «فهذا تصنيفٌ جليل يحتاج إليه أهل القرآن خصوصًا من يُعنى بعلم القراءات السبع ولا يعرف معنى هذه التسمية ولا ماذا نحاه الرسول ... ولا يدري ما كان الأمر عليه في قراءة القرآن وكتابته في حياة النبي إلى أن جُمع بعده في خلافة أبي بكر ثم جُمع في خلافة عثمان ... ولا يهتدي إلى ما فعله كل واحد منهما، وما الفرق بين جمعَيهما، وما الضابط الفارق بين القراءات الشواذ وغيرها» (السابق، ص٦).

وقد أقيم العلم على ستة موضوعات: كيفية نزول القرآن وتلاوته وذكر حفَّاظه وهي القراءة، جمع الصحابة وهو التدوين، معنى قول النبي نزول القرآن على سبعة أحرف وهو القراءة والتفسير، والقراءات السبع المشهورة، والفصل بين القراءة الصحيحة القوية والشاذة الضعيفة المروية، والإقبال على ما ينفع من علوم القرآن والعمل بها، وترك التعمق في تلاوة ألفاظه والغلو بسببها أي التحول من النظر إلى العمل، ومن الرواية إلى الفعل بتعبير المحدثين.[١٩]

فالكتاب على وعي بالحوامل الموضوعية الذاتية أي الرواية والخبر والقراءة والتدوين دون الحوامل الموضوعية، المكان والزمان والوضع الاجتماعي أو الحوامل الذاتية وهي اللغة، اللفظ والمعنى، وأساليب البلاغة، والتفسير، ولا يقل فيه التحليل النظري عن الشواهد النقلية؛ مما يدل على قرب التحول إلى علوم القرآن.

يعتمد على الآيات والأحاديث والأشعار وأعمال السابقين مثل الغزالي، والاستشهاد بمقتطفات من أقواله، وتحلل بصياغاتٍ مختلفة لنفس الحديث مثل حديث نزول القرآن على سبعة أحرف بين الحديث الموضوعي والحديث الخيالي بتدخل جبريل للتخفيف على الأمة والتيسير عليها، وكما هو الحال في الصياغات المتعددة لحديث الفرقة الناجية في علم أصول الدين.[٢٠] ولا يعني الحرف تغير الكلمة فهذا تدوين، إنما يعني الصوت أو الفهم، اللفظ أو المعنى أو الشيء.[٢١] وتساعد الفهارس التحليلية الأخيرة للآيات والأحاديث والأعلام والقبائل والجماعات والأماكن والبلدان والأيام (المواقع) على معرفة مكوِّنات الكتاب.[٢٢]

(ب) «الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان» لابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)[٢٣]

وهي محاولة لوضع علوم القرآن ككل ولكن غلب عليها البيان أي أساليب القول وفنون البلاغة وهي الحوامل الذاتية الخاصة باللغة، وكما يتضح من العنوان وقرن علوم القرآن بعلوم البيان؛ فعلوم القرآن في إطار علوم اللغة.[٢٤]

ويظهر ذلك في قسمة الكتاب إلى ثلاثة أقسام. الأول عن البديع، والثاني عن المعنى، والثالث عن اللفظ مع قلب الترتيب: اللفظ والمعنى والبديع.[٢٥] وأكبرها المعنى.

---

[١٩] السابق، ص٦–٧.

[٢٠] السابق، ص٩–١٠، ٢٣.

[٢١] السابق، ص١١٤.

ثم ينقسم كل قسم إلى أقسام.[٢٦] وكلها على درجةٍ عالية من التنظير اللغوي البلاغي مع القدرة على إيجاد مصطلحات البيان والبديع ومفاهيم البلاغة وفنون القول لدرجة وضع منطق لغة للبيان مع وفرة في التقسيمات وصعوبة العد والإحصاء والتعامل مع المفاهيم. فالفصاحة والبلاغة لها أقسام تضم الحقيقة والمجاز وتبادل الأسماء على المسميات.[٢٧] والمعاني لها أقسام تدل على الصلة بين الانفعالات والأشكال الأدبية كما هو واضح في فنون الخطابة والحوار بين المخاطَبين.[٢٨] والبديع له أقسام تدل جميعها على حسن الخطابة

---

[٢٢] الأحاديث (٦٤). الأعلام: عثمان بن عفان (٥٦)، زيد بن ثابت (٣٣)، ابن عباس، ابن مسعود (٣١)، أبو بكر، عمر (٣٠)، أبي ابن كعب، ابن سلام (٢٦).

[٢٣] الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي: المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت).

[٢٤] «وقد أودع الله سبحانه ألفاظ هذا الكتاب العزيز من ضروب الفصاحة، وأجناس البلاغة، وأنواع الجزالة، وفنون البيان، وغوامض اللسان، وحسن الترتيب والتركيب، وعجيب السرد، وغريب الأسلوب وممدوحه المساغ، وحسن البلاغ، وبهجة الرونق، وطلاوة المنطق؛ ما أذهل عقول العقلاء، وأخرس ألسنة الفضلاء، وألقى بلاغة البلغاء من العذب، وطاشت به حلومهم، وتلاشت دونه علومهم، وكلَّت ألسنتهم الذربة، وأقصرت خطبهم المسهبة، وقصائدهم المغربة، وأراجيزهم المعربة، وأسجاعهم المطربة ...» (السابق، ص٨).

[٢٥] البديع (٩٠)، المعنى (١٣٨)، اللفظ (٤٠).

[٢٦] البديع (٥٤)، المعنى (٨٤)، اللفظ (٢٤).

[٢٧] تنقسم الفصاحة والبلاغة إلى: حدها واشتقاقها والفرق بينهما، والحقيقة والمجاز وأقسام كلٍّ منهما، إطلاق اسم السبب على المسبب، والمسبب على السبب، واسم الفعل على الفاعل، والبعض على الكل والكل على البعض، والفعل على مُقارِبه، والشيء على ما كان عليه ويئول إليه، والمتوهَّم على المتحقق، والظن على الاعتقاد، كما يضم التضمين واللزوم والتجوُّز في الأسماء والأفعال والحروف والاستعارة والتشبيه والتمثيل والإيحاء والاختصار والتقديم والتأخير.

[٢٨] وتنقسم المعاني إلى: التناسب أو التشابه، التكميل، التقسيم، المؤاخاة، الاعتراض والحشو، التفات، العمل على المعنى، الزيادة في البناء، الإطالة والإسهاب، التكرار، القسم، الاقتباس، التذييل، المغالطة، الإشارة، الكناية، التعريض، الاستطراد، التورية، الاحتجاج النظري، حسن المطالع والمبادئ، حسن المقطع، براعة الاستهلال، التخلص والانتقال من فن إلى فن، الاقتضاب، التطبيق، المقابلة، الاحتراس، الاختصاص، الاختراع، الهدم، الاستفهام، المزلزل، التعجب، السلب والإيجاب، الهزل الذي يراد به الجد، التلميح، النسخ والسلخ والمسخ، التعديد، الموجَّه، المحتمل الضدَّين، التجريد، الرجوع والاستدراك، السؤال والجواب، التوهم، التشعيب، الاستثناء، الغرابة والظرافة والسهولة، ما يوهم فسادًا وليس بفساد، النادر والبارد، المساواة

والحوار بين المخاطَبين.[29] فهل هذا التحليل البياني كله استشهاد بالقرآن على اللغة أم استشهاد باللغة على القرآن؟ من يثبت ماذا؟ أين الدليل وأين المدلول؟ فإذا كان تطبيق أساليب البلاغة العربية على القرآن فأين الإعجاز؟

ويعتمد الكتاب على الشعر والحديث.[30] أحيانًا منسوبًا لقائله وأحيانًا يكون مرسلًا مجهولًا. ومرة يذكر الديوان لشهرته دون الشاعر مثل ديوان «الحماسة».[31] والرسول صاحب بلاغة، فقد أوتي جوامع الكلم، وهو من أفصح بلغاء العرب.[32] ويتقدم المتنبي ثم امرؤ القيس وأبو تمام ثم البحتري ثم النابغة ثم زهير ثم أبو نواس. فالشعر مثل القرآن وعاء البلاغة. وذلك مثل قافية الرسول على مستوى المنطق.[33]

(ج) «مناهل العرفان في علوم القرآن» للزرقاني

ويكشف عن استمرار التأليف في علوم القرآن حتى الكتب المقررة في الجامعات والمعاهد الأزهرية بما تتسم به من وضوح وترتيب وعرض للمشاكل، المباحث أقل؛ سبعة عشر بحثًا.

والتقصير، التصريح بعد الإبهام، التعقيب المصدري، النفي والإثبات، الضمائر وما ينطق بها، الفصل والوصل، عطف الجمل بالواو والفاء وثم، الوصف، تنسيق الصفات بغير حق نسق، حسن النسق، المدح والذم، الحمد والشكر، المدح بما يشبه الذم، المبالغة، الرثاء والتعزية، الشكاية، الحكاية، الاقتضاء، التذكير، الوعد والوعيد، العتاب والإنذار، الأعتاب، الاعتذار، تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية، لام التأكيد، الاقتضاء والإفراط والتفريط، الغزل، التشبيب، الاستدراج، خذلان المخاطب، التعليق والإدماج، الاستخدام، التصغير.

[29] مثل: التهذيب، الانسجام، الاشتقاق، الجزالة والرذالة، السهل الممتنع، الرشاقة والجهامة، الفك والسبك، الحل والعقد، الازدواج. تضمين المزدوج، التسجيع، الترصيع، التسميط، التجزيء، التوشيح، براعة المطلب وحسن التوسل، المخالفة، لزوم ما لا يلزم، التخويف، التطريز، ما يُقرأ من الجهتين، رد العجز على الصدر، التسهيل، الاتفاق والاطراد، إعجاز القرآن.

[30] الأشعار (٤٠٠)، الأحاديث (٥١).

[31] الفوائد المشوقة، ص٦٠، ١١٣، ٢٥٩.

[32] السابق، ص١٠٣–١٠٤.

[33] المتنبي (٢٥)، امرؤ القيس، أبو تمام (١٧)، البحتري (١١)، النابغة (٩)، زهير (٨)، أبو نواس (٥)، كثير عزة، أبو فراس، ابن المعتز، الحارث بن حلزة، الحريري (٤)، الفرزدق، الأخطل (٣)، وعشراتٌ آخرون.

تصنف في جزأين: الأول أحد عشر بحثًا، والثاني ستة أبحاث.[٣٤] تجمع المادة العلمية القديمة دون ترتيبٍ خاص. ولكل مبحث خاتمة للاستذكار. والعناوين مطبوعة بالمداد الأحمر من أجل الإبراز والإيضاح والتذكير والتركيز، كما يتسم بالموضوعية وعدم أخذ المواقف الجديدة في الخلافات القديمة. ومع ذلك يدافع عن القرآن؛ فكل خلاف شُبهة، وعلوم القرآن جزء من الدعوة والإرشاد. والكتاب على وعي بالمنهجَين المتَّبعَين: السرد التاريخي، والدفاعي الجدلي. وآثر الكتاب المنهج الثاني دون التنازل عن الوضوح والترتيب والهدوء والغاية التعليمية.[٣٥] وهو الأسلوب الأزهري الذي يعتمد على الدفاع ومخاطبة الطلاب والربط بين الإسلام والعلم الحديث، إنجاز العصر، وتعمق أسرار التشريع. تعريفات الموضوعات إيمانية أكثر منها عقلية للخاصة والعامة، يجيب على الشبهات، ويرقم الحجج والأدلة للإثبات اعتمادًا على تحليل التجارب الطبيعية كما يفعل المعاصرون. ويرد على الخلافات ويعتبرها شبهات وعيوبًا أخلاقية. فأصبح الكتاب وكأنه ساحة حرب؛ كله دفاع، والخلاصة في آخر كل بحث دفاع.[٣٦] والعدو هو الغرب المادي.[٣٧] ويدخل في الثقافة الغربية القديمة والحديثة مثل الفيلسوف أفلاطون والشاعر موسيه.[٣٨]

ويعتمد على مادة القدماء، متكلمين، وأصوليين، وفقهاء، ولغويين، ونحويين مع بعض العلوم المستحدَثة مثل علم الأعداد. وتؤخذ منها اقتباسات تدل عليها العلامة «أ.هـ».[٣٩] يبدأ بتاريخ علوم القرآن المنشور والمخطوط والمفقود. ويتعرض بشجاعة إلى أسباب النزول والناسخ والمنسوخ دون خوف من إبراز الحوامل المكانية والزمانية للوحي. والأدلة من القرآن ثم من الحديث ثم من الشعر، وأحيانًا يتم الاستطراد في إثبات الوحي أو المعجزات

[٣٤] حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، طبق ما قرره مجلس الأزهر الأعلى في دراسة تخصص الكليات الأزهرية. وهو مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين سابقًا. خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، طبعةٌ جديدةٌ كاملة في مجلدٍ واحد. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م/١٤٢٤هـ.

[٣٥] السابق، ص٣–١٣.

[٣٦] السابق، ص٢٦، ١٦٠، ١٧٥، ٢١٨.

[٣٧] السابق، ص٣، ١٣.

[٣٨] السابق، ص٤٥.

[٣٩] السابق، ص٣٤.

بالمعنى التقليدي، خرق قوانين الطبيعة، وليس بالمعنى الجديد، الإعجاز اللغوي والبلاغي والتشريعي.[٤٠]

وعلوم القرآن في شكلها النهائي الكامل من العلوم المتأخرة للغاية بالرغم من أن القرآن هو المعطى الأول للوحي، وسابق على نشأة كل العلوم. كان علم الكلام أسبق لحاجته في النزاع السياسي الذي نشأ حول الخلافة والإيمان.[٤١] وكان التصوف سابقًا لأنه رد فعل على الاتجاه نحو العالم والصراع على الدنيا.[٤٢] ونشأ علم أصول الفقه مبكرًا لحاجته في استنباط الأحكام «الأشباه بالأشباه والنظائر بالنظائر».[٤٣] الفلسفة هي التي تأخرت إلى القرن الثالث إلى ما بعد الترجمة في القرن الثاني.

وأهم مؤلَّفَين كاملَين في علوم القرآن: «البرهان» للزركشي (٧٩٤هـ) و«الإتقان» للسيوطي (٩١١هـ).

(د) «البرهان» للزركشي (٧٩٤هـ)

ونظرًا لأهمية علم التفسير كمادةٍ أولى لعلوم القرآن يخصص «البرهان» الفصل الأول في المقدمة له.[٤٤] ويحتاج إلى عدة علوم من علوم القرآن مثل اللغة والنحو والصرف والبيان وأصول الفقه والقراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ[٤٥] وتتعدد مناهج التفسير كمًّا بين مختصر ومبسوط، ومناهج، فكل تفسير يغلب عليه حكم أو اتجاه؛ مثل «الغريب» لدى الزجاج والواحدي، والقصص لدى الثعلبي، والبيان عند الزمخشري، والكلام وباقي العلوم العقلية عند فخر الدين الرازي.[٤٦] والدافع على علم التفسير كمال فضيلة المصنف وقدرته على إظهار المعاني الخفية، وبيان بعض مقدمات الأقيسة أو شروطها، وتوضيح معاني الألفاظ المجازية أو بالاشتراك.[٤٧]

---

[٤٠] السابق، ص٢٧–٢٨.

[٤١] من العقيدة إلى الثورة ج١، المقدمات النظرية، ص١٢١–١٢٦.

[٤٢] من الفناء إلى البقاء ج١، الوعي الموضوعي.

[٤٣] هو قولٌ مقتبَس من رسالة عمر إلى الليث بن سعد، من النص إلى الواقع ج١، تكوين النص، ص٢٣–٢٤.

[٤٤] البرهان ج١، ١٣–١٦.

[٤٥] السابق، ص١٣.

[٤٦] السابق، ج١، ص١٣.

[٤٧] السابق، ج١، ص١٤.

وتشمل علوم القرآن علومًا عديدة.[٤٨] وقد يعني تعدد العلوم تعدد التأويلات. فلكل كلمة ظاهر وباطن، حد ومصطلح. وقد تكون العلوم الثلاثة: توحيد وتذكير وأحكام، التوحيد هو علم الكلام، والتذكير أقرب إلى التصوف، العود والتصفية، والأحكام أقرب إلى الفقه والتكاليف والمنافع والمضارِّ.[٤٩] وهي متضمنة في الفاتحة. وقد تكون العلوم الثلاثة التوحيد والنبوة والتكليف أي العقيدة والشريعة. وقد تكون العلوم أربعة: أمر ونهي وخبر واستخبار. وقد تكون ستة بإضافة الوعد والوعيد. وكلها منطق الألفاظ. وقد تتعدد العلوم إلى أربعين أي كل موضوعات القرآن، وصياغاتها اللغوية، وأشكالها الأدبية. وقد تكون العلوم الأربعة: الإعراب وهو في الخبر، والنظم وهو في القصد، والتصريف في الكلمة، والاعتبار ويتضمن الاستنباط والاستدلال.

وطبقًا لأسماء الأعلام الواردة في «البرهان» يأتي الزمخشري أولًا؛ مما يدل على أولوية علم التفسير، ثم سيبويه وابن جني؛ مما يدل على أهمية علم اللغة بعد علم التفسير، ثم يأتي مؤسسو علوم القرآن مثل: أبو علي الفارسي وأبو جعفر النحاس، والواحدي، ومن المُحدِّثين أحمد بن حنبل ثم البخاري ثم الترمذي، ومن الفقهاء أبو حنيفة ثم ابن العربي ثم ابن عبد البر ثم الطرطوشي، ومن المتكلمين الجويني ثم الآمدي، ومن الصحابة ابن عباس ثم ابن مالك ثم ابن مسعود، ومن الصوفية الأخلاقيين أبو الحسن البصري ثم القشيري، ومن الشعراء المتنبي ثم أبو تمام، ومن الخلفاء عثمان ثم عمر ثم أبو بكر، ومن الأنبياء محمد ثم موسى ثم عيسى ثم إبراهيم ثم يوسف ثم آدم.[٥٠]

---

[٤٨] السابق، ج١، ١٦. خمسون أو سبعة آلاف أو سبعون ألف علم على عدد أحكام القرآن وضروبه في أربعة (السابق، ص١٧).

[٤٩] السابق، ص١٧–٢١.

[٥٠] من المفسرين: الزمخشري (١٢١)، أبو حيان النحوي (١٩)، الجرجاني (١٣)، السجستاني (١١). ومن اللغويين: سيبويه (٩٤)، ابن جني (٥٨)، الفراء (٤١)، المبرد (٣٥)، الزجاج (٢٨)، الكسائي (٢٧)، السكاكي، أبو البقاء (٢٤)، البطليوسي (١٠)، السيرافي (٧). ومن علماء القرآن: أبو علي الفارسي (٦٧)، أبو جعفر النحاس (٤٧)، الواحدي (٣١)، ومن المحدِّثين: أحمد بن حنبل (٢)، البخاري (١٩)، الترمذي (١٠)، النووي (٧). ومن الفقهاء: أبو حنيفة (١٥)، ابن العربي (١٣)، ثم الماوردي (١٢)، ابن عبد البر (١١)، الطرطوشي (٦)، ومن المتكلمين: الجويني (١٢)، الآمدي (٤)، ومن الصحابة: ابن عباس (٨٢)، ابن مالك (٥٧)، ابن مسعود (٥٦)، أُبي ابن كعب (٢٩)، مجاهد (١٨)، زيد بن ثابت (١٤)، مقاتل بن سليمان (١٠)، ومن الشعراء: المتنبي (٥)، أبو تمام (٤)، ومن الصوفية: أبو الحسن البصري (١٧)،

ومن الفرق يتقدم الصحابة؛ مما يدل على ارتباط علوم القرآن بالمرويات، ثم الكوفيون ثم البصريون أهم مدرستَين في تكوين علوم اللغة، ثم اليهود والنصارى مقارنة بأصحاب الكتب المقدسة السابقين، ثم الأنصار.[٥١] ومن الفرق الإسلامية المعتزلة أولًا أصحاب المدرسة العقلية المتميزة في العلوم الإسلامية ثم الإسماعيلية والصوفية. ومن القبائل تتقدم قريش ثم بنو تميم ثم ثقيف ثم هوازن ثم ربيعة ثم قيس ثم هذيل.[٥٢] ومن الأمم بنو إسرائيل أصحاب التدوين السابق.[٥٣]

ويعتمد «البرهان» على عديد من الكتب السابقة. يتقدمها «الكشاف» للزمخشري ثم باقي كتب الزمخشري الأخرى مثل «الكشاف القديم» و«المفصل» ثم تفسير الرازي ثم تفسير البغوي ثم الطبري. ومن كتب اللغة يتقدم الكتاب لسيبويه ثم «فقه اللغة» لابن فارس ثم «المحتسب» لابن جني و«منهاج البلغاء» لحازم القرطاجني، ثم الكامل للمبرد و«القد» لابن جني. ومن كتب الحديث يتقدم صحيح البخاري ثم صحيح مسلم ثم مسند ابن حنبل ثم سنن أبي داود. ومن كتب علوم القرآن يتقدم إعجاز القرآن للباقلاني ثم فضائل القرآن لأبي عبيد ثم الانتصار للباقلاني. ومن كتب الكلام يظهر شُعب الإيمان للبيهقي. ومن كتب الفقه الرسالة للشافعي والعمدة للطرطوشي. ومن كتب تصنيف العلوم مفتاح العلوم للسكاكي.[٥٤]

القشيري (٥). ومن الأنبياء: محمد (١٩٧)، موسى (٥٠)، عيسى (١٤)، إبراهيم (١٩)، يوسف (١١)، وآدم (٧)، ومن الخلفاء: عثمان (٣٢)، عمر (٢٦)، أبو بكر (٢٣).

[٥١] من الفرق: الصحابة (٢٩)، الكوفيون (٢٨)، البصريون (٢٤)، اليهود (٢٢)، النصارى (٦)، الأنصار (٤)، الحنفية (٢)، الإسماعيلية، الصوفية (١).

[٥٢] من القبائل: قريش (١٧)، بنو تميم (١٠)، ثقيف (٧)، هوازن، ربيعة (٤)، قيس (٣)، هذيل (٢).

[٥٣] من الأمم: بنو إسرائيل (٨).

[٥٤] كتب التفسير: الكشاف للزمخشري (٢٠٤)، الكشاف القديم للزمخشري (٩)، تفسير الرازي، تفسير البغوي (٦)، المفصل للزمخشري (٦)، تفسير الطبري (٤). كتب اللغة: الكتاب لسيبويه (٥٩)، فقه اللغة لابن فارس (١٣)، منهاج البلغاء لحازم الأندلسي (١٠)، الكامل للمبرد (٧)، المحتسب لابن جني (٥)، الخاطريات لابن جني (٤)، القد لأبي الفتح بن جني (٥). كتب الحديث: صحيح البخاري (٣٢) صحيح مسلم (٢٠)، المستدرك للحاكم (١٢)، المسند لابن حنبل (٧)، سنن أبي داود (٤). كتب أحكام القرآن: إعجاز القرآن للباقلاني (١٣)، فضائل القرآن لأبي عبيد، الانتصار للباقلاني (٨)، إعجاز القرآن للخطابي (٤)، أحكام القرآن لابن العربي (٢)، دلائل الإعجاز للجرجاني (٣). كتب الكلام: شعب الإيمان للطرطوشي (٣). كتب تصنيف العلوم: مفتاح العلوم للسكاكي (٨).

ومن الأشعار في «البرهان» تزيد الشواهد الشعرية على المائة. والإعجاز حوالي عشرة.[٥٥] ومن الشعراء يتقدم المتنبي وامرؤ القيس، ثم جرير وذو الرمة وطرفة، ثم أمية ابن أبي الصلت والفرزدق والمجنون ثم الكميت.[٥٦]

ويستشهد بالأشعرية والأشعري على القول بامتناع كون القرآن سجعًا[٥٧] كما يستشهد بالأشعري بقوله إن القرآن مشتق من قرنت الشيء بالشيء لضم السور والآيات والحروف كما يقال قران للجمع بين الحج والعمرة.[٥٨] ونفى الأشعري أن يكون في القرآن شيء أفضل من شيء.[٥٩] والأشعري من القراء وجماعة أهل المعاني، أن معنى ﴿اسْتَوَى﴾ أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه دون تعطيل وتشبيه.[٦٠] وكذلك وجود الله في السموات والأرض أي العلم. في حين أن الأشعري يجعل اليد صفة وليست مجرد القدرة في آية ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.[٦١] وفي الإعجاز أقل ما يُعجز عند الأشعري السورة قصيرةً أم طويلة.[٦٢] وكل سورة عُلم أنها معجزة يعجز البشر عنها. ويعلم الإعجاز ضرورة. وعند الأشعري كل لام نسبها الله لنفسه فهي للعاقبة والصيرورة دون التعليل لاستحالة الغرض.[٦٣]

ويستشهد بقول الحسن البصري بأن علم القرآن ذكر لا يعلمه إلا الذكور من الرجال.[٦٤] ويستشهد بقوله في أسباب النزول إن الإباحة فيما سلف وليس فيما هو آتٍ.[٦٥] وأن القرآن من أمر الله إذا شاء رفعه. ويستشهد بالحسن بأن ما في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا

---

[٥٥] عدد الشواهد الشعرية (١٠٩)، الإعجاز (٩).

[٥٦] الشعراء: المتنبي، امرؤ القيس (١٠)، الفند الزماني (٦)، جرير، طرفة (٥)، ذو الرمة، أمية ابن أبي الصلت، الفرزدق، المجنون (٤)، الكميت، ابن زبانة، عبد الله بن الزبعرى، النابغة الجعدي، العرندس، القاضي التنوخي، أنيف بن خريط (٢).

[٥٧] البرهان ج١، ٥٤.

[٥٨] السابق، ص٢٧٨.

[٥٩] السابق، ٤٣٨، ٤٤٠.

[٦٠] السابق، ج٢، ٨٢، ٨٣.

[٦١] السابق، ص٨٥.

[٦٢] السابق، ص١٠٨–١١١.

[٦٣] السابق، ص٣٤٦.

[٦٤] السابق، ج١، ٧.

[٦٥] السابق، ص٢٨، ج٤، ٤٥.

النَّاسُ﴾ مكي، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في المدينة.[٦٦] وعَدَّ حروف القرآن بالشعير فأجمع مع رفاق أن كلماته ٧٧٤٣٩ كلمة وعدد حروفه ٣٠٠٢٣٠٠٠.[٦٧] ويستشهد به في تفسير آية ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي ميقاتهم،[٦٨] ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي عصمهم. ويستشهد به في القراءات العشر.[٦٩] وفي قراءته آية ﴿لِيُرِيَهُ﴾، ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾. ويستشهد به في القراءات.[٧٠] ويعتمد على الحسن للتوفيق بين آيتين.[٧١] وأيضًا رده على تفسير أبي العالية ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ في الاختلاف في وجوه الإعجاز.[٧٢] وهو من التابعين الذين يؤخذ عنهم التفسير.[٧٣] وفي تفسير حديث الآية والظهر والبطن والحد والمطلع البحث عن الظاهر يؤدي إلى الباطن.[٧٤] ويعتمد عليه في إطلاق اسم الحالِّ على المحل أي الرؤية في العين.[٧٥] ويستشهد به في قوله «لولا أني مأذون لي في ذكر اسمه لربأت به عن مسلك الطعام والشراب.» وهو الفم.[٧٦] وفي الصفات يعتمد على الماتريدي في أن الصفة تأتي لازمة لا للتقييد جمعًا بين إثبات الصفات عند الأشاعرة ونفيها عند المعتزلة بين التشبيه والتنزيه.[٧٧] ويذكر قول النظَّام في وجه الإعجاز وهي نظرية أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدورًا لهم ولكن عاقهم أمرٌ خارجي فصار كسائر المعجزات.[٧٨]

---

[٦٦] السابق، ص١٩١.

[٦٧] السابق، ص٢٤٩.

[٦٨] السابق، ص٢٩٤، ج٣، ٤٣٧.

[٦٩] السابق، ص٢٣٥، ج٣، ٣٢٢، ٣٥٣.

[٧٠] السابق، ص٣٤٩.

[٧١] السابق، ج٢، ٤٥، هما ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾.

[٧٢] السابق، ج٢، ١٠٥.

[٧٣] السابق، ص١٥٨.

[٧٤] السابق، ص١٦٩.

[٧٥] السابق، ص٢٨٢.

[٧٦] السابق، ج٣، ١٤٥.

[٧٧] السابق، ج٢، ٤٣٠. وذلك في تفسير آية ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾.

[٧٨] السابق، ج٢، ٩٣–٩٤.

ومن الفرق تتقدم الأشعرية وقولهم بامتناع كون القرآن سجعًا نقلًا عن الباقلاني. وينقل حديث الرسول فيهم «هم مني وأنا منهم».[٧٩] وعن الأشاعرة تجسد العالم بخطاب «يكن». وعن الحنفية التكوين أزليٌّ قائم بذات الباري، وهو تكوين لكل أجزاء العالم عند وجوده لأنه لا يوجد عنده كاف ونون. وجمع السرخسي بين الرأيَين.[٨٠] ويذكر المعتزلة في نفى الشفاعة.[٨١] وكل سورة برأسها عن المعتزلة معجزة.[٨٢] وينفي المعتزلة الرؤية في الدنيا والآخرة بناءً على أداة النفي «لن» التي تفيد المستقبل في آية ﴿لَنْ تَرَانِي﴾.[٨٣] كما يفضلون الملائكة على البشر.[٨٤]

ومن التصوف يذكر تفسير الجنيد لآية ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أن الله لا يتعجب من شيء ولكن يوافق رسوله.[٨٥] ويستشهد بأبي عبد الرحمن السلمي بأن قراءة القرآن عن كتبة الوحي كانت توقيفيةً واحدة.[٨٦] وكذلك يستشهد بقول المحاسبي في كتاب فهم السنن أن كتابة القرآن ليست محدثة أي أنها كانت توقيفيةً.[٨٧] على عكس قول المعتزلة في خلق القرآن. ويستشهد بذي النون المصري وقوله: «أبى الله عز وجل إلا أن يحرم قلوب البطالين مكنون حكمة القرآن.» ويستشهد بأبي الحسن الشاذلي في الجمع بين آيتَي ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.[٨٨] ويرفض تأويله الصوفي للنسخ بالولاية في آية ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.[٨٩] ويستشهد بقول ذي النون: «أبى الله عز وجل إلا أن يحرم قلوب البطالين مكنون حكمة القرآن.»[٩٠] الاستشهاد بقول سفيان الثوري: «لا يجتمع

---

[٧٩] السابق، ج١، ٥٤. ج٣، ٣٠٢.

[٨٠] السابق، ص٢٥٢.

[٨١] السابق، ج١، ١٢٤.

[٨٢] السابق، ج٢، ١٠٨.

[٨٣] السابق، ص٤٢٠-٤٢١.

[٨٤] السابق، ج٣، ٢٦٩.

[٨٥] السابق، ج٢، ٨٩.

[٨٦] السابق، ج١، ٢٣٧-٢٣٨.

[٨٧] السابق، ص٧.

[٨٨] السابق، ج٢، ٥٧.

[٨٩] السابق، ص١٦٠.

[٩٠] السابق، ج١، ٧.

فهم القرآن والاشتغال بالحطام في قلبٍ أبدًا.»[٩١] ويُحال إليه في خواص القرآن في قضاء الحاجات. فقد كان سفيان الثوري يكتب للمطلقة رقعة تُعلَّق على صدرها ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ❋ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ❋ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ❋ وَأَلْقَتْ﴾.[٩٢] وفي تفسير آيات الاستواء بعضها بعض ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾.[٩٣] ويذكر الثوري مجرد راوٍ.[٩٤] ويستشهد بالغزالي في اعتباره الحروف التي في أوائل السور جعلها الله لحفظ القرآن من الزيادة والنقصان.[٩٥] ويروى أن رجلًا في أصبهان أصابه عسر البول فكتب في رقية ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ❋ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾، ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾. (دكًّا دكًّا) وألقى عليه الماء وشربه فيسر عليه البول، وألقى الحصى. وبنى الغزالي كتابه «جوهر القرآن» على أن كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره. وشرح الغزالي حديث إن لكل شيء قلبًا، وقلب القرآن «يس» التي تحتوي على الحشر والنشر. واستحسنه فخر الدين الرازي.[٩٦] ولدى الغزالي القراءة في المصحف أفضل من حفظه ظهرًا عن قلب دون أن يتدبر في المعنى.[٩٧] وذكر الغزالي أن آيات الأحكام خمسمائة آية.[٩٨] ويشرح قول الغزالي معنى الاختلاف في آية ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ بأن المقصود ليس الاختلاف في ذات القرآن بل في فهمه.[٩٩] ويلجم العوام عن علم الكلام.[١٠٠] ويفسر الغزالي آية ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلاة بمعنى الرحمة.[١٠١]

وفي موضوع على كم لغة نزل القرآن والقراءات السبع يروى عن الصوفية أن القرآن يشتمل على سبعة أنواع من العبادات والمعاملات وهي الزهد والقناعة مع اليقين،

---

[٩١] السابق، ج١، ٦.
[٩٢] السابق، ج١، ٤٣٤–٤٣٥.
[٩٣] السابق، ج٢، ٧٨.
[٩٤] السابق، ص١٦٤.
[٩٥] السابق، ج١، ٤٣٤–٤٣٩.
[٩٦] السابق، ص٤٤٤.
[٩٧] السابق، ص٤٦١.
[٩٨] السابق، ج٢، ٣.
[٩٩] السابق، ص٤٦–٤٨.
[١٠٠] السابق، ص٧٩.
[١٠١] السابق، ص٤٧٤.

والحزم والخدمة مع الحياء، والكرم والفتوة مع الفقر، والمجاهدة والمراقبة مع الخوف، والرجاء والنصح والاستغفار مع الرضا، والشكر والصبر مع المحاسبة والمحبة، والشوق مع المشاهدة. فقراءات الصوفية مقاماتهم وأحوالهم.[١٠٢]

ويظهر التوحيدي لغويًّا يعتبر كسر الطاء مرذولًا في السور الطوال.[١٠٣] ويستشهد به في الفهم المحسوس لآية ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أنه القيام بالحال.[١٠٤] ويستشهد به راويًا عن إعجاز القرآن في استحالة معرفة وجه الإعجاز إلا بالأثر النفسي. ويستشهد به في شرح لفظ «حلوبة».[١٠٥] وأكثر الاعتماد على «البصائر».[١٠٦]

وفخر الدين الرازي أحد الأئمة المفسرين.[١٠٧] له تفسيره. وله كتاب في معرفة المناسبات بين الآيات. فقد صرح في تفسيره بأن أكثر لطائف القرآن مودوعة في الترتيب والروابط. كما صنَّف في علم المتشابه «درة التأويل». ويذكر قوله بتفاوت الناس في أولوية الشفاعة والعدل. البعض يجعل الأولوية للشفاعة على العدل، والبعض الآخر للعدل على الشفاعة. وقال إنه لا يجوز رد كلام لعدم فهم الخلق له.[١٠٨] وقوله هو قول أكثر المتكلمين في شرح الحروف في أوائل السور، التمييز بينها وبين السور. وعند الرازي «يا أيها الناس» مكي، و«يا أيها الذين آمنوا» مدني.[١٠٩] واستحسن الرازي قول الغزالي مفسرًا حديث «إن لكل شيء قلبًا، وقلب القرآن يس.» لأنها السورة الجامعة لصحة الإيمان بالحشر والنشر.[١١٠] ويرى الرازي أن المِثْل هو المساوي للشيء والمَثَل هو المساوي له في بعض الصفات الخارجية.[١١١] ويرى أن إعجاز القرآن الفصاحة والأسلوب والسلامة من العيوب. وكل ذلك مقرونًا بالتحدي.[١١٢]

---

[١٠٢] السابق، ج١، ٢٢٦.

[١٠٣] السابق، ج١، ٢٤٤.

[١٠٤] السابق، ص٣٠٦.

[١٠٥] السابق، ج٢، ١٠٠.

[١٠٦] السابق، ج٣، ٣٦٣.

[١٠٧] السابق، ج١، ١٣، ٣٥–٣٦، ١١٢، ٢٦.

[١٠٨] السابق، ص١٧٣–١٧٥.

[١٠٩] السابق، ص١٩١.

[١١٠] السابق، ص٤٤٤.

[١١١] السابق، ج١، ٤٩١.

[١١٢] السابق، ج٢، ٩٨.

ويستشهد باستشهاد الرازي بالشعر على العموم والخصوص.[١١٣] وجعل الرازي البيت جميع الحرم وليس الكعبة في تفسير آية ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.[١١٤] وهو الإمام صاحب «نهاية الإيجاز» راويًا عن الشيخ عبد القاهر ما يتعلق بنفي العموم.[١١٥] ويفسر الرازي (بدين) بيع الكالئ بالكالئ وهو موضوعٌ فقهيٌّ خالص.[١١٦] ويميز الرازي بين نوعَين من التقوى في آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾.[١١٧] ولا يوجد زائد أو مهمل في القرآن.[١١٨] وأنكر الرازي احتياج كلام الله إلى تقدير.[١١٩] ويفسر الرازي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أنه كامل في ذاته.[١٢٠] وعند الرازي الاستعارة ليست بمجاز لعدم النقل بل تشبيهٌ محذوف الأداة لفظًا وتقديرًا.[١٢١] وفصاحة القرآن ليست رعاية التكلفات، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ.[١٢٢] والرازي في مناقب الشافعي حكى أن معنى الآية العبرة في ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ أفضل من «كان».[١٢٣] ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ في المضارع لأنه أُوِّل على التجدد. والمفرد المحلى بالألف واللام لا يعم.[١٢٤] ويترتب على التعلم حصول العلم.[١٢٥] وفسر الآية ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾. على الامتناع[١٢٦]

ومن المذاهب الفقهية يتقدم الشافعية والمالكية موضوع القراءة الشاذة. فاشترط شيخ الشافعية أن يكون المقروء به على تواتر نقله مثل القراءات السبع.[١٢٧] وصورة ابن حزم أنه

---

[١١٣] السابق، ص٢٢٤.

[١١٤] السابق، ص٢٦٦.

[١١٥] السابق، ص٣٧٨.

[١١٦] السابق، ص٣٩٨-٣٩٩.

[١١٧] السابق، ج٣، ١٢.

[١١٨] السابق، ص٢٢.

[١١٩] السابق، ص١١٥.

[١٢٠] السابق، ج٣، ٢٧٧.

[١٢١] السابق، ص٤٣٤.

[١٢٢] السابق، ص٤٥٢.

[١٢٣] السابق، ج٤، ٥٦، ٧١.

[١٢٤] السابق، ٤٨٩.

[١٢٥] السابق، ص١٤١.

الفقيه وليس المتكلم. ويُحال إلى «المحلى».[١٢٨] ويستشهد به كلغويٍّ مُفسِّر للقرآن في ضمير الآية ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾.[١٢٩]

ومن أسماء الأمم والقبائل والفرق يتقدم الصحابة؛ مما يدل على اعتماد علوم القرآن على النقل، ثم الكوفيون والبصريون أهم مدرستَين فكريتَين بين المنقول والمعقول، ثم يأتي «اليهود» باعتبارهم أصحاب تجربةٍ سابقة مع الوحي، ثم تأتي قريش بداية تكوين المجتمع الإسلامي، ثم النصارى؛ المصدر الثاني، ثم من القبائل تظهر بنو تميم، ومن الفرق: الإسماعيلية، والشافعية، والصوفية، والمالكية.[١٣٠]

ومن أسماء الأماكن تتقدم مكة ثم المدينة مدينتا نزول الوحي، ثم بدر أول موقعة، ثم البصرة والشام، ثم الكوفة، ثم العراق وبيت المقدس وبغداد ودمشق بانتقال الحكم من الجنوب إلى الشمال، ثم انتقال العلم إلى الشرق مرة وأصفهان.[١٣١]

ومن الوافد لا يكاد يذكر إلا أرسطوطاليس مرةً واحدة في كتاب الخطابة في كون الصفة خاصةً بالموصوف، وبالتالي امتناع خرق الموصوف. وهو ما نصَّ عليه سيبويه في باب ترجمة «هذا باب مجاري أواخر الكلمة العربية» وكذلك نصَّ عليه أرسطوطاليس في كتاب الخطابة.[١٣٢] فالموروث أولًا ثم الوافد ثانيًا. الوافد تأكيد للموروث وليس دليلًا بذاته.

ويقدم «البرهان في علوم القرآن» للزركشي سبعة وأربعين نوعًا يمكن ضمُّها في عدد أقل؛ عشرة فقط.[١٣٣]

---

[١٢٦] السابق، ج٣٦٦.

[١٢٧] السابق، ج١، ٣٢٢.

[١٢٨] السابق، ج٢، ١٢٨.

[١٢٩] السابق، ج٤، ٣٩.

[١٣٠] الصحابة (٢٩)، الكوفيون (٢٨)، البصريون (٢٤)، اليهود (٢٢)، قريش (١٧)، النصارى (١١)، بنو تميم (١٠)، بنو إسرائيل (٨)، ثقيف (٧)، المعتزلة (٦)، الأنصار، هوازن، ربيعة (٤)، خزاعة، سعد بن بكر، قيس (٣)، الحنفية، هذيل، مُضر، الأشعرية، عاد، الروم، العجم، فارس، آل فرعون، قوم نوح، أصحاب الأيكة، جشم بن بكر، بنو الحارث، بنو دارم، بنو زريق، كنانة، بنو مالك، بنو المصطفى، بنو المغيرة، المهاجرون، بنو نصر.

[١٣١] مكة (٣٨)، المدينة (٣١)، بدر (٩)، البصرة، الشام (٨)، الكوفة (٧)، العراق، الكعبة (٦)، بيت المقدس (٥)، مدين، مصر (٤)، بغداد، الحجاز، دمشق، الصفا، الطائف (٣)، أصبهان، الحديبية، قباء، المروة، نجران (٢) … إلخ.

ويمكن تجميعها في عددٍ أقل، تسعة أنواع مقسَّمة إلى ثلاثة. [134] ومن حيث الكم أكبر الموضوعات في «أساليب القرآن وفنونه البليغة» ثم «المفردات من الأدوات» ثم «تفسيره وتأويله» ثم «أقسام معنى الكلام» ثم «مرسوم الخط» ثم «الفواصل ورءوس الآي» ثم الحقيقة والمجاز والتشابه وأدب التلاوة، وتحليل الخطاب، والإعجاز، والوقف والابتداء،

---

[132] البرهان ج٣، ١٥٤.

[133] وهي: (١) المكان: أسباب النزول، أول ما نزل، كم لغةً نزل، كيفية إنزاله. (٢) الزمان: المكي والمدني، الناسخ والمنسوخ. (٣) التدوين: المناسبة بين الآيات، الفواصل، أسرار الفواتح، خواتم السور، تقسيمه، أسماؤه، الخط، التواتر، تعضيد السنة للكتاب. (٤) الفهم: المتشابه، المتشابهات في الصفات، الحقيقة والمجاز. (٥) النقل الشفاهي: جمعه وحفظه، الوقف، آداب التلاوة. (٦) اللغة: ما وقع فيه من غير لغة الحجاز، من غير لغة العرب، غريبه، التصريف.(٧) الأحكام: توجيه القرآن. (٨) البلاغة: فصاحة التركيب، أمثاله، جدله، الإعجاز، وجوه المخاطبات، الكنايات والتعريض، معنى أقسامه، أساليبه، أدواته. (٩) الفضائل: خواصه، أفضل شيء. (١٠) استعماله في الخطب والرسائل. (١١) التفسير. البرهان، ص١١–١٣.

[134] (١) الواقع:

(أ) المكان: (أ) المكي والمدني، وما نزل بمكة وما نزل بالمدينة وترتيب ذلك. (ب) الزمان: ٣٤ ناسخة ومنسوخة. (جـ) الموقف: (١) أسباب النزول.

(٢) النص:

(أ) الرواية: (١٣) جمعه وحفظه من الصحابة. (ب) القراءة (١١) على كم لغة نزل. (٢٣) توجيه القراءات ووجه ما ذهب إليه كل قارئ. (٣٤) الوقف والابتداء. (جـ) التدوين: (٢) المناسبات بين الآيات. (٣) الفواصل ورءوس الآي، (١٠) أول وآخر ما نزل. (١٢) كيفية إنزاله. (١٤) تقسيمه بحسب سوره وترتيب الآيات والسور وعددها، أسماؤه واشتقاقاتها. (٢٥) مرسوم الخط (٣٩) تواتره. (٤٠) معاضدة السنة للقرآن.

(٣) اللغة:

(أ) الألفاظ والمعاني: (١٦) ما وقع فيه من غير لغة أهل الحجاز وقبائل العرب. (١٧) ما فيه من غير لغة العرب. (١٨) غريبه. (١٩) التصريف. (٢٠) الأحكام من حيث الإفراد والتركيب. (٣٢) أحكامه. (٣٣) جدله. (٣٦) المحكم والمتشابه. (٣٧) كلمة الآيات المتشابهة الواردة في الصفات. (٤٢) وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن. (٤٣) حقيقته ومجازه. (٤٧) المفردات من الأدوات.

(ب) أساليب البلاغة: (٢١) كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح. (٢٢) اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص أو تغيير حركة أو إثبات لفظ بدل لفظ. (٣١) أمثاله. (٣٨) الإعجاز. (٤٤) الكناية والتعريض. (٤٥) أقسام معنى الكلام. (٤٦) أساليب القرآن وفنونه البليغة.

(جـ) التفسير: (٣٥) الموهم والمختلف. (٤١) تفسيره وتأويله.

وتقسيمه سُوَرًا أو آيات ... إلخ. الأهم هو اللغة كحامل للوحي وأداة لتعبيره.[١٣٥] ونظرًا لأن أهم عملَين في علوم القرآن جاءا متأخرَين «البرهان» للزركشي (٧٩٤هـ)، و«الإتقان» للسيوطي (٩١١هـ) جاءت المقدمتان مملوءتَين بالسجع.[١٣٦]

(هـ) «الإتقان» للسيوطي (٩١١هـ)

يضم مادةً تجميعية، يعتمد فيها اللاحق على السابق ولها الأولوية على باقي العلوم مثل التفسير، وعلوم اللغة والبلاغة، وعلم الحديث، والفقه وأصوله، والعقائد، والتاريخ والنصوص، وتصنيف العلوم.[١٣٧] وتتعدد المؤلفات في «أحكام القرآن» وأخلاق حملة القرآن

[١٣٥] النوع السادس والأربعون «في أساليب القرآن وفنونه البليغة» (٦٠٢ ص)، النوع السابع والأربعون «المفردات من الأدوات» (٢٧٧)، النوع الواحد والأربعون «تفسيره وتأويله» (٧١)، النوع الخامس والأربعون «أقسام معنى الكلام» (٦٦)، النوع الخامس والعشرون «مرسوم الخط» (٥٦)، النوع الثالث «الفواصل ورءوس الآي» (٤٩)، النوع الثالث والأربعون «حقيقته ومجازه» (٤٥)، النوع الخامس «المتشابه» (٤٤)، النوع التاسع والعشرون «في آداب تلاوته وكيفيتها» (٤٢)، النوع الثاني والأربعون «وجوه الخطابات والخطاب في القرآن» (٣٨)، النوع الثامن والثلاثون «إعجازه» (٣٥)، النوع الرابع والعشرون «الوقف والابتداء» (٣٤)، النوع الرابع عشر «تقسيمه بحسب سوره وترتيب السور والآيات وعددها» (٢٩)، النوع الثاني والعشرون «زيادة الألفاظ أو نقصها أو تبديلها»، النوع الثاني والثلاثون «أحكامه» (٢١)، النوع التاسع «المكي والمدني ...» (١٩)، النوع الثاني «المناسبات بين الآيات»، والسابع «أسرار فواتح السور»، والحادي عشر «على كم لغة نزل» (١٨)، النوع الرابع والثلاثون «الناسخ والمنسوخ»، النوع الأربعون «معاضدة السنة للقرآن» (١٧)، النوع الرابع والأربعون «الكناية والتعريض» (٢٦)، النوع السابع والثلاثون «الآيات المتشابهة» (١٣)، وتتوالى الأنواع الباقية من ص٢–١١.

[١٣٦] البرهان ج١، ٣–١٢.

[١٣٧] منها: فضائل القرآن لأبي عبيد (٣١)، المصاحف لابن أشته (٢٠)، مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (١٨)، البرهان في علوم القرآن للزركشي، الغرائب والعجائب للكرماني (١٧)، بدائع القرآن لابن أبي الأصبع (١٦)، النشر في القراءات العشر (١٥). جمال القراء للسخاوي (١٤)، البرهان في مشكلات القرآن لأبي المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذلة (١٢)، الكشف لمكي في القراءات، المصاحف لأبي داود، المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز لأبي شامة (١١)، أحكام القرآن لعبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي المعروف بابن الفرس (٩)، إملاء ما مَنَّ به الرحمن (التبيان الانتصار لأبي بكر الباقلاني)، فضائل القرآن لابن الضريس، الإرشاد في القراءات العشر للواسطي (٨)، التنبيه على فضل علوم القرآن للحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، الرد على من خالف مصحف عثمان لابن الأنباري، رد معاني الآيات المتشابهات إلى معاني الآيات المحكمات لابن اللبان (٧)، مواقع العلوم من مواقع النجوم

وأسرار التنزيل وأدلة الأحكام والتشابه وتناسب السور، والقراءة.[138] وتأتي علوم الحديث في المرتبة الثانية.[139]

ويدل تكرار المصادر المحال إليها على أولوية علم التفسير كمادة لعلوم القرآن، النظم لابن حجر، نظم الدرر في نفائس الآي والسور للبقاعي، النفيس لابن الجوزي ... إلخ.[140]

والعلم الثاني هو علم التفسير؛ لذلك يتصدر «الزمخشري» في الإحالات. فالقرآن للإفهام، وعلم التفسير سابق على علوم القرآن، فالعقل هو الحامل الثاني للوحي لأنه مُوجَّه إليه. و«الإتقان» للسيوطي هو مقدمة لكتابه عن التفسير «مجمع البحرين ومطلع البدرين» يجمع فيه بين تحرير الرواية وتقرير الدراية.[141] ثم تأتي علوم اللغة والبلاغة.[142] ثم تأتي الفتاوى في علوم الفقه وعلم أصول الفقه.[143] ثم تأتي كتب العقائد مثل الإيمان.[144] ثم تأتي علوم التاريخ.[145] ثم تأتي علوم التصوف.[146] ثم تأتي كتب تصنيف العلوم.[147]

وبالرغم من أن «الإتقان» من الأعمال المتأخرة إلا أنه يعتمد على المؤلفات السابقة؛ مما يوحي بوعيٍ تاريخي بتطور العلم، وأن اللاحق يعتمد على السابق.[148] بل إنه في كل نوع من الأنواع الثمانين يبدأ بذكر الأدبيات السابقة في الموضوع.

وتصنف الكتب السابقة في مجموعات من العلوم هي حوامل الوحي[149] ومنها الكتب النقلية وتعني كتب المصاحف؛ مما يدل على الوعي بأن علوم القرآن من العلوم النقلية.

لجلال الدين البلقيني، الناسخ والمنسوخ لمكي (٦)، أحكام القرآن لابن العربي، أسباب النزول للواحدي، إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني، إعجاز القرآن للروحاني أبي الحسن، إعجاز القرآن للخطابي (المسمى بيان إعجاز القرآن)، أمالي الرافعي على الفاتحة، شرح المهذب للنووي، الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس (٥)، أسباب النزول للسيوطي، إعجاز القرآن للزملكاني (التبيان إعجاز لابن سراقة)، بستان العارفين لأبي الليث السمرقندي (؟)، التبيان في آداب حملة القرآن للإمام محيي الدين النووي، التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري، جواهر القرآن للغزالي، فنون الأفنان لابن الجوزي، لغات القرآن لأبي القاسم اللالسكاني، الناسخ والمنسوخ لأبي داود السجستاني، الناسخ والمنسوخ لأبي بركات السعيدي، الوقف والابتداء لابن الأنباري (٤)، أقسام القرآن لابن القيم، التبيان الأقصى القريب للتنوخي، أمثال القرآن لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي، البرهان في إعجاز القرآن لمحمد بن علي كمال الدين الشافعي المعروف بابن الزملكاني، التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، من الأسماء والأعلام لأبي القاسم السهيلي، الخواطر السوانح في أسرار الفواتح لابن أبي الأصبع، ذات الرشد في العدد لأبي عبد الله الموصلي (؟)، شرح ذات الرشد (؟)، غريب القرآن للعزيزي، فضائل القرآن لابن أبي شيبة، المدخل للبيهقي، معترك الأقران في مشتبه القرآن للسيوطي، الناسخ والمنسوخ لابن عربي، الوقف والابتداء للرازي، الوقف والابتداء للسجارندي، الوقف والابتداء لابن النكزاوي (٣).

وتؤخذ اقتباسات من الأعمال السابقة تدل عليها علامة «انتهى». ويعتمد على آراء المتكلمين نادرًا سلبًا أم إيجابًا. فيرفض رأيهم في قراءة النص القرآني عن طريق الاجتهاد إن وافق

[١٣٨] إحكام الراي في أحكام الآي لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الصائغ الحنبلي، أحكام القرآن لابن الجصاص، أحكام القرآن لإسماعيل بن إسحق الأزدي، أحكام القرآن لبكر بن العلاء، أحكام القرآن لابن خويد منداد، أحكام القرآن لعلي بن محمد المعروف بالكيا الهراسي، أخلاق حملة القرآن لأبي بكر الآجري، أسرار التنزيل للسيوطي، أسرار التنزيل للشرف البارذي، الإمام في أدلة الأحكام للعز بن عبد السلام، البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبد، التمهيد لابن عبد البر (؟)، تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي، درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله الرازي، روض الأفهام في أقسام الاستفهام لابن الصائغ، فضائل القرآن للمشائي، قرة العين في الفتح والإمالة بين اللفظين لابن القاصح، مجاز القرآن للعز بن عبد السلام، مجمع البحرين ومطلع البدرين للسيوطي، المحتسب في توجيه القراءات الشاذة لابن جني، مشكل القرآن لابن قتيبة، المقنع لأبي عمرو الداني، المنهاج للحليمي، الوجوه والنظائر للنيسابوري، الوقف والابتداء للداني، الوقف والابتداء للنعماني، الوقف والابتداء للنحاسي (٢)، الآداب لجعفر بن شمس الخلافة، أسباب النزول لابن حجر، أسباب النزول لعلي بن المديني، أسماء من نزل فيهم القرآن لإسماعيل الضرير، إعجاز القرآن للباقلاني، إعجاز القرآن للرازي، إعراب القرآن لشهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين، إعراب القرآن للفاتحي (المجيد في إعراب القرآن المجيد)، إعراب القرآن للعكبري (التبيان في إعراب القرآن لمنتجب الدين)، الاقتضاء في معرفة الوقف والابتداء للنكزاوي، الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي، أنوار التحصيل في أسرار التنزيل للشريف البارزي، الإيجاز في المجاز لابن القيم، البرهان في إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع المصري، البرهان في مناسبة سور القرآن، البسيط إلى بيان الضمائر في القرآن، تحرير التعبير لابن أبي الأصبع المصري (؟)، تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن لأحمد بن يوسف الرعيني، تذكرة بدر الدين ابن الصاحب (؟)، التذكرة لابن حيان (؟)، تذكرة السبكي (؟)، التسهيل (؟)، التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري، تقريب المأمول في ترتيب النزول لبرهان الدين الجعفري، التكميل والإتمام لابن عساكر (؟)، التمويهات على التبيان لأبي المطرف ابن عميرة، الجمان في تشبيهات القرآن لابن نافية، الجنى الداني في حروف المعاني لابن أبي القاسم، الحجة لأبي علي الفارسي (؟). جدل القرآن لنجم الدين الطوفي، حواشي الكشاف للقطب الرازي، خمائل الزهر في فضائل السور للسيوطي، خواص القرآن للتميمي، خواص القرآن للغزالي، خواص القرآن لليافعي، الدر النظيم في منافع القرآن العظيم، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ذيل التعريف والإعلام لابن عساكر البطائحي، الشافعي للقراب، شرح المصباح للمراكشي، شرح المنهاج لتقي الدين السبكي (؟)، شرح المنهاج لابن حجر، عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل، العواصم من القواصم لابن العربي، غرور البيان لمبهمات القرآن لابن جماعة، غريب القرآن لابن الأنباري، غريب القرآن لأبي حيان، غريب القرآن لابن دريد، غريب القرآن لأبي عبيدة، غريب القرآن لأبي عمر الزاهد، فضائل القرآن لأبي ذر الهروي، فواصل الآيات للطوفي، فوائد أبي بكر العربي في رحلته، فوائد الحرجي، قانون التأويل لابن عربي، القراءات لأبي عبيد، القواعد

العربية وإن لم ينقل عن النبي؛ فعلوم القرآن نقلية خالصة لا دخل للعقل فيها.[١٥٠] كما لا يعتمد على نقل بعض الفقهاء، لأنهم أيضًا يعتمدون على الاجتهاد مثل المتكلمين. فقد أنكر المالكية وغيرهم بناءً على هذا الأصل البسملة لأنها لم تتواتر في أوائل السور. وما لم يتواتر فليس بقرآن اعتزازًا بالتواتر. وربما التواتر عند قوم ليس تواترًا عند آخرين. يكفي في التواتر النقل الكتابي في مصاحف الصحابة والتابعين بخط المصحف دون أسماء السور

للعز بن عبد السلام، الكافي لابن شريح في القراءات، كشف المعاني عن متشابه المعاني لابن جماعة، الكفيل بما في التنزيل للعماد الكندي، مجمع البحرين للصاغائي، المجيد في إعراب المعاني المجيد لإبراهيم بن محمد السفاقسي، المجيد وهو مختصر كتاب البرهان في إعجاز القرآن لابن الزملكاني، المحبر لابن حبيب (؟)، مختصر أسباب النزول للواحدي، مختصر البويطى، مختصر الروضة لإسماعيل بن المعري، المستوفي للفرغاني (؟)، المصباح للشهرزوري (؟)، معاني القرآن للأخفش، معاني القرآن لابن الأنباري، معاني القرآن للزجاج، معاني القرآن للفراء، معجم ما استُعجِم للبكري، المغيث لأبي موسى (؟)، المفتاح لأبي منصور بن خيرون (؟)، المفصَّل للزمخشري، المقتنص في فوائد تكرار القصص، ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير، المنهج المفيد في أحكام التوكيد للزملكاني، المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب للسيوطي، الناسخ والمنسوخ للتميمي، الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد، نهاية التأصيل في أسرار التنزيل لابن الزملكاني، الهادي في القراءات لمحمد بن سفيان، الهداية للمهدوي في القراءات، الواحد والجمع في القرآن للأخفش، الوجوه والنظائر لابن الجوزي، الوجوه والنظائر لابن الدامناني، الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان، الوجوه والنظائر للنيسابوري، اليواقيت لأبي عمر الزاهد (؟)، الياقوتة لأبي حفص محمد بن أحمد النسفي (؟).

[١٣٩] البخاري (٤٨)، الترمذي (٤٦)، مسند ابن حنبل (٣٤)، مسلم (٣٠)، سنن النسائي (١٩)، مسند البزار (١٨)، سنن سعيد بن منصور (١٦)، سنن أبي داود (١٢)، شرح البخاري لابن حجر (المسمى بفتح الباري)، مسند ابن مردويه، المعجم الكبير للطبراني (٥)، السنن لأبي القاسم اللالكاني، الأذكار لمحيي الدين النووي (؟)، زوائد المسند لعبد الله بن أحمد بن حنبل، سنن ابن ماجه (٤) صحاح الجوهري، مسند ابن السني، المعجم الأوسط للطبراني، شرح التسهيل لأبي حيان (٣)، شرح السنة للبغوي، الطيوريات للسفلي (؟)، فهم السنن للمحاسبي، مسند ابن راهويه، مسند ابن السني، مسند الطيالسي، مسند عبد بن حميد، المعجم الصغير للطبراني (٢)، الإرشاد لأبي حيان (؟)، الإرشاد للخليلي (؟)، أمالي المرتضى (غرود الفوائد ودرر القلائد للإمام أبي عبيد)، الجامع للحلواني (؟)، الجامع للقزاز (؟)، جامع الفنون لابن شبيب الحنبلي (؟)، الروضة للطلمنكي، الروضة للنووي، الزاهر لابن الأنباري، زوائد الروضة السبعة لابن مجاهد، سراج المريدين لابن العربي، سنن البيهقي، شرح البخاري لابن حجر المسمى فتح الباري، شرح البخاري للمازري، شرح مسلم للنووي، صحيح ابن حبان، الصناعتين للعسكري (؟)، غريب الحديث للحربي، فوائد الخلعي، الفوائد للدير عاقولي (؟)، فوائد المحاملي (؟)، فوائد ابن أخي ميمي (؟)، مسند الفردوس، المهذب للإمام النووي، موطأ مالك، موطأ ابن وهبة، الميسر لمفطلي.

ولفظ التوكيد «آمين». وهناك عشراتٌ أخرى من الأدلة تُثبت أن البسملة جزء من السور يعرف بها الرسول نهاية سورة وبداية أخرى.[١٥١] وهي إكمال للسبع المثاني.

---

[١٤٠] تفسير ابن أبي حاتم (٧٥)، تفسير الطبري (٤٢)، تفسير ابن مردويه (٢٧)، تفسير الحاكم (وهو جزء من تفسير المستدرك) (٢١)، تفسير أبي الشيخ أبي حيان (١٨)، المستدرك للحاكم (١٥)، تفسير الفريابي (١٠) تفسير ابن عطية، الكشاف للزمخشري (٨)، تفسير الأصبهاني، قواعد في التفسير لابن تيمية (٧)، تفسير الحوفي (البرهان في تفسير أبي حيان)، تفسير الخوئي، تفسير عبد الرازق، تفسير ابن كثير، حاشية الطيبي على الكشاف (٦)، تفسير القرطبي (٥)، التمييز في علوم التفسير للسيوطي، تفسير عبد بن حميد، تفسير الفخر الرازي، تفسير ابن المنذر، مقدمة تفسير ابن النقيب (٤) تفسير ابن فورك، تفسير المرسي (٣) تفسير الواحدي، تقريب النشر لابن الجزري (؟)، التيسير للداني (٣)، أمالي ابن الحاجب، البرهان في تفسير القرآن لعلي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي، تفسير إمام الحرمين، تفسير بن برجان، تفسير ابن الجوزي، تفسير جوبير، تفسير سعيد بن منصور (وهو جزء من سننه)، تفسير سليم الرازي، تفسير الكواشي، تفسير الماوردي، تفسير مقاتل، تفسير ابن المنير، تفسير النسفي، تفسير النيسابوري، تفسير ابن بزبزة، تفسير البيضاوي، تفسير الثعلبي، تفسير ابن رزين، تفسير الرماني، تفسير أبي روف، تفسير السدي، تفسير سنيد، تفسير أبي طالب الطنزي، تفسير عطاء بن دينار، تفسير ابن عقيل، تفسير النيسابوري، تفسير القشيري، تفسير أبي الليث (١).

[١٤١] الإتقان ج١، ١٤.

[١٤٢] المغني لابن هشام (١٣)، عروس الأفراح لبهاء الدين بن السبكي (١٢)، المعرب للجواليقي (١١)، التبيان في المعاني والبيان لحسين بن محمد الطيب (٦)، الكامل للهذلي (٥)، تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي (٤)، الكتاب لسيبويه (٣)، الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض (٢)، الاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص، الإيضاح للقزويني، التلخيص للقزويني، ذي القد لابن جني، الزينة لأبي حاتم (؟)، العمدة لابن رشيق القيرواني، العمدة للطرطوشي، فقه اللغة للثعالبي، ليس في كلام العرب لابن خالويه، اللوائح لأبي الفضل الرازي (؟)، المثل السائر لابن الأثير، المصباح لبدر الدين بن مالك، المعيار للزنجاني، المقدمة في سر الألفاظ المقدمة لشمس الدين بن الصائغ، منهاج البلغاء لحازم القرطاجني، أرجوزة علي بن محمد الغالي في القرائن والأخوات، الاستبصار لابن القصاع (؟)، الإفراد والجمع (الواحد والجمع والإفراد) لابن فارس، الإفصاح في غوامض الإيضاح لإبراهيم بن أحمد الجزري، الأفعال للسرقسطي، الأفعال لابن طريف، الأفعال لابن القطاع، الإقناع لأحمد بن علي بن باديس (؟)، البارع للفارابي (؟)، بدائع الفوائد لابن القيم (؟)، البديع لابن المعتز، بديعية ابن حجة، التبيان في علم البيان لعبد الواحد ابن عبد الكريم المعروف بابن الزملكاني، تعليق ابن القرطاج على المرزوقي (؟)، تهذيب اللغة للأزهري، الخاطريات لابن جني، الخصائص لابن جني، سر الفصاحة للخفاجي، شرح أبيات الإيضاح لابن عصفور، شرح بديعية ابن حجة، شرح الرائية لابن جبارة، شرح الرائية للسخاوي، شرح المتصل لابن الحاجب (؟)، شرح الرائية للسخاوي، طريق الفصاحة، فقه اللغة لابن فارس، الفلك

ولدى المؤلف إحساسٌ قوي بحسِّ التأليف القوى البنية المنطقي الترتيب الفريد بين المؤلفات، جمعها بين المنقول والمعقول، والقديم والجديد.[١٥٢] والعيب عيب الزمان الحسد واللوم وحب الرياسة، والاستكبار والتزوير والعمى والصمم عن الحق والجهل.[١٥٣]

الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد، قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي، الكامل للمبرد، الكنايات للجرجاني، كنز البراعة لابن الأثير (؟)، كنز الفوائد للعز بن عبد السلام (؟)، المحكم لابن سيده، مقامات الحريري، نديم الفريد لمسكويه، نشر العبير في إقامة الظاهر مقام الضمير، نقد الشعر لقدامة.

[١٤٣] فتاوى ابن الصلاح (٢)، مسائل نافع بن الأزرق (؟)، البرهان لإمام الحرمين، الرسالة للشافعي، الشاطبية (٢)، الشافي للجرجاني، شرح الشاطبية (؟)، شرح الكافية لابن مالك (؟)، شرح منظومة جمع الجوامع، الشفا للقاضي عياض (؟)، الشواذ لابن غلبون (؟)، الفروق للقرافي، فوائد ابن الصلاح، المحلى لابن حزم، منع الموانع لابن السبكي (؟)، نكت ابن الصيف على التنبيه (؟)، النكت للماوردي، النوادر لأبي زيد.

[١٤٤] شعب الإيمان للبيهقي (١٧)، دلائل النبوة للبيهقي (١٣)، دلائل النبوة لأبي نعيم (٢)، الأسماء والصفات للبيهقي، شرح آيات الصفات لابن اللبان، شرح العقائد النسفية، العقائد النسفية لنجم الدين عمر بن محمد، المحصول للرازي.

[١٤٥] طبقات ابن سعد (٧)، تاريخ ابن عساكر (٥)، تاريخ أصبهان لأبي نعيم، تاريخ أحمد بن حنبل، تاريخ الحاكم، تاريخ الضعفاء لابن حبان، تاريخ القراء، تاريخ ابن كثير، تاريخ المظفري، التبصرة لمكي، طبقات الشافعية، طبقات الشافعية لابن السبكي، مغازي موسى بن عقبة.

[١٤٦] الحلية لأبي نعيم الأصفهاني (٤)، لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري، المرشد لأبي نصر القشيري.

[١٤٧] مفاتيح العلوم للسكاكي (٤).

[١٤٨] يذكر منها؛ ابن الجوزي: فنون الأفنان في علوم القرآن، علم الدين السخاوي: جمال القراء، أبو شامة: المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز، أبو العالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذلة: البرهان في مشكلات القرآن. ويذكر السيوطي كتاب محيي الدين الكافيجي وكتاب علم الدين البلقيني، وكتاب أخيه «مواقع العلوم من مواقع النجوم» (الإتقان ج١، ٤–٥، ص١٨).

[١٤٩] وهي: (١) الكتب النقلية. (٢) جوامع الحديث والمسانيد. (٣) كتب القراءات وتعلقات الأداء. (٤) كتب اللغات والغريب والعربية والإعراب. (٥) كتب الأحكام وتعلقاتها. (٦) الكتب المتعلقة بالإعجاز وفنون البلاغة. (٧) كتب الرسم. (٨) كتب التفسير للقدماء والمحدثين. (٩) الكتب الجامعة. (١٠) كتب علوم القرآن. الإتقان، ص١٨–٢٠.

[١٥٠] «وقال قوم من المتكلمين إنه يسوغ إعمال الرأي والاجتهاد في إثبات قراءة وأوجه وأحرف إذا كانت تلك الأوجه صوابًا في العربية وإن لم يثبت أن النبي قرأ بها» (الإتقان ج١، ٢١٧).

[١٥١] السابق، ج١، ٢١٧–٢١٩.

والبنية لها قواعدُ ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية أو أكثر، وكل قسمة لها دلالاتها؛ الثنائية جدلٌ مانوي. والثلاثية جدلٌ هيجلي، والرباعية تضعيف للثنائية،

[١٥٢] «وقد منَّ الله تعالى بإتمام هذا الكتاب البديع المثال، المنيع المنال، الفائق بحسن نظامه على عقود اللآل، الجامع لفوائد ومحاسن لم تجتمع في كتاب قبله في العصور الخوال. أسست فيه قواعد مُعِينة على فهم الكتاب المنزل، وبينت فيه مصاعد يُرتقى فيها للإشراف على مقاصده ويتواصل، وأركزت فيه مراصد تفتح من كنوزه كل باب مُقفَل. فيه لباب العقول، وعباب المنقول، وصواب كل قول مقول، محَّصت فيه كتب العلم على تنوعها، وأخذت زُبدها ودَرَّها، ومررت على رياض التفاسير وكثرة عددها، واقتطفت ثمرها وزهرها، وغُصتُ بحار فنون القرآن، فاستخرجت جواهرها ودررها، وبقرت عن معادن كنوزه فخلصت سبائكها، وسبكت فقرها، فلهذا تحصَّل فيه من البدائع ما تُبت عنده الأعناق بتًّا، وتجمَّع في كل نوع منه ما تفرَّق في مؤلفاتٍ شتَّى، على أني لا أبيعه بشرط البراءة من كل عيب، ولا أدعي أنه جمع سلامةً والبشر محل النقص بلا ريب» (السابق، ج٤، ٢٥٨).

[١٥٣] هذا وإني في زمان ملأ الله قلوب أهليه من الحسد، وغلب عليهم اللؤم حتى جرى فيهم مجرى الدم من الجسد:

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طُويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يُعرَف طيب عَرف العود

قوم غلب عليهم الدهر وطمَّهم. وأعماهم حب الرياسة وأصمهم. قد نكبوا عن علم الشريعة ونسوه، وأكبُّوا على علم الفلاسفة وتدارسوه، يريد الإنسان منهم أن يتقدم، ويأبى الله إلا أن يزيده تأخيرًا، ويبغي العز ولا علم عنده فلا يجد له وليًّا ولا نصيرًا، ومع ذلك لا ترى إلا أنوفًا مشمرة، وقلوبًا من الحق مستكبرة، وأقوالًا تصدر عنهم مزورة، كلما هديتهم إلى الحق كان أصمَّ وأعمى لهم، كأن الله لم يوكل بهم الحافظين، يضبطون أقوالهم وأعمالهم؛ فالعالِم بينهم مرجوم يتلاعب به الجهال والصبيان، والكامل عندهم مذموم داخل في كفة النقصان. وايم الله إن هذا لهو الزمان الذي يلزم فيه السكوت والمصير حلسًا من أحلاس البيوت، وردُّ العلم إلى العمل لولا ما ورد في صحيح الأخبار «من علم علمًا فكتمه ألجمه الله بلجام من نار.»

ادأب على جميع الفضائل جاهدًا   وأدم لها تعب القريحة والجسد
واقصد بها وجه الإله ونفع مَنْ   بلغتْه ممن جدَّ فيها واجتهد
واترك كلام الحاسدين وبغيهم   هملًا فبعد الموت ينقطع الحسد

الإتقان ج٤، ٢٥٨–٢٥٩.

والخماسية بنيةٌ مستقلة أقيمت عليها أسفار موسى والأصابع، والسداسية تضعيف للثنائية والثلاثية، والسباعية بنيةٌ مستقلة أُقيمت عليها السموات والأرض والأيام، والثمانية تضعيف للثنائية، والتساعية تضعيف للثلاثية، والعشرية تضعيف للخماسية وعليها أقيمت المقولات العشر.[١٥٤] فهل يمكن إقامة علوم القرآن عليها؟ فالمكان أسباب النزول، والزمان الناسخ والمنسوخ، والإضافة لغة العرب وغريبها، وأن يفعل فضله، وأن ينفعل تفسيره، والحركة النقل الشفاهي، والسكون التدوين، والكيف فهمه، والكم عدد سوره وآياته.

وعلوم القرآن في حاجة إلى إعادة تأسيس البنية وضم هذه التفصيلات المتكررة الدلالة في أساسٍ واحد. في «الإتقان» ثمانون نوعًا يمكن إعادة تصنيفها في أنواعٍ أقل إذا ما أخذت الدلالة في الاعتبار مثل المكان والزمان الكوني أو الذاتي[١٥٥] وقد يكون السماء خياليًّا ليلة الإسراء والمعراج لأن القرآن لا ينزل إلا في سبب، وإجابة على سؤال. والموقف يشكل كل ما

---

[١٥٤] الزمان والمكان، الجهة، الإضافة أو الكمية، أن يفعل، أن ينفعل، الحركة والسكون، الكيف والكم.

[١٥٥] (١) المكان: المكي والمدني، الحضري والسفري، الأرضي والسمائي.

(٢) الزمان: النهاري والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، الناسخ والمنسوخ.

(٣) النزول: الأسباب، أول ما نزل، آخر ما نزل، ما نزل على لسان الصحابة، ما تكرر نزوله، ما تأخر حكمه على نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه، ما نزل مفرَّقًا وما نزل مجمَّعًا، ما نزل مشيَّعًا وما نزل مفردًا، ما أنزل على بعض الأنبياء وما لم ينزل منه على أحد من قبلُ في كيفية إنزاله، من نزل فيهم.

(٤) النقل الشفاهي: الحُفَّاظ والرواة، المتواتر والمشهور والآحاد والموضوع والمدرج.

(٥) القراءات: الوقف والابتداء، الموصول لفظًا المفصول معنًى، الإمالة والفتح، الإدغام والإظهار، الإخفاء والإقلاب، المد والقصر، تخفيف الهمزة، كيفية تحمُّله، آداب التلاوة.

(٦) التدوين: فواصل الآي، فواتح السور، خواتم السور، مناسبة الآيات والسور، رسوم الخط، آداب كتابته.

(٧) الأسماء والجمع والترتيب والعدد للسور والآيات والكلمات والحروف.

(٨) اللغة: الغريب، وما وقع بلغة الحجاز وبلغة غير العرب، والوجوه والنظائر، الإعراب، المحكم والمتشابه، المقدم والمؤخر، الخاص والعام، المجمل والمبين، المشكل والموهم، الاختلاف والتناقض، المطلق والمقيد المنطوق والمفهوم، وجوه المخاطبات، الحقيقة والمجاز، التشبيه والاستعارة، الكناية والتعريض، الحصر والاختصاص، الإيجاز والإطناب، بدائع القرآن، الآيات المتشابهات، والمبهمات، إعجاز القرآن.

(٩) التفسير: أداوته، وقواعده، تأويله وشرط الحاجة إليه، شروط المفسر وآدابه، غرائب التفسير، طبقاته.

(١٠) العلوم: العلوم المستنبطة منه؛ الأمثال، الأقسام، الجدل، الأسماء والكُنى والألقاب.

(١١) الفضائل: أفضله وفاضله، مفرداته وخواصه.

يتعلق بأسباب النزول وأوله وآخره، وما نزل على لسان الصحابة، وأسماء السور وجمعها وعدد الآيات والكلمات والحروف، والنقل الشفاهي، والقراءات، واللغة وهي أكبرها. وتدخل فيها المباحث اللغوية في علم أصول الفقه والآتية هي أيضًا من اللغة. ويدخل أنواع الخطاب، أساليب البيان وعلوم البلاغة من بيان وبديع وذروتها الإعجاز. والتدوين والتفسير والعلوم الداخلة فيه وفضائلها.

وهناك إحساسٌ عام عند القدماء بأنه يمكن إجمال علوم القرآن وإدغامها في مجموعاتٍ أقل أو أكثر.[١٥٦] وفي كلٍّ منها مصنفات حتى ولو بلغت الثلاثمائة؛ لذلك سمي السيوطي كتابه «الإتقان»، أدمج الثلاثمائة موضوع في ثمانية، كما أمكن من دمج الثمانين في عشرة تقريبًا. وقد أمكن تخفيض هذه الأبواب الثمانين في خمسين، والخمسين في ستة أنواع: النزول، والسند، والأداء، والألفاظ، والأحكام، والمعاني، وهنا أنواع لا تدخل تحت حصر مثل: الأسماء والكنى والألقاب والمبهمات.[١٥٧] وفي «التحبير في علوم التفسير» جعل السيوطي الأنواع مائة وأربعين يمكن إجمالها أيضًا في عشرة.[١٥٨]

---

[١٥٦] «فهذه ثمانون نوعًا على سبيل الإدماج، ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة، وغالب هذه الأنواع فيها تصانيفُ مفردة، وقفت على كثير منها» (الإتقان، ص١٧–١٨).

[١٥٧] (١) النزول: مواطنه، وأوقاته، وأسبابه، ووقائعه: المكي، المدني، السفري، الحضري، الليلي، الصيفي، الشتائي، الفراشي، أول ما نزل، وآخر ما نزل (١٢).

(٢) السند: المتواتر، الآحاد، الشاذ، قراءات النبي، الرواة والحفاظ (٦).

(٣) الأداء: الوقف، الابتداء، الإحالة، المد وتخفيف الهمزة، الإدغام (٦).

(٤) الألفاظ: الغريب، المعرب، المجاز، المشترك، المترادف، الاستعارة، التشبيه (٧).

(٥) معاني الأحكام: العام، العام المخصوص، العام الذي أريد به مخصوص، خصوص الكتاب بالسنة، خصوص السنة بالكتاب، المجمل، المبين، المؤول، المفهوم، المطلق المقيد، الناسخ، المنسوخ، نوع الناسخ والمنسوخ وهو ما عمل به في مدة أو أحد من المكلفين (١٤).

(٦) معاني الألفاظ: الفصل، الوصل، الإيجاز، الإطناب، القصر (٥) (الإتقان، ص٥–٦، ١٤–١٧).

[١٥٨] (١) الزمان: المكي والمدني، الحضري والسفري، النهاري والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، الناسخ والمنسوخ، ما عمل به واحد ثم نُسخ، ما كان واجبًا على واحد (١٣).

(٢) النزول: (المكان، الموقف)، أسبابه، أول ما نزل، آخر ما نزل، ما عرف وقت نزوله، ما أنزل فيه وما لم ينزل على أحد من الأنبياء، ما أنزل منه على الأنبياء، ما تكرر نزوله، ما نزل مفرقًا، ما نزل جميعًا، كيفية إنزاله (١٠).

ولا يوجد القصص كشكلٍ أدبي. بالرغم من قسمة الكتب إلى أبواب أو فصول أو أنواع إلا أنه يتم الربط بين الموضوعات داخل كل قسم بألفاظ تنبيه مثل «تنبيه»، «فائدة».[١٥٩]

(٣) النقل المدون (السند): المتواتر، الآحاد، الشاذ، قراءات النبي، الرواة والحفاظ، العالي والنازل، المسلسل، أسماء (الأداء) من نزل فيهم القرآن (٧).

(٤) القراءة (النقل الشفاهي) الابتداء، الوقف، الإحالة، المد، تخفيف الهمزة، الإدغام، الإقلاب، مخارج الحروف، آداب القارئ (١٠).

(٥) اللغة (الألفاظ): الغريب، المعرب، المجاز، المشترك، المترادف، المحكم والمتشابه، المشكل، المجمل والمبين، الاستعارة، التشبيه، الكناية والتعريض، العام الباقي على مجموعه، العام المخصوص، العام الذي أريد به الخصوص، ما خص فيه الكتاب والسنة، ما خصت فيه السنة والكتاب، المؤوَّل، المفهوم، المطلق والمقيد (٢٠).

(٦) البلاغة (البيان والبديع): الإيجاز والسلوك، الأشباه، الفصل والوصل، القصر، الاحتباك، القول الموجب، المطابقة والمناسبة والمجانسة، التورية والاستخدام، اللف والنشر، المبهمات (١٠).

(٧) التدوين: الالتفاف، الفواصل والغايات، كتابة القرآن، شبيه السور، ترتيب الآي والسور، الأسماء والكني والألقاب، التاريخ (٧).

(٨) الفضل: أفضل القرآن وفاضله ومفضوله (٢).

(٩) الموضوعات (الأساليب): الأمثال، المفردات (٢).

(١٠) التفسير: آداب المفسِّر، من يُقبَل تفسيره ومن يُرَدُّ، غرائب التفسير، معرفة المفسرين (٤).

السابق، ج١، ٧–١٠.

[١٥٩] السابق، ج١، ٨٧.

الباب الأول

الحوامل الموضوعية

التاريخ

الفصل الأول

المكان

(١) المكان كحاملٍ موضوعي

وتعني الحوامل الموضوعية كل ما هو خارج الوحي، كل ما يستند عليه الوحي للنزول، وإظهار نفسه قبل تمثل الذات له، روايةً وقراءةً وتدوينًا أو فهمًا وتذوقًا وتفسيرًا. هي الحوامل التاريخية مثل المكان والبنية الاجتماعية والزمان. ومن ثم تكون مقولة التاريخ هي الأنسب للتعبير عنها. فالتاريخ حاملٌ موضوعي. ويضم الجغرافيا. فتاريخ المدن مثل مكة والمدينة أو تاريخ شبه الجزيرة العربية الممتدة من صحراء الشام إلى جبال اليمن لا ينفصل عن جغرافيتها.

الوحي بهذا المعنى ظاهرةٌ تاريخية، يظهر في التاريخ ويتجلى فيه، والتاريخ هو الواقع والمكان والزمان والمجتمع والبشر؛ فلا محمول بلا حامل، ولا وحي بلا جسد يتحقق فيه الوحي. الوحي ليس طائرًا في الهواء بل يهبط على الأرض ليستقرَّ فيها كما يستقرُّ الماء فتهتز وتربو وتُنتج من كل زوجٍ بهيج. الماء محمول والأرض حامل. وماء بلا أرض يتبخر ويعود إلى السماء من جديد، لا ينبت ولا يسقي ولا يروي.

ونظرًا لاستعمال مقولة «الواقع» من قبلُ في «من النص إلى الواقع» فإن مقولة «التاريخ» هذه المرة تكون البديل الدال عن «الواقع» حتى تتعدد المفاهيم من حقلٍ دلاليٍّ واحد أو حقولٍ دلاليةٍ مختلفة.

ويصعب التمييز بين الحوامل الموضوعية، والحوامل الموضوعية الذاتية والحوامل الذاتية، فالحوامل الموضوعية المكان والزمان والبيئة الاجتماعية، وهي لا تنفصل عن الحوامل الموضوعية الذاتية في الرواية، الخبر والقراءة والكتابة. وهي لا تنفصل أيضًا عن الحوامل الذاتية في اللغة: الألفاظ والمعاني، والبلاغة، والتفسير. الموضوع والذات واجهتان

لعملةٍ واحدة، بُعدان لقصدٍ واحد. الموضوع بلا ذات وجودٌ مصمت، مجرد شيء، مادة بلا حياة. والذات بلا موضوع فراغٌ أجوف، الأول بدن بلا نفس، والثاني نفس بلا بدن.

ويعني المكان التجمع البشري قبيلة أو رهطًا أو لقوم أو لشعب أو لمدينة، وكلها مفاهيمُ قرآنية؛ فالوحي في حاجة إلى مخاطب، ينزل إلى أناس. الوحي رسالة في حاجة إلى مُرسَل إليهم مثل الخطاب مرسِل ومرسَل إليه، منه وإليه. الوحي موضوع في حاجة إلى ذات لإدراكه، الوحي محمول والذات حامل.

ولما كانت المدن قد تشكلت، وعرفت المدن القديمة في شبه الجزيرة العربية وعلى امتدادها شمالًا وجنوبًا كانت مكة والمدينة في الحجاز في وسطها كطرق للتجارة، وكانت قريش في مكة القبيلة المقيمة.[١]

هبط الوحي في مكة لوجود تجمعٍ سكاني، وقبيلةٍ متضامنة، ولهجةٍ متداولة، وقيمٍ معروفة، وصدارةٍ اجتماعية، فيها الكعبة؛ كعبة إبراهيم، وعليها المعلقات السبع، وبها أسواق عكاظ للإلقاء الشعري، أقرب إلى الحضر منها إلى البدو بتعبيرات ابن خلدون.[٢]

والمكان ليس هو المكان المتخيَّل بليلة الإسراء والمعراج، القدس أو السماء. فالوحي ينزل في المكان والزمان للناس على الأرض بناءً على سؤال وليس مجرد وحيٍ طائر في السماء. المكان المثالي يعطي الرواية حضورًا أكثر، ويجعل لها تأثيرًا نفسيًّا أعظم. المكان هو الواقع والتاريخ والبشر والحياة الدنيا. المكان المتخيَّل هو المكان الشعري كأسلوب في التعبير، مجازًا لا حقيقة. هو التضحية بالموضوع من أجل الذات، تصغيرًا له وابتلاعه داخل الذات، التضحية بالحس لصالح الخيال.[٣]

والأراضي والسماء تَقابلٌ نظري، فالأرض مكان والسماء ليست مكانًا، الأرض يسير عليها الإنسان تحته بالأرجل والأقدام، والسماء يتخيلها الإنسان فوقه بالأعين والأذهان. لم يكن القدماء قد عرفوا الفضاء وأنه مكان بلا جاذبية للأرض. والمعراج عند البعض كان بالروح وليس بالبدن، بالخيال وليس بالجسم.[٤]

---

[١] وقد ألَّف فيه من قبلُ مكي، والعز الديريني (الإتقان، ج٢٢).

[٢] وقد كُتبت عدة دراسات عن هذه الحوامل التاريخية الجغرافية مثل «سوسيولوجيا» الفكر الإسلامي، للدكتور محمود إسماعيل (عشرة أجزاء).

[٣] الإتقان ج١، ٦٧.

[٤] السابق، ص٦٧. وهو من أصغر الأنواع (صفحةٌ واحدة).

(٢) التمييز بين المكي والمدني

نزل القرآن على امتداد ثمانية عشر عامًا؛ ثمانية بمكة وعشرة بالمدينة. فالنُّظُم والتشريعات أطول من التصورات والعقائد. فالنص لا يحتاج إلى زمانٍ طويل؛ عقود وقرون ودهور، يحتاج فقط إلى وقت الازدهار بتعبير اليونان القدماء حوالي الأربعين عامًا. وهو الوقت الذي هبط فيه الوحي حتى وفاة الرسول وهو في الثالثة والستين. احتاج الوحي إلى عقدَين من الزمان في عمر واحد؛ عمر الرسول. فالدين له جانبان: اللحظة المركَّزة، والديمومة المتصلة. فزمان الوحي لحظةٌ مركَّزة في التاريخ، واستمراره في الديمومة المتصلة بعد وفاة الرسول عبر الأجيال.[٥]

وهناك سورٌ مكية وأخرى مدنية بوضوح، وثالثة عليها خلاف. فالمكي والمدني تحديدان إنسانيان وليسا نبويَّين، اجتهادان علميان وليسا وحيَين. وبالرغم من إمكانية التمييز بينهما على وجه العموم إلا أن بعض السور تندُّ عن الفروق بينهما. والمدني أقل من المكي؛ لذلك يمكن حصره.[٦] فالتشريعات أسهل من العقائد، والنُّظم أيسر من التصورات. وآيات التشريع حوالي خمسمائة آية في مقابل آلاف من آيات التصورات. ويمكن التمييز بينهما بعدة سماتٍ عامة أهمها:

(أ) كل سورة فيها من القصص فهي مكية.[٧] فالقصص ترويح عن النفس. هو تحقق صدق العقائد في التاريخ عن طريق وصف المراحل السابقة للوحي لدى الأمم السالفة لأخذ العظة والعبرة. فالوحي واقع وتاريخ، صدقه تحقُّقه، وتحققه صدقه. اكتمال الوحي مرتبط بتطوره، وبنيته تحققٌ لتكوينه، فالحقيقة بنتُ التاريخ، والاكتمال تحقق الماضي في الحاضر. وظيفة القصص هو إظهار البُعد التاريخي في الوحي من أجل بلورة الوعي التاريخي في الوعي الإنساني، ليست وظيفة القصص التحول من الحاضر إلى الماضي، ومن الواقع إلى المتخيَّل بل العكس، التحول من الماضي إلى الحاضر، ومن المتخيل

---

[٥] وفي رأيٍ آخر أنه نزل على امتداد عشرين عامًا (الواحدي: أسباب النزول، ص٣).

[٦] المدني: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، القتال، الفتح، الحجرات، الحديد إلى آخر التحريم، ولم يكن، والنصر، والفلق، والناس. وفي الفاتحة، والرعد، والحج، والصف، والإنسان، والإخلاص خلاف. والباقي مكي (ابن البارزي: ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، ص٦٢).

[٧] السابق، ص٦٢.

إلى الواقع من أجل العظة والعبرة والتعلم. فالوعي التاريخي بُعد من أبعاد الوعي الذاتي. وكل سورة فيها قصة آدم وإبليس، باستثناء البقرة، فهي مكية. فهي نموذج القصة الخيالية التي تُصوِّر نشأة الخلق والتحدي بين الإنسان وأعدائه، وتسليح الإنسان بالوحي حتى يقوى به في معركته. هي قصة الغواية واتباع الأهواء التي قد تؤدي بالإنسان إلى التهلكة، واعترافه بالخطأ، وتوبته، وبداية حياته من جديد صفحةً بيضاء بعد تعلمه من التجربة السابقة.[٨]

(ب) كل سورة افتُتحت بالحروف سوى البقرة وآل عمران فهي مكية. وفي «الرعد» خلاف. فوظيفة الحروف التنبيه والإيقاظ والتأثير في النفس، وهي وظائف التصورات وليست التشريعات التي تقوم على رعاية المصالح. الحروف خاضعة للتأويل، والتأويل فهم وتصوير، وهو من جانب العقائد. في حين أن النظم أنساقٌ موضوعية تحقق المصالح العامة.[٩]

(جـ) كل سورة فيها «كلا» فهي مكية. وهي حرف تنبيه ونفي. وهي من أساليب البلاغة وفنون القول. الغاية منها التأثير في النفوس، وليس تحقيق المصالح العامة. هما حرفا تنبيه وإيقاظ من أجل إثارة الانتباه لمعانٍ وأفكار، وليس لنُظُم وتشريعات.[١٠]

(د) تبدأ السور المكية بنداء: «يا أيها النّاس» وليس «يا أيها الذين آمنوا»؛ فهو خطاب للناس جميعًا بصرف النظر عن معتقداتهم وإيمانهم. الأول خطابٌ عام، والثاني خاص، الأول للبشر من حيث هم بشر، والثاني للبشر من حيث هم مؤمنون. فالوحي يخاطب الناس جميعًا بصرف النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم، يتوجه إلى إنسانيتهم من حيث هم بشر؛ فالإنسانية تسبق الإيمانية، والبشرية تسبق العقائدية.[١١]

(٣) التداخل بين المكي والمدني

ولا يعني المكي والمدني الفصل التام بين الزمان، بل قد يتداخل الزمان في المكان. فالمكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها. وقد يتجاوز الخطاب المكان والزمان معًا فيصبح

[٨] السابق، ص٦٢.

[٩] السابق، ص٦٢.

[١٠] السابق، ص٦١.

[١١] السابق، ص٦٢؛ ابن حجر العسقلاني: العجاب في بيان الأسباب، ص٢٥-٢٦.

المكي خطاب أهل مكة والمدني خطاب أهل المدينة بصرف النظر عن المكان والزمان. فالخطاب مرتبط بالبشر.

ومن فوائده معرفة الناسخ والمنسوخ، فالمنسوخ ما أتى سابقًا والناسخ ما أتى لاحقًا. والتصورات لا تُنسخ بل النسخ في الأحكام. ولما كانت الأحكام في المدني فالمدني اللاحق ينسخ المدني السابق. يعرض المكي والمدني من خلال الناسخ والمنسوخ. فبالرغم من أن الناسخ متأخر في نزوله عن المنسوخ إلا أنه في التأليف قد يكون متقدمًا عليه؛ لذلك قد يتأخر المكي عن المدني في السور، ويكون الناسخ مدنيًّا ناسخًا لمكي أو لمدني من قبله.[١٢]

ويعرفان سماعًا وقياسًا، سماعًا بالتوقيف، وقياسًا بالتمييز بين السابق واللاحق. ولا يعني المكي والمدني أي تغيير في ماهية الوحي أو طبيعته كما يدعي بعض المستشرقين أو مدعو التجديد التصوري والتشريعي.[١٣]

ولا يهم عدد السور والآيات المكية والمدنية إلا من حيث دلالاتها؛ فالكمُّ له دلالاته على الكيف، ولا يهم الحصر بل يكفي الدلالة. فالمكي أكبر من المدني؛ أي أن التصور له الأولوية على النظام، والمكي أكثر من المدني لأن المهم تصور العالم قبل النظام، والعقيدة قبل الشريعة؛ العقيدة ثابتة والشريعة متغيرة طبقًا للمصالح. ولا يهم تحديد السور المختلف عليها؛ فالقضية ليست تاريخية بل دلاليةٌ خالصة، بل قد تساعد الدلالة في ترجيح الخلاف التاريخي؛ فالفاتحة مكية لأنها تتضمن التصور لا النظام. ولا يهم رصد أقوال السابقين، فالمشكلة تاريخيةٌ صرفة لم تعد لها دلالة اليوم.[١٤]

وقد لا تكون السورة كلها مكية بل تتداخلها آياتٌ مدنية، وقد لا تكون السورة كلها مدنية بل تتداخلها آيات مكية؛ وذلك لتداخل التصور والنظام. فالنظام ينبثق من التصور والتصور أساس النظام. فالتمييز بين المكي والمدني ليس حاسمًا قاطعًا فاصلًا؛ نظرًا للوحدة الموضوعية للوحي.[١٥]

---

[١٢] ابن البارزي: تاريخ القرآن العزيز ومنسوخه، ص٦١.

[١٣] الإتقان، ج١، ٢٣؛ البرهان، ج١، ١٨٧–٢٠٥.

[١٤] الإتقان، ص٢٨–٢٩، يقال إن المدني عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، والباقي مكي أي قرابة ٨٢ سورة مكية.

[١٥] السابق، ص٣٠–٣٧.

بعض الآيات نزلت بمكة وحكمها مدني، والبعض الآخر نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل في المدينة في أهل مكة.[١٦] فالمعيار ليس المكان بل ما ينزل في المكان، عقيدة أم شريعة، تصورًا أم نظامًا.

أما وضع المكي داخل المدني أو المدني داخل المكي فذاك أدخل في ترتيب الآيات والسور إذا كان الترتيب توقيفيًّا.[١٧] وربما للدلالة على أنه لا تمييز فاصل بينهما. التصور أساس النظام، والنظام يقوم على التصور. تتجلى العقيدة في الشريعة. وتستند الشريعة إلى العقيدة.

ولا تهم الأمكنة الفرعية الأخرى، الطائف، الطريق بين مكة والمدينة، الحديبية، وما حمل من المدينة إلى الحبشة. فهذه أماكنُ فرعية. فمكة والمدينة ليسا شرطَي الوحي بل مجرد وعاءَين له. ينزل الوحي طبقًا للحاجة. ومكة والمدينة هما المكانان الرئيسيان أي البيئة الاجتماعية. والطريق من مكة إلى المدينة ساعة الهجرة طريقٌ مؤقت، وطريق العودة من المدينة إلى مكة عام الفتح طريقٌ مؤقت كذلك، والحديبية مكانٌ مؤقت للقاء المسلمين بالكفار لعقد صلح بينهما وليس مكانًا دائمًا. والأماكن العرضية ليست تجمعاتٍ عمرانية لها مشاكلُ اجتماعية تحتاج إلى نزول الوحي.

ويشير الحضري والسفري إلى المكان ليس كمدينةٍ ثابتة، بل كسكون وحركة في المكان؛ في الحضر أو السفر أي إلى الطريق من مكة إلى المدينة أو من المدينة إلى مكة. وقد يعني الاستعجال وعدم انتظار الوحي حتى الوصول، ولا داعي للعجلة في عصر كانت المواصلات بطيئة قد تستغرق أشهرًا، والآن السفر قصير، وقد يعني حدوث واقعة في السفر تستدعي النظر أو مشكلة تتطلب الحل.[١٨]

(٤) من الحامل إلى المقدس

ونزول الوحي بمكة والمدينة لا يجعلهما مدينتَين مقدستَين، محطتَين للزيارة، والتبرك والمجاورة فيهما. فالمقدس هو المحمول وليس الحامل، والزيارة ليست للمكان بل لاستعادة

[١٦] السابق، ص٣٨.

[١٧] السابق، ص٤٧–٥٠.

[١٨] السابق، ص٥١–٥٧.

الذاكرة ولتفعيل الوحي في القلوب. زيارة المكان سياحة وتجارة وتأشيرات دخول وتحكُّم للنظم السياسية وللدول في المكان. تقديس المكان عود إلى الوثنية القديمة وإلى الكعبة عندما كانت مكانًا للآلهة وتجمُّعًا للأصنام، تمامًا مثل تقديس المصحف ورقًا وحبرًا وتجليدًا وقطيفةً مذهَّبة وليس الكلام المدوَّن فيه، ومثل تقديس سجادة الصلاة والسبحة والجلباب والذقن والطاقية، وليس شعائر الصلاة والاستفادة منها في الحفاظ على الوقت وتأدية الواجبات في أوقاتها على الفور وليس على التراخي، أداءً وليس قضاءً.

أهمية مكة تاريخيًّا أنها أول مدينة وضع فيها أول بيت لله؛ البيت الحرام، أقام فيها إبراهيم القواعد، وأصبحت مركزًا للحجيج وطُرقًا للتجارة ومكانًا مقدسًا قبل الإسلام وبعده، وفيها كانت تلتقي القبائل بصرف النظر عن ديانتها، يهوديةً أو نصرانيةً أو صابئةً أو مجوسيةً أو عبادة الأصنام. وليست أهميتها أن بها منازل الصحابة ودورهم وأماكن لقائهم؛ فكثير منها اندثر، وما بقي أصبح تجارةً وسياحة، وكثير من الزوار يأتون تجارة للربح أو للتهادي بملابسَ مباركةٍ من مدينة الرسول وزمزمياتٍ مملوءة بمياه زمزم لشفاء المرضى ببركة إبراهيم.

وأهمية المدينة تاريخيًّا؛ ففيها تحول الوحي من عقيدة إلى تشريع، ومن تصوُّر إلى نظام، ومن دعوة إلى دولة، ومن نبوة إلى حكم، وفيها أُعلن «ميثاق المدينة» لبيان تعددية الأمة. فكل أصحاب دين أمة لها استقلالها الذاتي؛ تحكم بشريعتها. وتتساوى الأمم جميعًا داخل الأمة الإسلامية في الحقوق والواجبات. وهو ما سمي فيما بعدُ أثناء الدولة العثمانية «نظام الملة» والذي انحدر في الدولة الحديثة إلى نظام الطائفة ضد المواطنة والمساواة في الحقوق والواجبات، وهو المقصود من نظام الملة القديم.

ليست أهميتها أن بها قبر الرسول «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة.» فلا تجوز زيارة القبور ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ وكما وضحت الوهابية؛ كبرى الحركات الإصلاحية الحديثة. ليست أهمية مكة والمدينة أنها تجعل الدولة الحديثة تحتضنها دولة خلافة كما كانت دمشق وبغداد والقاهرة وإسطنبول قبل إلغاء النظام. ولا تجعل لهذه الدولة أي ميزة بالنسبة للعقيدة أو الشريعة في الفهم بالتوجيه. ولا تجعل في عَلَمها الوطني به شعار التوحيد أو سيفًا؛ فقد انقضى عصر السيوف التي أصبحت رمزًا للقوة والعنف والقتل والإرهاب، بتعبير أعداء المسلمين. والأعلام الوطنية رموز بألوانها الأحمر والأزرق والأبيض والأسود، وبرسومها ورقة شجرة أو شجرة أرز أو بنجمة أو هلال أو بمطرقة ومنجل رمزَين للعامل والفلاح. ولا تشرعان ألقابًا لرؤساء دولها مثل

«خادم الحرمين الشريفين». فكل سلوكٍ بشري من قمار وتبذير وانحراف وتسلُّط وتبعية للأجنبي يُحسَب على السلوك الديني. ويتساءل الناس حول التناقض بين المثال والواقع، بين القول والعمل.

وإذا كانت مكة والمدينة مكانَين لظهور الحق والإعلان عن العدل فالمدن كثيرة اليوم التي يضيع فيها الحق ويُنتهَك فيها العدل مثل دارفور وكردفان ومقديشو وكيسمايو. وكل مدينةٍ مهمَّشةٍ مملوءة بالعشوائيات، يكتنفها الفقر والضنك والبطالة وتجارة المخدرات والجنس مثل سكان المقابر والنجوع وأكواخ الصفيح، وهي كل مدينة يموت سكانها من الجوع والعطش أو يغرقون تحت مياه الفيضان أو يُغتالون في الحروب الأهلية بين أمراء الحروب في النزاع على السلطة.

ما يظنه الناس مقدسًا في سلوكهم الشعبي هو الدنس مثل المدن المقدسة، وما يظنه الناس دنسًا هو المقدس، الجوع والعطش والمرض والجهل والبطالة وتجارة الجنس لمقاومة الفقر والحفاظ على الحياة. أحبار اليهود وكهنتهم ليسوا مقدسين بل مريم المجدلية هي المقدسة «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر.» التجار في المعبد ليسوا مقدسين بل هم الذين حوَّلوا بيت الله إلى متجر. أشراف مكة وسدنة قريش ليسوا مقدسين بل هم العبيد والمستضعفون. ليس أغنياء اليهود والكتبة هم المقدسين بل المرضى والبرصى والصُّم والعُمي الذين شفاهم المسيح.

المكان، مكة والمدينة، ليس قسمًا كبيرًا في علوم القرآن، بل هو أصغر الأقسام. ومع ذلك هو حاملٌ موضوعي للوحي مع البيئة الاجتماعية والزمان. والثلاثة أبعاد للتاريخ.

الفصل الثاني

البيئة الاجتماعية

أولًا: كيفية النزول

وتعني كيفية النزول أول وآخر وزمن النزول، والتنجيم، والقصص والتوجيه السياسي، والنزول بالمعنى والحرف، وتكرار النزول وتأخره عن الحكم، والأنبياء من يتم عليهم النزول. وتعني البيئة الاجتماعية المجتمع الصغير أو الكبير الذي نزلت فيه الآية لحل مشاكله والردود على أسئلته، والاستجابة إلى مطالبه. وقد تتعدد المصطلحات بين البيئة الاجتماعية، والمجتمع والجماعة، والوضع الاجتماعي، والظروف الاجتماعية. وكلها تشير إلى شيءٍ واحد وهي البيئة الاجتماعية التي نزلت فيها الآية. وقد يسمى أيضًا الموقف. وهو مصطلح في العلوم الأخلاقية فيما يسمى بأخلاق المواقف.[1] ويعني الموقف كل ما يتعلق بالنزول وفي مقدمته أسباب النزول، وأول وآخر ما نزل، وعلى مَن نزل، وتكرار النزول، وما يتضمنه من أحكام، وما نزل مفرَّقًا أو مجمَّعًا، مفردًا أو مشيَّعًا، وما نزل على محمد، وما نزل على الأنبياء السابقين، وكيفية إنزاله ... إلخ. وهو موقف لأن النزول كان في موقفٍ إنساني. والزمان والمكان ما هما إلا ركيزتان ودعامتان للموقف، والكل يشير إلى الواقع؛ النزول من السماء إلى الأرض، من الوحي إلى الواقع.

(١) أدبيات الموضوع

وقد أَلَّف فيه كثيرون، وأهم هذه التآليف.[2]

[1] أخلاق المواقف Situatinal Ethics.

(أ) «أسباب النزول» للواحدي (٤٦٨هـ)[٣]

هو تقريبًا أشهر نص في الموضوع. يضع بعض المقدمات العامة أولًا مثل حول نزول القرآن منهجًا على ثمانية عشر عامًا، ثمانٍ بمكة وعشر بالمدينة، وأول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه، وشهر النزول وهو رمضان، وآية التسمية ونزولها ثم الفاتحة.[٤] ثم يبدأ عرض السور سورةً سورة، وآيةً آية لبيان سبب نزولها حتى لو تعددت الروايات.[٥] وتختلف أسباب النزول طولًا وقصرًا. ولا تقتصر فقط على الأحكام بل تشمل أيضًا الأفكار. وليست فقط في الحاضر بل تصحيح الأسباب التي ذكرها السابقون. وهو من أوضح الكتب وأكثرها دلالة على الموضوع، ويعتبر نصًّا نموذجيًّا لتحليل الصلة بين النص والواقع.[٦]

(ب) «التعريف والإعلام فيما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام» للسهيلي (٥٨١هـ)[٧]

وتبيُّن الحوامل التاريخية والمناسبات والأشخاص والأماكن والبيئة التي نزل فيها الوحي، وهو ما أسماه الأصوليون «عموم الحكم وخصوص السبب». وتأتي هذه المعلومات إما

[٢] وقد ألَّف فيه علي بن المديني شيخ البخاري، والواحدي بالرغم مما فيه من نقائص، واختصار الجعبري له بحذف الأسانيد وعدم زيادة شيء، وأبو الفضل بن حجر توفي وهو ما زال مسودة. وألَّف فيه السيوطي «لباب النقول في أسباب النزول» (الإتقان، ج١، ٨٢؛ البرهان، ج١، ٢٢–٣٤).

[٣] أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

[٤] السابق، ص٣–١١.

[٥] السابق، ١١–٢٦٤.

[٦] وقد اعتمدنا عليه من قبلُ في دراسة «النص والواقع» دراسة في أسباب النزول، هموم الفكر والوطن ج١؛ التراث والعصر والحداثة، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٧–٥٦. وقد دخلت بعض فقرات هذه الدراسة في هذا الفصل.

[٧] عبد الرحمن السهيلي: التعريف والإعلام فيما أُبهم في القرآن من أسماء الأعلام، دراسة وتحقيق عبد الله محمد علي النقراط، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، السلسلة التراثية (١٠)، طرابلس، الجماهيرية الليبية.

من الروايات في كتب التاريخ والتفسير أو من الشعر العربي أو من الإسرائيليات إذا كان الموضوع قد تم تناوله من قبلُ في التوراة.[8] والاعتماد على الذاكرة والحفظ والروايات الشفاهية عرضة للخطأ.[9]

والسؤال هو: ما أهمية هذه الحوامل التاريخية بالنسبة للوحي؟ هي مجرد حوامل لا محمولات. لا تدل بأشخاصها بل بدلالاتها. ليس المقصود تحديد الأشخاص التاريخية بأعيانها بل بدلالاتها، بل إن أسماء الأنبياء لا تهم بل رسالتهم. ولا تعني آية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أسماء من نزل فيهم القرآن وأشخاص الأنبياء بل مبادئ اللغات وطرق الكلام ووسائل المخاطبة وأسماء الأشياء لأنه لم يوجد بشر ساعة الخلق الأول.

كما تُحوِّل هذه الحوامل التاريخية الوحي إلى مجرد تاريخ، وتقضى على عمومه. وتجعله أقرب إلى الحوادث الماضية.[10] تسيطر عليه النزعة التاريخية التي سادت في القرن التاسع عشر في الغرب في النقد التاريخي للكتب المقدسة بالمنهج التاريخي وإثبات صحة الإنجيل بمدى التطابق بين الوصف التاريخي في النص؛ الزمان والمكان والأسماء، مع الواقع في الناصرة والقدس والجليل وتحويل التاريخ إلى جغرافيا.

كما أنه يربط الوحي بالتاريخ، والعموم بالخصوص. وهو النقد الذي يوجهه المحافظون الحاليون لأصحاب «تاريخية النص» أو «تاريخية القرآن» أو «تاريخية الوحي». ويجعله حوادث ماضية لا تمتد إلى الحاضر أو إلى المستقبل. وتشبه ظروف الوحي وتاريخيته الكتب المقدسة الأخرى التوراة والإنجيل. ويتم استعراض ذلك سورةً سورة، وآيةً آية أسوة بالتفسير الطولي للقرآن دون ترتيبٍ موضوعي أو بنيةٍ نظرية تجمع الأسماء كلها في نظريةٍ عامة للتسمية.[11]

---

[8] الشعر العربي، السابق، ص١٧.

[9] وهي المدرسة التوراتية في القدس التي أسسها الأب لاجرانج. Lécole biblique de Jerusalem, le père lagrange: la méthode historique.

[10] الأعلام المذكورة: الطبري (٣٣)، النقاش (١٨)، ابن قتيبة (١٦)، المطلبي (١٥)، ابن عباس (١٤)، ابن عبد البر، المسعودي، الدارقطني (٧)، الترمذي، البكري، البخاري، ابن هشام (٦)، ابن أبي الدنيا، المقري (٥)، مجاهد، النحاس، الحارث بن أسامة، وهب بن منبه (٣)، ابن العربي، عكرمة، عمر بن مالك، الزجاج، الهروي، الأشبيلي، القشيري، السرقسطي، ابن جني، الخدري، الفرزدق، ابن فورك، كعب الأحبار، معاوية، مقاتل، النابغة الذبياني، أبو نواس (١) وآخرون.

[11] وهو ما يسمى في فلسفة اللغة المعاصرة في الغرب Names and Naming. عدد الآيات المذكورة (٣٧٨)، الأحاديث (٨٨)، الأشعار (٢٢)، الأمثال (٣).

(ج) «العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر العسقلاني (٨٥١هـ)[١٢]

وهو في أسباب النزول مع إبداء الدهشة والعجب أي عظم المقارنة بين الآية وسبب نزولها لمعرفة روح الإسلام وطبيعة الوحي، يتتبع الأسباب سورةً سورة وآيةً آية. وهو غير كامل، فقط من الفاتحة حتى النساء. ويخلو من أي مقدمةٍ نظرية؛ ربما لانتهاء النظريات. يضم مجرد رصد لأسباب نزول الآيات؛ ثلاثمائة وتسع عشرة آية. ولا ضير من التدوين مرةً ثانية حرصًا على التراث من الضياع بعد الغارات على العالم الإسلامي من الشرق والغرب، من التتار والمغول شرقًا وسقوط بغداد، ومن الصليبية غربًا بعد سقوط غرناطة. يفسر القرآن بالقرآن، ويعتمد على كتب التفسير السابقة التي ذكرت أسباب النزول. فالعلم نقل عن السابقين، وحفظ للتراث. والسؤال هو: ما مصادر كتب التفسير في أسباب النزول؟ كما يعتمد على الروايات والأسانيد. والتفسير بالقرآن يتجاوز التفسير بالحديث. ويغيب الشعر لبُعد الموضوع عن البلاغة وفنون القول. وتغيب الدلالات العامة لأسباب النزول وتجميعها في حقولٍ دلالية حتى ينتظم الكل لأجزاء الوحي بالرغم من صعوبة وضع أسباب نزول ثلاثمائة وتسع عشرة آية في رؤيةٍ واحدة. ويذكر أكثر من سبب للآية الواحدة؛ لذلك تبرز أهمية التوفيق بين الروايات أو اختيار أنسبها، يساعد على ذلك روح الإسلام وطبيعة الوحي. وقد يظهر بعض نقد روايات أسباب النزول السابقة؛ فخصوص السبب وعموم الحكم ليس من أسباب النزول.[١٣] وقد يكون النسخ أحد أسباب النزول.[١٤]

(د) «الإكليل في استنباط التنزيل» للسيوطي (٩١١هـ)

وهو الحافظ الجامع لمواد السابقين.[١٥] ويتراوح بين التنزيل والتأويل، عرضًا طوليًّا، سورةً سورة، وآيةً آية على نحوٍ انتقائي. والترتيب الزماني أو الموضوعي أفضل بدلًا من تناثر

[١٢] الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني: العجاب في بيان الأسباب، تحقيق وتعليق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ.

[١٣] السابق، ص٢١٦.

[١٤] السابق، ص٢٣٣.

[١٥] الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: الإكليل في استنباط التنزيل، تحقيق سيف الدين عبد القادر، الكاتب خريج جامعة الأزهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ.

الموضوعات وتجزئتها عبر السور، دون أي مقدمةٍ نظرية توضح الالتباس. فالتأويل لا يستقرئ بل يستنبط من النص أو من الشعور، في حين أن التنزيل يستقرئ من الواقع ولا يستنبط من الذهن. الاستنباط للعقائد والأخلاق والشرائع، كل شيء من الآيات. ولا يركز الكتاب على الأحكام وحدها فالقرآن هو كل شيء. يعني الاستنباط هنا المعنى العام أي الفهم وليس المعنى المنطقي الخاص أي الاستدلال. الهدف فهم النص وليس استنباط الأحكام أو تأويل النص. طبقًا لعنوان الكتاب يدخل في «أسباب النزول» ولكنه ليس كذلك؛ إذ يستخرج الموضوعات من الآيات مع بعض التأويل. فلا غنى للتنزيل عن التأويل. وتذكر «أسباب النزول» و«الناسخ والمنسوخ» مع استنباط التنزيل، وهو أقرب إلى التفسير.

يعتمد على أقوال السابقين خاصة المفسرين مثل الغزالي وابن عربي والبيضاوي. هو نوع من التفسير الشامل وإن صغر حجمه. يفسر القرآن بالقرآن أكثر من القرآن بالحديث أو الشعر. والحديث نفسه تفسير للقرآن وتناصٌّ معه. كما تُفسَّر الآية بالتعيين، وربط العموم بالخصوص، وتحويل المعنى إلى علامة. ولا يخلو من الجدل العقائدي. فتذكر المعتزلة والدهرية والقدرية مع نزعةٍ سلفيةٍ واضحة، وجعل الوحي متضمنًا لكل الحقائق، والدخول في جدل القياس بين الإثبات والإنكار.[١٦]

(هـ) «لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي» (٩١١هـ)

وهو كتاب تجميعي كما يدل على ذلك العنوان، يعتمد على كتب تفسير السابقين وعلى آراء الفقهاء السابقين خاصة ابن تيمية،[١٧] بالرغم من التنبيه على طرق الرواية المسند منها إلى الصحابة أو إلى المفسرين أو «أسباب النزول» للواحدي أشهر الكتب في الموضوع. ويتميز «لباب النقول» عنه بالاختصار والجمع الكثير وتخريج الأحاديث، وتمييز الصحيح من غيره والمقبول من المردود، والجمع بين الروايات المتعددة، وتنحية ما ليس من أسباب النزول.[١٨] وطريقها الرواية والسماع لمن شاهدوا التنزيل.[١٩] وتتفق الروايات وتختلف، المهم إيجاد دلالاتها على بنية الوحي وروح الإسلام.

ولأسباب النزول فوائدُ كثيرة بالرغم من أنها تبدو أقرب إلى التاريخ مثل الوقوف على المعنى، وإزالة الإشكال.[٢٠] تستعرض سورةً سورة وآيةً آية على نحوٍ طولي. ويصحح

---

[١٦] نقد المعتزلة، السابق، ص١٢٤؛ نقد القدرية ص١٥٢، ٢٧٩، ٢٨٢؛ الرد على الدهرية ص٢٣٥؛ جدل القياس ص١٤٨.

بعض مواقف السابقين. وتبدو الاتجاهات الكبرى في أسباب النزول مثل تصحيح مواقف النبي، والإجابة نيابةً عنه، وبعض المسائل العملية الخاصة مثل أحوال الأسرة، والعامة مثل قضايا الحرب والسلام، والموقف من بعض الجماعات المعادية مثل اليهود، وظهور بعض الجوانب الخيالية مثل كلام الشيطان والرد عليه وتدخل جبريل. وتبدو بعض المسائل وقد انقضت بفضل الزمن مثل صيد الكلاب.[٢١]

(٢) أول وآخر وزمان النزول

أول ما نزل «اقرأ» أي العلم. ليست القراءة الأبجدية بل القراءة العلمية أي المعرفة والفهم وليست «الفاتحة» أو «المدثر» أو «المزمل».[٢٢] ولا تعني القراءة فعل الأمر القراءة والكتابة للحروف الهجائية بل العلم والتدبر والمعرفة. فالقراءة وسيلة وليست غاية، أداة وليست قصدًا.[٢٣] أول ما نزل هو الإعلان الأول، اللحن الأول في السيمفونية مثل ضربات القدر في السيمفونية الخامسة لبيتهوفن. هو «ترومبيت» اليقظة للجند في الصباح، وجرس الطابور المدرسي، ودقات الساعة، ودقات خشبة المسرح إعلانًا عن بداية المسرحية. هو الإعلان عن البداية قبل النهاية، الكشف عن المنبع قبل المصب، والإمكان قبل التحقق. هو الإعلان عن بداية الوعي، معرفةً وعلمًا وقراءةً وكتابةً، قبل القيام للإنذار والارتعاش والإحساس بالبرودة من تلقي المعرفة الجديدة. ولا يهم مكان النزول، مكة أو المدينة بل مضمون النزول، القراءة والمعرفة. ولا يهم أول ما نزل في موضوعٍ معين مثل القتال أو الخمر بل البداية على الإطلاق، البداية الكلية.[٢٤]

---

[١٧] لباب النقول ص٣.

[١٨] «لخصتُه من جوامع الحديث والأصول، وحررته من تفاسير أهل النقول» (السابق، ص٣).

[١٩] السابق، ص٣-٤.

[٢٠] السابق، ص٧٥، ٧٧، ٨٧.

[٢١] السابق، ص٧٦.

[٢٢] البرهان ج١، ٢٠٦–٢١٠.

[٢٣] الواحدي: أسباب النزول، ص٥–٧.

[٢٤] الإتقان ج١، ص٦–٧٦؛ لذلك تسبق آية ﴿اقْرَأْ﴾ آيتي ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ وسورة «الفاتحة».

وآخر ما نزل مرتبط بأوله أي التحقق بعد الإمكان، والمصب بعد المنبع، والنهاية بعد البداية، والإعلان عن الكمال والتمام والرضا، واستقلال العقل وحرية الإرادة. ليست النهاية موضوعًا معينًا، حكمًا شرعيًّا أو إحالة إلى الرسول أو إشارة إلى اليوم الآخر والاستحقاق، بل الإعلان عن الكمال والتمام.[٢٥] وآخر ما نزل ليست أمورًا تشريعية مثل الكلالة أو الحرب، ولا أمورًا عقائديةً أخروية أو شخصية تتعلق بالرسول بل الآيات التي تدل على النهاية، وتحقيق الرسالة، وانتهاء المهمة.[٢٦]

وقد نزل القرآن في شهر رمضان. بل نزلت الكتب المقدسة السابقة في نفس الشهر في أيامٍ مختلفة.[٢٧] ثم تحول شهر رمضان في الدين الشعبي إلى شهرٍ مبارك، ويتم الاحتفال بنزول القرآن وبليلة القدر وبالإسراء والمعراج فيه، وتم التعبير عن ذلك في الأغاني الشعبية.[٢٨]

فإن قيل نزل في شهر رمضان فلفضله على باقي الشهور، وإن قيل في ليلة القدر فلفضلها على باقي الليالي. وهو دور، نزول القرآن في ليلة القدر وفضل ليلة القدر لنزول القرآن. ولا تتحدد ليلة القدر بليلةٍ معينة؛ السابع والعشرين، أو بفترةٍ معينة؛ العشر الأواخر من رمضان. والتخصيص بليلة البدر نوع من التفخيم والتعظيم؛ فالبدر أعظم من التربيع، والتربيع أفضل من الهلال، والهلال يُرى وليس السواد الحالك. وتؤكد الأمثال العامية على أفضلية البدر بتشبيه وجه الحبيبة به. بل يتم التفصيل في مواعيد نزول الكتب المقدسة السابقة، التوراة في السادس من رمضان، والإنجيل في الثالث عشر، والزبور في الثامن عشر، والقرآن في الرابع والعشرين في حديث، وهو ما يتفق مع بعثة الرسول في شهر ربيع.[٢٩]

---

[٢٥] الإتقان ج١، ص٧٧–٨١.

[٢٦] التشريعية مثل ﴿اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ أو في الحرب آخر سورة «براءة»، والأخروية مثل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾، والشخصية التي تتعلق بالرسول مثل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾. وآيات النهاية مثل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أو ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، الواحدي: أسباب النزول، ص٨-٩.

[٢٧] صحف إبراهيم في الأول من رمضان، والتوراة في السادس، والإنجيل في الثالث عشر، والزبور في الثامن عشر، والقرآن في الرابع والعشرين، السابق، ص٩.

وقد تحولت الليلة إلى احتفالٍ رسمي وشعبي؛ تعطى فيها جوائز حفظ القرآن للصبية، مصريين وعربًا ومسلمين. ينتظرها الناس كما ينتظرون الفرج للدعاء وتحقيق المطالب والسؤال، مع أن زمن الوحي قد انتهى، وترك الإنسان لعقله وإرادته لتحقيق ما يريد.

(٣) التنجيم

والغاية من أسباب النزول هو تنزيل القرآن وتفريقه طبقًا للحوادث وهو «التنجيم»؛ فالقرآن مواكب للحوادث، والآية جدل بين النص والواقع، وكلاهما واجهتان لعملةٍ واحدة، يتقدم الواقع النص أحيانًا ويتقدم النص الواقع أحيانًا أخرى.[٣٠] وكانت أمنية أهل الكتاب أن ينزل القرآن جملةً واحدة مثل باقي الكتب المقدسة، وبالتالي ينتهي التفاعل بين النص والواقع.[٣١]

«التنجيم» هو ما نزل من القرآن مفرَّقًا طبقًا لأسباب النزول أي استدعاء الواقع للوحي، واستجابة الوحي لنداء الواقع. وقد يكون ما نزل آيةً وسورة، ونموذجها السور القصار. وما نزل جمعًا كان في الأصل مفرقًا ثم جُمع توقيفًا من الرسول ربما طبقًا للموضوع أو استكمال الرؤية أو الحكم، ونموذج ذلك السور الطوال.[٣٢]

وقد يكون سبب التنجيم تثبيت الفؤاد وحفظ الذكر؛ فالنزول دفعةً واحدة عرضة للنسيان. فالحفظ في الموقف أسرع من الحفظ خارج الزمان والمكان.[٣٣] إلا أن السبب الرئيسي في التنجيم أن القرآن كان ينزل حسب الحاجة، وتحقيقًا لمطالب، وإجابة على سؤال. والواقع تتنوع أسئلته، وتتجدد مطالبه، ولا يوجد سؤالٌ واحد لكل العصور ولكافة المجتمعات.[٣٤] نزل القرآن منجَّمًا أي مفرَّقًا على ثلاث وعشرين سنة طبقًا للحاجة. ولا

---

[٢٨] أشهرها أغنية عبد المطلب التي تذاع ليلة رمضان كل عام «رمضان جانا وفرحنا به.»

[٢٩] الإتقان ج١، ١١٦–١٢٠.

[٣٠] ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾.

[٣١] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾.

[٣٢] الإتقان ج١، ١٠٧–١٠٨.

[٣٣] السابق، ج١، ١٢١–١٢٤.

[٣٤] «الذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشرًا وأكثر وأقل …» (السابق، ص١٢٤).

فائدة من نزوله جملةً واحدة إلى السماء الدنيا وبقائه دون نفع ما دام لم ينزل على الأرض. في حين نزلت التوراة جملةً واحدة. فالوصايا العشر مبادئُ أخلاقيةٌ عامة، لا مناسباتٌ ظرفية لها. هي ما ينبغي أن يكون وليست ما هو كائن. ولا فائدة من نزوله إلى السماء الدنيا في عشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ليلة، في كل ليلة نزول سنة. فهذا تصورٌ إنساني للبيع بالجملة أو القطاعي أو التاجر الوسيط بينهما. والأقرب إلى الصواب نزوله منجَّمًا في أوقاتٍ مختلفة طبقًا للحاجة، بصرف النظر عن اختزانه قبل ذلك في السماء الدنيا أو في ليلة القدر.

ونزوله من اللوح المحفوظ جملةً واحدة ثم نجمته الحفظة على جبريل في عشرين ليلة، ثم نجَّمه جبريل على محمد في عشرين سنة تدخُّل الخيال في الواقع وإدخال موضوعاتٍ متعالية كاللوح المحفوظ وجبريل والحفظة في موضوعٍ واقعيٍّ خالص وهو نزول الوحي في موقف، وتحويل الحفظة إلى السفرة الكرام الكاتبين تفصيلات لا براهين عليها.[٣٥] ويتدخل الخيال للتعظيم والتفخيم بإعلام سكان السموات السبع بأن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل.[٣٦]

لا تتعلق كيفية الإنزال بالمحور الرأسي للوحي بل بالمحور الأفقي؛ علاقة المرسل بالرسول، بل علاقة الرسول بالمرسل إليهم. وهو أدخل في نظرية النبوة في علم أصول الدين، ونظرية الاتصال في علوم الحكمة ونظرية الولاية في علوم التصوف.[٣٧] وكلها موضوعاتٌ متعالية تخرج عن نطاق الحس والعقل. ولا تعتمد إلا على الرواية، والرواية ظنية. والدليل النقلي دون دليلٍ عقليٍّ ظنيٌّ، ولا أهمية له في أي وقت نزل من السنوات أو الشهور أو الأيام، ومن أي مكان نزل من السماء على العموم أو السماء السابعة، وعن أي جانب في جبريل؛ عقله أم قلبه أم لسانه، وبأي لغة نزل قبل أن يبلغ به محمد. وتتعدد الآراء والروايات؛ مما يدل على أنها كلها ظنية. ويصعب معرفة الموضوعات المتعالية التي تخرج من نطاق الحس والعقل ووسائل المعرفة الإنسانية المباشرة وليست الروايات

---

[٣٥] السابق، ج١، ١١٦–١١٩.

[٣٦] «السر في إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا الكتاب آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لتنزله عليهم» (الإتقان ج١، ١١٩).

[٣٧] السابق، ج١، ١١٦–١٤٢؛ البرهان ج١، ٢٢٨–٢٣٣.

والأخبار.[٣٨] كيفية نزول موضوعاتٍ متعالية لا دليل عليها.[٣٩] ومنها كيفيات يعتمد عليها في تبليغ الوحي مثل حضور الملك في النوم حاملًا الوحي.[٤٠]

والنزول على أربعة مستويات أو مراحل طبقًا للروايات: الأول من العلم الإلهي إلى اللوح المحفوظ، والثاني من اللوح المحفوظ إلى جبريل، ذهنه وقلبه ولسانه، والثالث من جبريل إلى الرسول وبأي لغة، والرابع من الرسول إلى المرسل إليهم. لا يتعرض القدماء للمستوى الأول، وهو الخروج من العلم الإلهي إلى اللوح المحفوظ لأنه صعب، ويعتمد على الخيال وليس على الحس أو العقل أو حتى الرواية. إنما يتحدث القدماء عن نزول الوحي من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وهو ما يعادل العقل العاشر عند الحكماء الذي يتصل به عقل الفيلسوف للنيل من فيضه، ثم ينزل من السماء الدنيا طبقًا للحاجة.[٤١]

(٤) القصص والتوجيه السياسي

ليست أسباب النزول في قصص الأنبياء الذي يصف التاريخ الماضي الذي انقضى مثل سفينة نوح أو هبوط آدم إلى الأرض وطوافه حول العرش.[٤٢] فتلك قصة. الغاية منها

---

[٣٨] هناك ثلاثة أقوال:

(أ) نزل القرآن إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملةً واحدة ثم نزل بعد ذلك منجمًا في عشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين طبقًا لمدة إقامة الرسول بمكة بعد النبوة.

(ب) نزل القرآن إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ثم نزل بعدُ على الرسول منجمًا.

(ج) ابتداء النزول في ليلة القدر ثم نزل منجمًا بعد ذلك حسب الأوقات (البرهان ج١، ٢٢٨).

[٣٩] الإتقان ج١، ١٢٨–١٣٠. مثل صلصلة الجرس، النفث في الروع، صورة رجل، الملك في النوم.

[٤٠] السابق، ج١، ١١٦–١١٩.

[٤١] «أُنزل القرآن أولًا جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقًا حسب المصالح»، «فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه؛ ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجديد العهد به وما معه من الرسالة الواردة» (البرهان ج١، ١٣١).

[٤٢] ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤). ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥).

العظة والعبرة وليس استنباط الأحكام. وليس سبب نزول الآيات الرد على أهل النار وإمكانية الخروج منها فهذا تصويرٌ فني، الغاية منه التأثير في النفس ودفعها نحو التقوى وتجنيبها هذا المصير.[٤٣]

وإذا قرر المسلمون أخذ فداء للأسرى وهم أقرباؤهم تدخَّل جبريل طالبًا من محمد الخيار بين القتل أو الفداء وهو أقسى مما اقترحه المسلمون، وعادة ما يكون الوحي أرحم، وعادة ما يتدخل الصحابة بالرأي والمشورة، ويأتي الوحي مُرجِّحًا أحد الآراء.[٤٤]

القصص ليس من أسباب النزول لأنها تتعلق بأمور الحاضر وليس الماضي، بأمور الواقع وليس بأمور العبرة.[٤٥] تتعلق بحكمٍ خاص وليس بفكرةٍ عامة. تتعلق بالأحكام وليس بالأخبار.[٤٦] وكما أن النسخ لا يكون إلا في الأحكام وليس في القصص أو الأخبار كذلك أسباب النزول لا تكون إلا في الأحكام وليس في القصص أو الأخبار.

ولا تخلو أسباب النزول من التوجيه السياسي وتصويب الآيات نحو جماعات المعارضة مثل الخوارج، وقد نشأت بعد اكتمال الوحي ووفاة الرسول. فمن ينقض عهد الله ويفسد في الأرض ليسوا الخوارج أو «الحَرورية» الذين نزلوا بأرض حَروراء؛ فالواقعة حدثت بعد اكتمال الوحي.[٤٧] وقد كان الخوارج الخصوم السياسيين للأمويين وقت التدوين

---

[٤٣] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٧).

[٤٤] ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

[٤٥] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠). «وهذا ليس من أسباب النزول التي يكثر السؤال عنها ويبني عليها الأحكام أهل الكلام حيث يكون حكمًا عامًّا أو يختص بها من نزلت بسببه، وإنما هو من ذكر أسباب ما وقع في الأمم الماضية ...» (العجاب، ص٢١٦).

[٤٦] «والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة؛ فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الأخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح وعاد وبناء البيت ونحو ذلك. فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفي» (لباب النقول، ص٤).

[٤٧] ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: ٢٧).

من مؤرخي السلطة وكتاب السلطان. وكذلك تنبؤ الرسول بالقتال بين علي ومعاوية.[48] والسياق مختلف تفضيل الرسل. وهي قراءة الحاضر في الماضي. فالتدوين لم يخلُ من توجهات سياسية.

(٥) النزول: المعنى والحرف

ولا يعني الإنزال المعنى الحرفي، الهبوط من أعلى إلى أسفل وهو المعنى الاشتقاقي أي الإنزال المكاني، بل قد يعني الإظهار والكشف والبيان والإعلان والإبلاغ والإلهام والتلقي. إنما هو التصور الشعبي للصلة بين السماء والأرض، والملاك والرسول، والله والعالم.[49]

والإنزال باللفظ والمعنى وهو ما يميز الوحي القرآني عن باقي الكتب المقدسة. فلم يحفظ الإنجيل باللغة الأصلية وهي الآرامية، بل باللغة اليونانية ثم تُرجم إلى اللاتينية. وكذلك لم تدوَّن كتب بني إسرائيل منذ ساعة إعلانها بل بعد ذلك بسبعة قرون تقريبًا. كما حدث في أسفار موسى الخمسة التي دُوِّنت في القرن السابع قبل الميلاد وأثناء الأسر البابلي، في حين عاش موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد يكون الإنزال بالمعنى دون اللفظ، بالروح وليس بالبدن، ويختار النبي اللغة من عنده؛ العربية، واللهجة من عنده؛ لهجة قريش. وهو نفس المعنى الإنجيلي والتوراتي.

وقسمة القرآن قسمَين؛ طلب الله جبريل بالإنزال وطلب جبريل محمد بالإنزال لا يفيد في شيء إلا في الإغراق في البعد الرأسي على حساب البعد الأفقي. وسواء انخلع جبريل من صورة الملائكة إلى الصورة البشرية أو انخلع الرسول من الصورة البشرية إلى الصورة الملائكية فهما ظنان خياليان.[50]

النزول باللغة العربية، نزل من السماء بالعربية ثم ترجمه كل نبي لقومه بلغته. والحقيقة أن الوحي في العلم الإلهي بالمعني وليس باللفظ؛ فالعلم الإلهي ليس في حاجة

---

[48] ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

[49] الإتقان ج١، ١٢٥.

[50] الإتقان ج١، ١٢٦–١٢٧؛ البرهان ج١، ٢٢٨–٢٣٢.

إلى وسائل للتعبير والإيصال. القضية هي تدوين العلم الإلهي في اللوح المحفوظ بأي لغة؟ قد يكون حفظًا بالمعنى دون الحرف وهو ما يناقض مفهوم اللوح والقلم. وجبريل يأخذ الوحي من اللوح المحفوظ بلغته، قادر على فهم كل اللغات. وإذا أخذه بمعناه فبأي لغة يبلغ؟ وإذا بلغ بالعبرية لأنبياء بني إسرائيل، وبالآرامية لعيسى، وبالعربية لمحمد؛ فبأي لغة بلغ باقي الأنبياء لباقي الأقوام؟ الأغلب هو نزول جبريل بالقرآن بالعربية، وقراءة الرسول له بالعربية لفظًا ومعنًى.[٥١]

والنزول لفظٌ خاص بالقرآن دون السنة؛ فالسنة لم تنزل بل هي شرح وتعليقٌ شخصي من الرسول بحسِّه الفطري وذوقه الطبيعي وعاداته العربية لبعض تفصيلات القرآن وأوجه بيانه.[٥٢] السُّنَّة صعود وليست نزولًا، إدراكٌ مباشر، تعبيرٌ فطري، وسلوكٌ بديهي.

(٦) تكرار النزول وتأخر الحكم

وقد يتكرر نزول القرآن للتثبيت والتأكيد والتذكير والموعظة والتعظيم لشأنه. ويروى أن جبريل كان يراجع مع الرسول القرآن كل سنة مرةً لتدارك السهو والنسيان. والغرض من التكرار هنا الحفظ والمراجعة. وهو افتراض لا يمكن التثبت من صحته. كما يخشى من التكرار أن تثبت الآية مرتَين بسبب المراجعة. والظن أنها نزولٌ آخر. وقد يُنفى التكرار لأنه لا فائدة منه حرصًا على تفرد الآية.[٥٣]

وقد ينزل الوحي بما نزل به من قبلُ في المراحل السابقة تأكيدًا لوحدة الوحي واستمرار الرسالة؛ وهو ما دفع بعض المستشرقين إلى الحكم بأن الوحي الإسلامي مستمدٌّ من الوحي اليهودي والمسيحي من خلال روايات شبه الجزيرة العربية، من اليهودية العربية أو المسيحية العربية. وقد ينزل الوحي لأول مرة تأكيدًا على الجديد فيه الخاص بآخر مرحلة.[٥٤] ولا يهم أي آية من هذا النوع أو ذاك بقدر ما تهم الدلالة. إلا إذا كان الهدف معرفة جدل التواصل والانقطاع، ومدى شمولية الوحي وخصوصيته؛ فالقصاص

[٥١] السابق، ج١، ١٣٠–١٣١.

[٥٢] السابق، ص١٢٨.

[٥٣] السابق، ص١٠٢–١٠٣؛ البرهان ج١، ٢٩–٣٢.

[٥٤] السابق، ج١، ١١٢–١١٥.

مفروض في اليهودية، والرحمة والمغفرة منصوص عليها في المسيحية.[٥٥] والوصايا العشر منصوص عليها في التوراة، والموعظة على الجبل موجودة في الإنجيل.[٥٦] ويذكر سبب نزول آية التوراة وتكرارها مرةً ثانية.[٥٧]

وقد يتأخر الحكم عن النزول. وفي هذه الحالة يكون المقصود من الآية المعرفة وليس السلوك، العلم وليس العمل، الإيحاء وليس الفعل مثل نزول آية في الزكاة قبل إقرارها حكمًا.[٥٨] نزلت في مكة كعقائد قبل نزولها في المدينة كأحكام.[٥٩] ومثل آية في مكة تصف قبل فرض القتال وكان الأمر بالصلاة في مكة قبل تشريعه في المدينة، وقد تم الإعلان عن الأذان في مكة قبل تشريعه في المدينة مع أن الآية قد تعني مجرد الدعاء وليس الأذان.[٦٠] ونزلت آية الوضوء في مكة قبل التشريع للصلاة في المدينة. فالطهارة حسنة في ذاتها بصرف النظر عن كونها شرطًا للصلاة.[٦١]

ويدل تأخر النزول عن الحكم على أن الفعل طبيعي قبل نزول الوحي به، وأن الوحي يأتي متفقًا مع الطبيعة، وتشريعًا للممارسة. فقد كان الوضوء شرطًا للصلاة في مكة قبل أن يشرع في المدينة، وكانت الصدقات تعطى في مكة قبل أن تفرض في المدينة.[٦٢]

---

[٥٥] من آيات الاتصال ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

[٥٦] الوصايا العشر وهي: التوحيد، النهي عن الشرك، واليمين الكاذب، والعقوق، والقتل، والسرقة، والزنا، والزور، ومد العين إلى ما في يد الغير، والأمر بتعظيم السبت.

[٥٧] مثل ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾. ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾. ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

[٥٨] الإتقان ج١، ١٠٤–١٠٦.

[٥٩] مثل آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

[٦٠] وهي آية ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، وآية ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾.

[٦١] وهي آيات مثل ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

[٦٢] وهي آيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الإتقان ج١، ١٠٥–١٠٦).

فإذا كان النزول سابقًا على الحكم، فإن ذلك يعني استنباط الأحكام.[٦٣] ويقوم سبب النزول في هذه الحالة بوظيفة العلة في استنباط الحكم من الأصل، وتعني أسباب النزول حينئذٍ التخصيص؛ فاللفظ عام والسبب خاص.

وعند القدماء معرفة أسباب النزول ضرورية ولا خطورة منها على القول بتاريخية النص؛ إذ تساعد على معرفة وجه الحكم الشرعي والباعث عليه، كما تساعد على تعميمه إذا كان خاصًّا أو تخصيصه إذا كان عامًّا. قد يكون الحكم عامًّا والسبب خاصًّا كما يقول الأصوليون، سواء على مستوى الألفاظ أو مستوى المعاني، فقد يتوهم الحصر والعبرة بعموم اللفظ وخصوص السبب على حدٍّ سواء.

(٧) على من ينزل الوحي؟

(أ) نزول الوحي على الأنبياء

ولا ينزل الوحي إلا على الأنبياء. وقد يرد ذلك على لسان النبي فتأتي الآية مصدقة لقوله؛ مما جعل بعض المستشرقين يدَّعي أن القرآن كله من عند النبي.[٦٤] ويأتي ذلك معنًى لا لفظًا في معرض رد الرسول على اتهامه بأن ما يأتي به من وحي من عنده وليس من عند الله. فالوحي هنا يعبر عما في نفس الرسول ويؤكد عليه. وخطورة ذلك التعميم على كل آية يتحدث فيها الرسول عن نفسه.

وإذا نزل على الصحابة فإنما يصعد من قلوبهم بالفطرة والطبيعة. فلا فرق بين النزول والصعود، بين ما ينزل من وحي بناءً على استدعاء الواقع وما يصعد من الواقع كوحيٍ طبيعي. ثم يؤكده الوحي كنزول مؤكدًا الوحي كصعود. ويحدث ذلك لفظًا ومعنًى. ففي الموقف يعبر الإنسان بطبيعته عن شيء يأخذه الوحي وينزله مرةً ثانية بعد إعادة صياغته. وهو في الواقع قولٌ بشري.[٦٥] وعادةً ما كان يحدث ذلك لعُمر؛ لذلك جاء حديث

---

[٦٣] البرهان ج١، ٢٣–٣٢.

[٦٤] مثل إنكار الرسول أن يكون الوحي من عنده بقوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (الإتقان ج١، ١٠١).

[٦٥] الإتقان ج١، ٩٩–١٠١.

«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه.» الحق الوحي، والقلب المعنى، واللسان اللفظ.[٦٦] وقد وافق عمر الوحي في ثلاث.[٦٧]

وحدث ذلك مع غير عمر، وإن كان عمر هو النموذج؛ مع سعد بن معاذ، ومصعب بن عمير حامل اللواء.[٦٨] وقد يحدث ذلك مع امرأةٍ عادية، فتأتي آيةٌ مؤكدة لقولها معنًى وليس لفظًا.[٦٩] وقد يحدث ذلك على لسان أحد العباد بفطرته البشرية، وليس الإنسان المتميز صاحب الفطرة الفائقة.[٧٠]

(ب) أسماء وكُنى وألقاب الأنبياء

وبالرغم من أن القرآن مجموعة من الأفكار والآراء والمعاني والدلالات إلا أنها محمولة على وقائع وأسماء. فالعام يُحمل على الخاص. المواقع مثل «أسباب النزول» والأسماء

[٦٦] قال عمر «وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم.» وفي قولٍ آخر «وافقت ربي أو وافقني ربي في أربع.» قال مجاهد «كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن.»

[٦٧] قال عمر «يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى!» فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقال عمر «يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البارُّ والفاجر فلو أمرتهن أن يتحجبن!» فنزلت آية الحجاب. ولما اجتمع نساء الرسول عليه في الغيرة قال عمر لهن «عسى ربي إن طلقن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن!» فنزلت آية لفظًا ومعنًى. ولما نزلت آية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قال عمر «فتبارك الله أحسن الخالقين!» فنزلت آية لفظًا ومعنًى. ولما لقي عمر يهوديًّا يقول «إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا.» قال له عمر «من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين.» نزلت لفظًا ومعنًى.

[٦٨] حدث مع سعد بن معاذ عندما سمع بحديث الإفك فقال «سبحانك هذا بهتان عظيم!» فنزلت آية. وربما حدث مع زيد بن حارثة وأبي أيوب. وحدث ذلك أيضًا عندما حمل بن عمير اللواء يوم أُحد فقُطعت يده اليمنى وأخذ اللواء بيده اليسرى وهو ينشد «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟» فنزلت آية. وكرر ذلك عندما قُطعت يده اليسرى فحنى على اللواء وضمَّه بعضدَيه إلى صدره، ثم قُتل فسقط اللواء (الإتقان، ص١٠٠–١٠١).

[٦٩] ولما أبطأ على النساء الخبر في أحد خرجن يستخبرن فسألت امرأة رجلَين مقبلَين على بعير: ما فعل رسول الله؟ قالا: حي. قالت: فلا أبالي، يتخذ الله من عباده الشهداء، فنزلت آية ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، معنًى لا لفظًا. الإتقان، ص١٠٠.

[٧٠] مثل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، السابق، ص١٠١.

والكُنى والألقاب للأنبياء.[٧١] وهم خمسة وعشرون.[٧٢] ولكلٍّ صفته؛ آدم أبو البشر، وإدريس أول من أُعطي النبوة، وهو أخنوخ، رفعه الله حمايةً له من ظلم البشر، وسنُّه ثلاثمائة وخمسون عامًا وهو إدريس ذو الكفل. ولقب اليسع يوشع وزكريا بما يدل على الاجتهادات الإنسانية. وقد يُختلف على شخص النبي واسمه مثل ذو الكفل ابن أيوب أو إلياس أو يوشع بن نون أو زكريا أو اليسع.[٧٣] ويوسف ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم. وألقي في الجب وهو ابن الاثني عشر عامًا، ولقي أباه بعد الثمانين وكان هو رجلًا. وشعيب خطيب الأنبياء كثير السلالة. وكان هارون فصيحًا. وداود أعبد البشر، وجمع داود بين النبوة والملك. وكان سليمان ملكًا وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وابتُلي أيوب في سن السبعين، ثلاثة عشر أو سبع أو ثلاث سنين. ولبث يونس في بطن الحوت أربعين يومًا أو سبعة أيام. وقُتل يحيى ظلمًا. حكم الأرض مؤمنان؛ سليمان وذو القرنَين، وكافران؛ نمرود ونبوخذ نصر. وعيسى بلا أب. كانت مدة حمله ساعة أو ثلاثًا أو ستة أشهر أو ثمانية أو تسعة، وعمر أمه عشر سنين أو خمس عشرة. ورُفع وله ثلاث وثلاثون سنة. وينزل ويقتل الدجال. ويتزوج ويولد له ويحج ويحكم في الأرض سبع سنين ويُدفن مع النبي.

ومن الكنى والألقاب فليس في القرآن إلا أبو لهب واسمه عبد العزى. أما الألقاب فمنها «إسرائيل» لقب يعقوب ومعناه عبد الله، صفوة الله، سري الله. صرع الملك فسمي إسرائيل أي «انتصر الله». استعمله القرآن بكثرة في نداء «يا بني إسرائيل» وليس «يا بني يعقوب». والمسيح يعني الصديق أو الذي لا يمسح به ذي عاهة إلا برئ أو الذي يمسح في الأرض أي الذي يقطعها. ونوح عبد الغفار، لكثرة نوحه على نفسه في طاعة ربه. وذو القرنين هو الإسكندر، عبد الله بن الضحاك أو المنذر بن ماء السماء أو الصعب بن قرين، واللقب لأنه بلغ قرنَي الأرض المشرق والمغرب أو لأنه ملك الفرس والروم أو لأنه كان يضع قرنَين على رأسه من شعر أو من ذهب. وفرعون هو الوليد بن مصعب وكنيته أبو العباس أو أبو مرة أو لقب كل حاكم في مصر. وقد يكون فارسيًّا من اصطخر. وتُبَّع هو أسعد

---

[٧١] السابق، ج٤، ٥٨–٧٨.

[٧٢] وهم: آدم، نوح، إدريس، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، لوط، هود، صالح، شعيب، موسى، هارون، داود، سليمان، أيوب، ذو الكفل، يونس، إلياس، اليسع، زكريا، يحيى، عيسى، محمد (السابق، ص٥٨–٦٧).

[٧٣] السابق، ص٦٥-٦٦.

بن ملكي مكرب. وسمي كذلك لكثرة من تبعه. وربما هو لقب ملوك اليمن لأن كل واحد كان يتبع صاحبه ويخلف غيره[٧٤]

ولكل اسم اشتقاقه اللغوي من السيريانية أو العبرية. وكل الأسماء أعجمية إلا آدم وصالح وشعيب ومحمد. آدم من الأدمة. خلق من أديم الأرض من السيريانية أو من العبرانية بمعنى التراب. ونوح بالسيريانية الساكن. وسمي نوحًا لكثرة بكائه على نفسه، واسمه أيضًا عبد الغفار. وإدريس لفظٌ سرياني يعني أنه درس الحكمة. وإبراهيم بالسيريانية يعني الأب الرحيم. وربما اشتق من البرهمة وهي شدة النظر. وموسى من السيريانية لأنه ألقي بين الشجر والماء. فالماء بالقبطية «م» والشجر «سا». وإسحق من الضحك بالعبرانية. ويعني هارون بالعبرانية «المحبب».

وذو الكفل لأنه تكفل بالدعاء إلى التوحيد؛ فالاسم مشتق من العمل. استخلف اليسع فتكفل له أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ويصلي كل يوم مائة ركعة. وقد يكون يونس من الأنس أو الأسف. واليسع من وسع، ويحيى لأن الله أحياه بالإيمان أو لأنه حي رحم أمه أو لأنه حيٌّ مثل الشهداء. وعيسى ومحمد وحدهما لهما اسمان مثل أحمد ومحمد. وخمسة من الأسماء سموا قبل أن يكونوا: محمد ويحيى وعيسى وإسحق ويعقوب.

ويوصف جسد النبي مع بعض صفاته النفسية والخلقية ولون البشرة، وطوله، وضخامته وعرضه وشعره وعينيه وصدره.[٧٥] كان لوط أشبه الناس بآدم. وكان صالح أحمر الفاتح، أسبط الشعر، لبث يدعو قومه أربعين عامًا. وكان موسى آدمَ طويلًا جعدًا. وكان هارون أطول من موسى، نصف لحيته بيضاء والنصف الآخر سوداء يصل طولها إلى السُّرة، وعمي شعيب في آخر عمره. وكان داود أحمر الوجه سبط الرأس، أبيض الجسم، طويل اللحية وفيها جعودة، حسن الصوت والخلق. وكان سليمان أبيض وسيمًا وضيئًا جميلًا خاشعًا متواضعًا. يشاوره أبوه لرجاحة عقله.

ويحدد وقت البعثة؛ فبعث نوح في سن الأربعين، ومدتها تسعمائة وخمسون عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى تكاثر الناس. وبُعث صالح إلى قومه حين راهق الحلم، ودعا صالح قومه عشرين عامًا. وكان سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وبدأ بناء بيت المقدس بعد ملكه بأربع سنين.

[٧٤] السابق، ص٧٦–٧٨.

[٧٥] كان إدريس أبيض طويلًا، ضخم البطن، عريض الصدر، قليل شعر الجسد، كثير شعر الرأس، إحدى عينيه أعظم من الأخرى، في صدره بياض من غير برص (الإتقان ج٤، ٥٩).

ولكل نبي عُمُر. أطولهم آدم ونوح وإدريس؛ إذ عاش كلٌّ منهم ألف سنة. ثم يصغر السن تدريجيًّا. وإبراهيم مائتي عام، أو مائة وثمانين عامًا، ويعقوب مائة وسبعًا وأربعين عامًا، ويوسف وموسى مائة وعشرين عامًا، داود مائة سنة، وأيوب ثلاثًا وتسعين، وذو الكفل خمسًا وسبعين، وصالح ثمانية وخمسين، وسليمان ثلاثًا وخمسين.

وتحدد قبيلة النبي؛ فقد كان قوم صالح عربًا بين الحجاز والشام، وأُرسل شعيب إلى مدين وأصحاب الأيكة. وقد يتم تحديد مدة ظهور النبي بتاريخ الشعوب المجاورة مثل فارس. وكان يونس في زمن ملوك الطوائف في فارس.

ويحدد مكان وفاة النبي؛ فقد توفي صالح في مكة. كما يتحدد مكان ظهوره. فقد ظهر ذو الكفل في الشام.

وتتحدد علاقة الأنبياء بعضهم بالبعض عن طريق النبوة والأخوة أو علاقة الزمان، القبل والبعد؛ آدم ثم نوح ثم إدريس، وربما إدريس ثم نوح؛ فإدريس جد نوح وإبراهيم ابن آزر، وإسماعيل أكبر أولاد إبراهيم، له بعده إسحاق بأربع عشرة سنة، ويوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ولوط ابن إسحاق، لوط بن هارون ابن آزر أو ابن أخي إبراهيم.

ويحدد طول الفترات بين الأنبياء. فبين آدم ونوح عشرون قرنًا. وتصغر المدة إلى مائة وستة وعشرين عامًا، وما بين نوح وإدريس ألف عام. وولد إبراهيم بعد آدم بألفَي عام. وكان بين نوح وإبراهيم هود وصالح. كان ثمود بعد عاد، وعاد بعد نوح. وموسى ابن عمران. وأيوب ابن إسحاق. كان قبل موسى وبعد شعيب وسليمان. وهارون شقيق موسى لأمه وأبيه أو لأبيه أو للاثنين، ومات قبله وولد قبله بعام. وكان لداود اثنا عشر ابنًا، منهم سليمان. وذو الكفل ابن أيوب. ويونس ابن متى. وإلياس ابن إسحاق أو ابن هارون أخي موسى. وزكريا من ذرية سليمان وداود. وولد يحيى قبل عيسى بستة أشهر. وعيسى ابن مريم بنت عمران.

(ج) هل للملائكة دور؟

وقد يُروى أن ذلك قد يحدث مع جبريل وهو ما لا يمكن التيقُّن منه.[٧٦] وخطورة ذلك التعميم على كل آية يتحدث فيها جبريل عن نفسه. وقد يعمم الحدث على كل الملائكة.[٧٧]

---

[٧٦] مثل نزول آية ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ على لسان جبريل (الإتقان ج١، ١٠١).

وخطورة تعميم ذلك على كل قول يتحدث فيه الملائكة عن أنفسهم. بل ويتم تحديد أسماء الملائكة.[78] وإذا كان منها بعض أسماء الأعلام مثل جبريل وميكائيل وهاروت وماروت، فإن البعض الآخر تشخيص لمظاهر الطبيعة مثل الرعد والبرق، ومنها تشخيص الموجودات المتعالية مثل الروح، ومنها تشخيص الأفعال مثل قعيد، ومنها وصف البدن مثل ذي القرنين، ويتراوح بين الشخصية التاريخية والنبي والملاك لكثرة تعظيمه، ومنها وظائف مثل مالك خازن النار، ومنها العواطف مثل أحوال النفس والسكينة.

ليس القرآن شخصًا حتى ينزل مشيَّعًا بل هو فكر، والفكر لفظ ومعنًى. وقد تم تصور عظمة النزول بالتشييع كما هو الحال في بطانة الملك وركبه؛ فمن القرآن ما نزل في صحبة سبعين ألفًا أو ثمانين ألف ملك طبقًا للأهمية.[79] ويصعب التمييز بين ما نزل مفردًا وما نزل مشيعًا، وبأي مقياس.[80] وهو ما يؤدي إلى تفضيل القرآن بعضه على بعض. وكل قرآن لا فضل فيه لسورة على سورة أو آية على آية. وكلها رواياتٌ ظنية.

ومن أسماء الجن أبوهم إبليس؛ لأن الله أبلسه من الخير أي آيسه منه. وكان اسمه السابق عزازيل أو الحارث. وهو تشخيص للشر الذي لا يبغي الخير للإنسان. والوحي خير للإنسان وشر لإبليس.[81]

(د) هل مَن نزل فيهم القرآن بأشخاصهم؟

ولا يهم أسماء من نزل فيهم القرآن. فهم المناسبات الخاصة. والقصد هو المعنى أو الحكم أو الجواب. بالرغم من تأليف القدماء فيهم.[82] لا يهم السائل بل السؤال، ولا الرسول

[77] مثل نزول آية ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (السابق، ص١٠١).

[78] السابق، ج٤، ٦٨–٦٩. مثل: جبريل، ميكائيل، هاروت، ماروت، الرعد، البرق، مالك، السجل، قعيد، ذو القرنين، السكينة.

[79] شيع سورة الأنعام سبعون ألف ملك، والفاتحة ثمانون ألفًا، وآية الكرسي وآية يس ثلاثون ألفًا، وآية ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ عشرون ألفًا.

[80] السابق، ج١، ١٠٩–١١١.

[81] السابق، ج٤، ٧١.

[82] السابق، ج٤، ص١٠١.

بل الرسالة. لا يهم الشخص الذي نزل بمناسبته القرآن ولا اسم السائل. فليس القصد والشخص بعينه. فهذه تاريخيةٌ ساذجة بل المقصود دلالة السؤال ووعي السائل.[٨٣]

ويتم تحديد أسماء الصحابة. وهم ليسوا مقصودين بذواتهم بل ضمن مكوِّنات أسباب النزول.[٨٤] ويتم أيضًا تحديد أسماء المتقدمين من غير الأنبياء والرسل مثل عمران أبي مريم، وأبي موسى، وعزير وتُبَّع ولقمان.[٨٥]

ويذكر بعض أسماء النساء مثل مريم، وربما «بعل» كان اسم امرأة تُعبَد.[٨٦] ومن أسماء الكفار قارون وجالوت وهامان وبشرى وآزر أبو إبراهيم وهو تارخ، والنسيء.[٨٧] ومن أسماء القبائل يأجوج ومأجوج، وعاد وثمود، ومعين وقريش والروم.[٨٨] ومن أسماء الأقوام بالإضافة: قوم نوح، وقوم لوط، وقوم تُبَّع، وقوم إبراهيم، وأصحاب الأيكة، وربما هم أهل مدين، وأصحاب الرسِّ، بقية من ثمود أو أصحاب يس أو أصحاب الأخدود.[٨٩]

وأسماء الأصنام كانت في الأصل أسماءً لأناس ثم تم تخليدها مثل لاؤتزى وبوذا وتحويلها إلى آلهة مثل وَدٍّ، وسواع، ويغوث، ونَسر؛ أصنام قوم نوح. وقد يكونون أولادًا من صلب آدم. ويغوث ويعوق أفعال متضادة.[٩٠] واللات والعزى ومناة والرُّجز والجبت والطاغوت أصنام قريش. وقد تحول البعض منها إلى أسماءٍ دالة مثل الطاغوت من الطغيان. ورشاد اسم فضيلة. وبعل صنم قوم إلياس. وآزر صنم.

ومن أسماء البلاد والأماكن والبقاع والجبال بكة أي مكة من الجذب؛ جذب العظم للمخ، وجذب ما في الضرع من لبن، وجذب مكة سكان البلاد حتى أصبحت مركزًا للحج

---

[٨٣] السابق، في أسماء من نزل فيهم القرآن، ص١٠١، ٨٤–٨٥.

[٨٤] السابق، وذلك مثل: السجل، وزيد بن حارثة، ص٦٩.

[٨٥] الإتقان ج٤، ٦٩–٧٠.

[٨٦] السابق، ص٧٠.

[٨٧] السابق، ص٧٠–٧١.

[٨٨] السابق، ص٧٠.

[٨٩] السابق، ص٧١–٧٢.

[٩٠] «روى البخاري عن ابن عباس: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسمُّوها بأسمائهم. ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت» (الإتقان ج٤، ص٧٢). وأيضًا «كان اللات رجلًا يلت سويق الحاج.»

أو لأنها تمكُّ الذنوب أي تذهبها أو لتملكها من الماء بالوديان بعد قلَّته، وربما من «تبك» أي إخضاع الأعناق أو من التباك وهو الازدحام. وتسمى أيضًا مكة الحرم ومكة المسجد ومكة البلد ومكة البيت موضع الطواف. والمدينة هي يثرب اسمها قبل الإسلام إما اشتقاقًا من اسم أرض أو نسبة إلى يثرب بن وائل بن نوح أو من دخلها أو من الاسم الخبيث؛ فالثرب هو الفساد أو التثريب وهو التوبيخ.[٩١]

ومن أسماء الكواكب الشمس والقمر والطارق والشِّعرى.[٩٢] ومن أسماء الطير عشرة أجناس.[٩٣] وكيف تعرف أسماء الأماكن الأخروية وكلها خارج الحس وأقرب إلى الرموز والصور الفنية؟[٩٤] وقد تحول البعض منها إلى استعمالاتٍ دنيوية دون معرفة أيها الأصل وأيها الفرع. أيها الحقيقة وأيها المجاز مثل «الفردوس»، «الكوثر»، «سلسبيل»، «عبقري»، «عليون» إيجابًا أو «سعير» أي النار سلبًا.

ثانيًا: الوحي والواقع

(١) السؤال والجواب

والسؤال هو عن النزول ابتداءً دون سبب. الوحي يتكلم قبل أن يطلب الواقع، ويجيب دون سؤال. وهو ضد واقعة أسباب النزول.[٩٥] لا نزول بلا سبب؛ فالوحي نداء للواقع، واستجابة له. في لحظة يكون الواقع كالرحم المفتوح، يستدعي القضيب والإنزال.

تعني أسباب النزول أولوية الواقع على الفكر، وتقدم السؤال على الجواب. الواقع يسأل والوحي يُجيب.[٩٦] ولا تهم معرفة سبب آية كسببٍ تاريخي في حد ذاته بل الدلالة العامة لأسباب النزول.[٩٧] فقد يختلف فيها الرواة. ولا يهم تعدد الأسباب بل السبب أي ارتباط الفكر بالواقع. ليس السبب العلمي المعروف في البحوث التجريبية بل السببية أي

---

[٩١] ومنها «بدر» ما بين مكة والمدينة، «أحد»، «حنين» قرب الطائف، «جمع» وهي مزدلفة، «المشعر الحرام» جبل بها، «نقع» ما بين عرفات والمزدلفة، «نصر»، «بابل» بوادي العراق، «الأيكة» بلوقوع نصيب الرمل بين عمان وحضرموت أو جبل الشام، «طور سيناء» الذي نودي منه موسى، «الجودي جبل بالجزيرة»، «طوى» اسم وادٍ بفلسطين، «الكهف» بيت منقور في الجبل، «الرقيم» القرية التي خرجوا منها أو وادٍ بفلسطين، «العرم» وادٍ، «حر واسم قرية»، «الصريم» أرض باليمن أو جبل محيط بالأرض، «الجزر» اسم أرض، «الطاغية» البقعة التي هلكت بها ثمود. (السابق، ج٤، ٧٢–٧٤).

ارتباط الظواهر بعضها ببعض. والأسباب لفظٌ قرآني. ولا يهم تكرار السبب إذ يكفي مرةً واحدة؛ التكرار للتأكيد والحفظ. ليس المهم عدد الآيات والأسباب بل علاقة الآية بالسبب، وقد تنزل آياتٌ عدة على سببٍ واحد أو آيةٍ واحدة.

وفي القرآن سؤال وجواب.[٩٨] والأصل المطابقة بين الاثنين. وأحيانًا تتحول الإجابة إلى وجهةٍ أخرى تقتضي إعادة وضع السؤال. فنصف الإجابة في طريقة وضع السؤال، من أجل التوجه من النظر إلى العمل أو عدم الدخول في مسائلَ نظرية لا نفع فيها.[٩٩] وقد يكون الدافع الزيادة أو التبديل أو حذف السؤال وعدم الإجابة كلية أو لإزالة اللبس. والسؤال عن الواقع والإجابة من الوحي. وقد يجيء الجواب أعمَّ من السؤال. وقد يجيء الجواب أخصَّ من السؤال. وقد يُعدَل عن السؤال إذا كان خارج نطاق المعرفة الإنسانية أو كان القصد منه التعنت.[١٠٠]

وأقل الأمم سؤالًا أمة محمد لأن كثرة الأسئلة تتطلب كثرة الأجوبة، والأجوبة أحكام، والأحكام قيد، على عكس بني إسرائيل. إذ إن كثرة الأسئلة تُقصي عن السلوك الفطري

---

[٩٢] السابق، ص٧٦.

[٩٣] وهي عشرة أجناس في القرآن: السلوى، البعوض، الذباب، النحل، العنكبوت، الجراد، الهدهد، الغراب، أبابيل، النمل (السابق، ص٧٦).

[٩٤] ذلك مثل: «الفردوس» أعلى مكان في الجنة، «عليون» أعلى مكان فيها، «الكوثر» نهر في الجنة، «سلسبيل» «وتسنيم» عينان في الجنة، سِجِّين مكان أرواح الكفار، «صَعود» جبل في جهنم، «وغى»، «أثام»، «سويق»، «السعير»، «وسائل»، «سحق» أودية في جهنم، «يحموم» دخان أسود، «عبقري» النادر، السامري نسبة إلى أرض سامرون أو سامرة، «العربي» من عربة باحة دار إسماعيل (السابق، ج٤، ٧٥–٧٦).

[٩٥] الإتقان ج١، ص٨٢–٨٥.

[٩٦] انظر دراستنا «الوحي والواقع»، دراسة في أسباب النزول، هموم الفكر والوطن، ج١، التراث والعصر والحداثة، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٧–٥٦.

[٩٧] الإتقان، ص٨٩–٩٨.

[٩٨] الإتقان ج٢، ٣١٠–٣١٦؛ البرهان ج٤، ٤٢–٥٤.

[٩٩] فلسفة السؤال، هموم الفكر والوطن، ج٢، الفكر العربي المعاصر، ص٧–٣٠، والأصل في الجواب أن يكون مُشاكلًا للسؤال من حيث الصياغة اللغوية، الاسم بالاسم، والفعل بالفعل. وهو ليس ضروريًّا. فالصياغة بنت وقتها.

[١٠٠] مثل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ❁ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ❁ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾.

البديهي بناءً على البراءة الأصلية، وتقلل من مساحة الوجود الطبيعي خارج السؤال كما هو الحال في السماح أو العفو.[١٠١] وكل سؤالٍ نظري له إجابةٌ عملية.[١٠٢] والأسئلة خارج إطار المنظور الإنساني وإمكانيات المعرفة الإنسانية لا يجاب عليها. توضع موضوعاتها بين قوسَين. فهي موضوعاتٌ متعالية خارج نطاق التجربة الإنسانية مثل السؤال عن الروح.[١٠٣]

كان الرسول يبحث عن قبلة ويتوجه إلى السماء فنزلت آية تُحدِّد القبلة.[١٠٤] ولولا بحث الرسول لما نزلت الآية. فالسؤال ليس ضرورة باللغة وبالعبارة وبالخطاب وبالطلب بل يكون بعقد النية والتوجه استجابة لطلب النبي بشد الوطء على الكفار. نزلت آية عزاء ببلوى المسلمين ببعض الخوف والجوع ونقص الأموال والثمرات مع البشارة للصابرين.[١٠٥] الآية تشريع لواقع إجابة على سؤال ماذا يأكل الناس إذا ما ندر الطعام؟[١٠٦] وقد أجاز الرسول للجيش أكل سمكٍ ميتٍ لَفَظه البحر باعتباره رزقًا من الله. والاختصام على الأرض واقع تنزل له آية لحلِّه من طريق العدل وعدم أكل أموال الناس بالباطل أو الفساد مع الحكام.[١٠٧]

وفي الوحي إجابة على سؤال يطرحه الواقع مثل السؤال عن الأهلة بناء على دفع اليهود للمسلمين للسؤال عنها لتشويش عقيدتهم.[١٠٨] وقد سأل أحد المسلمين الرسول عن

---

[١٠١] البرهان ج٤، ٥٢–٥٤. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ❁ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

[١٠٢] مثل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، وعندما سئل الرسول متى الساعة؟ قال: فاستعد لها.

[١٠٣] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

[١٠٤] ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾. (البقرة: ١٤٤).

[١٠٥] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

[١٠٦] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

[١٠٧] ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٨).

[١٠٨] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩).

البِرِّ، فأتت الإجابة بنزول آية أن البِر ليس الصلاة قِبَل الشرق والغرب ولكن البِر إيمان وعمل يتجلَّى في التصدق على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين والأسرى، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر حين البأس. وهذا هو سلوك الصدق والإخلاص.[١٠٩] ولما سأل أحد الصحابة أرنا ربنا. لم تُجب الآية بالمكان الخارجي بل بالحضور القلبي والحوار الداخلي والإيمان الباطني.[١١٠] وإجابة على سؤال الإنفاق نزلت الإجابة أنه على الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين وأولاد السبيل.[١١١] وعندما سئل الرسول عن أعظم شهادة في كتاب الله نزل الوحي بأنها شهادة «لا إله إلا الله» والقيام بالقسط أي تمني الشهادة. وحقها هو العدل في الدنيا.[١١٢] وعندما سئل الرسول الله أن يجعل ملك فارس والروم في أمته نزلت آية تجعل قيادة الأمم طبقًا لقوانين التاريخ.[١١٣] وعندما كان السؤال عن الطاعة على الإطلاق كانت الإجابة الطاعة في المعروف وليس على الإطلاق كما هو الحال في الجيش.[١١٤] وآية الميراث الشهيرة كانت جوابًا على سؤال أحد الصحابة. ولولا السؤال لما كان الجواب.[١١٥] ولما حزن بعض الصحابة على فراق الرسول

---

١٠٩ ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

١١٠ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

١١١ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٥).

١١٢ ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨).

١١٣ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦).

١١٤ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

١١٥ ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ

نزلت آية تفرق بين الرسول والرسالة، وأن القضية ليست الشخص بل المبدأ حتى لا يتم الوقوع في عبادة الأشخاص.[١١٦] وتمنى عمر أن يأخذ مقام إبراهيم مصلى فأتت الآية لتستجيب لمطلبه بنفس العبارات. فالنزول صعود، وما يأتي به الوحي نزول قد يصل إليه القلب صعودًا.[١١٧] لذلك كان عمر مُحدَّث هذه الأمة يتفق معه الوحي في أكثر من حكم. وهذا يدل على أن الوحي عقليٌّ بديهيٌّ فطري، يمكن نزوله من السماء، كما يمكن صعوده من الأرض. واتفق الوحي مع رأي عمر في صلح الحديبية وفي أسرى بدر حتى إن الرسول قد مدحه بأنه لو نزل الهلاك بهذه الأمة لما نجا منه إلا عمر. فالوحي أتى مطابقًا لحكم العقل والواقع. الوحي يؤكد ما تنتهي إليه البداهة والمصلحة وليس مشرعًا خارج نطاق الإقرار الإنساني. وكذلك تعديل الصيام، جاء بناءً على طلب عمر التخفيف فيه حتى لا يختان الإنسان نفسه ويعاشر امرأته ليلًا بعد الاستيقاظ.[١١٨] وكان الميراث في الجاهلية بالاتفاق بين الرجال. فنزلت آية للتواصل معه قبل أن تعدل إلى قانون الميراث التفصيلية.[١١٩] كان هذا التشريع التفصيلي بناءً على طلب وعدم الرضا بعادة الميراث في الجاهلية ورغبة في تغيير العادات والأعراف. ولما سأل رجل عن نصيب المهاجرين نزلت آية تجعل الأنصبة طبقًا لمبدأ العدل.[١٢٠] فالوحي يقرر المبدأ ويترك التفصيل للاجتهاد البشري. ورد مفاتيح الكعبة إلى عثمان ورد الأمانات إلى أهلها بناءً على طلب، ومنعًا من

وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١).

١١٦ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩). وهذا هو عنوان الجزء الرابع من «من النقل إلى العقل» عن علوم السيرة «من الشخص إلى المبدأ».

١١٧ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥).

١١٨ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) (الواحدي: أسباب النزول، ص٢٦).

١١٩ ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٣٣).

١٢٠ ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠).

الظلم.[١٢١] وكانت الأصوات تعلو والنبي يقرأ القرآن فنزلت آية تؤكد على أن الأدب الفطري والسلوك الطبيعي هو الاستماع إلى قراءة القرآن.[١٢٢]

(٢) كلام الله وكلام البشر

إن عظمة الوحي أنه قريب من الناس؛ لغته لغة البشر، لا يستنكف أن يستعمل بعضها، ويعيد صياغة أسئلتها والرد عليها. فالجواب من جنس السؤال. فالمسافة بين كلام الله وكلام البشر ليست كبيرة بل قريبة. وهو أحد دلائل الإعجاز. يستعيد الوحي كلام الرسول ويعيد صياغته في القرآن. فقد استعاد الوحي إجابة الرسول ردًّا على سؤال اليهود عن مضمون إيمانه، وهي إيمانه بما أُنزل على الأنبياء السابقين إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى وعيسى دون التفريق بينهم.[١٢٣] ويعيد صياغته مثل حديث «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا؟!» بل قولوا: «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.» نزلت الآية لتُعيد صياغة الحديث بألفاظه، وهو من دلائل الإعجاز.[١٢٤] وعندما قالت عائشة: «فوالله ما على أحد جناح أنْ لا يطوف بالصفا والمروة.» نزلت الآية مستعيرة نفس الألفاظ، ومقرَّة على الاقتراح.[١٢٥]

وقد يكون كلام البشر هو كلام الصحابة؛ إذ طلب عمر اتخاذ مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية تعيد صياغة الطلب.[١٢٦] ولما رأى الناس الرسول مهمومًا قيل «مالك يا رسول الله؟ لا تهتم؛ فإن رؤياك فتنة لهم.» فنزلت الآية لتعيد الصياغة وتؤكد على الرأي.[١٢٧] لا

---

[١٢١] ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).

[١٢٢] ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ (لباب النقول، ص٩٣).

[١٢٣] لما سأل اليهود الرسول عما يؤمن به قال: «أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى»، فنزلت آية ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٦٢) (العجاب، ص٨٩).

[١٢٤] لباب النقول، ص٣٩.

[١٢٥] فنزلت آية ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨).

تكتفي الآية بالشكل الأدبي بل أيضًا تأخذ المضمون الفكري. فعندما لقي أعرابيٌّ عليًّا وأصحابه وهم في طلب أبي سفيان فقال لهم: «إن القوم قد جمعوا لكم فاخشوهم!» فقالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل.» فنزلت الآية تأخذ هذا القول، تعيد صياغته، تؤكد عليه.[١٢٨] الوحي تأكيد للواقع قولًا ومضمونًا. وقد يعيد الوحي صياغة كلام الجماعات المناهضة مثل اليهود عندما سألوا: «ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟» فنزلت الآية لترد على السؤال بعد أن تكرره مثل الإجابة.[١٢٩] وكذلك عندما قال الكفار: «إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب!» تعيد الآية نفس التساؤل وتتهكم عليه، وأنه لا غرابة في جعل الآلهة المتعددة إلهًا واحدًا.[١٣٠] وعندما قال أبو لهب: «تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟» من بعد تحذير الرسول فنزلت الآية تستعيد سبَّ أبي لهب في أدب وتردُّ عليه.[١٣١]

(٣) العبادات الفطرية

ويتناول الوحي حياة الناس وسلوكهم العملي؛ العبادات والمعاملات. ويدخل في حوار مع الجماعات التحتية الخارجية كالكفار والمشركين أو الخارجية الداخلية مثل أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، أو الداخلية مثل المنافقين.[١٣٢] ولا يقرر الوحي فقط ما هو موجود ويستجيب لمطالب الواقع، بل أحيانًا يناهضها ويعارضها ويُغيِّرها ويأتي بالبديل.

---

[١٢٦] كان الرسول يطوف بالبيت فقال: «هذا مقام أبينا إبراهيم» فقال عمر «أفلا تتخذه مصلى؟» فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وفي رواية قال عمر: «يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى» (العجاب ص٨٦؛ لباب النقول ص١٨).

[١٢٧] ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (السابق، ص١٢٤).

[١٢٨] ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (لباب النقول، ص٥٠).

[١٢٩] ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(أسباب النزول، ص٢١–٢٣).

[١٣٠] ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (النقول ص١٦٧–١٦٨).

[١٣١] ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (السابق، ٢١٩).

[١٣٢] الجماعات التحتية Sub-groups، والجماعات الخارجية Out-groups، الجماعات الخارجية الداخلية Out and In-groups الجماعات الداخلية In-groups.

فعلى مستوى العبادات ليس الله عرضةً للأيمان في مواقفَ نسبية تتغير فيها الأحكام مثل الخصام بين الناس، وهو موقفٌ طارئ على المصالحة والوئام. فالإيمان مبدأ لا يتغير بتغير المصالح وتبدُّل الظروف.[١٣٣] والقرض الحسن هو استبدال خير الآخرة بخير الدنيا ليس بنية التجارة بل بقصد الإيثار والتفضيل.[١٣٤]

وتواصل الوحي مع الشعائر السابقة، الصفا والمروة والطواف، لإعادة توظيفها لصالح الدين الجديد؛ ربطًا بين الماضي والحاضر، بين التراث والتجديد.[١٣٥] وتواصل في القصاص مع اليهودية.[١٣٦] وقد كانت عادةً متبعة أيضًا عند العرب. والقصاص سنةٌ بشرية دون إسراف في القتل، وإن رفض ولي القتيل العفو عن القاتل.[١٣٧] وكذلك فرض الصيام تواصلًا مع الأمم السابقة.[١٣٨] فالدين الجديد تواصل مع الدين القديم وتجاوز له كما قال المسيح عن شريعة موسى «ما جئت لألغي الناموس بل جئت لأكمله.»

ولما كانت صلاة العصر تتم في الهاجرة فقد نزلت التوصية بالحفاظ عليها.[١٣٩] وبناءً على طلب أحد المسلمين عن كيفية العمرة نزلت آيةٌ تفصيلية لشرحها. وهو تشريع لا يُلحق الأذى بالرءوس، ويعوِّض غير القادر بالصيام.[١٤٠] ثم نزلت آية ضد الجدال في

---

[١٣٣] ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٤).

[١٣٤] ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥).

[١٣٥] ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨).

[١٣٦] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٨).

[١٣٧] ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩).

[١٣٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣).

[١٣٩] ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

[١٤٠] ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ

الحج والرفث والفسوق.[١٤١] ونزلت آيةٌ أخرى ضد المتوكلين الذين لا يتزودون. وتوالى نزول الوحي ضد من يسقط فريضة الحج.[١٤٢] وضد الإفاضة من أماكنَ غير مألوفة تكون الإفاضة من حيث يفيض الناس.[١٤٣] ولا تفاخر ولا تناسب في الحج.[١٤٤] فالكل سواء في الخلق. ولا طلب لرزقٍ خاص من مال أو إبل بل تجرد وعود إلى الطبيعة. ويأتي التنزيل لنقد مانعي الزكاة وحثهم على أن يعطوا مما أعطاهم الله من فضله.[١٤٥]

والسؤال عن الخمر والميسر ليست الإجابة بالتحريم بل بالإقناع أن الإثم منهما أكبر من النفع.[١٤٦] إذ لما نزلت آية الخمر والميسر وأن إثمهما أكبر من نفعها أراد بعض المنافقين استعمالها لمنافعهما؛ فنزلت آية عدم الاقتراب من الصلاة أثناء السكر؛ لتصحيح الموقف واستكمال السعي نحو الكمال.[١٤٧]

(٤) المعاملات الطبيعية

وفصل الوحي العلاقات الشخصية بين الرجل والمرأة منذ عقد النكاح والمعاشرة والمحيض والخصومة والميراث واستثمار أموال المرأة والطلاق وحقوق المرأة وحق المرأة في الغزو والمساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات. نكاح المؤمنة خير من المشركة طمعًا في نسبها. والأَمَة المؤمنة خير من الحرة المشركة.[١٤٨] فالوحي هنا يغير الواقع

فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة: ١٩٦).

[١٤١] ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧).

[١٤٢] ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (البقرة: ١٩٨).

[١٤٣] ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٩٩).

[١٤٤] ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة: ٢٠٠).

[١٤٥] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

ويفضل الاتفاق في المشارب والأهداف بين الرجل والمرأة على الحسب والنسب. وجماع النساء مستلقيات وغير مستلقيات وليس كما يدَّعي اليهود مستلقيات فقط.[١٤٩] فالوحي هنا يعارض تضييق اليهود رحمة الله. ولا يحل نكاح ما نكح الآباء احترامًا لعاطفة الأبوة.[١٥٠] هذا بالإضافة إلى فارق السن بين الابن وامرأة الأب. ولا يجوز نكاح نساء الأبناء من الأصلاب. ولا يجوز نكاح الأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت والأمهات والأخوات في الرضاعة وأمهات النساء والجمع بين الأختَين.[١٥١] وهي إحساساتٌ طبيعية ليست في حاجة إلى تشريع. فالنكاح للقرابة؛ ومن ثم فلا نكاح للأقرباء. ولا يجوز نكاح الأخت من الأب.[١٥٢] النكاح للمحصنات من النساء وما ملكت الأيمان؛ سبايا الحرب، وهو ما لم يعد موجودًا الآن باسم القوانين الدولية.[١٥٣] والاستمتاع بالنساء يتطلب إتيان أجورهن، وهو تصورٌ تبادلي.[١٥٤]

---

١٤٦ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩).

١٤٧ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٤٣).

١٤٨ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٢١).

١٤٩ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٣).

١٥٠ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٢٢).

١٥١ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٣).

١٥٢ ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧).

١٥٣ ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٢٤).

١٥٤ ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (النساء: ٢٤).

والمحيض ليس سُبَّة يقتضي عزلة النساء كليًّا كما كان يفعل اليهود بل هو أذًى عند الجماع فقط.[155] فالوحي هنا يغير الواقع والعادات والأعراف. ولا تكتم المرأة ما خلق الله في رحمها لتنسبه إلى رجلٍ آخر.[156] فالوحي هنا يغير عادةً جاهلية للتخصيب الجماعي غير الفردي حفاظًا على النسب خارج قرارات الأفراد.

وللنساء نصيب في الميراث.[157] بل إن أولي القربى واليتامى والمساكين لهم نصيبهم رزقًا وقولًا معروفًا. فالعشرة مشاركة. والحياة المشتركة لها ثمنها. ولا يستثمر أموال المرأة زوجٌ سفيه تبذيرًا لأموالها.[158] وليتصور الرجل أن أولاده الضعفاء في نفس الموقف طبقًا للمثل العربي «عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به.»[159] ولا يحل لأحدٍ وراثة النساء كرهًا أو غصبًا لهن لأخذ بعض أموالهن.[160] وهو ما كان يفعله قريب المتوفى في إلقاء ثوبه على زوجته. والإيلاء ليس طلاقًا بل مدته أربعة أشهر.[161] والمطلقات ينتظرن ثلاثة قروء قبل الزواج من جديد.[162] ويجوز رد المطلقة قبل أن تنقضي عدتها.[163] ولا يؤخذ

---

[155] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

[156] ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

[157] ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧). ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: ٨).

[158] ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: ٥).

[159] ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩).

[160] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ (النساء: ١٩).

[161] ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٦).

[162] ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

[163] ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ

منها ما أُعطي لها إلا إذا أرادت الانفصال بمحض إرادتها أو ما يسمى بالخلع حفاظًا على حقوق المرأة. وإن طُلقت المرأة ثلاثًا فلا يحل لها الرجوع إلى الطليق الأول إلا بعد أن تنكح زوجًا غيره. حتى لا يتشجع الرجل على طلاق زوجته مرةً أخرى ولبَثِّ الغيرة في قلبه.[١٦٤] ويجوز رجوع المرأة إلى زوجها الأول. ولا يجوز منعها.[١٦٥] فالحبيب هو الحبيب الأول. والعشرة لها ثقلها، والتاريخ المشترك له وزنه. ولا يجوز أخذ الرجل المريض عهدًا من امرأته ألا تنكح زوجًا غيره فيعضلها.[١٦٦] فالواقع أقوى من الإرادة، والحاجة أقوى من العهد. ويجوز للمرأة المتوفى زوجها أن تبقى بعد العدة سبعة أشهر أخرى للدخول في الوصية.[١٦٧] فلها جزء من الميراث نظرًا للجهد المشترك والعيشة المشتركة بينهما. وفي حالة الطلاق يكون الزوج كريمًا قدر وسعه؛ فخسارة الزوج لا تعادلها خسارة. وإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.[١٦٨] وتؤتى المرأة صداقها وليس لولي أمرها.[١٦٩] فلا وصايا في الأموال. وعندما قالت المرأة يغزو الرجال ولا تغزو النساء ولهن نصف الميراث؛ نزلت آية تساوي بينهما في الفضل.[١٧٠] ولما حكم الرسول على الذي لطم زوجته بالقصاص

حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩)، ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣١).

١٦٤ ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٠).

١٦٥ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٢).

١٦٦ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

١٦٧ ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٤). ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٤٠).

منه وهو أقرب إلى العدل المجرد نزلت آية القوامة ربما ببعد نظر أكثر.[171] ولا فرق بين الذكر والأنثى في الحقوق والواجبات الدينية بعد اعتراض النساء على الخطاب الذكوري للوحي.[172] فالوحي يأخذ اعتراض النساء بعين الاعتبار.

وإذا كان السؤال عن اليتامى فالجواب إصلاح وخير لهم ومخالطتهم لأنهم إخوة.[173] ولا يُستولى على أموال اليتامى.[174] فأكل مال اليتيم ظلم مثل أكل النار.[175] والخوف من عدم العدل مع اليتامى أحد أسباب تعدد الزوجات؛ فالوصي يرغب في مالها وجمالها، ويرفض تزويجها خارج منزله.[176] واستثمار أموال اليتيم حتى يكبر وتدفع له أمواله.[177] والغني يستعفف، ويدير أموال اليتامى بلا أجر، والفقير يأكل بالمعروف.[178]

---

١٦٨ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦).

١٦٩ ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (النساء: ٤).

١٧٠ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾ (النساء: ٣٢).

١٧١ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤).

١٧٢ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

١٧٣ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٠).

١٧٤ ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢).

١٧٥ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠).

١٧٦ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣).

١٧٧ ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ (النساء: ٦).

١٧٨ ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦).

وكان البخلاء يأمرون الناس بالبخل وعدم الإنفاق فنزلت آيةٌ مضادة بالإنفاق. وردًّا على من طالب بالإمساك عن الإنفاق الجواب بالإنفاق.[١٧٩] والسؤال عن الإنفاق الرد عليه هو العفو أي متروك لحرية الاختيار في كل ما زاد عن الحاجة.[١٨٠] وقد تنزل الآية تأييدًا لسلوكٍ طبيعي في الإنفاق في سبيل الله.[١٨١] وصدقة السر أفضل من صدقة العلن وكما أوصى المسيح من قبلُ.[١٨٢] وقبول الصدقات حتى ولو كان من المشركين الأنساب.[١٨٣] والصدقات واجبة للفقراء المتعففين عن السؤال.[١٨٤] والإنفاق سرًّا وعلانية، ليلًا ونهارًا.[١٨٥]

والربا كسب بلا جهد لمجرد امتلاك الثروة، وهو ليس كالبيع.[١٨٦] تتعدد أشكاله والجوهر واحد.[١٨٧] والأفضل استرداد الأموال بلا فوائد.[١٨٨] والأتقى التصدق بالفوائد.[١٨٩] ومن يتنازل عن الربا له الجنة.[١٩٠]

ويشرع الوحي للواقع حتى بلا سؤال مثل كتابة الدَّين والشهادة عليه حفظًا للحقوق والواجبات للطرفَين دون الاعتماد على الذاكرة أو الوعود الشفهية. والشهادة لرجل أو

---

١٧٩ ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

١٨٠ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢١٩).

١٨١ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٢). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

١٨٢ ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١).

١٨٣ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

١٨٤ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

١٨٥ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٤).

امرأَتَين نظرًا لوضع المرأة قديمًا، أما إذا كانت التجارة حاضرة بالتبادل فلا حاجة إلى الكتابة.[١٩١] وإن كان البيع والشهادة في الأسفار فالرهن أو الأمانة والشهادة العلنية.[١٩٢]

وليس الإيمان بالقول بل بالعمل، بالإفساد بل في الإصلاح، بالإضرار بل بتحقيق المنافع.[١٩٣] وهو حال كل فاسق ومنافق.[١٩٤]

والشهادة مطلبٌ إنساني، التضحية في سبيل الحق،[١٩٥] تتطلب الجهد والتعب والنصب.[١٩٦] وفي نفس الوقت القتال شديد على النفس.[١٩٧] والشهداء أحياء. عند ربهم

---

[١٨٦] ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

[١٨٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٧٨).

[١٨٨] ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٩).

[١٨٩] ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٠).

[١٩٠] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٠).

[١٩١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

[١٩٢] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

[١٩٣] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة: ٢٠٤).

[١٩٤] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة: ٢٠٦).

يرزقون.[198] والجنة امتحان واختبار في الدنيا لمعرفة المجاهد والصابر.[199] القتال لمن يقاتل ويبدأ بالعدوان.[200] ولا قتال في الشهر الحرام إلا إذا كان هناك عدوان.[201] والسؤال عن القتال في الشهر الحرام والرد بالإيجاب في حالة العدوان، وقد بوَّأ الرسول المسلمين يوم أُحد مقاعد للقتال ولكنهم عصوه.[202] ومن يعصِ الرسول في الحرب ولا يثبت مكانه ويتوجه إلى الغنائم قبل النصر فإنه يكون سبب الهزيمة.[203] والتعلم من التجربة يذهب الحزن ويتجاوز الندم على ما فات.[204] وفي حالة اليأس يأتي التنزيل للتشجيع.[205] وإن قُتل النبي في الحرب فالرسالة باقية.[206] ويشجع التنزيل على النصر.[207] ويقذف الله

---

[195] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

[196] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

[197] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

[198] ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (٣: ١٤٠). ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

[199] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٢). ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٤٣).

[200] ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

[201] ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤).

[202] ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢١).

[203] ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

[204] ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٣).

[205] ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩). ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

الرعب في قلوب الذين كفروا.[٢٠٨] وبعد الغم ينزل الأمن[٢٠٩] وفي الأزمات يتميز الخبيث من الطيب.[٢١٠] أما الذين يفرون من المعركة فإنهم تعلَّموا من الخزي وغفر الله لهم.[٢١١] ومن يستجيب للرسول بعد ما أصابهم من القرح هم الأبطال.[٢١٢] والنبي لا ينتقم من أصحابه ولا من أعدائه.[٢١٣] وأذلُّ شيء للنفس هو التخلف عن القتال مثل المنافقين.[٢١٤]

(٥) المجموعات الخارجية

ويمكن تجميع أسباب النزول في عدة مواضع للبيئة الاجتماعية ولأنواع التجمعات الدينية ومشاكل البيئة الاجتماعية خاصة فيما يتعلق بالمرأة واليتامى أو الاقتصاد وفيما يتعلق بالربا أو الأخلاق فيما يتعلق بالصدقات، أو بالحروب فيما يتعلق بالعدوان. والمجموعات

---

٢٠٦ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

٢٠٧ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٣-١٢٤).

٢٠٨ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٥١).

٢٠٩ ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

٢١٠ ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٩). ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٥-١٧٦).

٢١١ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

العقائدية هم اليهود والنصارى أو أهل الكتاب، وهم أيضًا الكافرون والمشركون وعبدة الأصنام في الجاهلية. وهناك مجموعاتٌ داخلية مثل المنافقين.

ولا تنفصل هذه المجموعات عن بعضها البعض. فقد تنزل آياتٌ متتاليات في عدة مجموعاتٍ مختلفة من المؤمنين من المهاجرين والأنصار والكافرين والمنافقين وفي المؤمنين من أهل الكتاب في آنٍ واحد.[٢١٥] وقد تكون مجموعتان، الكفار والمنافقون، سببًا في النزول. يفسدان ويدَّعيان الإصلاح.[٢١٦] وقد تتوجه آيات إلى الكافرين وحدهم ولا ينفع الكافرين إنذار.[٢١٧]

ولا يُسأل عن مصير الكفار في الجحيم سواء كانوا من آل الرسول خاصة أم الكفار عامة.[٢١٨] وردًّا على أن الشهداء قد ماتوا وفقدوا نعيم الدنيا. نزلت آية خلود الشهداء.[٢١٩] ولما طلب الكفار من الرسول أن ينسب لهم الله نزلت آية التنزيه.[٢٢٠] ولما تعجبوا من سماع الناس كلهم إلهًا واحدًا؛ نزلت آية تتهكم من هذا التعجب وتعتبر أن التوحيد فطري.[٢٢١] ونزلت بعض الآيات في المشركين الذين أعرضوا عن سماع القرآن لجذبهم إليه.[٢٢٢] فالسلوك

---

٢١٢ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٢). ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣). ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤). ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٦).

٢١٣ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٦١).

٢١٤ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٧).

٢١٥ مثل أول آيات سورة البقرة (السابق، ص٢٢).

٢١٦ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١١).

٢١٧ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦).

٢١٨ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة: ١١٩).

٢١٩ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤).

٢٢٠ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣).

الطبيعي هو مواكبة هذا الانجذاب. يخشون من البرق والرعد. ويجعلون أصابعهم في آذانهم ولا يسمعون.[٢٢٣] ويُصِرّون على عدم الانصياع، ومع ذلك يدعو الوحي المشركين إلى عبادة الله.[٢٢٤]

واتهم المشركون الرسول بتبديل الوحي. يأمر بما ينهى، وينهى بما يأمر.[٢٢٥] وظنوا أنه سيعود إلى الشرك كما عاد إلى القبلة. وظنوا أن لله أندادًا.[٢٢٦] والمشرك هو المرتد الذي يؤمن ثم يرتد عن إيمانه.[٢٢٧] ولا يغتر أحد بأثرياء المشركين.[٢٢٨] وما فائدة دعاء الرسول على المشركين؟[٢٢٩] والله يغفر كل شيء إلا الشرك به.[٢٣٠]

(٦) المجموعات الخارجية الداخلية

وهم أهل الكتاب اليهود والنصارى؛ فهم مجموعاتٌ خارجية لأنها من غير المسلمين، وداخلية لأن المسلمين استئناف لهم. والمقصود من أهل الكتاب نظرًا اليهود والنصارى ولكن عملًا قد يكون المقصود اليهود. فالنصرانية أتت من داخل اليهودية وإصلاح لها.

لا يود أهل الكتب ولا المشركون أن ينزل الله الوحي على أحد سواهم.[٢٣١] ولا يود أهل الكتاب أن ينزل الوحي على غيرهم. ومن كذب بالرسالة من المشركين والنصارى

---

٢٢١ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

٢٢٢ ﴿الم﴾ (البقرة: ١)، (السابق ص٢١).

٢٢٣ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ١٩)، السابق، ص٢٥.

٢٢٤ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ (البقرة: ٢١)، السابق ص٢٥.

٢٢٥ ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٦). ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ١٠١).

٢٢٦ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣).

٢٢٧ ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ٨٦).

واليهود ماتوا وهم كفار.[232] ولماذا ينكر اليهود والنصارى الإسلام وهو موجود عندهم في التوراة والإنجيل؟[233] ولا فائدة من المحاجَّة، واللجوء إلى الفطرة أفضل.[234] ولا تكون الموالاة لغير المؤمنين، من اليهود أو النصارى.[235] وبالرغم من عداوة اليهود والنصارى للمؤمنين إلا أنهم أعداء لبعضهم البعض؛ كلٌّ منهم ينكر دين الآخر.[236] ولن ترضى اليهود ولا النصارى عن المسلمين حتى يصبحوا مثلهم. وفرقٌ بين الهوى والعلم.[237] وقد ادعى اليهود أن عزيرًا ابن الله، كما ادعى النصارى أن المسيح ابن الله.[238] وقد طالب اليهود والنصارى بالمعجزات، وطلب مثلهم نفس الطلب، ولا معجزة بعد القرآن.[239] وإن كان اليهود يحبون الله فإنهم أولى باتباعه.[240] ولا يعني الاتباع العبادة بل الطاعة.[241]

---

٢٢٨ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (آل عمران: ١٩٦).

٢٢٩ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٨).

٢٣٠ ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨).

٢٣١ ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥).

٢٣٢ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (البقرة: ١٦١).

٢٣٣ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩).

٢٣٤ ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠).

٢٣٥ ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨).

٢٣٦ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة: ١١٣).

٢٣٧ ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

٢٣٨ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (البقرة: ١١٦).

وبعد ظهور الإسلام تنتهي الدعوة إلى اليهودية والنصرانية.[٢٤٢] رفض اليهود الإيمان بالإسلام لأنه ليس في التوراة. ورفض النصارى أيضًا لأنه يجعل المسيح مثل باقي الأنبياء.[٢٤٣] والأنبياء ليسوا هودًا أو نصارى بل هم مسلمون.[٢٤٤] وبدلًا من إنكار اليهود دين النصارى وإنكار النصارى دين اليهود وإنكار اليهود والنصارى الإسلام فمن الأفضل المباهلة، عبادة إلهٍ واحد يتساوى أمامه الجميع.[٢٤٥]

يُحرِّف أهل الكتاب الكلم عن مواضعه.[٢٤٦] يشترون الضلالة بالهدى. واليهود يحرفون الكلم عن مواضعه ويلوون ألسنتهم بالكلام يقصدون غير ما ينطقون به.[٢٤٧]

وليس كل أهل الكتاب معادين للمسلمين.[٢٤٨] فالنجاشي كان أعلم النصارى.

---

٢٣٩ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ١١٨).

٢٤٠ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

٢٤١ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢).

٢٤٢ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٣٥).

٢٤٣ ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧).

٢٤٤ ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٠).

٢٤٥ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

٢٤٦ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨).

٢٤٧ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٤٤–٤٦).

٢٤٨ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: ١٢١).

وقد اختصم أهل الكتاب، كلٌّ يتمسك بدينه، والدين كله لله.[٢٤٩] ويرجع كل دين إلى إبراهيم.[٢٥٠] والإسلام يؤمن بجميع الأنبياء السابقين دون تفرقة بين أحد منهم.[٢٥١]

اليهود والنصارى مرتدون؛ آمنوا باليهودية والنصرانية ثم رفضوا الإيمان بالإسلام.[٢٥٢] تفرَّقوا بعدما جاءتهم البينات.[٢٥٣] كان فريق من أهل الكتاب يؤمن بمحمد قبل أن يُبعث. فلما بُعث كفروا به.[٢٥٤] وقد أخذ الله من قبلُ من الذين أوتوا الكتاب ميثاقًا لبيان التنزيل للناس. فنبذوه واشتروا ثمنًا قليلًا.[٢٥٥] ويقول اليهود إن موسى آية، ويقول النصارى إن عيسى آية. والآية في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار أي في مظاهر الطبيعة وليس في أشخاص الأنبياء.[٢٥٦]

والهجوم الأعنف على اليهود خاصة. وتتوجه إليهم معظم الآيات. يتصورون الله خلق العالم في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع. والله لا يمسه تعب ولا ينام ولا يصلي ولا يصبغ وكأنه بشر.[٢٥٧] وقد أسقط اليهود تصورهم الأناني المادي على الله، وتصوروه فقيرًا وهم أغنياء عندما نزلت آية يدعو الله الناس فيها ليقرضوه قرضًا حسنًا.[٢٥٨]

ويدَّعون العداوة لجبريل؛ لأنه يُنزل الأمر بالحرب والقتال على عكس ميكائيل.[٢٥٩] ويتخذون الملائكة والنبيين أربابًا من دون الله مثل عيسى وعزير.[٢٦٠] ولم تدعُ النبوة إلى

---

[٢٤٩] ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣).

[٢٥٠] ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٤).

[٢٥١] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

[٢٥٢] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٠).

[٢٥٣] ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

[٢٥٤] ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦).

[٢٥٥] ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

[٢٥٦] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

عبادة غير الله من الأنبياء والمرسلين.[٢٦١] وإيمان اليهود بالإسلام طبيعي لأنه تصديق لما بين أيديهم من الرسالات السابقة.[٢٦٢] أنكر اليهود الرسول بالرغم من إعلامهم بأنه على ملة أبيهم إبراهيم.[٢٦٣] والمسلمون أولى بإبراهيم من اليهود لأن المسلمين هم الذين يتبعونه.[٢٦٤] يُلبِسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون.[٢٦٥] ونزلت آياتٌ أخرى في اليهود الذين أنكروا عدم نزول شيءٍ بعد موسى.[٢٦٦] يرفضون الإيمان بالرسول كما آمن السفهاء به.[٢٦٧] ولا يؤمنون بما يصدق ما بين أيديهم. والوحي كلٌّ واحد.[٢٦٨] ولا يستجيبون إلا لما لهم فيه مصلحة. ويعترضون على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.[٢٦٩]

وقد حرفوا كلام الأنبياء من قبلُ وبدَّلوا رسالة موسى وهم على علم بذلك.[٢٧٠]

وكانوا يطلبون الهدى فلما جاءهم مصدقًا لما بين أيديهم كفروا به.[٢٧١] وينكرون كل البينات التي أتى لهم بها الرسول.[٢٧٢] وينكرون القرآن مع أنه مصدق للتوراة.[٢٧٣] وهم

---

[٢٥٧] ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

[٢٥٨] ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (آل عمران: ١٨١).

[٢٥٩] ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٩٧–٩٨).

[٢٦٠] ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٠).

[٢٦١] ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩).

[٢٦٢] ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (آل عمران: ٤).

[٢٦٣] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (آل عمران: ٢٣).

[٢٦٤] ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٦٨).

[٢٦٥] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧١).

[٢٦٦] هي أول سورة البقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢)، (السابق، ص٢١).

بمثابة الصمِّ العُمي البُكم الذين لا يعقلون.[٢٧٤] ويدعون أن النبوة قاصرة على يعقوب وذريته ولم يكونوا حاضرين.[٢٧٥] ويكتمون الحق وهم يعلمون.[٢٧٦] أخفوا آية الرجم.[٢٧٧]

وينكرون الإيمان بما نزل مصدقًا لما بين أيديهم.[٢٧٨]

ولا إكراه في الدين، ولا يجوز تعيين دين الطفل قبل أن يولد لا في اليهودية ولا في النصرانية.[٢٧٩]

---

٢٦٧ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣)، (السابق، ص٢٣).

٢٦٨ ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة: ٤١)، (السابق، ص٢٩).

٢٦٩ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥).

٢٧٠ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥).

٢٧١ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٨٩).

٢٧٢ ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (البقرة: ٩٩).

٢٧٣ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠١).

٢٧٤ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

٢٧٥ ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

٢٧٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٤).

٢٧٧ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩).

٢٧٨ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ (النساء: ٤٧).

٢٧٩ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقد تحجج بعض اليهود بعد الإيمان بالقرآن للحروف في أول بعض السور.[٢٨٠]

وخشي اليهود أن يحلَّ بهم ما حلَّ بقريش يوم بدر فحذرهم الوحي من نفس المصير.[٢٨١] ليست القضية يهودًا أم نصارى بل قضية إيمان وعمل صالح. وإذا كان الرسول قد حكم ضيقًا بهم أنهم في النار فصحح الوحي الحكم.[٢٨٢] وهو لا يتعارض مع كون الإسلام آخر الأديان.[٢٨٣] ويعتذرون بأن قلوبهم غلف.[٢٨٤] وادعوا بأن يعقوب أوصاهم بالثبات على اليهودية.[٢٨٥] ورفضوا الإسلام تقليدًا لدين الآباء.[٢٨٦] ولا يريدون أن يؤمنوا إلا بمن تبع دينهم والهدى هدى الله.[٢٨٧] رؤساء اليهود يشترون بعهد الله ثمنًا قليلًا.[٢٨٨] ويريدون الاحتكام إلى اليهودية لأن بها الرشوة وليس للإسلام لأنه خالٍ منها[٢٨٩] ويريدون الاحتكام إلى الكاهن.[٢٩٠]

---

[٢٨٠] ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

[٢٨١] ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٢).

[٢٨٢] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢).

[٢٨٣] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

[٢٨٤] ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٨٨).

[٢٨٥] ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٣٤).

[٢٨٦] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

[٢٨٧] ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٧٣).

[٢٨٨] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٧).

[٢٨٩] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ٦٠).

[٢٩٠] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤).

ويقولون إنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودات.[٢٩١] ويتصوَّرون أن الأنبياء شفعاء لهم.[٢٩٢] ويدَّعون أنهم أحباء الله وأنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودات.[٢٩٣] وظنوا أنهم لا يموتون وأن الجنة لهم.[٢٩٤]

وهم أحرص الناس على الحياة.[٢٩٥] وقالوا لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى.[٢٩٦] ادَّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وانكروا الكسب.[٢٩٧] يزكون أنفسهم عند الله وبأنهم لا ذنوب لهم.[٢٩٨] ويدَّعون أنهم خير أمة أخرجت للناس فنزل الوحي لتكذيبهم.[٢٩٩] ويجادلون المسلمين ليردوهم عن إيمانهم.[٣٠٠] ويؤججون العداوة بين المؤمنين، وينتصرون لفريق ضد فريق.[٣٠١] وقد شمتوا في المسلمين بعد واقعة أحد.[٣٠٢] وكانوا يؤذون النبي فيأتي التنزيل

---

[٢٩١] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (آل عمران: ٢٤).

[٢٩٢] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨).

[٢٩٣] ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٨٠).

[٢٩٤] ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٩٤).

[٢٩٥] ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٩٦).

[٢٩٦] ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١٢).

[٢٩٧] ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة: ١٣٩).

[٢٩٨] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٤٩).

[٢٩٩] ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠).

[٣٠٠] ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (أل عمران: ٦٩).

[٣٠١] ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥).

بالصبر.[٣٠٣] وكيف يؤمنون بالطاغوت وهم يتلون الكتاب ويؤيدون الذين كفروا على الذين آمنوا؟[٣٠٤] وقد حاول فريق الإيقاع بين الأوس والخزرج لإرجاعهم إلى الجاهلية الأولى.[٣٠٥] ويصدُّون عن سبيل الله من أراد الإيمان.[٣٠٦] وعادَوا إخوانهم الذين آمنوا بالإسلام.[٣٠٧] واتهموهم بأنهم شرارهم. ويحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله.[٣٠٨] وهم منافقون يريدون الإيمان بالإسلام أول النهار والكفر به آخره.[٣٠٩]

ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.[٣١٠] وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض تآمروا على المؤمنين ورفضوا الاعتراف بما لديهم تصديقًا بما عند المؤمنين.[٣١١]

---

٣٠٢ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩).

٣٠٣ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

٣٠٤ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (النساء: ٥١).

٣٠٥ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ٩٨–١٠١).

٣٠٦ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ٩٩).

٣٠٧ ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (آل عمران: ١١١). ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣).

٣٠٨ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٥٤).

٣٠٩ ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران: ٧٢).

٣١٠ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤)، (السابق ص٢٩–٣٠).

٣١١ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٦).

امتحنوا الرسول عما يؤمن به فلما أخبرهم بالإيمان بالرسل بما فيهم عيسى أنكروه.[٣١٢]

أراد اليهود الإيمان بالإسلام دون شرائعه والإبقاء على شريعة موسى.[٣١٣] وشرط الإيمان قبول حكم الرسول.[٣١٤] يقتلون الأنبياء.[٣١٥] وهم جاحدون بنعم الله لا يوفون بالعهود ولا يخافون الله[٣١٦] ولا يتكلمون في الكتاب إلا بأصلهم[٣١٧] ويبدلون الكتاب بأيديهم.[٣١٨] وينقضون العهود[٣١٩] ويتبعون ما تتلوا الشياطين.[٣٢٠] يلوكون بألسنتهم كلامًا مزدوجًا يفهم منه المدح في الظاهر، والذم في الباطن.[٣٢١] وقد سألوا موسى المستحيل؛ رؤية الله.[٣٢٢] ورفضوا الإيمان إلا أن ينزل الله قربانًا تأكله النار. وقد أرسل لهم الله من قبلُ البينات ولكنهم كفروا بها.[٣٢٣] حرَّموا على أنفسهم قبل أن تحرم التوراة ما حرموا،

---

[٣١٢] ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

[٣١٣] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

[٣١٤] ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

[٣١٥] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١).

[٣١٦] ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة: ٤٠)، (السابق، ص٢٨-٢٩).

[٣١٧] ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨).

[٣١٨] ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

[٣١٩] ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ١٠٠).

[٣٢٠] ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ (البقرة: ١٠٢).

[٣٢١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٠٤).

[٣٢٢] ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (البقرة: ١٠٨).

زايدوا ثم كفروا بما طلبوه؛ لذلك أصبح الحلال هو الأصل في الإسلام وليس الحرام.[٣٢٤] ومقياس التقوى الإنفاق مما تحبه النفس أي المجاهدة.[٣٢٥] وكفرة اليهود لن تغني عنهم أولادهم ولا أولادهم من الله شيئًا.[٣٢٦] يعصون الشريعة إن أمرتهم بقتل النفس أو الخروج من الديار.[٣٢٧]

والقبلة ليست اتجاهًا جغرافيًّا بل هي قصدٌ روحي، تُوجِّه المسلمين نحو وجهةٍ واحدة.[٣٢٨] وتساءل اليهود عن تحول قبلة المسلمين.[٣٢٩] واتهموا الرسول بأنه حوَّل القبلة حسدًا لهم.[٣٣٠] وادَّعوا أن تحويل القبلة إنما اشتياق الرسول إلى موطن أبيه وأمه، ولو ثبت على القبلة الأولى لآمنوا به لأنه يكون واحدًا منهم.[٣٣١] وادَّعوا أن الرسول يتابعهم في

---

٣٢٣ ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٨٣).

٣٢٤ ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣).

٣٢٥ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢).

٣٢٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١١٦–١١٧).

٣٢٧ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ٦٦–٦٨).

٣٢٨ ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥).

٣٢٩ ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢).

٣٣٠ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣).

٣٣١ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٤٥).

الدين ويخالفهم في القبلة.[٣٣٢] تفاخر اليهود والمسلمون، كلٌّ بقبلتهم بالرغم من أن أول بيت وضع للناس هو البيت الحرام بمكة.[٣٣٣] ونحوه يأتم اليهود.

ليس اليهود بالضرورة هم المعارضين الرافضين للرسالة الجديدة بل هناك الأتقياء المؤمنون بها. يجدونها في التوراة التي تتنبأ برسولٍ اسمه أحمد من ولد إسماعيل.[٣٣٤] وهم يعرفون الكتاب دون كتمانه.[٣٣٥] منهم من يؤمنون بالكتاب.[٣٣٦]

أما النصارى فنقدهم أقل. فقد خرب النصارى بيت المقدس كما خربها بختنصر.[٣٣٧] ويتصورون أن العماد بصبغ النصارى المولود الجديد بالماء لتطهيره.[٣٣٨] من آمن بعيسى منهم كفر بمحمد، ومن كفر بعيسى آمن بمحمد، والإيمان واحد، ومن اليهود من آمن بمحمد لأنهم وجدوه مذكورًا في التوراة.[٣٣٩] والمسيحيون يقولون بأن الله اتخذ ولدًا، ويسجدون للصليب، ويأكلون لحم الخنزير؛ ومن ثم فهم ليسوا مسلمين.[٣٤٠] ولا داعي

---

[٣٣٢] ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٠).

[٣٣٣] ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦)، ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧).

[٣٣٤] ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة: ١٣٠).

[٣٣٥] ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦).

[٣٣٦] ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٥).

[٣٣٧] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٤).

[٣٣٨] ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة: ١٣٨).

[٣٣٩] ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

[٣٤٠] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

للمحاجَّة مع النصارى بل يكفي الابتهال إلى الله.[٣٤١] ويحاجج أهل الكتاب في إبراهيم وقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعده. لم يكن إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا بل كان حنيفًا مسلمًا.[٣٤٢]

ومع ذلك، من النصارى مثل النجاشي من يعرف الحق.[٣٤٣]

(٧) المجموعات الداخلية

ونزلت آياتٌ عدة في المنافقين الذين يدَّعون الإيمان باللسان دون القلوب.[٣٤٤] إذا لقوا المؤمنين ادَّعوا الإيمان، وإذا خلوا إلى أنفسهم استهزءوا به.[٣٤٥] وهم مثل الذي أوقد نارًا فلما أضاءت ذهب النور، وظلوا في ظلمات.[٣٤٦] ويشمت المنافقون في الشهداء بأنهم لقوا حتفهم ولو أنهم كانوا منافقين لعاشوا.[٣٤٧] ويحبون أن يحمدوا بها لم يفعلوا.[٣٤٨]

---

[٣٤١] ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

[٣٤٢] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٥–٦٧).

[٣٤٣] ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٩).

[٣٤٤] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨)، (السابق، ص٢٣).

[٣٤٥] ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة: ١٤)، (السابق، ص٢٤).

[٣٤٦] ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧)، (السابق، ص٢٥).

[٣٤٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٥٦).

[٣٤٨] ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٨٨).

ويبطئون في تنفيذ الأحكام، فإن وقعت مصيبة لم يشهدوا عليها.[349] ويحذِّر التنزيل من أخذهم أولياء.[350] وفي ساعة الأزمة لو كان الرسول فظًّا غليظ القلب لانفضَّ الناس من حوله؛ لذلك يشيرهم الرسول، ويعزم الأمر.[351]

ويرفض الوحي الترهُّب وتحريم نعم الله على النفس.[352]

وبالنسبة للمذنبين بدلًا من كتابة ما يشين المذنب على بابه وإحراجه اجتماعيًّا كما كان الحال عند بني إسرائيل؛ يأتي التنزيل بالمغفرة.[353] والذنب بعد التوبة مغفور.[354] وبالنسبة للمؤمنين بدلًا من الشقاق بين المؤمنين الاعتصام بحبل الله.[355] والمؤمنون المخلصون هم الذين يقاتلون في سبيل الله. يشترون الحياة الدنيا بالآخرة.[356]

---

[349] ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٧٢).

[350] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: ١١٨).

[351] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

[352] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ١٦٨). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (المائدة: ٨٧).

[353] ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

[354] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

[355] ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣). ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢).

[356] ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤).

يقاتلون في سبيل المستضعفين.[٣٥٧] وهم غير المسلمين الذين قبلوا الصلاة والزكاة وتحرجوا من قبول القتال.[٣٥٨] وهم غير المنافقين الذين يدَّعون أن المسلمين الذين استشهدوا يوم أحد لو لم يخرجوا للقتال لعاشوا.[٣٥٩]

٣٥٧ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

٣٥٨ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٧٧).

٣٥٩ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٧٨).

الفصل الثالث

الزمان

أولًا: الناسخ والمنسوخ

ويعني الزمان «الناسخ والمنسوخ»، إلغاء الحكم السابق بحكمٍ لاحق بعد فترةٍ زمنية؛ من أجل تعديل الحكم وإعادة تكييفه طبقًا لتجربة التطبيق الأولى تخفيفًا وهو الغالب، أو تشديدًا وهو الأقل. فمنهج الوحي منهجٌ تجريبي، وأحكامه واقعية. وهو درس في التجريب والتعديل طبقًا للظروف المتغيرة. ولا يضر الوحي أن تتغير أحكامه طبقًا لتغير الظروف؛ فالتغيير سنة الكون، وهو العنصر الثابت في الحياة.

ويأتي «الناسخ والمنسوخ» بعد أسباب النزول «وإن كان علم أصول الفقه قد أعطى الأولوية المطلقة للنسخ على النزول».[1] فالوحي ينزل أولًا ثم يتطور ثانيًا. ومن ثم كان العلم بأسباب النزول يسبق العلم بالناسخ والمنسوخ. الأول أصل، والثاني فرع.[2] وتبدأ السورة ببيان ظرفها المكاني، مكيةً أو مدنية قبل أن تعرض في بعضها أسباب نزولها. والنسخ مرتبط بأسباب النزول التي تبيِّن ظروف الحكم الأول وتغيرها الذي اقتضى تغييره، وذلك مثل الطلاق ثم الرد ثم تحديد مرات الطلاق بثلاث.[3] انتقالًا من القسوة إلى العشرة المطلقة ثم إلى العشرة المشروطة وبث الغيرة.[4]

ولا يعني الزمان النسخ الزماني الكوني مثل النهاري والليلي في تعاقب الليل والنهار، والصيفي والشتائي باعتبارهما من الفصول الأربعة وكلاهما في الزمان الكوني، والفراشي والنومى وهو الزمان الذاتي، اليقظة والنوم. والنهاري والليلي زمن تعاقب الليل والنهار.

[1] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١١٨–١٣٦.

[2] ابن سلامة: الناسخ والمنسوخ ص٤–٥، ٥٣، ٥٥، ٨٢–٨٤، ٨٨–٩١، ١٠٣-١٠٤.

وفيمَ الاستعجال لنزول الوحي ليلًا والناس نيام ولم تحدث مشاكل تستدعى نزول الوحي؟[5] قد يكون الحدث شخصيًّا والنبي قلقٌ ليلًا مثل البحث عن قبلة ولكن دلالته اجتماعية للناس بعد الاستيقاظ. فالوحي ليس فقط علاقةً رأسية بين النبي ومصدره بل أفقية بين النبي والناس. وإن كان حدثًا خاصًّا بينه وبين أزواجه فدلالته للمسلمين جميعًا.[6] والصيفي والشتائي الزمان الكوني، زمان الفصول الأربعة. وقد يعني ذلك وقوع الحرب أيام الحر أو البرد. ومع ذلك الدلالة حقيقية باستثناء مراعاة الوحي للزمان الجغرافي وليس فقط الزمان الإنساني[7] ويدل الفراشي والنومى على الزمان الشعوري في اليقظة والنوم. ويظل السؤال قائمًا: ما وجه العجلة وقت الاسترخاء والراحة والإنسان على الفراش وقد انعزل عن الناس أو وقت النوم ولا تقع حوادث ولا مشاكل بل الحظر في اعتبار الأحلام وقائع؟ إنما يعني زمان الأحكام أي زمان الفعل كما هو الحال في علم أصول الفقه.[8]

(١) أدبيات الموضوع

وقد كُتبتْ في الموضوع عدة محاولات قبل أن تدخل في التصور الكلي لعلوم القرآن في «البرهان» و«الإتقان».

(أ) «الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى» لقتادة (١١٧هـ)[9]

وقد كُتب في الناسخ والمنسوخ منذ القرن الأول؛ مما يدل على أهميته وبروزه كموضوعٍ مستقل قبل تكوين علوم القرآن. يكتفي بالرصد والتسجيل والتدوين والإحصاء سورةً سورة دون أي مقدمةٍ نظرية في الموضوع ودون رصد أي دلالة للنسخ وتغيُّر الأحكام بتغيُّر الزمان والمكان، ودون تحويل للرصد الطولي لسور القرآن إلى التحليل البنيوي.

---

[3] الأولى في ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. والثانية ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾، والثالثة ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، والرابعة ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، ابن سلامة، ص٢٥.

[4] السابق، ص٢٩.

[5] الإتقان ص٥٨–٦٢.

لا يعتمد إلا على الرواية حتى مع اختلاف الروايات. يضيف فقط إذا كانت السورة مكية أو مدنية دون التطرق إلى دلالة النسخ في المدني أي في التشريعات والنظم، وليس في المكي أي في التصورات والعقائد.[10] ولا يقع النسخ في كل السور؛ مما يدل على إمكانية ثبات بعض التشريعات الخلقية العامة تعبيرًا عن الطبيعة الإنسانية والفطرة البشرية بالرغم من تغيير الظروف الاجتماعية.[11]

(ب) «الناسخ والمنسوخ للزهري» (١٢٤هـ)

واستمر التأليف في الناسخ والمنسوخ في القرن الثاني. واستقر العنوان بهذه الصيغة المزدوجة «الناسخ والمنسوخ» وليس بصيغةٍ أكثر تجريدًا مثل النسخ. وهو مجرد رصد وتسجيل دون تحليلٍ نظري باستثناء تحديد السورة مكيةً أو مدنيةً.[12] فالمكان تابع للزمان. ولا يعتمد إلا على الرواية.

(ج) «الناسخ والمنسوخ في الكتاب والسنة» لابن سلام (٢٢٤هـ)[13]

وهو أول كتاب في الموضوع يعتمد على الرواية، فالعلم سند بل تعدد الروايات للمتن الواحد إذا كان نقلًا بالمعنى وليس باللفظ.[14] ويعني النسخ المعنى العام بحيث يشمل التخصيص والبيان. ويشمل النسخ بصرف النظر عن أنواع الناسخ قرآنًا أو حديثًا. ولا ضير أن ينسخ الحديثُ القرآنَ. والقرآنُ الحديثَ؛ لذلك تم ترتيب أنواع النسخ طبقًا لدرجة الناسخ فيما بعدُ في علم أصول الفقه.

والأهم هو ترتيب النسخ ليس طبقًا لسورةٍ سورة وآيةٍ آية كما هي العادة فيما بعدُ بل طبقًا للموضوعات الفقهية. والفقه هو علم السلوك والأحكام الشرعية. وهو ما

---

[6] السابق، ص٦٣–٦٤.

[7] الإتقان ص٦٥–٦٦.

[8] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٣٠٩–٣١٦.

[9] أربعة كتب في الناسخ والمنسوخ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، كلية الآداب، جامعة بغداد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص٣٥–٥٦.

[10] السابق، ص٥٥–٥٦.

يتطلب استنباطها من آخر آياتٍ نزلت من الناسخ وليس من المنسوخ.[١٥] أكبرها العبادات ثم الأحوال الشخصية ثم الحج والجهاد والشهادات ثم الطعام والشراب ثم الحدود ثم المواريث والوصية واليتامى ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم بعض الموضوعات الأخلاقية مثل الاستئذان والتوبة والإكراه في الدين وإخفاء النفوس وقيام الليل والنجوى والاستغفار.[١٦]

(د) «الناسخ والمنسوخ» لأبي القاسم هبة الله بن سلامة (٤١٠هـ)[١٧]

يعقد مقدمةً نظرية عن أهم موضوعات النسخ مثل معنى النسخ لغةً واصطلاحًا وأنواعه بالنسبة للخط والحكم، وتوزيع الناسخ والمنسوخ على السور، ودخول النسخ على الأمر والنهي، والرد على الملحدين والمنافقين الذين يستخفُّون بالنسخ.[١٨] وبعد ذلك يتم رصد الناسخ والمنسوخ، سورةً سورة، وآيةً آية من البقرة حتى الناس.[١٩] وهو من أفضل النصوص ترتيبًا وشمولًا ووضوحًا وبيانًا لدلالة النسخ.

(هـ) «الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم» للقاضي ابن العربي (٥٤٣هـ)

ويعرض لموضوع النسخ، سورةً سورة وآيةً آية على نحوٍ طولي وليس عرضيًّا، مجرد رصد دون تنظير، من أجل العثور على منطق النسخ أو دلالته. والسور نفسها غير مرتبة ترتيبًا زمانيًّا بل توقيفيًّا؛ مما يصعب معه رصد مسار النسخ ومنطقه.[٢٠] تفصيلاتٌ عديدة دون نظرةٍ كليةٍ عامة باستثناء المقدمة التي تتضمن بنيةً نظرية تتعلق بشرائط النسخ. وهي ستة: أن يكون النسخ شرعيًّا لا عقليًّا، منفصلًا غير متصل، وأن يختلف حكم الناسخ عن المنسوخ، واستحالة الجمع بين الحكمَين أن يكون النسخ في الحمل والعمل، ومعرفة المتقدم والمتأخر.[٢١]

---

[١١] يذكر النسخ في سبع عشرة سورةً فقط: وخصصت له مؤلفاتٌ أخرى لأبي داود السجستاني وأبي جعفر النحاس وابن الأنباري ومكي وابن العربي وآخرين (الإتقان، ج٣، ٥٩)؛ (البرهان، ج٢، ٢٨).

[١٢] أربعة كتب في الناسخ والمنسوخ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، كلية الآداب جامعة بغداد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص١٣–٣٤.

والبدل ليس شرطًا. وإذا كان ضروريًّا يكون متعدد الأوجه مثل نسخ قدر الكم، وطريقة العمل، والتخيير بالإلزام، والقبلة بالقبلة، والتحريم بالإباحة، طبقًا لقاعدة نسخ الأثقل بالأخفِّ. ولا يكون النسخ إلا بمثله؛ مثل نسخ الكتاب بالكتاب، والسنة بالسنة أو ما هو أعلى مثل نسخ السنة بالكتاب وليس بما هو أدنى؛ نسخ الكتاب بالسنة أو الإجماع أو الاجتهاد. ولا تعتبر الزيادة أو النقصان نسخًا. ومعظم النسخ في المدني وليس في المكي. ففي المدني الشرائع، وفي المكي العقائد. وفي المكي التصور، وفي المدني النظام.

يعتمد على الروايات. والغاية عمليةٌ فقهية وليست نظريةً منطقية تروي ظروف كل نسخ؛ مما يدل على ارتباطه بأسباب النزول. ويجعل ذلك باب النسخ في علم أصول الفقه أكثر تنظيرًا ودلالة.[22] لذلك كان «الناسخ والمنسوخ» للواحدي أفضل لأنه مادةٌ خام يمكن تحويلها إلى منطق للنسخ برصد النسخ المتشابه والمختلف. ويستعمل الشعر وآراء الفقهاء دون الدخول في جدل مع المتكلمين.

---

[13] ابن سلام (أبو عبيد القاسم): الناسخ والمنسوخ في الكتاب والسنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ.

[14] السابق، ص١٧.

[15] لذلك وضع الناشر أو المحقق عنوانًا فرعيًّا للدلالة على ذلك «أول كتابٍ مصنَّف في الناسخ والمنسوخ ومرتَّب على أبواب الفقه».

[16] العبادات (الصلاة، الزكاة، الصيام، المناسك) (٦٢)، الأحوال الشخصية (النكاح، الطلاق) (٤٠)، الشهادات (مع شهادة أهل الكتاب) (١٥)، الجهاد (الأسارى، الغنائم) (١٥)، الطعام والشراب (السكر)، الحدود (٩)، الأخلاق (ما تخص النفوس، الإكراه، الاستغفار للمشركين) (٧)، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧)، الوصية واليتامى (٦)، التوبة (٥)، الاستئذان (٤)، النجوى والتقوى (٣)، الحكم بين أهل الذمة (١).

[17] أبو القاسم هبة الله بن سلامة: الناسخ والمنسوخ، مصطفى البابي الحلبي، مصر ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

[18] السابق، ص٥–١٠.

[19] السابق، ص١١–١٠٦.

[20] القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري المالكي: الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، ووضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ.

[21] السابق، ص١١–١٥.

[22] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١١٨–١٣٦.

(و) «المصفَّى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ» لابن الجوزي (٥٩٧هـ)[٢٣]

استمر التأليف في الناسخ والمنسوخ حتى القرن السادس قبل تشكُّل علوم القرآن في صيغتها الكاملة في «البرهان» «والإتقان». وقد يُغلَّف العنوان بصيغةٍ أدبية تقوم على السجع كما هي العادة في عناوين القدماء. ويتحول إلى علمٍ مستقل. وبالإضافة إلى الرصد والتسجيل، سورةً سورة.[٢٤] تبدأ محاولات وضع أسسٍ نظرية للنسخ في فصول.[٢٥]

(ز) «نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٥٩٧هـ)[٢٦]

ويدلُّ العنوان بهذه الصياغة الجديدة على أن التركيز على النواسخ جمع «ناسخ» وليس على «المنسوخ»، أي على اللاحق وليس على السابق، على الإثبات وليس على الرفع والإزالة؛ لذلك جاءت أقسام الباب الثامن، وهي تقريبًا كل الكتاب، في صيغة «ذكر الآيات التي ادُّعي عليهن النسخ في سورة كذا.» سورة سورة، من البقرة حتى الكافرون، تسعًا وخمسين سورةً؛ مما يوحي بأن النسوخ ادعاء، وأنه لا شيء منسوخًا في القرآن كما هو الحال عند منكري النسخ من اليهود لإثبات شريعتهم التي لم تنسخها شريعة المسيح أو شريعة الإسلام.[٢٧]

وهو تصنيف ابن الجوزي، وهو ما يعني تأليفًا بلغة العصر. يبدأ بعقد نظرية في سبعة أبواب قبل أن يبدأ التطبيق في الباب الثامن.[٢٨] الأول عن جواز النسخ والفرق بينه

---

[٢٣] أربعة كتب في الناسخ والمنسوخ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، كلية الآداب، جامعة بغداد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص١١–٥٥.

[٢٤] حوالي ٤٨ سورةً، من البقرة حتى الكافرون.

[٢٥] المصفى، ص١١–١٣.

[٢٦] الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي: نواسخ القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

[٢٧] «ثم أتيت بالآيات المدَّعى عليها النسخ على ترتيب القرآن إلا أني أعرضتُ عن ذكر آيات ادُّعيَ عليها النسخ من حكاية لا تحصل إلا تضييع الزمان أفحش تضييع ... لا أدري أي الأخلاط الغالبة حملته على هذا التخليط. فلما كان مثل هذا ظاهر الفساد، ورَّيت عنه غيرةً على الزمان أن يضيع، وإن كنتُ قد ذكرت مما يقاربه طرفًا لأنبِّه بمذكوره على مُغفَله» (السابق، ص١٢-١٣).

وبين البداء، والثاني وقوع النسخ في القرآن، والثالث حقيقة النسخ، والرابع والخامس شروط النسخ المتفق عليها والمختلف فيها، والسادس فضيلة علم الناسخ والمنسوخ وضرورة تعلمه، والسابع أقسام المنسوخ.

والنسخ موضوعٌ مشترك بين علم أصول الفقه في المصدر الأول لاستنباط الأحكام؛ القرآن، وفي أحكام التكليف الخمسة.[٢٩] ويظهر أيضًا في علم أصول الدين في تطور النبوة، وهو أيضًا في علم القرآن، حامل الزمان في الحوامل الموضوعية. أما علوم الحكمة وعلوم التصوف فإنهما يتعاملان مع الحقائق الثابتة الخالدة دون أخذ التطور والزمان بعين الاعتبار. فالحقيقة عند الحكماء واحدة، والدين عند الصوفية واحد.

وامتد الخطأ في التفسير كما هو الحال في كتاب هبة الله المفسر وهو ابن سلامة العزيز صاحب «الناسخ والمنسوخ» إلى الخطأ في الناسخ والمنسوخ وجعل غير المنسوخ منسوخًا، وكما هو الحال في كتاب الناسخ والمنسوخ للسدي.[٣٠] وقد انعكس ذلك على التفسير فدخلتْ آراء المفسرين الفاسدة، واعتمدوا على أحاديثَ باطلة؛ مما دفع المؤلف إلى كتابة مقدمات في علم التفسير للتنبيه على ذلك مثل «المغني في التفسير»، «زاد المسير»، «تفسير التبيان في علم القرآن» واختصاره في «تذكرة الأريب في تفسير الغريب».[٣١]

---

[٢٨] الأبواب السبعة الأولى (٢٥)، والثامن (٢١٣).

[٢٩] السابق، ص٢٠–٢٢.

[٣٠] «ثم إني رأيت الذين وقع منهم التفسير صحيحًا قد صدر عنهم ما هو أفظع؛ فآلمني وهو الكلام في الناسخ والمنسوخ. فإنهم أقدموا على هذا العلم فتكلموا فيه وصنَّفوه. وقالوا بنسخ ما ليس بمنسوخ، ومعلوم أن نسخ الشيء رفع حكمه، وإطلاق القول برفع حكم آية لم يُرفَع جرأةٌ عظيمة. ومن نظر في كتاب الناسخ والمنسوخ للسدي رأى من التخليط العجائب، ومن قرأ كتاب هبة الله المفسر رأى العظائم. وقد تداوله الناس لاختصاره. ولم يفهموا دقائق أسراره. فرأيت كشف هذه الغمة عن الأمة ببيان إيضاح التصحيح، وهتك ستر القبيح، متعينًا على من أنعم الله عليه بالرسوخ في العلم وأطلعه على أسرار النقل، واستلب زمامه من أيدي التقليد خلسة إلى يد الدليل. فلا يهوله قول معظِّم فكيف بكلام جاهلٍ مبرسم» (السابق، ص١٢).

[٣١] «وإني رأيت كثيرًا من المتقدمين على كتاب الله عز وجل بآرائهم الفاسدة وقد دسُّوا في تصانيفهم للتفسير أحاديثَ باطلة، وتبعهم على ذلك مُقلِّدوهم، فشاع ذلك وانتشر؛ فرأيت العناية بتهذيب علم الأغاليط من اللازم … وأرجو أن تغني هذه المجموعات عن كتب التفسير مع كونها مهذبةً عن خللها، سليمة عن زللها» (السابق، ص١١).

وفي المقدمة يظهر وعي المؤلف النظري بضرورة تحويل العلم من النقل إلى العقل، ومن الرواية إلى الدراية، ومن التقليد إلى التجديد.[٣٢] ووضع مقدمة بمثابة القواعد والأصول واختيار الشكل الأدبي الأمثل من حيث الطول والقصر.[٣٣]

(ح) «ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه» لابن البارزي (٧٣٨هـ)[٣٤]

ويستمر التأليف في الناسخ والمنسوخ في القرن الثامن، وقت تشكيل علوم القرآن في «البرهان» للزركشي. ويضاف إلى العنوان التقليدي «القرآن العزيز» لبيان أن الموضوع يتعلق بالقرآن وجزء من علوم القرآن. ويمتاز الكتاب بمقدمةٍ نظرية في أنواع النسخ وبخاتمة أيضًا حول أهم قضية في النسخ العملي وهي آية السيف والقتال.

تبدأ المقدمة النظرية بتعريف النسخ في اللغة بمعنى الرفع. وقد ورد في القرآن بمعنيَين. الأول نقل الكتابة أو تدوين الأعمال في سجلات، والثاني رفع حكمٍ ثابت بحكمٍ ثابتٍ آخر.[٣٥] كما تضم ضروب النسخ الثلاثة؛ الأول رفع الحكم والخط، والثاني رفع الخط وبقاء الحكم، والثالث رفع الحكم وبقاء الخط. كما تتضمن مستويات الناسخ والمنسوخ الأربعة؛ نسخ الكتاب بالكتاب، والسنة بالكتاب، والسنة بالسنة وليس الكتاب بالسنة.[٣٦]

كما تتضمن وقوع النسخ في الأوامر والنواهي وليس في الأخبار، ثم تعطي بعض الإحصائيات في النسخ مثل أول ما وقع فيه النسخ.[٣٧] وليس في كل السور ناسخ ومنسوخ. وبعضها به ناسخ دون منسوخ، والبعض الآخر به منسوخ دون ناسخ.[٣٨]

---

[٣٢] «فإن نفع العلم بدرايته لا بوراثته، وبمعرفة أغواره لا بروايته. وأصل الفساد الداخل على عموم تقليد سابقيهم، وتسليم الأمر إلى معظَّميهم من غير بحث عما صنَّفوه، ولا طلب للدليل عما ألَّفوه» (السابق، ص١١.)

[٣٣] «ولما رأيت المصنفين في هذا العلم قد تباينوا؛ فمنهم من أطال بما لا حاجة بمثل هذا التصنيف إليه، ومنهم من قلَّد القائلين ولم يحكم على الاختلاف ببيان الصواب. ومنهم من نقص بحذف ما يحتاج إليه أنبئك بهذا الكتاب متوسطًا. وحذفت كثيرًا من الأسانيد والطرق خوف الملل» (السابق، ص١٣).

[٣٤] أربعة كتب في الناسخ والمنسوخ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، كلية الآداب جامعة بغداد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص١٩–٥٩.

[٣٥] نقل الكتابة في آية ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (السابق، ص١٩–٢٠).

وآية السيف ناسخة لمائة وأربعة عشر موضوعًا في اثنتين وخمسين سورة.[٣٩] ثم نسخ بعضها، كما نسخ عمومها في آخرها.[٤٠] ونسخت آية القتال ثمانية مواضع في سبعة سور.[٤١] وتستمر الإحصائيات كرصد دون إيجاد دلالاتها.[٤٢] وقد نُسخت آيةٌ بآيات وآياتٌ بآية. فالنسخ كيفٌ لا كمٌّ.

وتضم الخاتمة بعض المسائل النظرية.[٤٣] مثل إطلاق بعض المتقدمين النسخ على التخصيص والاستثناء والأحوال المشكلة، مثل الأمر بالقتال بعد الأمر بالصبر والصفح لاشتراك الجميع في رفع الحكم المتقدم. على عكس المتأخرين الذين يفرقون بينهما. وهذا هو سبب في جعل المتقدمين آية السيف ناسخة لمائة وأربع عشرة آية على عكس المتأخرين؛ فلا ينسخ بآية القتال إلا ما فيه نهي عن القتال. كما تذكر الخاتمة ضرورة تأخر الناسخ عن المنسوخ بفترةٍ زمنية تسمح بتنزيل الحكم المنسوخ.

وقد استمر التأليف في الناسخ والمنسوخ من القرن الأول حتى اليوم سواء من القدماء أو من المحدثين في التراث أو في الرسائل الجامعية. ألَّف فيه المتكلمون من المعتزلة مثل أبي الحسين البصري، أو المفسرون مثل مقاتل بن سليمان، أو من الحنابلة مثل أحمد بن حنبل، أو من الصوفية مثل الحلاج، أو من الفقهاء من أهل الظاهر مثل ابن حزم، أو

---

[٣٦] هو جائز عند أبي حنيفة، ممتنع عند الشافعي (السابق، ص٢١).

[٣٧] وذلك مثل الصلاة الأولى، القبلة الأولى، الصوم الأول، الزكاة الأولى، الإعراض عن المشركين، الموارثة، العفو والصفح عن أهل الكتاب، المخالطة في الحج، والعهد مع المشركين (المصفى، ص٢٢).

[٣٨] السور التي بها ناسخ ومنسوخ ٣١ سورة، والسور الخالية منهما ٤٣ سورة، والسور التي بها منسوخ دون ناسخ ٣٤، والسور التي بها ناسخ دون منسوخ ٦ (السابق، ص٢٢).

[٣٩] وهي آية ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾.

[٤٠] والناسخ آية ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾. وناسخ العموم ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (السابق، ص٢٢-٢٣).

[٤١] وهي آية ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، نسخت ثمانية مواضيع في سبع سور (السابق، ص٢٣).

[٤٢] مثل: الآيات المنسوخ عمومها بالاستثناء أو ما في معناه بعدها ثلاثة وعشرون موضعًا في إحدى عشرة سورةً، والآيات المنسوخة على النظم مائة وثلاثة مواضع في ثلاثين سورةً. جملة المواضيع المنسوخة ٢٤٩ موضعًا، الآيات الناسخة ١٠٨ مواضع في ٣٧ سورة.

[٤٣] السابق، ص٦١-٦٢.

من النحاة مثل السيرافي، أو من الأشاعرة مثل عبد القاهر البغدادي، أو من الشيعة مثل القمي.

(٢) النسخ لغةً واصطلاحًا

والنسخ لغةً يعني إما الرفع والإزالة أو تصوير المكتوب.[٤٤] والنسخ اصطلاحًا يعنى المعنى الأول. والسؤال هو: ما الفرق بين النسخ والنسيان، والمثل الأخير في الآية الشهيرة ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾؟ خير منها أي أكثر واقعية وطبيعية. مثلها في الحكم مع اختلاف الصياغة الأدبية من الناحية البلاغية.[٤٥] وقد يكون الحكمان، المنسوخ والناسخ، خيارَين إنسانيَّين مثل الإعراض عن اللغو أو عدم مجالسة من يقوم به.[٤٦]

ليس «الناسخ والمنسوخ» من أبحاث الألفاظ أو المعاني بل من أبحاث الزمان؛ أي الحوامل الواقعية أو التاريخية مثل المكان والموقف أي النزول.

وفي الترتيب يسبق المنسوخ الناسخ عادة. ولا يتغير الترتيب إلا استثناء.[٤٧] فالناسخ تالٍ على المنسوخ بالضرورة في الزمان، والمنسوخ متقدم عليه. فالحاضر ينسخ الماضي لأن التقدم خُطًى من الماضي إلى الحاضر. وأقصى مدة بين الناسخ والمنسوخ ست عشرة سنة أي نصف جيل إذا كان الجيل في الثقافة القديمة أربعين عامًا، ولا يزيد على ذلك إلا مرةً واحدة.[٤٨]

ولا يجوز نسخ الحكم قبل العمل به وإلا كان تحصيل حاصل، لا فائدة منه؛ لذلك هناك فترةٌ زمنية بين الناسخ والمنسوخ حتى يظهر عدم التطابق بين الحكم الشرعي والواقع المتغير الجديد.[٤٩]

---

[٤٤] الأول في آية ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، والثاني في آية ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ابن الجوزي: نواسخ القرآن، ص٢٠؛ ابن سلامة: الناسخ والمنسوخ، ص٥).

[٤٥] السابق، ص٩–١٠.

[٤٦] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، والثاني ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (السابق، ص٤٥).

[٤٧] الإتقان ج٣، ٦٩–٧١.

[٤٨] البرهان ج٢، ٤٠–٤١ وهي آية ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ نسختها أول سورة الفتح.

والعلم بالناسخ والمنسوخ فضيلة لأنه علم بالتغير والتطور بأولوية الواقع على النص.[٥٠] وفضل هذا العلم كبير؛ إذ به يعرف تطور أحكام الشريعة ومطابقتها للواقع المتغير والقدرة. فالأحكام تتجدد بتجدد الواقع وإلا تحجَّرت أحكام وتطور الواقع فيحدث تمايز بين شدة الحكم وضرورة تغييره. وينشأ الصراع بين السلفيين المدافعين عن الحكم والتحديثيين المدافعين عن تغيير الأحكام بتغيير الواقع كما هو الحال في تاريخ الحركات الإصلاحية الحديثة. ويشتد الأمر فيصبح صراعًا بين الأصوليين المتشددين بالإبقاء على ثبوت الأحكام والعلمانيين المطالبين بالتشريع المدني. وتنقسم الأمة إلى فريقَين متنازعَين. وقد يصل الأمر إلى حد القتال والحروب الأهلية تحت دعوى «تطبيق الشريعة الإسلامية».[٥١]

والسؤال هو: هل يجوز إذا ما تغيرت الظروف إلى سواها العودة إلى حكم المنسوخ دون الناسخ مثل بعض المجتمعات التي استشرى فيها شرب الخمور ويصعب اقتلاعه عن طريق التحريم، هنا يمكن العودة إلى المراحل الأولى التدريجية للتحريم مثل ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ثم عدم الشرب أثناء الصلاة؟ وإذا كان للنسخ طريقان، من الأخفِّ إلى الأثقل مثل تحريم الخمر، أو من الأثقل إلى الأخف مثل محاسبة أفعال النفس الداخلية والخارجية ثم الاقتصار على الخارجية فقط؛ فهل يمكن طبقًا للظروف المتجددة الأخذ بأحد الطريقَين؟ هل المنسوخ إبطال الحكم نهائيًّا أم وقتيًّا، بحيث يمكن العودة إليه إذا ما تغيرت الظروف؟ هل الزمان في تقدمٍ مستمر أم أنه قد يتقهقر أيضًا؟[٥٢]

(٣) وقوع النسخ شرعًا وجوازه عقلًا

ومن المؤلفين من أنكر النسخ مثل أبي علي محمد بن أحمد الجنيد (٣٨١هـ) في كتابه «الفسخ على من أجاز النسخ»[٥٣] وهم قلة لا تمثل التيار الغالب، تسقط الزمان من

[٤٩] ابن الجوزي: نواسخ القرآن ص٢٥–٢٨.

[٥٠] السابق، ص٢٨–٣٢.

[٥١] المصفى ص١٢-١٣.

[٥٢] والأمثلة على ذلك كثيرة: فرض الإنفاق في الأموال غير الزكاة، نكاح المتعة في الحروب والهجرة، شرب قليل من الخمر بدواعي الصحبة خاصة بين النخبة ... إلخ.

[٥٣] أربعة كتب في الناسخ والمنسوخ، ص١٨–١١٩.

الحساب، والتطور من الوحي. إنكار النسخ إنكار للتغيير، والتغيير سنة الكون.[٥٤] وهو دفاع عن القرآن جهلًا بالواقع ظنًّا أن التغيير عيب ونقص. وهو من مظاهر الكمال ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وأول مقدمةٍ نظرية في إثبات النسخ على منكريه من اليهود وكما هو الحال في علم أصول الفقه بدعوى عدم جواز البداء على الله أي الحكم بشيء ثم يبدو الأمر على خلاف ذلك.[٥٥] وعلم الله ثابت لا يتغير. والحقيقة أن الأمر لا يتعلق بعلم الله في ذاته. فهذا هو موضوع علم الكلام، الصفة الأولى في الثلاثي، العلم والقدرة والحياة.[٥٦] وهو درس في تبعية العلم الإلهي لتطور الزمان وتغير المكان.[٥٧] وفرق بين النسخ والبداء؛ أن النسخ تغيير حكم التكليف بناء على مصلحة المكلَّف، في حين أن البداء تغيير علمٍ نظريٍّ ثابت بلا سبب. والنسخ لا يعني فساد الحكم السابق بل تجاوز الواقع له، في حين أن البداء يعنى فساد العلم الأول. وإنكار النسخ خلط بين العلم الإلهي والواقع الإنساني؛ فالنسخ ليس تجويزًا للبداء على الله كما تقول اليهود، فعلم الله في ذاته كصفة للذات ثابت وتعينه الأول في اللوح المحفوظ متغير لأنه مخلوق.[٥٨]

والأصل النظري الأول حول الجواز والوقوع عقلًا وشرعًا. والاختيارات ثلاثة: الأول عدم الجواز عقلًا ولا شرعًا لأن النسخ يعني البداء، والثاني الجواز عقلًا والامتناع شرعًا لأن شريعة موسى لا تُنسخ، والثالث الجواز شرعًا لا عقلًا حرصًا على صورة شرائع الأنبياء، ويغيب الرابع وهو الجواز عقلًا وشرعًا وواقعًا.[٥٩] هو جائز عقلًا لأن التكليف يقوم على المصلحة، والمصالح متغيرة؛ وبالتالي كان شكل التكليف ودرجته متغيرَين أيضًا. وهو واقع شرعًا نظرًا لتغيير التكليف من نكاح المحرمات إلى تحريمه، ومن العمل يوم السبت إلى تحريمه، ومن أكل لحم الخنزير إلى تحريمه.

---

[٥٤] «وقد قال قوم لا يُعدُّون خلافًا ليس في القرآن ناسخ ومنسوخ. وهؤلاء قوم عن الحق صدُّوا، وبإفكهم عن الله ردُّوا» (ابن سلامة: الناسخ والمنسوخ ص٩).

[٥٥] ابن الجوزي: المصفى ص١١–١٢؛ «من النص إلى الواقع» ج٢، بنية النص، ص١٢١–١٢٤.

[٥٦] من العقيدة إلى الثورة، ج٢، التوحيد، ص٤٢٧–٤٣٥.

[٥٧] الإتقان ج٣، ٥٩–٦٠.

[٥٨] البرهان، ج٢، ٣٠.

[٥٩] السابق، ص١٤–١٦.

والنسخ واقع شرعًا ونصًّا في آية النسخ الشهيرة ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾. وفيها تمييز بين النسخ والنسيان. النسخ رفع وإزالة فعل إرادي. أما النسيان فهو ما يتجاوزه الزمن مثل الإماء والعبيد والغنائم والصيد وربما وضع المرأة ككل. والبديل أفضل من الأول أو مثله؛ أفضل أي أوسع وأرحب، ومثله في الصياغة والإقناع؛ الأول بالإرادة، والثاني بالطبيعة.[٦٠] وليس النسخ فقط جائزًا عقلًا بل هو واقع شرعًا سواء النسخ الكلي؛ نسخ شريعة بشريعة، أو النسخ الجزئي؛ نسخ حكم بحكمٍ آخر داخل الشريعة الواحدة.[٦١]

والنسخ ممكن عقلًا وشرعًا لأن الواقع يتغير والوحي يتطور بتطوره، ويعدُّ درسًا في التجريب، وأولوية الواقع على الوحي، ودخول عنصر الزمان في تطور الأحكام؛ فهي متغيرة بتغيره، ومتطورة بتطوره.

وهناك فرق بين النسخ الكلي لمرحلةٍ سابقة من مرحلةٍ لاحقة مثل نسخ الإنجيل للتوراة، ونسخ القرآن للإنجيل، فهذا النسخ هو مجرد التبديل والتحويل وليس الإلغاء. ويتم عن طريق النسيان للمِثل ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، فالفصل هو النسخ أو النسيان والنتيجة الإتيان بناسخٍ أفضل من المنسوخ أو مثله، أفضل في الواقعية، ومثله في المثالية. شريعة موسى تُنسَخ بشريعة عيسى. وشريعة عيسى تُنسَخ بشريعة الإسلام.[٦٢]

ولا يثبت جواز النسخ بحججٍ صوريةٍ عقائدية بل بحججٍ علميةٍ سلوكية؛ فكون الآمر يفعل بأمره ما يشاء حجةٌ عقائديةٌ كلامية. إنما الحجة هي تغيير الواقع والظروف، وبالتالي ضرورة إعادة صياغة الأحكام طبقًا للواقع المتجدد.[٦٣] فالرؤية العامة للتشريع هي أولوية الواقع على النص.[٦٤] فالأحكام الشرعية تجريبية في جدلٍ مستمر بين المثال والواقع طبقًا لقدرات المكلفين وقاعدة عدم جواز تكليف ما لا يُطاق.[٦٥]

---

[٦٠] السابق، ص١٧–١٩.

[٦١] من العقيدة إلى الثورة ج٤ النبوة-المعاد ص١٠٤–١٣٩. ويذكر أنه كان يجوز في شريعة آدم وطائفة من أولاده نكاح الأخوات وذوات المحارم والعمل يوم السبت ثم نُسخ ذلك في شريعة موسى (المصفى، ص١٢).

[٦٢] لا يقول ابن الراوندي بنسخ شريعة موسى (ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص١٥).

(٤) النسخ في الأحكام

ولا يقع النسخ إلا في التكليف؛ الأوامر والنواهي، اقتضاء الفعل أو الترك. وهو على ثلاثة مستويات: الأول الفرض أو الواجب أو الإلزام ويكون نسخه من الوجوب إلى المنع، مثل تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام. وقد يكون النسخ من الوجوب إلى الاستحباب أي المندوب مثل نسخ وجوب الوضوء عند كل صلاة وجعله فقط مستحبًّا، وقد يكون النسخ من الوجوب إلى الإباحة مثل نسخ وجوب الوضوء مما غيرت النار إلى الجواز. والثاني الاستحباب أو المندوب ويكون نسخه إما بالتحول إلى الوجوب أو إلى المنع والتحريم وإما إلى الإباحة مثل نسخ استحباب الوصية للوالدين إلى الإباحة. والثالث المباح، ولما كان المباح ليس حكمًا شرعيًّا خارجيًّا بل شرعيته في طبيعته فهو مأذون فيه غير مأمور به. ونسخه إلى وجهٍ واحد هو التحريم مثل نسخ إباحة الخمر إلى التحريم. ولا يوجد نسخ الإباحة إلى الكراهة. ونسخ المباح إلى واجب ليس نسخًا؛ لأن إيجاب المباح إبقاء تكليف وليس نسخًا. والنهي مستويان؛ الأول التحريم، وقد يُنسخ بالإباحة مثل تحريم الأكل على الصائم في الليل بعد النوم، والجماع، والثاني الكراهة.[٦٦]

وينقسم النسخ من حيث الأحكام الشرعية الخمسة: نسخ الفرض بالفرض ولا يجوز العمل به، وفرضٌ نسخَ فرضًا ويجوز العمل به، وفرضٌ نسخ ندبًا للتشديد، وندبٌ نسخ فرضًا للتخفيف[٦٧]

يدخل النسخ على الأمر والنهي فقط أو الأخبار التي تفيد الأمر.[٦٨] وهو ثلاثة أقسام: الأول ما يقع قبل الامتثال فقد تطور الزمان قبل الحكم، وتغير النظر قبل العمل، وهو غير معقول ولا مفهوم. فالغاية تجريب الأحكام. دون تجريب أي تحقق في الواقع لا يقع نسخ.[٦٩] والثاني نسخ شرع من قبلنا هو النسخ الكلي وليس النسخ الجزئي، نسخ المراحل

---

[٦٣] المصفى ص١١.

[٦٤] وهو ما ثبت في «من النص إلى الواقع» محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه (جزآن) ج٢ تكوين النص، ج٢ بنية النص، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٥م، دار المدار بيروت ٢٠٠٥م.

[٦٥] السابق، ج٢، بنية النص ص٥٠٦–٥٠٧.

[٦٦] ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص٢٠–٢١.

[٦٧] الإتقان، ج٣، ٦٢؛ من النص إلى الواقع ج٢، بنية النص، ٥٧١–٥٨٣.

[٦٨] ابن سلامة، الناسخ والمنسوخ، ص٨–٩.

[٦٩] الإتقان، ج٣، ٦١؛ البرهان، ج٢، ٤١–٤٣.

في تطور الوحي وليس نسخ الأحكام.[٧٠] والثالث الحكم لسبب ثم زوال السبب، فالحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا مثل آية السيف، وآيات التخفيف والتثقيل.

لا يقع النسخ إلا في الأوامر والنواهي أي في الأحكام، وليس في العقائد كتصورات، أو في الأخبار، أو في القصص والأمثال.[٧١] الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان. أما القصص فحكاياتٌ أدبية مثل الأدب العالمي. والأمثال حِكم الشعوب. نسخ الأخبار يعني كذبها. النسخ في الأحكام وليس في العقائد. والأحكام تتعلق بالحوادث والسلوك البشري والنظم الاجتماعية والسياسية. ألا يكون النسخ في اللوح المحفوظ. فهذا تعين أول للعلم الإلهي بل يكون فقط في أحكام البشر.[٧٢]

ولا يقع النسخ في الأخبار لأن الخبر علمٌ نظريٌّ يتوقف على صدق الرواية أو كذبها بمطابقتها أو مخالفتها للواقع، أو على صدق الراوي أو كذبه إراديًّا أم لا إراديًّا. الواقع رؤية، والخبر رواية. والخبر نوعان؛ إما الإعلان عن حقيقة شرعية مثل ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أو الخبر الخالص أي الصادق فالنسخ فيه تكذيبه.[٧٣]

ولا يعني النسخ تصحيح قراءة الرسول للقرآن بعد أن تدخَّل الشيطان وألقى إليه ما ليس منه. وهي قصة الآيات الشيطانية الشهيرة. وبصرف النظر عن إخراجها وروايتها إلا أنه ليس من المعقول أن يكون للشيطان قوة جبريل في النفث في روع الرسول بل هو أقوى منه لأنه استطاع التدخل والتغيير والتدليس على جبريل والرسول. وتصحيح جبريل ليس نسخًا لأن النسخ لا يكون إلا في الأمر والنهي أي في الأحكام، ولا يكون إلا بعد التنفيذ. والآيات الشيطانية في العقائد وقبل التنفيذ. ولا يكون النسخ إلا بقرآن لقرآن أو بحديث لحديث أو لحديث بقرآن للتصحيح وليس لحديث الشيطان بقرآن. والنسخ هنا المذكور في القرآن في روايته يعني مجرد الرفع والإزالة.[٧٤] وإذا كان الشيطان يعني تأويلًا

---

[٧٠] من العقيدة إلى الثورة، ج٤، النبوة والمعاد، ص١٠٤–١٣٩.

[٧١] المصفى ص١٢.

[٧٢] البرهان، ج٢، ٣٠، ٣٣.

[٧٣] ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص٢١-٢٢.

[٧٤] لذلك لا تعتبر ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ناسخًا لكلام الشيطان، أو ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، أو ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (ابن سلامة، ص٦٣–٦٤، ٦٦، ٩٧، ١٠٠).

هواجس النفس ودوافعها السلبية فقد تكون الآيات الشيطانية تعبيرًا عن رغبة الرسول في حلولٍ وسط مع المشركين وآلهتهم مؤقتًا. وقد لاحظت عائشة من قبلُ أن الله يوافق على هوى الرسول.

والناسخ والمنسوخ في القرآن أربعة أقسام: قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ، وقسم فيه ناسخ ومنسوخ، وقسم فيه ناسخ فقط دون منسوخ، وقسم به منسوخ فقط دون ناسخ.[٧٥] ويدلُّ الأول على أن الثبات أكثر من التحول، ويدل الرابع على أن التحول بلا ثبات. ويدل الثاني على جدل الثبات والتحول، في حين يدل الثالث على الثابت دون المتحول وهو الأقل. وليس كل السور بها ناسخ ومنسوخ. بعض السور ليس بها ناسخ ولا منسوخ لأنها خالية من الأمر والنهي.[٧٦] وهناك سور بها ناسخ وليس بها منسوخ.[٧٧] وهناك سور بها منسوخ وليس بها ناسخ.[٧٨] وهناك سور بها ناسخ ومنسوخ.[٧٩] وبعض السور بها ناسخ فقط أو منسوخ فقط أو بها كلاهما أو خالية من كليهما.[٨٠] والأغلب هي السور الخالية من كليهما؛ مما يدل على أولوية الثبات على التغيير، ثم تأتي السور بها منسوخ دون ناسخ والتي تعني أولوية التغيير على الثبات وقدرة الواقع على تجاوز الأحكام. والسور التي بها ناسخ ومنسوخ تعني تعادل الاثنين، وأقلها السور التي بها ناسخ دون منسوخ، فلا شيء نهائي في الحكم، والواقع لا نهاية له.

(٥) الفرق بين النسخ والتخصيص والاستثناء

النسخ ليس التخصيص؛ النسخ من مباحث الزمان، في حين أن التخصيص من مباحث الألفاظ.[٨١] فالاضطرار استثناء من القاعدة، رخصة من العزيمة.[٨٢] وتوالي آيات الوصية ليس نسخًا بل تخصيص للأقربين بالأولاد والوالدين.[٨٣] وفرض الصيام على الأمم جميعًا ثم على الأمة الإسلامية عامٌّ يتبعه خاص.[٨٤] وتعميم حكم الميراث على الأقربين ليس منسوخًا

---

[٧٥] الإتقان، ج٣، ٦٢، الأول (٤٣ سورة)، الثاني (٢٥)، الثالث (٦)، الرابع (٤٠)؛ البرهان، ج٢، ٣٣–٣٥.

[٧٦] وعددها ثلاث وأربعون (السابق، ص٦).

[٧٧] وعددها ستٌّ.

[٧٨] وعددها أربعون.

[٧٩] وعددها خمس وعشرون.

بتخصيص الأولاد.[85] بل هو تخصيص طبقًا لعادة العرب ووضع المرأة في الصدر الأول؛ مما قد يدفع البعض بتخصيصٍ آخر؛ المساواة في الميراث، بعد تغيير وضع المرأة اليوم عما كان في السابق، وشدة الهجوم على الشريعة بأنها لم تحقق المساواة بين الجنسين، والعصر هو عصر تمكين المرأة، ودراسات المرأة، وجمعيات المرأة، وقضايا المرأة.

وفرق بين النسخ والتخصيص؛ النسخ رفع حكمٍ عام بحكمٍ عامٍّ آخر، في حين أن التخصيص إبقاء الحكم العام مع مراعاة ظروفٍ خاصة في بعض الحالات لبعض الأفراد.[86] قد يكون الحكم العام هو تقوى الأوصياء في مال اليتامى ثم يتم تخصيص بالصلح بينهم وبين الموصى عليهم في حالة الجور.[87] وعدم دخول البيوت حتى الاستئذان والسلام على أهلها عامٌّ ثم خُصِّص بالبيوت المسكونة دون الخالية.[88] والغضُّ من البصر عند رؤية النساء حكمٌ عامٌّ يُخصَّص بإمكانية ذلك للعجائز.[89] والاستئذان للدخول على

---

[80] السور التي بها ناسخ ومنسوخ (٢٥)، والسور التي بها منسوخ دون ناسخ (٤٠)، والسور التي بها ناسخ دون منسوخ (٦)، والسور الخالية من كليهما (٤٣) (ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص٣٩–٤٠).

[81] من النص إلى الواقع، ج٢، ص٣١٦–٣٤٨.

[82] لذلك آية ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾، ليست منسوخة بآية ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، ابن سلامة، ص١٥.

[83] لذلك ليست آية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ منسوخةً بآية ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾، وهو ما يؤكده حديث «من لم يوصِ بقرابته فقد ختم عمله بمعصية.» وهو أيضًا رأي الحسن البصري وطاوس والعلاء بن زيد ومسلمة بن يسار (السابق، ص١٦).

[84] وذلك في آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (السابق، ص١٦–١٨).

[85] آية ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، ليست منسوخة بآية ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾، بل مخصَّصة بها (السابق، ص٣١). وكذلك آية ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ليست منسوخة بل مخصَّصة بآية ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (السابق، ص٣١-٣٢).

[86] المصفى، ص١٢.

[87] الحكم العام في آية ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، والخاص في ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (ابن سلامة، ص٣٢).

النساء ليس ممن ملكت الأيمان ولا ممن لم يبلغوا الحُلُم، أما الغرباء والذين بلغوا الحلم فليستأذنوا قبل الدخول.[٩٠] وتسبيح الملائكة بحمد ربهم واستغفارهم لمن في الأرض حكمٌ عام، واستغفارهم للذين آمنوا حكمٌ خاص؛ فليس كل من في الأرض بمؤمنين.[٩١] ومن أصابهم البغي منتصرون حكمٌ عام. ومن صبر وغفر كان ذلك من عزم الأمور حكمٌ خاص.[٩٢]

والنسخ غير الاستثناء؛ النسخ من مباحث الزمان، والاستثناء من مباحث اللغة.[٩٣] ويُعرَف الاستثناء بحروفه مثل «إلا». وقد يكون الاستثناء في العمل السابق بعد أن يتم تغييره مثل نكاح زوجات الأب. وكذلك الأمر في الجمع بين الأُختَين.[٩٤] الله يغفر كل شيء إلا الشرك، وقتل النفس جهنم إلا بعد التوبة. وجزاء المنافقين في الدرك الأسفل من النار إلا التائبين والمصلحين والمعتصمين بحبل الله والمخلصين للدين.[٩٥] وكل إنسان وارد النار إلا الذين اتقوا.[٩٦]

---

[٨٨] الآية العامة في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾، والخاصة ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ (السابق، ص٦٩–٧٠).

[٨٩] العام ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، والخاص ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ (السابق، ص٧٠).

[٩٠] العام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾، والخاص ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (السابق، ص٧٠).

[٩١] وآية ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ خاص (ابن سلامة، ص٧٩).

[٩٢] الأولى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾، والثانية ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (السابق، ص٨٠).

[٩٣] لذلك ليست آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ منسوخةً باستثناء ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ (ابن سلامة، ص١٤). وآية ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ باستثناء آية ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ (السابق، ص٢٥). وآية ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ محكم. أما آية ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾، فإنها استثناء وليست منسوخة بآية السيف (السابق، ص٢٩).

وفرق بين النسخ والاستثناء. فالنسخ إلغاء حكمٍ عام بحكمٍ عامٍّ آخر، في حين أن الاستثناء إبقاء حكمٍ عام واستثناء حكمٍ خاص منه.[٩٧]

فالنسخ رفعٌ كلي والاستثناء رفعٌ جزئي. وهو نفس الفرق بين النسخ والتخصيص.[٩٨] الاستثناء ليس نسخًا بل هو أقرب إلى تخصيص العام وتقييد المطلق، مثل سؤال الرسول أجرًا على رسالته إلا المودة في القربى.[٩٩] والإنسان في خُسر إلا من آمن وعمل صالحًا.[١٠٠]

ويستثنى من قتال مَن يحارب الله ورسوله مَن تاب.[١٠١] ومغفرة كل شيء من ظلم الناس إلا الشرك بالله.[١٠٢] ويستثنى الإكراه على الكفر والقلب مطمئن بالإيمان.[١٠٣] ويُضيع الخلف آثار السلف إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا.[١٠٤] والناس وآلهتهم في جهنم إلا الذين سبقت لهم من الله الحسنى. والنسخ هنا بمعنى تصحيح فهم اللغة وعدم التفرقة بين

---

[٩٤] وهي آية ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهي آية ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (السابق، ص٣٥).

[٩٥] ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ﴾، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(السابق، ص٣٩–٤٠).

[٩٦] ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (السابق، ص٦٢).

[٩٧] المصفى، ص١٢.

[٩٨] ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص٢٢.

[٩٩] وهي آية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (ابن سلامة، ص٨٠–٨١).

[١٠٠] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (السابق، ص١٠٣).

[١٠١] ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ (ابن سلامة، ص٤١).

[١٠٢] المنسوخ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾، والناسخ ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (السابق، ص٥٧).

[١٠٣] المنسوخ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ والناسخ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وأيضًا ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ (السابق، ص٥٩).

[١٠٤] ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، وأيضًا ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (السابق، ص٦٢).

«ما» لغير العاقل و«من» للعاقل.[105] ورمي المحصنات دون أربعة شهداء مقتضٍ لجلدهم إلا الذين تابوا بعد ذلك.[106] ومن يدعو مع الله إلها آخر يخلد في النار مهانًا إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا فإن سيئاتهم تُبدَّل حسنات.[107] والشعراء يتبعهم الغاوون لأنهم يهيمون في كل وادٍ ويقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله وانتصروا أي كان شعرهم ملتزمًا.[108]

وقد يكون مسار النسخ من المطلق إلى المقيد، ومن الحكم على كل الأعراب باعتبار الإنفاق في سبيل الله غُرمًا وأنهم أشد كفرًا ونفاقًا، إلى تقييد الحكم ببعض الأعراب الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر.[109] والاستدراك على اعتراض لا يُعدُّ نسخًا؛ فبعد أن نزلت آية تعطي الأولوية في الترتيب للزانية على الزاني في حين أن الترتيب في السرقة للسارق على السارقة نزلت آيةٌ أخرى تعطي الأولوية للصالحين على الصالحات، وللأيامي على الإماء.[110]

(٦) شروط النسخ وأحكامه

وللنسخ شروط:

(أ) وقوع تناقض بين حكمَين شرعيَّين ولا يمكن الجمع بينهما في سلوكٍ واحد؛ فيكون أحدهما ناسخًا والآخر منسوخًا.

(ب) ثبوت حكم المنسوخ قبل ثبوت حكم الناسخ حتى يحدث الرفع أو الإزالة.

---

[105] ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ منسوخة بآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ (ابن سلامة، ص٦٥).

[106] ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (السابق، ص٦٧).

[107] الآية الأولى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾، والثانية ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (السابق، ص٧١).

[108] الآية الأولى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، والثانية ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا﴾ (السابق، ص٧١–٧٢).

[109] المطلق ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾، ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، والمقيد ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (ابن سلامة، ص٥٢).

[110] الآية الأولى ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، والثانية ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ (ابن سلامة، ص٦٧–٦٨).

(جـ) ثبوت حكم المنسوخ بالشرع لا بالعادة والعرف؛ فالعرف لا يشرع بل يتغير.

(د) معرفة حكم الناسخ بالنقل ليس بالعقل أو القياس؛ فهو أمرٌ شرعيٌّ خالص وليس بالإجماع؛ فالإجماع اجتهادٌ جماعي.

(هـ) ثبوت الناسخ مثل ثبات المنسوخ من حيث القوة والدلالة؛ نسخ قرآن بقرآن أو سنة بسنة أو سنة بقرآن وليس نسخ قرآن بسنة، معرفة الناسخ والمنسوخ إذن شرط في معرفة الأحكام.[١١١]

والمنسوخ على أنواع بناءً على التمييز بين الرسم والحكم أي بين القراءة والتشريع، بين النظر والعمل.

(أ) ما نُسخ رسمه وحكمه فلم يعد الحكم صالحًا لا من حيث الصياغة النظرية ولا من حيث التشريع العملي.

(ب) ما نُسخ رسمه وبقي حكمه كآية الرجم؛ فقد نُسخت الصياغة الأدبية إلى صياغةٍ أكثر بلاغة في حين بقي الحكم؛ فالتشريع ليس مجرد أوامر ونواهٍ صورية بل هي إيحاءات وإيماءات وإقناعات حتى يتم تطبيقها عمليًّا على نحوٍ تلقائي.

(جـ) ما نُسخ حكمه وبقي رسمه، وهو معظم ما هو موجود في القرآن. أُلِّفت له كتب «الناسخ والمنسوخ»؛ فهو جزء من تاريخ التشريع وتطور الوحي للتعليم والتدبر والعظة.

أما ما بقي حكمه ورسمه فليس ناسخًا ولا منسوخًا وإن كان مفترضًا طبقًا للقسمة الرباعية.[١١٢]

وينقسم النسخ بالنسبة إلى علاقة الحكم بالتلاوة إلى ثلاثة أقسام:[١١٣] ما نسخ حكمه وتلاوته،[١١٤] وما نسخ حكمه دون تلاوته،[١١٥] وما نُسخت تلاوته دون حكمه.[١١٦] الأول معقول ومفهوم، ولكن الثاني والثالث في حاجة إلى توضيح وتعليل. فما نُسخ حكمه وبقيت تلاوته سلوك في الحاضر وعيش في الماضي، الحكم عملي، والتلاوة نظرية. وما نُسخت تلاوته دون حكمه تعديل في الصياغة الأدبية وأساليب البلاغة وهو ما يجعل القرآن يتفاضل في الصياغة، وافتراض آيات أقل بلاغة من الأخرى وهو غير معقول ولا

[١١١] المصفى، ص١٢؛ ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص٢٣-٢٤.

[١١٢] المصفى، ص١٣؛ ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص٣٣–٣٨.

مفهوم. والتلاوة بلا حكم ليست مجرد تذكير بالماضي وإلا حدث انفصال بين الماضي والحاضر، بين النظر والعمل.[١١٧]

هذه القسمة الثلاثية الشهيرة عن نسخ التلاوة والحكم، ونسخ التلاوة دون الحكم، ونسخ الحكم دون التلاوة؛ قسمةٌ منطقية، أما أثناء التلاوة والحكم فليس نسخًا. نسخ التلاوة والحكم وارد لأن نسخ الحكم يقتضي نسخ التلاوة، ونسخ التلاوة يتضمن نسخ الحكم.[١١٨] إنما السؤال هو: لماذا تبقى التلاوة ويُنسخ الحكم، ولماذا تُنسخ التلاوة ويبقى الحكم؟ تبقى التلاوة ويُنسخ الحكم كنوع من إدخال التطور في البناء لمعرفة مسار التغير وقدره بين الظروف الأولى التي اقتضت الحكم الأول والظروف الثانية التي اقتضت الحكم الثاني.[١١٩] وتنسخ التلاوة ويبقى الحكم لتغيير في الصياغة الأدبية وأساليب البلاغة

---

[١١٣] الإتقان، ج٣، ٦٢–٧٧؛ البرهان، ج٢، ٣٠–٤١.

[١١٤] مثل آية «عشر رضعات معلومات»، ونسخها بآية «خمس معلومات»، وكانت الآيتان تقرآن أيام الرسول (السابق، ص٦٢، ٦٣).

[١١٥] مثل آية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ و﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهما منسوختان بآية الزكاة (السابق، ص٦٣).

[١١٦] مثل ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ نسخ منها وعلى الذين يصلون الصفوف الأولى؛ لذلك حذفها عثمان من المصاحف، وآية ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، ونسخت بقيتها «لو أن ابن آدم سأل واديًا من مال فأُعطيَه سأل ثانيًا، وإن سأل ثانيًا فأعطيه سأل ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. إن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية، ومن يعمل خيرًا فلن يكفره.» وقد نزلت سورة براءة ثم نسخت «إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم. ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب.» وكذلك أُنسيتْ آية «يأيها الذين آمنوا لا تقولوا ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة» وكان الصحابة يقرءون «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم» وكذلك «إن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة» وأيضًا «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون»، «والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» وأيضًا «أن بلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا» (السابق، ص٧٣–٧٥).

[١١٧] مثل «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» (السابق، ص٧٦).

[١١٨] مثل «ولو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا، ولو أن له ثالثًا لابتغى إليه رابعًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» (ابن سلامة، الناسخ والمنسوخ، ص٥).

[١١٩] السابق، ص٥.

واختيار القول الإنساني بدلًا من الأمري للإيحاء، أو القول الخبري بدلًا من الإنشائي للكشف عن الواجب.[١٢٠] ولا يتم النسخ بمعجزة، محو الآية من الصفحة تلقائيًّا؛ فلا يحدث شيء إلا بفعل فاعل.[١٢١]

وقد يكون النسخ في المعاني لا في الألفاظ، وهي تفرقةٌ دقيقة تضاف إلى القسمة الرباعية بين الحكم والتلاوة. والمثال على ذلك أيضًا غير دقيق؛ فإن الدعاء للوالدين جائز للمؤمنين والكافرين لأن احترام الوالدين تجربةٌ إنسانيةٌ عامة وفطرةٌ بشريةٌ مطردة.[١٢٢] وقد يصبح المؤمن مشركًا والمشرك مؤمنًا؛ فالإيمان والشرك متغير في حين أن احترام الوالدين ثابت لا يتغير.

(٧) مستويات الناسخ

ويجوز نسخ القرآن بالقرآن والسُّنة بالسُّنة، والسنة بالقرآن، ولا يجوز نسخ القرآن بالسنة حتى ولو كانت متواترةً مثله. والأَولى عدم جواز النسخ بخبر الآحاد. ويجوز النسخ بنطق الخطاب وليس بدليل الخطاب؛ فالنسخ منطوق وليس استدلالًا. لا يُنسَخ القرآن إلا بقرآنٍ مثله، والسنة إلا بسنةٍ مثلها. ولا تَنسخ السنةُ القرآن لأنها في هذه الحالة تخصيص. ولا ينسخ القرآن السنة لأنها في هذه الحالة تربية وتدريب وتعليم.[١٢٣] لا ينسخ القرآن إلا القرآن وليس الحديث نظرًا لاختلاف المستويين.[١٢٤] السنة تُخصِّص وتُفصِّل وتُبيِّن ولا تَنسخ.[١٢٥] وذلك مثل تفصيل التوبة للذين يعملون السوء بجهالة.[١٢٦] والتفصيل بالتوبة بعد الذنب بعام أو بنصف عام أو شهر أو بأسبوع أو بيوم أو بساعة أو وقت الحشرجة، كل ذلك قبل الموت، ولا يعني سوء النية والانتظار حتى آخر لحظة للتوبة.[١٢٧] وينطبق

---

[١٢٠] وذلك في ثلاث وستين سورةً مثل الصلاة إلى بيت القدس، والصيام الأول، والصفح عن المشركين، والإعراض عن الجاهلين (السابق، ص٤).

[١٢١] مثل «لا ترغبوا عن آبائكم فإن ذلك كفر بكم. الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله، والله عزيز حكيم» (السابق، ص٦).

[١٢٢] لذلك ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ تعمُّ المؤمن والمشرك. وكذلك ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، وأيضًا ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (ابن سلامة، ص٦٠).

[١٢٣] الإتقان، ج٣، ٦٠–٦١؛ البرهان، ج٢، ٣٠–٣٢.

[١٢٤] من النص إلى الواقع، ج٢، ص١٣٢–١٣٥.

ذلك على المؤمن والكافر، وعلى المسلم والمشرك.[128] ولا يعني النسخ بالضرورة نسخ آية بآية، واحدة بواحدة، بل قد تنسخ آيةٌ عدة آيات.[129] وقد يقع النسخ أكثر من مرة في نفس الآية، تنسخ آيةٌ أحكام آياتٍ أخرى ثم ينسخ أول الآية آخرها.[130] وقد يقع النسخ في أول الآية أو في أواخرها دون وسطها ويظل محكمًا مثل ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.[131] والنسخ في آيةٍ واحدة بين أولها وآخرها، فإذا كان أولها منسوخًا وآخرها ناسخ يكون مضادًّا لشرط انفصال الناسخ عن المنسوخ وتقدُّمه عليه وحصوله في الأمر والنهي بعد التمثل. وكيف ينسخ الأول الآخر والناسخ يكون سابقًا للمنسوخ؟ وكيف تتعارض المشيئة الإلهية بين الأمر بالصبر ونسخها وعد الله أو توفية الرسول ورجوع الكل إليه؟[132]

وقد تؤثر القراءات في الحكم بالنسخ منها قراءة (يُطِيقُونَهُ)، أو (يطوقونه).[133] ويعتمد على الشعر في الحكم بالنسخ لضبط فهم معاني الحكم.[134]

ثانيًا: دلالات النسخ

ولا يكون النسخ إلا بنقلٍ صريح وليس على عوام المفسرين ولا اجتهاد المجتهدين.[135] وإذا كان الناسخ والمنسوخ لا يُعرفان إلا بالنقل عن طريق الرواية عند القدماء فإنه يُعرف بالعقل وبالطبيعة وبروح الشريعة عند المُحدَثين. فإذا ما تعارضت الرواية ضد العقل أُخذ العقل وافتُرض احتمال خطأ النقل.

---

[125] لذلك لا تُنسخ آية ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾، بحديث «أُحلَّت لكم ميتتان ودمان؛ السمك والجراد والكبد والطحال» (ابن سلامة، ص١٥).

[126] وذلك مثل بيان آية ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ وبيان الحديث أن البكر بالبكر مائة جلدة وتغريب عام، والثيِّب بالثيب أي الرجم (السابق، ص٣٣).

[127] الآية ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾(السابق، ص٣٤).

[128] وهي آية ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (السابق، ص٣٤–٣٥).

[129] البرهان، ج٢، ٤٠. مثلا آية ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾، ناسخة لمائة وأربع عشرة آية.

[130] السابق، ج٢، ٤٠. مثل ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، آخرها ناسخ لأولها.

[131] السابق، ج٢، ٤٠.

وبالرغم من اختلاف العلماء في تحديد الناسخ والمنسوخ إلا أنه مع ذلك يمكن ترجيح الآراء طبقًا لمنطق النسخ. ويمكن أيضًا الترجيح بآياتٍ أخرى للقرآن أو بأحاديث أو بالشريعة.

ويمكن استقراء الآيات المنسوخة والآيات الناسخة لمعرفة منطق النسخ وما سماه المصلحون «روح الإسلام». وتستطيع روح الإسلام، إنسانيته وواقعيته، أن تحدد الناسخ والمنسوخ؛ لذلك لا يهم إيجاد دلالات لكل مواقع النسخ بل يكفي الروح العامة. وهناك سبع دلالات للنسخ.

(١) العام والخاص

إذا كان الله في كل مكان فإن آية ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ تكون ناسخة لآية ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، فالناسخ عام والمنسوخ خاص. ولا تعارض بين العام والخاص. الله في كل مكان متصوَّر، والقبلة نظام، والتصور أساس النظام، والنظام يقوم على التصور.[١٣٦] وجود الله في كل مكان لا يُنسخ باتجاه القبلة شرقًا أو غربًا، شمالًا أو جنوبًا. والصفا والمروة لا ينسخان باقي مناسك الحج، وكيف تنسخ التعددية في الدين.[١٣٧]

وكيف تُنسخ حرية الإرادة الإلهية والمشيئة في الرحمة والعذاب لصالح آية السيف.[١٣٨] وتعذيب الله للمشركين من مشيئته ولا تنسخ.[١٣٩] ومشيئته في كل شيء لا تُنسخ. وكيف

---

[١٣٢] مثل آية ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (ابن سلامة، ص٧٨).

[١٣٣] السابق، ص١٨-١٩.

[١٣٤] استعمل الشعر في «الناسخ والمنسوخ» لابن سلامة ثلاث مرات، السابق ص٢١، ٢٣.

[١٣٥] الإتقان، ج٣، ٧١-٧٢.

[١٣٦] ابن سلامة، الناسخ والمنسوخ، ص٤٧–٥٣.

[١٣٧] لذلك ليست آية ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ منسوخةً بآية ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وليست آية ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ منسوخةً بآية ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾، وهذه ليست منسوخة بآية ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (ابن سلامة، ص١٢–١٤). والتعددية في آية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (السابق، ص١٠٤).

ينسخ إرجاع الحكم للإله العلي الكبير؟[١٤٠] وكيف تُنسخ الإرادة الإلهية التي تعطي من زاد الآخرة ما يشاء، ومن زاد الدنيا ما يشاء إرادةً أخرى بالتعجيل لمن يريد العاجلة وهو تأكيد للأولى؟[١٤١] وكيف يُنسخ الأمر الإلهي بأنه سيتعامل بمفرده مع المخالفين بآية السيف وترك الأمر للمؤمنين؟[١٤٢] وكيف تُنسخ الحكمة الإلهية بآية السيف؟[١٤٣] وكيف ينسخ تفويض الرسول الأمر إلى الله بما في ذلك أمره؟[١٤٤]

وإذا كانت النفس قيمةً في ذاتها بصرف النظر عن إيمانها؛ فإن القصاص يقوم على أن النفس بالنفس بصرف النظر عن جنسها ذكرًا أم أنثى، أم وضعها الاجتماعي حرًّا أم عبدًا؛ لذلك تكون آية ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ ناسخةً لآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾.[١٤٥] تعضد ذلك آياتٌ وأحاديثُ أخرى مثل وقوف الرسول احترامًا لجنازة يهودي دون أن يأبه لاعتراض من حوله بأنه يهودي وقوله «أليست نفسًا؟» وهو ما يساعد اليوم جماعات حقوق الإنسان وجماعات المرأة دفاعًا عن المساواة المطلقة بين البشر بصرف

---

[١٣٨] لذلك تظل آية ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (السابق، ص٦١). في قراءاتي الأولى منذ أكثر من ثلاثين عامًا للنسخ كنتُ مع آية السيف لأنها أكثر ثوريةً من آيات الحوار والاختيار والحرية؛ فقد كان العصر كله كذلك نظرًا للعداء بيننا وبين الاستعمار والصهيونية في الخارج، والإقطاع والرأسمالية في الداخل. وبعد أن تجاوزتُ السبعين عامًا انقلبتُ إلى النقيض ضد آية السيف.

[١٣٩] مثل آية ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، لا تنسخها آية السيف (السابق، ص٧٧)، وكذلك آية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (السابق، ص٧٨).

[١٤٠] ولذلك آية ﴿فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ لا تنسخها آية السيف (السابق، ص٧٨).

[١٤١] الأولى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ الثانية ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾، (السابق، ص٧٩–٨٠).

[١٤٢] لذلك ليست آية ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ منسوخة بآية السيف (السابق، ص٩٧).

[١٤٣] لذلك تظل آية ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص١٠١).

[١٤٤] لذلك تظل آية ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ غير منسوخة.

[١٤٥] ابن سلامة، ص٥٦–٥٨.

النظر عن الجنس والدين. وفي القصاص نسخ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى إلى القصاص من النفس، بصرف النظر عن الوضع الاجتماعي أو الجنسي أو الديني، أقرب إلى المساواة بين البشر.[١٤٦] حتى ولو كان الناسخ في نطاق أحكام التوراة لأن الإسلام تالٍ لها ومؤكد لأحكامها.

(٢) الرحمة والعدل

والاستغفار للمنافقين حكمٌ باقٍ بآية، ولا يُنسخ بحكمٍ ثانٍ بآية، ويؤكد الحديث الحكم الأول.[١٤٧] فالحكم إنساني وإن تعارض مع الحكم الإلهي المتعارض مع حكمٍ آخر فالأولوية للحكم الإنساني المتَّفِق مع الحكم الإلهي. وجزاء القتل العمد جهنم منسوخ بالعفو والتعويض[١٤٨] والخوف من العذاب منسوخ بالمغفرة.[١٤٩] وقد يأتي العذاب بناءً على الطلب ناسخًا للرحمة.[١٥٠] وإذا كانت الرحمة سابقة على العدل عند الأشاعرة فإن آية ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تكون ناسخةً لآية ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾.[١٥١] وإذا كان العفو والصفح لهما الأولوية

---

[١٤٦] لذلك آية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾، منسوخة بآية ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، وأيضًا بآية ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾، ويؤكده حديث «أنا أحق من وفى بعهده» (ابن سلامة، ص١٥–١٦).

[١٤٧] الآية الأولى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، والآية الثانية ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾، وحديث الرسول «لأزيدن على السبعين» وأيضًا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ (ابن سلامة، ص٣٧–٣٨). وآية ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٤٧–٥٢).

[١٤٨] آية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (السابق، ص٣٩).

[١٤٩] آية ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ منسوخة بآية ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (السابق، ص٤٤).

[١٥٠] آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ منسوخة بآية ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (السابق، ص٤٨).

[١٥١] السابق، ص٤٣.

على العقاب فإن آية ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ تكون ناسخةً لآية ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾.[152]

وكيف يمد الله في ضلالة قوم، وهو نقيض رحمته، ثم يُقتَلون؟[153] وكيف تكون الدعوة إلى الاستقامة وعدم اتباع الأهواء، والاعتراف بالإيمان بما أنزل الله من كتبٍ محكمة وباقي الآية منسوخة حتى ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ بآية السيف؟[154]

وهناك مسارٌ آخر من التوسيع إلى التضييق من عذاب المؤمنين ما دام الرسول بينهم وما داموا يستغفرون؛ وهو ما يعطي الرسول شفاعةً وما يقلل من شأن قانون الاستحقاق إلى التضييق، وهو الجزاء طبقًا للأعمال بناءً على المسئولية الفردية.[155] ولا يوجد تعارض بين أن يكون الجزاء من جنس الأعمال كقانونٍ وضعي وقانونٍ إلهي، فالشريعة وضعية، فالرغبة في الدنيا والرغبة في الآخرة رغبتان إنسانيتان وطريقان إلى الله.[156] وكيف يُنسخ قانون الاستحقاق، الجزاء من جنس الأعمال، بآية السيف؟[157] وكيف يُنسخ سعي الإنسان والمسئولية الفردية لصالح الشفاعة والقرابة؟[158]

---

[152] السابق، ص٤٥-٤٦.

[153] لذلك ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ ليست منسوخةً بآية السيف (السابق، ص٦٢).

[154] آية ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، وكذلك ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ محكمتان، وباقي الآية منسوخ حتى ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ (السابق، ص٧٩).

[155] الآية ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ منسوخة بآية ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ (ص٤٩).

[156] لذلك آية ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ليست منسوخة بآية ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ (السابق، ص٣٠، ٥٥).

[157] لذلك تظل آية ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، وكذلك آية ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾، وآية ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (السابق، ص٥٤-٥٥، ٩٤)، وأيضًا ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾؛ لا تنسخها آية السيف (السابق، ص٧٧).

[158] الأولى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، والثانية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (السابق، ص٨٧).

(٣) التخفيف والإثقال

والنسخ ليس على وجه العقوبة والتشديد بل على وجه اللين والتخفيف؛ فالرسالة للتبليغ قولٌ ثقيل، والسبب في التخفيف ضعف الإنسان.[١٥٩] والتخفيف في حساب النفس من الأفعال الظاهرة والباطنة إلى الأفعال الظاهرة نفسها.[١٦٠] والتخفيف في الشهادة من الشاهد الخارجي إلى الشهادة الباطنية والأمن الداخلي.[١٦١] والتخفيف في الشهادة على الزوجة الثانية من غياب الشهادة وهو ظلم للمرأة وافتراء عليها يوجب الحد إلى شهادة أربعة عليه أنه من الصادقين.[١٦٢]

ويتم النسخ من الأثقل إلى الأخفِّ في التهجد ليلًا من النصف إلى الثلث إلى نصف الثلث.[١٦٣] ومثل نسخ الامتناع عن معاشرة النساء طوال شهر رمضان إلى الامتناع فقط أثناء النهار أثناء الصيام دون الليل من الإفطار إلى السحور.[١٦٤] وكذلك إطعام المسكين في حالة الإفطار في حالة الضرورة وليس على الخيار.[١٦٥] ومن علامات التخفيف منع الضرر وعدم جواز تكليف ما لا يطاق.[١٦٦] وكذلك يُنسخ تحريم نكاح الكتابيات لأن الحب أقوى

---

[١٥٩] الأولى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، والثانية ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (ابن سلامة، ص٩٦).

[١٦٠] المنسوخ ﴿لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، والناسخ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، و﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وكذلك حديث «إن الله تعالى تجاوز لأمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» (ابن سلامة، ص٢٧-٢٨).

[١٦١] المنسوخ ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، والناسخ ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ (السابق، ص٢٧).

[١٦٢] المنسوخ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾، الناسخ ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (السابق، ص٦٨-٦٩)، ﴿أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ (السابق، ص٩٣).

[١٦٣] وهى آيات ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (ابن سلامة، ص٩٦).

[١٦٤] والآيات الناسخة ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ... ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ... ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (ابن سلامة، ص١٨).

[١٦٥] وهي آية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾، ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (السابق، ص١٨-١٩).

من الدين، لا يعرف فروقًا طبقيةً أو عرقيةً أو دينيةً أو طائفيةً.[١٦٧] والسؤال هو: لماذا يكون ذلك فقط للكتابيين وتحليل نكاح المؤمنات دون المشركين؟ ولماذا تحليل الطعام دون النكاح؟ والحج فريضة على القادرين دون غير القادرين.[١٦٨] ويكون التخفيف على الرسول من تحريم نكاح الأرامل إلى تحليله.[١٦٩]

تخفيف عقاب البِكرَين الزانيَين من الأذى، التعيير والشتم إلى الجَلد.[١٧٠] فهل يجوز الآن التعيير مرةً ثانية من الجلد إلى الحبس، ومرة ثالثة من الحبس إلى الغرامة لمساعدة المتزوجين حديثًا ولا يجدون سكنًا؟ وقد يمكن التحول فيما بعدُ من العقوبات البدنية إلى الإحساس بالذنب وتأنيب الضمير إلى العقوبات الأخلاقية. وماذا يكون الحال لو تم ذلك برضا الطرفَين وسعادتهما حينئذٍ هل يكون عقابًا أم فرحًا؟ وقد يكون النسخ لعادة وليس لنص مثل معاقبة الزانية طبقًا للعادة العربية بحبسها في المنزل حتى الموت إلى إثبات الزنا بأربعة شهود ثم الجلد أو التغريب أو الرجم للثيِّب. وهي اختيارات في الآية. والحديث ليس ناسخًا بل مُفصِّل ومبين طرق الاختيار.[١٧١]

ونسخ الإرضاع بحولَين كاملَين بالتراضي والتشاور تخفيف؛ فحياة المرأة أهم من الولد.[١٧٢] وكذلك نسخ الحول للأرملة بأربعة أشهر قبل الزواج من جديد. وأيضًا تخفيف النفقة على الرجل بالربع والثُّمن. وقد وقع التخفيف في الحكم على أكل أموال اليتامى

---

[١٦٦] لذلك تعتبر آية ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ منسوخةً آية ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ... فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، بعد أن علم الرسول أن الهوام تؤذي رأس كعب بن عجرة، (السابق، ص١٩-٢٠).

[١٦٧] لذلك نُسخت آية ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾، بآية ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾، و﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (السابق، ص٢٤).

[١٦٨] الغرض في آية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، والتخفيف في ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. والسبيل هو الزاد والراحلة أي المال والصحة طبقًا للحديث (السابق، ص٢٩).

[١٦٩] التحريم في ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ منسوخة بآية التحليل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ (ابن سلامة، ص٢٦).

[١٧٠] الآية المنسوخة ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا﴾، والناسخ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (ابن سلامة، ص٣٣).

[١٧١] وهي آية ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ ... ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (ابن سلامة، ص٣٣).

ظلمًا بالعذاب في نار جهنم بالمخالطة والإصلاح والأكل بالمعروف للأوصياء الفقراء.[١٧٣] ومسار النسخ في الإنفاق من الامتناع عن الأمر بذلك خشية الرفض بخلًا وضغينة على الفقراء إلى الدعوة إليه في سبيل الله.[١٧٤] وكذلك التحول من دعوة من لا يستمع ورفع اللوم عن ذلك إلى الدعوة إلى التذكير لأنه ينفع المؤمنين.[١٧٥]

ومسار النسخ التحول من التصدق في كل مرة يُسأل فيها الرسول حتى لا تكثر الأسئلة عن أشياء ويتم التضييق في أحكامها إلى إلغاء هذا الشرط والاكتفاء بالصلاة والزكاة وطاعة الرسول[١٧٦]

والتخفيف في القتال والاستنفار للجميع إلى استنفار البعض، من فرض العين إلى حد الكفاية.[١٧٧] ولما فهمت آية ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ كمًّا لا كيفًا، وأن يقاتل كل مؤمن عشرة من الأعراب، ثم تخفيفها ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.[١٧٨] وكذلك الإذن في التخلف من منعه على الإطلاق إلى السماح به.[١٧٩]

---

[١٧٢] نسخ الحولَين في آية ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، بآية ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، وكذلك نسخ آية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، بآية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (ابن سلامة، ص٢٦–٢٧).

[١٧٣] الآية المنسوخة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾، والناسخة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ ... ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (ابن سلامة، ص٣٢–٣٣).

[١٧٤] الأول ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾، والثاني ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ (ابن سلامة، ص٨٥).

[١٧٥] الأولى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، والثانية ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (السابق، ص٨٦).

[١٧٦] الأولى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، والثانية ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (السابق، ص٩٠).

[١٧٧] فرض العين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾، وفرض الكفاية ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ (ابن سلامة، ص٣٨، ٥٢).

[١٧٨] (السابق، ص٤٩).

وقد يكون التخفيف من عدم قبول المهاجرات إلى الرسول بناءً على اتفاق مع الطرف الآخر إلى قبولهن بعد امتحان إيمانهن وفصلهن عن أزواجهن وردِّ مهرهن إليهم وإعادة تزويجهن من المؤمنين بمهورٍ جديدة.[١٨٠] وقد يكون التخفيف للرسول من الخوف من العذاب في حالة العصيان إلى غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر لأنها حالةٌ مثاليةٌ فريدة.[١٨١] وقد يكون التخفيف له من تحريم النساء إلى تحليلهن.[١٨٢]

ومن أسباب النسخ التوسيع وليس التضييق، الاختيار بين حكمَين وليس التحديد بحكمٍ واحد.[١٨٣] والشهادة لذوي العدل بصرف النظر عن دينه.[١٨٤] وتحريم تناول طعام أهل الكتاب منسوخ بتحليله.[١٨٥] وقد يكون مسار النسخ من التشدد في تصور الإنسان ووصفه بأنه ظلومٌ كفار إلى رؤية أكثر اعتدالًا إلا في بيان قدر الإنسان وقيمته.[١٨٦]

ويعبر النسخ عن التحول من المثالية إلى الواقعية كما هو الحال في تقنين الغنائم. نزلت آية ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ﴾، بعد سؤال ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، وهي رؤيةٌ مثالية أن تكون الغنائم كلها لله وللرسول دون المجاهدين. ولما رأى الرسول قلة عددهم

---

[١٧٩] المنسوخة ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، والناسخة ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (السابق، ص٥٢).

[١٨٠] الآية الناسخة هي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، والمنسوخة ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (ابن سلامة، ص٩١-٩٢).

[١٨١] المنسوخ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، الناسخ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (ابن سلامة، ص٥٣، ٧٧).

[١٨٢] التحريم في ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾، والتحليل في ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ (السابق، ص٧٤-٧٥).

[١٨٣] لذلك تظل آية ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ﴾، غير منسوخة بآية ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (ابن سلامة، ص٤١-٤٢).

[١٨٤] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ ... ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ناسخ ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ منسوخ، ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا﴾ ... ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ منسوخ. ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ ناسخ (السابق، ص٤٢-٤٣).

في غزوة بدر قرر أن تكون الغنائم كلها لهم «من قتل قتيلًا فله سَلَبُه.» و«من أسر أسيره فله فداؤه.» وهي واقعيةٌ متناهية على الطرف الآخر. فلما وقعت غزوة بدر وكانت الغنائم أقل من عدد المجاهدين نزلت آيةٌ ثانية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، وتوزيع أربعة الأخماس على المجاهدين جمعًا بين المثالية والواقعية. وعيب هذه الرواية نسخ حديث للقرآن، ولا ينسخ القرآنَ إلا قرآنٌ مثله، ولا الحديثَ إلا حديثٌ مثله أو قرآنٌ أقوى منه. ومع ذلك قد تكون مقبولة لأن القرآن نسخ الحديث أخيرًا بعد نسخ القرآن.[187] ويدل النسخ على التحول من المثال إلى الواقع، ومما ينبغي أن يكون إلى ما هو كائن مثل التحرج من مؤاكلة الأعمى والأعرج ثم توضيح ذلك فيما بعدُ.[188]

ويقوم النسخ على التدرج في التغيير كما هو الحال في الخمر ببيان حسن مذاقه والرزق منه، ثم الأمر والنهي ببيان المنفعة والضرر وغلب الضرر، ثم بالنهي عنها وقت الصلاة فحسب، وأخيرًا منع الاقتراب منها. لم يرد التحريم بلفظه بل بالتساؤل استهجانًا عن وقت الانتهاء منها، وكيفية الصبر عليها، وإتباعها وصفها بالفواحش والبغي.[189]

---

[185] ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾، منسوخ بآية ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ (السابق، ص٤٦).

[186] المنسوخ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ والناسخ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (ابن سلامة، ص٥٧–٥٨).

[187] (السابق، ص٤٨–٤٩)، والآية الناسخة ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ (السابق، ص٩٠).

[188] هي آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ ثم أتبعتها بآيات ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾، ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾، ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ (ابن سلامة، ص٣٦).

[189] الآية الأولى ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، والثانية ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، والثالثة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، والرابعة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾، وعبارات الاستهجان في آياتٍ مثل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾، ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (ابن سلامة، ص٢٠–٢٣، ٣٧، ٥٩).

ومسار النسخ هو مسار التاريخ، والتحول من كثرة المؤمنين الأولين وقلة الآخرين إلى كثرة المؤمنين الأولين وكثرة المؤمنين الآخرين؛ فالإيمان في تزايد، والرسالة في توسع.[١٩٠] فالتدرج مدعاة إلى الأمل، والثقة في المستقبل.

ونادرًا ما يكون من الأخفِّ إلى الأثقل مثل السماح بمتعة النساء في السفر ثم تحريم ذلك فيما بعدُ، وقد كان التحليل في القرآن بشرط أداء الأجر، وهو ما أكده الحديث، ثم جاء التحريم في حديث من الرسول وليس من الله ولو أن الحديث يجعل التحريم من الرسول ومن الله[١٩١] ثم جاء التحريم في القرآن إلا على الأزواج أو ما ملكت الأيمان. وما ملكت الأيمان متوقف على القدرة على الشراء، ولا فرق بين الإيجار والشراء إلا في الطبقة الاجتماعية، الإيجار للفقراء، والشراء للأغنياء.

(٤) عدم تكليف ما لا يُطاق

وقد يكون الدافع على التحول من الأثقل إلى الأخفِّ هو عدم تكليف ما لا يطاق، إذا كان الإسلام دينًا واقعيًّا يمتنع فيه تكليف ما لا يطاق فإن آية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ تعتبر ناسخة.[١٩٢] وتكون آية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ تكون ناسخةً لآية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.[١٩٣] وتكون آية ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ناسخةً لآية ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾.[١٩٤] والتقوى قدر الاستطاعة، والجهاد على قدر المقدرة.[١٩٥]

---

[١٩٠] الأولى ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾، الثانية ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (ابن سلامة، ص٨٩).

[١٩١] آية التحليل ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، وحديث «استمتعوا من هؤلاء النساء.» بعد أن شكا إليه المسلمون العزبة. ولما نزل خيبر حرَّم ذلك مع أكل لحم الحمير الأهلية «إني كنت أحللت لكم هذه المتعة، ألا وإن الله ورسوله قد حرمها عليكم؛ فيبلغ الشاهد منكم الغائب.» والتحريم في آية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (ابن سلامة، ص٣٥–٣٦).

[١٩٢] ابن سلامة، ص٦٢–٦٥.

[١٩٣] السابق، ص٦٤–٧٠.

(٥) الإنفاق والزكاة

وإذا كان الإسلام دين الأخوة والمؤاخاة فإن آية ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ تكون ناسخة لآية ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾.[١٩٦] والإنفاق في المال غير الزكاة بناءً على حديث «في المال حق غير الزكاة.»[١٩٧] ومن ثم لا تنسخ آية الزكاة باقي أوجه الإنفاق. والقرابة أساس الميراث، فقد تم نسخ الميراث التعاقدي الذي ينص على أنه في حالة الوفاة يأخذ هذا القدر من المال بين المتعاقدين. فإن لم يتم التعيين يؤخذ السدس. وتم نسخ ذلك كله بالقرابة ﴿أُولُو الْأَرْحَامِ﴾.[١٩٨] كان الميراث بالهجرة ثم نُسخ إلى الميراث بالنسبة.[١٩٩] وقد يكون التخفيف في اكتناز الذهب والفضة دون إنفاقها في سبيل الله وما ينتج عنها من عذابٍ أليم بآية الزكاة. الأول حكمٌ أخلاقي والثاني حكمٌ تشريعيٌّ اجتماعيٌّ اقتصادي، الأول ليقظة الشعور والثاني للتقنين، وإذا عاد الناس اليوم إلى اكتناز الذهب والفضة وأثروا على حساب الفقراء فهل يعود الحكم الأول؟[٢٠٠]

---

[١٩٤] السابق، ص٩٦–١٠٣.

[١٩٥] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وأكدتها آية ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ثم خُفِّفت بآية ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (السابق، ص٣٠، ٦٧، ٩٣).

[١٩٦] ابن الجوزي، ص١٤٢–١٤٤.

[١٩٧] ومن ثم كانت آية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ليست منسوخةً بآية الزكاة، وكذلك آية ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، وآية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ ابن سلامة، ص١١، ٢٠، ٢٣–٢٤، وآية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، وكذلك ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ غير منسوخة بآية الزكاة (السابق، ص٤٧) وكذلك آية ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ليست منسوخة بآية الزكاة (السابق، ص٨٦).

[١٩٨] ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ منسوخة بآية ﴿أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ (ابن سلامة، ص٣٦–٣٧).

[١٩٩] الآية الأولى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، ثم نسخ ذلك بآية ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ (السابق، ص٥٠).

[٢٠٠] السابق، ص٥١.

(٦) حرية الإيمان

وإذا كان الإسلام هدايةً يقوم على حرية الإيمان فإن آية ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لا تعتبران منسوختان لأنهما تعبِّران عن روح الإسلام مثل ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾. وتكون آيات مثل ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ناسخة لغيرها من آيات التخصيص.[٢٠١] والشق على قلوب الناس لمعرفة صدق نواياهم لا يُنسخ بآية السيف[٢٠٢] فالعبادة فعلٌ حر.[٢٠٣] وإذا كان الإسلام يعترف بحرية الأديان فإن آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ تعتبر ناسخة لآيات تخصيص دينٍ واحد.[٢٠٤] ويظل عدم الإكراه في الدين قائمًا لا تنسخه آية السيف.[٢٠٥] ويستطيع المؤمن أن يكفر بعد إيمانه، يضل بعد أن اهتدى، ويعود إلى الإيمان بعد الكفر، إلى الهداية بعد الضلال.[٢٠٦] ويُنسى فعل الكفر ولا يبقى إلا فعل الإيمان وهو ما يسمى بالتوبة. فالتوبة تنهي القتال[٢٠٧] وكيف ينسخ عدم الإكراه في الدين؟[٢٠٨] وكيف ينسخ عدم سيطرة الرسول على الاختيار بين الإيمان والكفر؟[٢٠٩] والإسلام اختيارٌ حر من الناس دون إكراه، حرية الرفض قبل حرية القبول.[٢١٠] وطاعة الرسول طاعة لله، والإنسان حر في

---

[٢٠١] السابق، ص١٤٩–١٥١، ١٨٠–١٨١.

[٢٠٢] آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٤٠–٤١).

[٢٠٣] وكذلك آية ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ لا تنسخها آية السيف (السابق، ص٧٧).

[٢٠٤] ابن الجوزي ص٩٢–٩٤.

[٢٠٥] ابن سلامة، ص٢٧.

[٢٠٦] وهي آية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (السابق، ص٢٩).

[٢٠٧] ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (السابق، ص٥١).

[٢٠٨] لذلك تظل آية ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وكذلك آية ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٥٤، ٦٠).

[٢٠٩] لذلك تظل آية ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾، غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص١٠٠).

[٢١٠] لذلك لا تعتبر آية ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ محكمةً فقط بل أيضًا آية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ منسوخة بآية السيف (ابن سلامة، ص٢٩).

أن يعصي ويتولى، وليس لأحد عليه سلطة.[٢١١] والإعراض عن المخالفين ليس منسوخًا.[٢١٢] والميثاق بين المسلمين والمخالفين باقٍ لم تنسخه آية السيف.[٢١٣] والقتال في سبيل الله تكليف للرسول لا تنسخه آية السيف.[٢١٤] وترك الآخرين وشأنهم لا تنسخه آية السيف.[٢١٥] وترك المعادين وشأنهم لا يُنسخ بالتبرؤ منهم.[٢١٦]

ويظل الإنسان مسئولًا عن نفسه وليس عن الآخرين. وجعل نفسه مسئولًا عنهم باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون فيه اعتداء على حرياتهم كما يحدث من جماعة تحمل هذا الاسم هذه الأيام. ونسخ الآية لا يكون بحديث.[٢١٧] وكيف ينسخ الوعي الذاتي والمسئولية الفردية؟[٢١٨] ولا ينسخ الاهتداء الذاتي أو الإنذار من الضلال لصالح القتال وآية السيف.[٢١٩]

---

[٢١١] الحكم الأول ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾، والثاني ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، غير منسوختَين بآية السيف (السابق، ص٣٨).

[٢١٢] آية ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، ليس منسوخًا بآية ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾، أو بآية السيف (السابق، ص٣٨).

[٢١٣] وهي آية ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وهي غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٣٨).

[٢١٤] وهي آية ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (السابق، ص٣٨).

[٢١٥] ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ (السابق، ص٣٨).

[٢١٦] آية ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ... ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، غير منسوخة بآية ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (السابق، ص٣٩).

[٢١٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، غير منسوخة بحديث «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعذبكم الله بعقابه أو تدعون فلا يجاب لكم» (ابن سلامة، ص٤٢)، وآية ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾، وكذلك آية ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ غير منسوختين بآية السيف (السابق، ص٤٥، ٧٩)، وآية ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٤٧).

[٢١٨] لذلك تظل آية ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وكذلك آية ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، غير منسوختَين بآية السيف (السابق، ص٥٤، ٧٢، ٧٨).

[٢١٩] ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾، وآية ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ (السابق، ص٧٢–٧٣). وأيضًا ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، لا تنسخها آية السيف (السابق، ص٧٥).

وترك الذين يتخذون الدين لعبًا ولهوًا غير منسوخ بالقتال؛ فكل إنسان مسئول عن نفسه.[٢٢٠] وعدم سبِّ الذين يدعون من دون الله حتى لا يسبُّوا الله بغير علم غير منسوخ بآية السيف.[٢٢١] وكذلك ترك افتراءات الناس والانتظار، وعمل كل إنسان قدر استطاعته، كل ذلك غير منسوخ بآية السيف.[٢٢٢] وترك أذى المخالفين وعدم طاعتهم لا تنسخه آية السيف.[٢٢٣] والمكذبون بالرسالة أحرار، وليس الرسول وكيلًا عنهم، لا تنسخ حرياتهم آية السيف.[٢٢٤] وكيف تُنسَخ حرية الاختيار بين الإيمان والكفر لصالح المشيئة الإلهية، وبالتالي تنعدم المسئولية، ويتوقف قانون الاستحقاق؟[٢٢٥] ولم نسخ خلق الأفعال وحرية الاختيار إلى الجبرية؟[٢٢٦] وقد يكون النسخ إيثارًا للداخل على الخارج، ولأفعال القلوب على أفعال الجوارح بلغة الصوفية، وبالنية على اللسان؛ فالصلاة بالقلب وليست تمتمة بالشفتَين، يسمع المصلي صوت قلبه ولا يسمع الآخرون صوته.[٢٢٧]

(٧) التعددية الفكرية

التعددية في الإسلام أصل، وأهل الكتاب تعبير عنها.[٢٢٨] الإسلام كآخر الأديان لا يعني الإسلام بالمعنى الحرفي بل بالمعنى المجازي وهو إسلام الوجه لله. والوحي كله من عند الله بصرف النظر عن مراحله.[٢٢٩] وكيف يُنسخ التاريخ.[٢٣٠] وإذا كان الإسلام يعترف بالديانات السابقة اليهودية والمسيحية فإن آية ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، لا

[٢٢٠] آية ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ غير منسوختين بآية ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (السابق، ص٤٥).

[٢٢١] وهي آية ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (السابق، ص٤٥–٤٦).

[٢٢٢] وهي آيات ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ … ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٤٥–٤٦).

[٢٢٣] ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾، غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٧٤).

[٢٢٤] ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، آية لا تنسخها آية السيف (السابق، ص٤٤).

[٢٢٥] لذلك تظل آية ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ غير منسوخة بآية ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (السابق، ص٦١).

تعتبر ناسخةً لآيات التعددية الدينية مثل ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾.[231]

وهل الحوار مع المخالفين منسوخ بآية السيف وهو ما يناقض روح القرآن؟[232] وكيف يكون الصفح الجميل منسوخًا بآية السيف؟[233] وحزن الرسول على المخالفين عاطفةٌ إنسانية لا تنسخها آية السيف. وكيف تُنسخ المغفرة للذين لا يرجون أيام الله من الذين آمنوا؛ بآية السيف؟[234] وهل الله أكثر قسوةً على المشركين من الرسول الذي أصرَّ على الاستغفار لهم أكثر من سبعين مرة؟[235] وكيف يُنسَخ الهجر الجميل بالقتال؟ وأيهما أقسى على النفس الهجر أم القتل؟[236]

---

[226] الأولى ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، والثانية ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (السابق، ص٩٦، ٩٨)، وأيضًا ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ لا تنسخ بآية ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (السابق، ص٩٩).

[227] لذلك نُسخت آية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ بآية ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (السابق، ص٦١).

[228] لذلك كانت آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ ليست منسوخةً بآية ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ (السابق، الناسخ والمنسوخ، ص١١). وليست آية ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ بآية السيف (السابق، ص١٤).

[229] آية ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ غير منسوخة بآية السيف (ص٤٥).

[230] لذلك تظل آية ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٥٤).

[231] ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص٤٢.

[232] لذلك فإن آية ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ غير منسوخة بآية السيف (ابن سلامة، ص٦٦–٦٧). وكذلك آية ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وأيضًا ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، (السابق، ص٧٩).

[233] لذلك تظل آيات ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٥٨، ٨١).

[234] ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾، غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٧٥).

[235] وهي آية ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ (السابق، ص٨٢)، وآية ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ (السابق، ص٩٣).

[236] لذلك لا تُنسخ آية ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بآية السيف (السابق، ص٩٦).

وكيف يُنسخ الصبر بآية السيف؟[٢٣٧] ولماذا عدم العجلة على غير المؤمنين منسوخ بآية السيف، وقتل المشركين.[٢٣٨] وإذا كان الله هو الذي سيحكم بين الناس يوم القيامة فلمَ الاستعجال في قتالهم؟[٢٣٩]

وتربص كل فريق بالفريق الآخر لا تنسخه آية السيف لأن التربص حذر وحيطة وانتظار وليس قتالًا.[٢٤٠] والانتظار للكدح في الحياة لا تنسخه آية السيف.[٢٤١] ولماذا لا يُنسخ إمهال الكافرين الوقت لإعادة النظر؛ بآية السيف.[٢٤٢]

وكيف تنسخ آية الحياة الطبيعية؛ الطعام والشراب والمتعة، بآية السيف والقتل والموت؟[٢٤٣] ولم يُنسخ ترك المخالفين يخوضون ويلعبون حتى يلاقوا ربهم فيحاسبهم، وهو تطبيق لقانون الاستحقاق، وذلك بآية السيف؟[٢٤٤] وكيف يسلك المسلمون سلوكًا إنسانيًّا طبيعيًّا بإطعام المسكين واليتيم والأسير ثم يُنسخ ذلك السلوك بآية السيف؟ وهل المسلمون أكثر رحمةً بالمخالفين من الوحي؟[٢٤٥] ولماذا التفرقة بين الأسير المؤمن والأسير المشرك، والأسر واحد؟

---

٢٣٧ لذلك تظل آيات ﴿اصْبِرْ﴾، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ غير منسوخة بآية السيف، ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (السابق، ص٦٠، ٦٤، ٧٤، ٨٦، ٨٧، ٩٤، ٩٥، ٩٧).

٢٣٨ كذلك ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾، ليست منسوخة بآية السيف (السابق، ص٦٢).

٢٣٩ لذلك آية ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ غير منسوخة بآية السيف (ابن سلامة، ص٧٧).

٢٤٠ لذلك فإن آية ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾، وآية ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ليستا منسوختَين بآية السيف (السابق، ص٦٤، ٨٧).

٢٤١ لذلك تظل آية ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾، وآية ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ غير منسوختَين بآية السيف (السابق، ص٧٦).

٢٤٢ لذلك تظل آية ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٩٩).

٢٤٣ لذلك تظل آية ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾، وكذلك آية ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٥٨).

٢٤٤ وهي آية ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (السابق، ص٨٠، ٩٥).

٢٤٥ لذلك تظل آية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ غير منسوخة (السابق، ص٩٧).

وإذا كان الإسلام دين السلام فإن آية ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ تكون ناسخة لآيات القتال مثل ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾.[٢٤٦] وإذا كان الإسلام دين السلام فإن آية ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا تكون منسوخة بآيات السيف والقتال.[٢٤٧]

والسلم قاعدة، والحرب هي الاستثناء، ومن ثَمَّ لا تُنسخ الدعوة إلى السلم المتبادل بآية القتال.[٢٤٨] فما معنى أن تنسخ آية السيف مائة وأربعًا وعشرين آية؟ ألهذا الحد القتال هو الكلمة الفصل؟ وماذا عن الدعوة بالحق، ولا إكراه في الدين، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فيكفر؟ بل إن تعبير آية السيف تعبيرٌ مضاد لروح الإسلام وتأباه روح العصر. وقتال العدو مشروط بعدوانه،[٢٤٩] وليس منسوخًا بقتاله على الإطلاق وفي كل الأحوال.[٢٥٠] وتحريم القتال في الشهر الحرام ليس منسوخًا بقتال المشركين على الإطلاق إلا في حالة العدوان.[٢٥١]

ولو أضرَّ الكافرون المؤمنين فإن ذلك لا يوجب قتالهم بل منع أذاهم.[٢٥٢] والجهاد فرض كابتلاء في الأموال والأنفس، والصبر والتقوى من عزم الأمور. ولا يحتم ذلك قتال المخالفين في الدين. والإعراض عن غير المؤمنين ووعظهم باقٍ ولا ينسخه أمر بقتال.[٢٥٣]

---

[٢٤٦] السابق، ص١٦٦-١٦٧.

[٢٤٧] مثل آيات ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، (السابق، ص٧٠-٧٤).

[٢٤٨] لذلك تظل آية ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ محكمةً غير منسوخة بآيتَي ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ... ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (السابق، ص٤٩).

[٢٤٩] ومن ثم لا تعتبر ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ منسوخة بآية ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (السابق، ص١١-١٢). وكذلك آية ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ ليست منسوخة بآية ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ... ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (السابق، ص١٢).

[٢٥٠] لذلك ليست آية ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ... ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، وآية ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ منسوخةً بآية ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وكذلك آية ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، وآية ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ليستا منسوختَين (السابق، ص١٩).

[٢٥١] وهي آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾، ليست منسوخةً بآية ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (السابق، ص٢٠).

والعفو عن غير المؤمنين والصفح عنهم غير منسوخ بقتالهم.[٢٥٤] بل إن التعبير نفسه بإجبارهم على إعطاء الجزية غير متفق مع مؤاخاة أهل الكتاب. وإن تولى غير المؤمنين فكل فريق يتحمل اختياره. ولا ينسخ بآية السيف لأن الاختيار حر، الإيمان أو عدم الإيمان.[٢٥٥]

وكيف تخرق المعاهدات بين المسلمين وغيرهم وأولاد العمومة وكلهم عرب يحافظون على العهد ويرعون المواثيق وتصبح منسوخةً بآية السيف؟[٢٥٦] وتعقد معاهدة بين الرسول والمشركين وعدم رد المؤمنات المهاجرات ثم تنسخ بجواز ردِّهن وفصلهن عن أزواجهم وردِّ مهورهن وإعادة تزويجهن من المؤمنين بمهورٍ جديدة. وكيف ينسخ ذلك بالقتال وينقض الرسول والمسلمون عهدهم؟[٢٥٧]

وكيف ينتهي القتال في الأشهر الحرم الأربعة وهي استراحة المحاربين لتأليف القلوب وتحقيق «الموادعة»، أي «التهدئة» بلغة هذه الأيام لصالح القتال الدائم فيتحول من وسيلة إلى غاية؟[٢٥٨] وكيف ينسخ حكم الله بين البشر لصالح آية السيف؟[٢٥٩] وكيف يتوقف سبب القتال ضد الكفار وتنتهي مبرراته، ومع ذلك يظل القتال قائمًا بلا سب؟[٢٦٠] وكيف ينسخ التوقف عن القتال إذا ما توقف الطرف الآخر عنه بآية السيف التي تجعل القتال غايةً

---

[٢٥٢] لذلك تظل آية ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ غير منسوخة بآية ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (السابق، ص٣٠).

[٢٥٣] لذلك تظل آية ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ ... ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ غير منسوخة بآية ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (ابن سلامة، ص٣٠–٣١).

[٢٥٤] وهي آية ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾، وكذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ (السابق، ص٣٧، ٥٨، ٦٧، ٧٤، ٨٠، ٨٧، ٨٨)، (السابق، ص٣٧)، وكذلك آية ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾، وأيضًا ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

[٢٥٥] لذلك تبقى آية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾، وأيضًا ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ لم تنسخها آية السيف (السابق، ص٧٠).

[٢٥٦] لذلك تظل آية ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ ... ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ محكمةً وليست منسوخةً بآية السيف (السابق، ص٥٠).

وليس وسيلةً، مبدأً دائمًا وليس ظرفًا مؤقتًا؟[٢٦١] وكيف يكون نزول آية من الله منسوخًا بآية السيف؟ إلى هذا الحد يكون الحكم للسيف![٢٦٢]

وكيف يكون الوحي نذيرًا منسوخًا بآية السيف؟ أليس التبليغ سابقًا على القتال، الإسلام أو الجزية أو القتال؟[٢٦٣] وكيف تُنسخ الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن؛ بآية السيف؟[٢٦٤]

---

[٢٥٧] وهي آية ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (السابق، ص٩٢).

[٢٥٨] لذلك تظل آية ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ... ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ محكمة ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ غير منسوخة بآية ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (السابق، ص٥١).

[٢٥٩] لذلك تظل آية ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٥٤).

[٢٦٠] لذلك تظل آية ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ محكمةً غير منسوخة، وأيضًا آية ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ غير منسوخة بآية ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (السابق، ص٥٠).

[٢٦١] الأولى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾، والثانية ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (السابق، ص٩١).

[٢٦٢] وهى آية ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ... مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (السابق، ص٥٣)، والأصدق الشاعر:

السيف أصدق إنباءً من الكُتبِ ... في حَدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ

[٢٦٣] لذلك تظل آية ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ غير منسوخة، وكذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (السابق، ص٥٥، ٥٩، ٦٦، ٧٣)، وكذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، وأيضًا ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، وكذلك ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، وأيضًا ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، وأيضًا ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لا تنسخها آية السيف (السابق، ص٧٥).

[٢٦٤] لذلك آية ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، غير منسوخة بآية السيف (السابق، ص٦٠)، وآية ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ليست منسوخة بآية السيف (السابق، ص٦٢)، وأيضًا آية ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ

كان عصر التدوين عصر فتوحات وقتال، والآن العصر عصر جهاد وسلام لدرء العدوان «وسلام الشجعان».

ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ليست منسوخةً بآية ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ... ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (السابق، ص٧٣).

الباب الثاني

الحوامل الموضوعية الذاتية

الرواية

الفصل الأول

الخبر

(١) الرواية والخبر

تعني الحوامل الموضوعية الذاتية الحوامل التي تجمع بين الموضوع وهو المحمول والذات أي الجانب الشعوري الذاتي وهي الرواية. فالوحي رواية وخبر وإخبار وإعلان، والرواية قصٌّ إنساني. الرواية سماع بالأذن، وحفظ بالذاكرة، وأداء باللسان، والخبر تَوجُّه من المتكلم إلى السامع، ومن المعطي إلى المتلقي، ومن الرسول إلى المرسل إليه أو إليهم. الوحي في حاجة إلى وسيطٍ بشري للتبليغ، هو رسالةٌ مباشرة للرسول وحده، يتم تبليغها بعد ذلك بالوسائط البشرية. فالوحي ليس فرديًّا يتكرر لكل فرد، بل هو إبلاغ لفردٍ واحد هو الرسول، وهو الذي يقوم بعد ذلك بإبلاغ الناس عن طريق الرواة؛ لذلك وضعه علماء أصول الفقه تحت عنوان «الأخبار».[1]

وأول الحوامل الموضوعية الذاتية الخبر الذي به تقرير عن واقع من خلال رواية الذات. فالخبر هو الإخبار، والحدث هو روايته. الرواية أكبر من الخبر، الرواية كلٌّ، والخبر جزء. الرواية بها سند ومتن كما هو الحال في علم الحديث، في حين أن الخبر هو مجرد المتن والإعلان والرسالة. لا شيء يقع في الخارج إن لم تتم رؤيته في الذات، إدراكًا بالسماع. فالوحي صوت وليس رؤية، يستحيل الوحي رؤيةً لأن الحقائق لا تُرى بل تُبلغ. وإذا تجلى الحق للجبل فإنه يُدكُّ وينهار. الوحي رؤية يكون أقرب إلى الشيء وكما تجلى ذلك في عبادة الأصنام، وتصور الله شمسًا أو قمرًا أو برقًا أو رعدًا أو نهرًا كأحد مظاهر

[1] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١٦٧–١٩٠م.

الطبيعة أو صنعًا إنسانيًّا عن طريق الإبداع الفني، وإعادة خلق الطبيعة في تمثال أو صنم أو معبد. الوحي أقرب إلى السمع منه إلى البصر، وإلى الشعر والموسيقى منه إلى الفنون التشكيلية؛ لذلك تغنَّى المؤلفون لله في المعابد، وأصبح الإنشاد الديني والموسيقى الدينية أحد مظاهر التعبير عن الإيمان. فالمسافة بين الدين والفن ليست بعيدة، كلاهما يقوم على إعادة التمثل للحق؛ لذلك لاحظ عديد من الفلاسفة الرومانسيين أن الفنون السمعية أقرب إلى القلب من الفنون البصرية.[٢]

(٢) من الأسانيد إلى المتون

يركز القدماء على الأسانيد دون المتون؛ فصحة الخبر في سنده وليست في متنه أي في سلامة النقل وليست في صدق المنقول.[٣] فهناك العالي والنازل من الأسانيد. العالي الواصل إلى الرسول، والنازل هو البعيد عنه.[٤] الأول هو المتصل، والثاني هو المنفصل؛ فلا فرق في الخبر بين نقل القرآن ونقل الحديث. وعلو الإسناد دليل على صحة الحديث لقربه من الرسول أو من إمام من أئمة الحديث أو إلى أحد الكتب الستة بالموافقات والإبدال والمساواة والمصافحات. الموافقة مع أحد أصحاب الكتب، والبدل الاتفاق مع شيخ الشيخ، والمساواة وجود أحد أصحاب الكتب بين الراوي والنبي. والمصافحة كثرة العدد بواحد وكأنه قد تمت مصافحته. وقد يكون العلو تقدم وفاة الشيخ عن قرينه أو وفاة الشيخ دون الْتفاتٍ إلى آخر.

أما النزول فلا دليل على صحته، فليس رجاله أعلم أو أحفظ أو أتقن أو أجلَّ أو أشهر أو أروع من العلو؛ ومن ثم صدق المحمول في صحة النقل أي في سلامة الحامل دون النظر في صدق المحمول في ذاته ومدى اتفاقه مع العقل والواقع، وهما الركيزتان الرئيسيتان، والعنصران المكوِّنان للوحي.[٥]

---

[٢] الفنون البصرية أم السمعية، أيها أقرب إلى الذوق العربي؟ حصار الزمن، مركز الكتاب العربي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٢٦٥–٢٩٤.

[٣] من نقد السند إلى نقد المتن، حصار الزمن، ج٣، علوم ص١٥٣٠، ١٦٥.

[٤] الإتقان ج١، ص٢٠٧–٢٠٩.

[٥] الوحي والعقل والطبيعة، قراءة في كتاب «القانون في الطب» لابن سينا، حصار الزمن، ج٣، علوم، ص٥٣٩–٥٨٥.

والعالي والنازل صورتان رأسيتان للوحي حتى ولو كان مبلَّغًا من الرسول أفقيًّا للناس، فما زالت الصورة الشعبية المألوفة هو نزول الوحي من أعلى إلى أدنى؛ لذلك أصبح «التنزيل» مرادفًا للوحي، وعلى أساس هذا التصور وضع مفهوم «أسباب النزول».

(٣) أنواع الأسانيد والمتون

ومثل علم مصطلح الحديث هناك المتواتر والمشهور والآحاد والشاذ والموضوع والمدرج، ثلاثة في السند وثلاثة في المتن.[٦] وبالرغم من أن علم القراءات متعلق بالنص الشفاهي إلا أنه يخضع أيضًا لمنطق الرواية العامة؛ لا فرق بين النص الشفاهي والنص المدوَّن.

المتواتر هو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، وهو نقل غالب القراءات، وهو أغلب النقل، وقد نقل عن عبد الله بن مسعود إنكار أن تكون المعوذتان من القرآن، مع أنهما متواترتان، وأنه كان يحكُّهما من المصحف، وأن الرسول أمر بالتعوِّذ بهما فقط. كما أنه أسقط الفاتحة لأنها وضعت حماية له بين دفتَين. والمشهور ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم، النقل الشفاهي والمدون، القراءة والكتابة. والآحاد هو ما صح سنده وخالف العربية أو الرسم ولم يكن مشهورًا.[٧] أما فيما يتعلق بالمتن فالشاذ ما لم يصح سنده.[٨] والموضوع كقراءات الخزاعي.[٩] وهذا يدل على ارتباط النقل بالناقل سمعًا وحفظًا وأداءً.[١٠] والمدرج هو ما زيد في القراءات للتفسير بغاية الإيضاح. وهي عمليةٌ لا شعورية، فالإيضاح جزء من نقل الذاكرة، ومع ذلك لا تجوز الرواية بالمعنى كما يحدث أحيانًا في علم الحديث.[١١]

(٤) أنواع المنقول

والمنقول ثلاثة أقسام؛ الأول: قسم يُقرأ به وهو ما نقله الثقات ووافق العربية وخط المصحف، فالنقل الخارجي الخاص بالسند مشروط بلغة المتن قراءة، وبخط المصحف كتابة. النقل ليس شرطًا مطلقًا للصحة لأنه خاص بالسند وحده في حين أن الصحة متعددة الجوانب في السند والمتن. والثاني: صح نقله عن الآحاد وصح في العربية وخالف

---

[٦] الإتقان ج١، ٢١٠–٢٢١، ٢١٥.

[٧] مثل قراءة ﴿وعباقري حسان﴾، ﴿قرات أعين﴾ (السابق، ص٢١٥).

لفظه الخط؛ فيقبل ولا يقرأ به لمخالفته الإجماع. والآحاد يورث الظن وليس اليقين؛ ومن ثم كانت صحة النقل ظنيةً من حيث السند. وإذا صح الآحاد باتفاقه مع النطق أي مع القراءة دون موافقة الخط فإنه يُقبل نظرًا، ولا يُقرأ به عملًا؛ وهو ما يستحيل عمليًّا؛ فما هذا القرآن الذي ليس بقرآن؟ والثالث: نقله غير ثقة ولا وجه له في العربية فلا يُقبل وإن وافق الخط، هو قليل وهو ما يفتقد لشرط صحة السند، التواتر والآحاد، ولا يتفق مع القراءة الشفاهية وإن اتفق مع خط التدوين، فالخط أدنى درجات اليقين لأنه متعدد الجوانب والأشكال، ويختلف من مصرٍ إلى مصرٍ على ما هو معروف في علم الخطوط. والتنقيط والتشكيل إضافتان متأخرتان. وربما يضاف قسمٌ رابعٌ مردود وهو ما وافق العربية والرسم ولم يُنقل البتة. وهي حالةٌ افتراضية لأنه لا خفاء في النقل؛ فالسند هو الأساس والمتن هو الفرع، فأي خلل في السند لا يشفع له أي صحة في المتن. وفي الحالات الثلاث، أنواع المنقول كلها تتعلق بالسند والمتن من حيث هو شكل، قراءة وكتابة، وليس من حيث هو مضمون. المتن هنا امتداد للسند وليس مستقلًّا عنه، والمنقول ليس فقط سندًا بل متن، ليس فقط وسيلة بل أيضًا غاية.[١٢]

(٥) القرآن متواتر بالسند

القرآن متواتر في كله وأجزائه، والتواتر يورث اليقين، ويقين النقل سابق على يقين الفهم، والدواعي أي البلاغ والبيان تدفع نحو التواتر.[١٣] وإن لم يتواتر بعضه، سورتا المعوذتين مثلًا، فإن شيوعهما وتداولهما والاستشهاد بهما، وتعضيد الحديث لهما يجعلهما بمقام التواتر. وعدم نقلهما من البعض يقلل من شرط العدد، ولكن نقلهما من البعض الآخر يجعل العدد كافيًا. والآحاد يورث العلم الظني والعمل اليقيني، وهو اليقين التداولي.

---

[٨] مثل ﴿ملْك يوم الدين﴾، ﴿وإياك يُعبد﴾ (السابق، ص٢١٦).

[٩] مثل قراءات الخزاعي (السابق، ص٢١٦).

[١٠] من النص إلى الواقع ج٢، بنية النص، ص١٥٨–١٦٧.

[١١] مثل «وله أخ أو أخت من أم» (السابق، ص٢١٦). وأيضًا «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم في مواسم الحج»، «وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم».

[١٢] الإتقان، ج١، ٢١٣–٢١٥.

[١٣] البرهان، ج٢، ص١٢٥–١٢٨.

السؤال إذن: ألا يمكن إثبات صدق المحمول بصرف النظر عن صحة الحامل وهو التواتر؟ المحمول موضوع «متعالٍ» في حين أن الحامل جهدٌ بشريٌّ خالص ومنطق للنقل الشفاهي أو المدون. بهذه الطريقة يصبح المحمول مشروطًا بالحامل؛ وهو ما يتنافى مع علاقة المشروط بالشارط في الموضوعات المتعالية.

والتواتر في النهاية اجتهادٌ بشري ومنطقٌ إنساني واختراعٌ منهجي، وهو شرط صحة القرآن؛ فصحة الحامل هنا شرط صحة المحمول وكأن المحمول ليس له صدق في ذاته بصرف النظر عن حامله.[١٤]

(٦) الصدق الذاتي للمتن

وقد استقرَّ القرآن الآن في النفوس والعقول والأذهان، ولم يعد أحد عمليًّا يشك في صحة النقل. وإذا أراد القارئ أن يبين مهارته في القراءة باستحداث بعض القراءات غير المتداولة فإنه يكون من جانب الأداء الفني الذي يستحسنه البعض ويستهجنه البعض الآخر؛ ومن ثم كان الدخول في المسائل التاريخية الصرفة وقت الرواية والأخبار والقراءة والتدوين من نافلة القول. والعجيب أن هذه المادة ما زالت تدرس في الجامعات والمعاهد الدينية كجزء من نقل التراث وتدريسه، الاستشراق وحده هو الذي يحاول بعث هذه الموضوعات لإثارة الشك حول الصحة التاريخية للروايات، أسوة بما تم في باقي الكتب المقدسة بل وفي المدونات الإنسانية الكبرى مثل شعر هوميروس ثم الشعر الجاهلي بل في كل الأعمال الإنسانية مثل أعمال شكسبير وإنكار مؤلفها، وكذلك يفعل بعض مدعي التجديد والمتأثرين بالاستشراق. وهو تجديد خارج المكان والزمان والتاريخ، مجرد فرقعاتٍ إعلامية تخطئ ولا تصيب، غايتها الإثارة والضجة. وتثبيتها تقوية الاتجاهات المحافظة وليس حركات التجديد، وكما حدث في قضية «الشعر الجاهلي» و«التصوير الفني»، والدعوة إلى «الترتيب الزماني»، وتاريخية النص القرآني: إذا ما وضع في إطار تاريخ الأديان المقارن.

المهم هو صدق المتن وتطابقه مع التجربة الحية التي يشعر بها كل قارئ ومستمع، هو نوع من الوحي المباشر وكأن القرآن قد أنزل على القارئ أو السامع في التو واللحظة، فالقرآن مجموعة من التجارب الأولى التي يمكن أن تتكرر في حياة البشر. الصدق هنا ليس

[١٤] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١٥٠–١٥٣.

عن طريق السند بل عن طريق المتن، وليس عن طريق اللغة، قراءةً وكتابة، ولكن عن طريق الحدس المباشر، والصدق الذاتي. هو طريق عمر بن الخطاب محدَّث هذه الأمة. فلا فرق بين النزول والصعود، بين الوحي والواقع، بين كلام الله وكلام البشر، بين العلم الإلهي والعلم الإنساني إلا في درجة اليقين، وأشكال الصياغة، والنظرة الكلية الشاملة. فالصدق صدقان: صدقٌ نازل، وصدقٌ صاعد. واليقين يقينان: يقين تنزيل ويقين تأويل. والصحة صحتان: صحةٌ تاريخية للسند، وصحةٌ شعورية للمتن. وكما قال الصوفية «عن ربي عن قلبي أنه قال ...»

والتطابق مع التجربة الحية يحيل إلى تطابقٍ آخر مع العقل، ويثير في الذهن أفكارًا وتصوراتٍ وبراهين. فالعقل والتجربة واجهتان لشيءٍ واحد؛ العقل تصديقٌ ثانٍ للتجربة، يميز بين التجربة الحية والهوى بين الفطرة والانفعال، بين البداهة والميل؛ لذلك طلب إبراهيم البرهان ليس لكي يؤمن بل لكي يطمئن قلبه، والمزاوجة بين العقل والقلب؛ لذلك كان مطمح الفلاسفة الجمع بين الصدق العقلي والصدق التجريبي.[١٥] ولا يعني العقل الصدق الصوري؛ تطابق النتائج مع المقدمات، وتطابق الفكرة مع ذاتها بل تصديق العقل لمضمون التجربة الحية في البداهة العقلية والفطرة الطبيعية. الصدق العقلي ذو مضمون، يتجه نحو الأشياء ذاتها وليس فقط وسائل معرفته وطرق روايته؛ فالحقيقة شيء وروايتها شيءٌ آخر.[١٦] لذلك اعتنى الأدب والفلسفة المعاصرة في الغرب بالسرد، والرواية، والقص، والزمان الداخلي، والسيرة الذاتية.[١٧]

والتطابق مع التجربة الحية والعقل هو أيضًا تطابق مع الواقع، فالتجربة الحية هي موطن التقاء العقل بالواقع؛ العقل حدس معاش، والواقع تجربةٌ معاشة.[١٨] فالعقل والواقع ركيزتا التجربة، يحمي التطابق مع الواقع الوحي من أن يصبح مجرد خطابٍ مغلق على ذاته، تكفيه اللغة كمكونٍ رئيسي له، كما تحميه من أن يصبح مجرد تفريغ عن الكرب، وتفريغ للهمِّ كما يحدثُ عند الدعاة الجدد وكان وظيفة الوحي هو التطهير كما كانت وظيفة الفن عند بعض قدماء اليونان.[١٩] الواقع هو الواجهة الثانية للوحي،

[١٥] وهو ما تجلَّى في الفلسفة الغربية عند ديكارت وبيكون (مقدمة في علم الاستغراب، ص٢٤٨–٢٨٢).

[١٦] هذا هو الفرق في علوم الإعلام الغربية بين Truth, Truth–Telling.

[١٧] أشهرها ثلاثية بول ريكير «الزمان والسرد Temps et Rècit».

[١٨] الأصح معيش ومعيشة، ولكن معاش ومعاشة أصبحتا أكثر تداولًا وقبولًا في الآذان.

[١٩] هو فيثاغورث.

داخل فيه منذ الحوامل الموضوعية له: المكان والبيئة الاجتماعية والزمان. وهو الذي يسمح بالتحول من النظر إلى العمل، ومن القول إلى الفعل. الوحي يبدأ من الواقع صياغةً وإليه يعود فاعليةً وتأثيرًا. وقد نشأت تياراتٌ معاصرة في الغرب تجعل مهمة الفلسفة رؤية الواقع وليس الابتعاد عنه أو تغليفه بشبكة من التصورات أشبه بشبكة العنكبوت التي تعمي أكثر مما تكشف، وتخبئ أكثر مما تظهر.[٢٠]

تبغي روح العصر الصدق الذاتي، وهو الصدق المباشر وليست رواياته وصحته التاريخية. فقد يكون المتن صحيحًا شعوريًّا والسند كاذب تاريخيًّا. وقد يكون السند صحيحًا تاريخيًّا والمتن كاذب شعوريًّا، وفي هذه الحالة صدق المتن له الأولوية على صحة السند؛ وبالتالي تتحول علوم القرآن من علوم الرواية والخبر والسند إلى علوم الدراية والخبرة والمتن.

[٢٠] وذلك مثل فلسفات مين دي بيران وبرجسون ووليم جيمس وهويتهيد ورافيسون؛ لذلك كتبنا كتابنا عن «برجسون، فيلسوف الحياة» والذي كتب بدوره عن وليم جيمس وهويتهيد ورافيسون.

الفصل الثاني

القراءة

(١) منطق النقل الشفاهي

ووُضع علم القراءات لضبط النقل الشفاهي بعد أن اتسعت الآفاق وتداخلت اللهجات.[١] وقد ارتبط بعلوم القرآن؛ لأنه علم منطق النقل الشفاهي، كما ظهر علم القراءات كمنطقٍ شفاهي للنص قبل التدوين والتنقيط والتشكيل والإعراب والخطوط؛ وهنا تأتي أهميةً أبي الأسود الدؤلي في التنقيط في القرن الرابع. وقد يختلف النطقان؛ قراءتان لرسمٍ واحد؛ نظرًا لأن التنقيط لم يظهر إلا متأخرًا لضبط هذه الاختلافات[٢] علم القراءات هو منطق النقل الشفاهي، كما أن علم الحديث هو منطق النقل الكتابي، الأول لضبط الصوت والثاني لضبط الحرف وهي خاصية علوم القرآن، لم تنشأ حول التوراة والإنجيل، وقد نقل القرآن شفاهًا من خلال الحفاظ والرواة.[٣] ولا يهم أسماؤهم ولا عددهم، أحياؤهم وشهراؤهم، ذكورهم وإناثهم.[٤] ولكل قراءة رواية. واعتمدت علوم القرآن على علم مصطلح الحديث لروايته.

---

[١] «ثم لما اتسع الخرق، وكاد الباطل يلتبس بالحق، قام جهابذة الأمة، وبالغوا في الاجتهاد، وجمعوا الحروف والقراءات، وعزوا الوجوه والروايات، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ بأصولٍ أصَّلوها، وأركانٍ فصلوها» (الإتقان، ج١، ٢٠٦).

[٢] السابق، ج١، ص٢١٢.

[٣] السابق، ج١، ص١٩٩، ٢٠٦.

[٤] في حديث النبي «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبيٍّ بن كعب» (الإتقان، ج١، ١٩٩). وفي رأي أنس بن مالك جمع القرآنَ على عهد الرسول أربعةٌ من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد (السابق، ص٢٠٠). وكان المشهورون بالقراء من

والإجازة من الشيخ ليست شرطًا للقراءة، وليس أخذ المال شرطًا في إجازة الشيخ.

والتعليم على ثلاثة أوجه: حسبة دون عوض وهو عمل الأنبياء وأجره في الآخرة؛ وبالأجر وهو مختلَف عليه، والأرجح جوازه؛ والتعليم بغير شرط وهو الأفضل، وهو جائز اجتماعيًّا. والقراءة كرامة من الله للبشر وليس للملائكة الذين يحبون سماع القرآن.

ويمكن السؤال عن القراءات وتدوين الأسئلة، ويمكن حفظ كتاب كامل لمعرفة اختلاف القراءات.

وهو علمٌ نقلي وليس علمًا عقليًّا، نقلي في اللغة، ونقلي في الإسناد.[٥] هو علمٌ نقليٌّ خالص يعتمد على الروايات والأسانيد، وإن حضر القياس فحضوره في قبل في اللغة.[٦] هو علمٌ نقلي وليس علمًا عقليًّا، نقلي في اللغة، ونقلي في الإسناد. وإثبات القراءة بالرواية دور لأن الرواية قراءة، والقراءة رواية. وعلوم القرآن علومٌ دفاعية مثل علم الكلام ضد المبطلين والمشكِّكين والمحرِّفين للنص القرآني.[٧]

ويُحمَل القرآن حفظًا، والحفظ فرض كفاية على الأمة، وأوجه حمله مثل أوجه حمل الحديث. ومناهج النقل الشفاهي السماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه، والسماع عليه بقراءة غيره، والمناولة والإجازة، والمكاتبة، والوصية، والإعلام والوجادة. القراءة على الشيخ هي المستعملة سلفًا وخلفًا. والسماع من لفظ الشيخ جائز لأن القراء أخذوه عن الصحابة وليس عن النبي مباشرة، وقد عُرضت على النبي القراءة مرةً كل عام. وكيفيات القراءة ثلاث: التحقيق وهو إعطاء كل حرف حقه، والحدر وهو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها، والثالثة التدوير وهو التوسط بين المقامين من التخفف والحدر.[٨] ويُستحبُّ الترتيل، التحقيق للرياضة والتعليم والتمرين، والترتيل للتدبر والتفكير والاستنباط؛ فكل تحقيق ترتيل وليس كل ترتيل تحقيقًا.

الصحابة سبعة: عثمان، علي، أُبي، زيد بن ثابت، ابن مسعود، أبو الدرداء، أبو موسى الأشعري (السابق، ص٢٠٤).

[٥] «وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل. وإذا ثبتت الرواية لم يردَّها قياس عربية ولا حشو لغة لأن القراءة متَّبعة يلزم قبولها والمصير إليها» (السابق، ج١، ٢١١).

[٦] الداني: جامع البيان، ص٣٤٨.

[٧] السابق، ص١٥–١٦.

[٨] الإتقان، ج١، ٢٧٩–٢٩١.

المهم فهمه وتدبره.[٩] حتى لا تنطبق على الحافظ الصورة القرآنية «كالحمار يحمل أسفارًا». فالقرآن ليس صوتًا بل معنًى. ويقتبس من القرآن في الشعر أو النثر. فالتجربة القرآنية والتجربة الشعرية واحدة مثل التشابه بين التجربة الصوفية والتجربة الشعرية.[١٠] والاقتباس؛ منه المقبول ومنه المباح ومنه المردود؛ المقبول في الخطب والمواعظ والعهود، والمباح في القول والرسائل والقصص، والمردود ما نسبه الله إلى نفسه أو يكون السياق هزوًا.[١١] ولا تدخل أمثلة القرآن في الشعر.

(٢) التأليف في علم القراءات

بدأ التأليف في علم القراءات مبكرًا، واستمر كصناعة مثل باقي العلوم متأخرًا حتى تحوَّل إلى كتبٍ مقرَّرة في الكليات والمعاهد الأزهرية.[١٢] وكثرة التأليف فيه تدل على الاختلافات في قراءة النص. ويختلف التأليف كميًّا من جزءٍ واحد إلى أربعة أجزاء.[١٣] وتتشابه العناوين.

وكثرة التأليف في علم القراءات ظاهرة تسترعي الانتباه؛ مما يدل على أهمية ضبط قراءة النص شفاهيًّا قبل تدوينه[١٤] له علماؤه من أهل العناية أي أهل الاختصاص والتأليف في أدق التفصيلات.

وكلها قراءاتٌ واقعة طبقًا للهجات المدن والأمصار. ولكل قارئ أو مجموعة من القراء مدينته التي ينتسب إليها؛ بحيث تحولت إلى نموذج للقراءة مثل مكة والمدينة والكوفة والبصرة، أو مصر من الأمصار مثل الحجاز والشام والعراق.[١٥] بل إنه يمكن تأسيس علم القراءات ولهجات الأمصار.[١٦] ويرتبط بعلم التفسير؛ فبناء على تعدد القراءات تختلف التفاسير. وهي أيضًا قراءاتٌ فردية ترتبط بإبداعات القراء وإحساسهم بموسيقى القرآن مثل موسيقى الشعر. فهي أدخل في الفن وإن كان أصلها في علم اللغة وفن التجويد. ومشاهير القراء مثل مشاهير المطربين لهم جماهيرهم، وأجرهم مثلهم. ويرتبط علم القراءات بالجماهير والاحتفالات والمآتم ومهارات القراء وأسعارهم في إحياء الليالي.

وقد تجاوز التأليف في علم القراءات التأليفَ في علوم القرآن ذاتها حتى وكأنه قد أصبح مستقلًّا ومتضخِّمًا عن العلم الأم مثل المقدمات النظرية في علم أصول الدين خاصة

---

[٩] ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.

[١٠] من الفناء إلى البقاء، ج١، الوعي الموضوعي.

مبحث الجوهر والأعراض وتضخمها على مباحث العقائد ذاتها ونظرية الذات والصفات والأسماء والأفعال.[17]

---

[11] مثل:

أوحى إلى عشاقه طرفه	هيهات هيهات لما توعدون
وردفه ينطق من خلفه	لمثل هذا فليعمل العاملون

وأيضًا:

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترفْ	ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته	إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وأيضًا:

الملك لله الذي عنت الوجو	هُ له، وذلَّت عنده الأربابُ
متفرد بالملك والسلطان قد	خسر الذين تجاذبوه وخابوا
دعهم وزعم الملك يوم غرورهم	فسيعلمون غدًا من الكذابُ

وأيضًا:

سل الله من فضله واتقه	فإن التقى خير ما تكتسبُ
ومن يتقِ الله يصنع له	ويرزقه من حيث لا يحتسب

وأيضًا:

مجاز حقيقتها فاعبروا	ولا تعمروا، هونوها تهن
وما حُسن بيت له زخرف	تراه إذا زلزلت لم يكن
فأدخلني بيتًا أحرج من التابوت	وأوهى من بيت العنكبوت

الإتقان، ج١، ٢١٦-٢١٧.

[12] أولها أبو عبد الله الحسين أحمد بن خالويه: الحُجة في القراءات السبع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ.

وقد استقلَّ علم القراءات عن علوم القرآن، وأصبح مستقلًّا مع علم التجويد. له غايةٌ عملية هي كيفية قراءة القرآن في المحافل العامة. وبدأ التأليف فيه مبكرًا للغاية منذ القرن الثاني، واستمر حتى الثاني عشر وحتى اليوم، وهو من أهم العلوم التي تدرس في المعاهد والكليات الأزهرية لتخريج مقرئين ومنشدين للمناسبات الدينية والمآتم وأجهزة الإعلام وقنوات الفضاء وإذاعات القرآن الكريم.

ويمكن تصنيف التأليف في علوم القرآن طبقًا لموضوعاتها إلى خمسة أقسام: الأول متون المؤلفات العامة في علم القراءات، والثاني الشروح والملخَّصات عليها، والثالث متون القراءات، والرابع اختلاف القراءات، والخامس علم الأصوات.

(أ) المؤلفات العامة

(١) «التذكرة في القراءات» لابن غلبون (٣٩٩هـ)

وهو نموذج لجمع القراءات في أدق رواياتها واختلافاتها دون تنظير يذكر إلا في أقل الحدود.[18] وهو مؤلَّفٌ ضخم الحجم، يقوم على أكبر قدرٍ ممكن من جمع اختلافات القراءات وأقل قدرٍ ممكن من التنظير. وقد كان من الممكن تجميع الظواهر الصوتية

---

[13] أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي: الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر مجاهد (٤ أجزاء)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

[14] يكفي معرفة مؤلفات ابن مهران وحده وهي: الغاية في القراءات العشر، المبسوط في القراءات العشر، القراءات العشر، القراءات السبع، مذهب حمزة في الهمز، الاستعاذة بحججها، الشامل في القراءات، طبقات القراء، كتاب الحداث، آيات القرآن، غرائب القرآن، الوقف والابتداء، قراءة أبي عمرو، وقوف القرآن، الانفراد، شرح المعجم، شرح التحقيق، قراءة ابن مسعود، رءوس الآيات، اختلاف السور، ابن مهران: «الغاية في القراءات العشر»، ص٥-٦.

[15] السابق، ص٤.

[16] وهو علم اللسانيات طبقًا للمناطق الجغرافية Geo-linguistics.

[17] من العقيدة إلى الثورة ج١، المقدمات النظرية، الفصل الرابع، نظرية الوجود، ثالثًا: فينومينولوجيا الوجود «الأعراض»، ص٤٨٩–٥٤٤، رابعًا: أنطولوجيا الوجود «الجواهر»، ص٥٤٤–٦٣٦.

[18] الشيخ أبو الحسن طاهر بن عبد المنعم بن غلبون، التذكرة في القراءات، دار الكتب العلمية، الناشر دار ابن خلدون، الإسكندرية، التوزيع دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

المتشابهة في الإدغام والحذف في أصولٍ نظريةٍ عامة، إلا أن جمع أكبر قدرٍ ممكن من القراءات واختلافاتها كان هو الهمَّ الأكبر. وتناثرت الأصول النظرية في سورة البقرة أو من خلال عرض اختلافات القراءة عرضًا طوليًّا، سورةً سورة، وآيةً آية.[19] وتوضع البسملة والاستعاذة من الأصول وهي ليست كذلك.[20] وتغلب الرواية على الدراية. البداية بروايات القراء وكما هو الحال في علم الحديث.[21] كلها أسماء أعلام مع أن العلم لا شخصي. وهناك سرد لاختلافات الفروع دون ضمها في أصول، للجزئيات دون الكليات. هي «أزهرية» صرفة و«تاريخية» خالصة. ويمكن جمعها من أجل إرساء قواعدَ نظرية في الأصوات أو اللهجات بدلًا من تكرارها في كل سورة، ولا يوجد أي تعليل لها. لذلك جاء اسم الكتاب مؤشرًا على ذلك «التذكرة» وربما اسم المؤلف أيضًا «ابن غلبون». والغاية من ذلك كله ضبط النقل الشفاهي للنص وليس تحليله النظري. ويخلو من الأدلة النقلية من الحديث أو الشعر لأنه لا يستدل ولا يبرهن. وتظهر بعض الأصول النظرية متناثرة خلال عرض الاختلافات سورةً سورة وآيةً آية مثل باب الإدغام، وكذلك بعض موضوعات الإحالة والحد.[22]

ويرصد الكتاب الاختلافات في القراءات كما هو الحال في علم الخلافيات في الفقه أكثر من الاتفاق؛ لذلك امتلأ بالسرد دون التنظير بالتفريق بين المختلفات وليس بالجمع بين المتشابهات. ويصل الأمر إلى الاختلاف المضاعف بين الروايات في القراءات، وبين القراءات للنص، والاختلاف حول كل حرف ولفظ، والروايات المختلفة حول القراءات المتعددة، والاختلاف في أصول القراءات للحروف. وهناك مذاهب في الحروف قد انعكست في اختلافات القراءات.[23] والمذهب هو رأي النحو أو القارئ، وتعدد المذاهب بتعدد القراء.

---

[19] الأصول النظرية في المقدمة مثل: الإدغام والإشمام، هاء الكناية عن الواحد المذكر، الميم، المد والقصر، الهمزة، قد، تاء التأنيث، الباء عن الفاء، لام هل وبل، الغنة، الفتح والإمالة، الراء المفتوحة، الوقوف، التفخيم. والأصول النظرية الأخرى عبر السور مثل: ياءات الإضافة، الياءات المحذوفة، اجتماع الاستفهامَين، الوقف على أسماءٍ منقوصةٍ نكرة.

[20] ابن غلبون، التذكرة في القراءات، ص٢٠–٢٢.

[21] السابق، ص٩–١٩.

[22] السابق، ص١٢٥–١٢٦، ١٣١–١٣٥، ١٣٨–١٦٠.

[23] السابق، ص٩٧، ١٠٠، ١٠٥.

وقد انتهت هذه المادة بنهاية عصرها بعد أن استقرت القراءات وأصبحت متداولةً ومستقرة، ولم يبقَ منها إلا فن التجويد وبراعة القراء في جذب انتباه السامعين، يثيرها المستشرقون وكأنهم اكتشفوا ما لا يعرفه القدماء، وادعاء وجود مخطوطاتٍ جديدةٍ خاضعة لعلم النقد التاريخي الحديث الذي لم يعرفه القدماء. والهدف التشكيك في الصحة التاريخية للقرآن وليس العلم البريء؛ من أجل زعزعة العقائد وجعل القرآن شبيهًا بالكتب المقدسة الأخرى، التوراة والإنجيل والزبور، وما وقع فيها من تبديل وتغيير وتحريف.

(٢) «المقدمة في أصول القراءات» لابن الطحان (٥٦١هـ)

ولها موضعٌ فريد. إذ إنها محاولةٌ خالصة للتنظير دون أي اعتماد على أدلةٍ نقلية من القرآن أو الحديث أو الشعر أو كلام العرب.[٢٤] هي أقرب إلى علم الأصوات الخالص، يدور حول عشرين أصلًا بالإضافة إلى الإعراب عن الحركات والسكون.[٢٥] وتستنبط من اختلاف القراءات المتعاقبة على أنواع الروايات، يحققها الإقراء، ويحكمها الأداء. ومنها ما ليس أصلًا في القراءة مثل البسملة والتسمية. ويمكن ضم أصلَين معًا على التخفيف والتثقيل، والتفخيم والتدقيق.

(٣) «إرشاد المبتدي وتذكرة المنتهي» للواسطي القلانسي (٥٢١هـ)

ويتبع نفس القسمة الثلاثية التقليدية لعلم القراءات:[٢٦] الأول القراء والأسانيد العشرة.[٢٧] والثاني المذاهب اللغوية.[٢٨] والثالث التطبيق الطولي.[٢٩] وبين الثاني والثالث التسمية والفاتحة.[٣٠] وعلى غير العادة أكبرها الثالث ثم الأول، وأصغرها الثاني.[٣١] التنظير لحساب

---

[٢٤] الإمام الشيخ أبو الإصبع عبد العزيز بن علي بن الطحان الإشبيلي، المقدمة في أصول القراءات، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ، ص١٢٧–١٤٢.

[٢٥] وهي في العد ثلاثة وثلاثون: البسملة، التسمية، المد، اللين، المط، القصر، الاعتبار، التمكين، الإشباع، الإدغام، الإظهار، البيان، الإخفاء، القلب، التسهيل، التخفيف، التثقيل، التتميم، التشديد، النقل، التحقق، الفتح، الثغر، الإرسال، الإحالة، البطح، الاجتماع، التغليظ، التفخيم، التدقيق، الرَّوم، الإشمام، الاختلاس (السابق، ص١٣٢).

الرصد. والعنوان دال على ذلك «إرشاد المبتدي وتذكرة المنتهي» أي أنه كتابٌ تعليمي للتلميذ ومجرد مذكرة للأستاذ، يغيب منه الحديث والشعر، وشروح المحقق تعالمية طويلة، والفهارس العامة مجرد رصد لأسماء أعلام وأسانيد لا تتكرر ولا دلالة لها، والمراجع في النهاية أيضًا يغلب عليها التعالم لأنها لم يُعتمَد عليها في التحليل والتعليل والتنظير.

(ب) الشروح والملخصات

(١) «إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع» للشاطبي (٥٩٠هـ)

وهو غير الشاطبي الغرناطي الأندلسي الشهير صاحب «الموافقات» في علم أصول الفقه (٧٩١هـ)؛ لأبي شامة الدمشقي (٦٦٥هـ). ومثل باقي العلوم العقلية النقلية العربية، الكلام والفلسفة وأصول الفقه والتصوف، ظهرت شروح المتون مثل شرح «الشاطبية». فالمتن من القرن السادس، والشرح من القرن السابع. وكلاهما من المغرب.[٣٢] ويتبع التسمية الثلاثية التقليدية، الأول القراء والأسانيد.[٣٣] والثاني المذاهب اللغوية.[٣٤] والثالث

[٢٦] الإمام الحافظ أبو العز محمد بن الحسين بن بندار الواسطي القلانسي، إرشاد المبتدي وتذكرة المنتهي، تحقيق د. عثمان محمود غزال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ.

[٢٧] السابق، ص٤٣–١٠٨.

[٢٨] وهي: الإدغام والإظهار، والهمزة، الساكن والمتحرك، الوقف والابتداء، المد والقصر، الإمالة (السابق، ص١٠٩–١٣٠).

[٢٩] السابق، ص١٣٣–٣٥٣.

[٣٠] السابق، ص١٣١-١٣٢.

[٣١] الأول (٦٣)، الثاني (٢٠)، الثالث (٢٢٣).

[٣٢] الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة الدمشقي: إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق وتقديم وضبط إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

[٣٣] بيان من نقل عنهم شيء من وجوه القراءات من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم أسماء القراءات بالأمصار الخمسة، تمييز ما يُعتمد عليه من القراءات، القراءات السبع، فضائل القرآن وقراءته، القراء السبعة ورواتهم وأخبارهم، الرموز التي يشير بها الناظم إلى القراء السبعة ورواتهم، اصطلاح الناظم في التعبير عن أوجه الخلاف (السابق، ص٣–٦٠).

[٣٤] الإدغام والإظهار، الكناية، المد والقصر، الهمزة، السكون والتنوين، الوقف والبداية، الياءات، الخط (السابق، ص٧٦–٣١٨).

الشرح الطولي.[٣٥] أكبرها الثالث كالعادة ثم الثاني، وأصغرها الأول.[٣٦] وبين الأول والثاني الاستعاذة والبسملة والفاتحة.[٣٧] وفي النهاية التكبير ومخارج الحروف وصفاتها.[٣٨] يعتمد على الحديث والشعر، والشعر أكثر. ويعتمد الشارح على شعره الخاص بالإضافة إلى شعر الآخرين، والأحاديث بها الخيال الخلاق الكثير.[٣٩]

(٢) «سراج القارئ المبتدي وتذكر المقرئ المنتهي» لابن القاصح العذري البغدادي (٨٠١هـ)[٤٠]

المتن أيضًا من القرن السادس، والشرح من السابع. ويستمر شرح نفس منظومة «حرز الأماني ووجه التهاني» للشاطبي. والشرح نوعٌ أدبي بين القصر والطول. تحل الألفاظ، وتستخرج القراءات بعباراتٍ سهلة دون الدخول في التعاليل المطوَّلة مثل كتب إعراب القرآن وتفسيره. وله مصادره في شروحٍ سابقة.[٤١] ويتضمن الشرح ترجمة حياة الناظم وشرح الأعلام وسيرهم الذاتية.[٤٢] ويدل العنوان أيضًا على أنه مذكرة للطالب والأستاذ. ويقسم الشرح تحت كلماتٍ شارحة مثل «توضيح» وهي الأغلب و«تنبيه» و«تفريع».[٤٣] ويعتمد الشرح على الحديث أكثر من الشعر.[٤٤] ومن حيث الموضوعات لا يقوم الشرح على القسمة الثلاثية التقليدية لعلم القراءات، الأول أسماء القراء والرواة والأسانيد، والثاني

---

[٣٥] فرش الحروف (السابق، ص٣١٩–٧٢٩).

[٣٦] الأول (٣٦)، الثاني (٢٨٠)، الثالث (٤٢٢).

[٣٧] السابق، ص٦١–٧٥.

[٣٨] السابق، ص٧٣٠–٧٦٠.

[٣٩] الحديث (١٨)، الشعر (٨٦).

[٤٠] الإمام أبو القاسم علي بن عثمان بن محمد بن أحمد بن الحسن المعروف بابن القاصح العذري البغدادي: سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي، ضبطه وصححه وخرَّج آياته محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ.

[٤١] أول من شرحها علم الدين السخاوي من ناظمها مباشرة وتابعه الشُّراح مثل الفاسي وأبي شامة وابن جبارة والجعبري وغيرهم (السابق، ص٥).

[٤٢] السابق، ص٦.

[٤٣] توضيح (١٧)، تنبيه (٢)، تفريع (١).

[٤٤] الحديث (٩)، الشعر (٢).

الموضوعات والأصول اللغوية،[٤٥] والثالث فرش الحروف.[٤٦] بل يعتمد على قسمَين فقط الثاني والثالث مع مقدمة عن الاستعاذة والبسملة والفاتحة.[٤٧] والثاني أكبر من الأول[٤٨] وينتهي بالتكبير ومخارج الحروف وصفاتها.[٤٩]

(٣) «المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية» للهروي القاري (١٠١٤هـ)[٥٠]

وتأتي مرحلة الشرح أيضًا في علم القراءات أسوة بباقي العلوم، شرح النظم نثرًا. والمتن لابن الجزري (٨٣٣هـ).[٥١] وهو مجرد عرض لمادة المتن مع ضرب الأمثلة من القرآن، وأحيانًا شرح الشعر بالشعر.[٥٢] والمتن نفسه مقسَّم إلى موضوعات، ولا يخلو من بعض الفوائد. والمتن والشرح في الأصوات دون أسماء وأسانيد، ودون فرش الحروف.[٥٣] ومقسَّمة إلى أبواب.

(٤) «شرح قواعد البقري في أصول القراء السبعة» للجبوري (١١٣٨هـ)[٥٤]

وهو شرح كما جرت عليه عادة المتأخرين بالنسبة لمتون المفسرين.[٥٥] والمحقق حاصل على إجازة في الإقراء أي أن القراءة أصبحت علمًا مستقلًّا وتخصصًا تعطى فيه الدرجات العلمية. وهو غير ما يقصده المحدثون بالقراءة أي التأويل، والانقراء أي القابلية للتأويل. وكان التأليف بناء على سؤال.[٥٦] يركز على القواعد والرواية للقراء السبعة، ويدخل علم

---

[٤٥] الإدغام والإظهار، الهاء، المد والقصر، الهمزة، السكون والتنوين، الإمالة، الوقف والابتداء، الباء (سراج القارئ، ص٤٧–١٧٠).

[٤٦] فرش الحروف (السابق، ص١٧١–٣٣٣).

[٤٧] السابق، ص٣٥–٤٠.

[٤٨] الأول (١٣٠)، الثاني (١٦٣).

[٤٩] سراج القارئ، ص٣٣٤–٣٤٦.

[٥٠] الملا علي بن سلطان الهروي القاري، المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية، تحقيق محمود عبد السميع الشافعي الحفيان، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م/١٤٢٤هـ.

[٥١] «إن المقدمة ... ما رأيت لها شرحًا كاملًا يبين بيانًا شاملًا يكون لتحقيق الحقائق كافلًا فسنح ببالي أن أضع عليها شرحًا معتدلًا، لا مختصرًا مخلًّا ولا مطولًا مملًّا ...» (السابق، ص٩).

[٥٢] السابق، ص٢٥.

الأصوات داخل كل قارئ.[٥٧] فالقارئ هو وحدة التحليل وليس علم الأصوات، كل قارئ صاحب قواعد وراوٍ، والشرح لفظًا لفظًا وعبارةً عبارة على عادة الشراح، ويعتمد على الشعر؛ فالقرآن والشعر صنوان، كلاهما يخضعان لعلم الأصوات.[٥٨]

(٥) «الفتح الرحماني شرح كنز المعاني بتحرير حرز الأماني في القراءات» للجمزوري (ت بعد ١١٩٨هـ)[٥٩]

وهو شرح للنظم بالنثر. والمتن هو «حرز الأماني» الشهير بالشاطبية. ويخلو القسم الأول من أسماء القراء وأسانيدهم. ولا يبقى إلا المذاهب الصوتية ثم فرش الحروف.[٦٠] والمذاهب الصوتية متكررة كالعادة.[٦١]

(٦) «مختصر بلوغ الأمنية» للضباع[٦٢]

وما زال الأحياء يشرحون الأموات؛ فهذا المختصر شرح على نظم تحرير مسائل الشاطبية للشيخ حسن خلف الحسيني المقرئ، فالمقرئ قارئ وعالم، مؤدٍّ ومنظر، مغنٍّ وملحِّن، هو شرح للنظم، والمتن نمطي في قسمته الثلاثية إلى الاستعاذة والبسملة، ثم علم الأصوات، ثم فرش الحروف.[٦٣] ولا جديد في المذاهب الصوتية بالنسبة للقدماء؛ فقد أصبح التأليف تكرارًا وإعادة.[٦٤]

---

[٥٣] وهي مخارج الحروف وصفاتها، التجديد والتدقيق واستعمال الحروف، الراءات، الضاد والظاء، التحذيرات، الميم والنون المشددَين والميم الساكنة، السكون والتنوين، المدَّات، الوقوف، المقطوع والموصول وحكم التاء، همزة الوصل (السابق، ص١٥٧–١٦٣).

[٥٤] الشيخ القارئ سلطان بن ناصر الجبوري، شرح قواعد البقري في أصول القراء السبعة، تحقيق هناء الحمصي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٥، ١٢٧.

[٥٥] المتن للشيخ محمد بن قاسم البقري نافع الشناوي (١١١هـ)، وشهرته «متن البقرية».

[٥٦] السابق، ص١٨.

[٥٧] وهم: أبو عمرو، ابن كثير، نافع، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي.

[٥٨] السابق، ص٤١، ٦٩–٧٠.

[٥٩] سليمان بن حسين بن محمد الجمزوري: الفتح الرحماني شرح كنز المعاني بتحرير حرز الأماني في القراءات، تحقيق ودراسة شريف أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٥٢هـ/٢٠٠٢م.

[٦٠] المذاهب الصوتية، ص٢٤–١٢٥؛ فرش الحروف، ص١٢٦–١٦٧.

(٧) «شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن» لمؤلِّفٍ مجهول

وهو في علم القراءات، شكله الأدبي شرح النظم، ويشرح بالقرآن، فالشعر صياغة للقرآن، والقرآن صياغة للشعر، كلاهما شكلان أدبيان لتجربةٍ حياتيةٍ واحدة.[٦٥]

(٣) ماذا يعني نزول القرآن على سبعة أحرف؟

(أ) التأليف في الموضوع

نشأ علم القراءات بناءً على حديث «أُنزل القرآن على سبعة أحرف.» في صيغته المركَّزة، مثل تدوين علم الكلام والفِرَق بناءً على حديث الفرقة الناجية. وكثرت التآليف في الموضوع، أهمها:

(١) «الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه (٣٧٠هـ)[٦٦]

وترصد اختلاف القراءات، سورةً سورة، وآيةً آية. ويظهر ارتباط القراءات بالنحو والإعراب؛ فالإعراب جزء من القراءات، والقراءات جزء من التفسير لأثرها في المعنى؛ فالتفسير شرحٌ كلي للقراءة بعد ضبطها لغويًّا. وتعني «الحجة» الدليل والبرهان على

---

[٦١] الإدغام الكبير، هاء الكناية، المد والقصر، الهمزة، تاء التأنيث، لام هل وبل، الفتح والإمالة، اللامات، الوقف والابتداء، ياءات الإضافة، ياءات الزوائد ... إلخ.

[٦٢] فضيلة الشيخ علي محمد الضباع شيخ المقارئ المصرية، مختصر بلوغ الأمنية، ضبطه وصححه وخرج آياته محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

[٦٣] الاستعاذة والبسملة، ص٥–٦؛ المذاهب الصوتية، ص٧–٣٩؛ فرش الحروف ص٤٠–٤٩؛ التكبير، ص٥٠.

[٦٤] وهي: الإدغام الكبير، وهاء الكتابة، المد والقصر، الهمزة، السكون والحركة، الإدغام الصغير، الإمالة، الراءات واللامات، الوقف والابتداء، ياءات الإضافة، ياءات الزوائد ... إلخ.

[٦٥] أربعة كتب في علوم القرآن، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٣٨م، ص١١–٢١.

[٦٦] أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تحقيق أحمد فريد المزيدي، قدم له الدكتور فتحي حجازي، جامعة الأزهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ.

صحة إحدى القراءات دون الأخرى. ويتم الاعتماد على الشعر ثم الحديث ثم أقوال السابقين وأقوال الصحابة.[٦٧] وقد يكون الشعر مجهول المؤلف أو معروف المؤلف؛ فالمهم الشعر وليس الشاعر. وتوجد مقدمةٌ صغيرةٌ نظرية لفن القراءة.[٦٨] فبعد القراءات السبع في الأمصار الخمسة اتضح أن كل قراءة تتبع مذهبها في اللغة العربية ثم القياس عليه بطريقةٍ مقبولة فاتفقت الدراية والرواية والاختيار مع الاتباع. فاختلاف القراءات راجع إلى اختلاف مذاهب اللغة. والمحك في النهاية القراءة المشهورة وليست الشاذة. وقد توخى الكتاب الاقتصار والاقتداء بالقدماء والنقل عنهم بألفاظٍ بَيِّنة ومقالاتٍ واضحة.

(٢) «الحجة للقراء السبعة، أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد» للفارسي (٣٧٧هـ)[٦٩]

والحجة، عنوان تكرَّر في كتب القراءات. ويخلو الكتاب من أية مقدمةٍ نظرية، ويعطي القراءات سورةً سورة، وآيةً آية، من أول «الفاتحة» حتى «الناس»، ترصد كل القراءات الممكنة وتعطي الحجة على صحة إحداها، سورة سورة، وآية آية. وهو نفس العنوان السابق تقريبًا لابن خالويه. كما يخلو من أي منطق للقراءة أو نتائج تتعلق بالفكر. لا يوجد في المقدمة إلا الدعوة إلى السلطان.[٧٠] وهو إكمال لمحاولةٍ أخرى سابقة.[٧١] يغرق في التفصيلات، وإعراب الآيات من أجل حسن قراءتها، وأحيانًا يتخلل عناوين السور بعض الموضوعات النظرية مثل «الاختلاف في إمالة الألف التي تليها الراء».[٧٢] وهو مجرد رصد دون عرضٍ لمذاهب الأصوات ودون تجميع لموضوعاتٍ متناثرة بمناسبة قراءةٍ معينة.[٧٣]

---

[٦٧] الشعر (٧٠)، الحديث (٣).

[٦٨] الحجة في القراءات السبع، ص١٧–١٩.

[٦٩] أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد، وضع حواشيه وعلق عليه كامل مصطفى الهنداوي (٤ مجلدات)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

[٧٠] «أطال الله بقاء مولانا الملك السيد الأجلِّ المنصور، ولي النعم، عضد الدولة، وتاج الملة، وأدام له العز والبسطة والسلطان، وأيده بالتوفيق والتسديد، وعضده بالنصر والتمكين» (السابق، ج١، ٢٩).

[٧١] السابق، ج١، ص٢٩–٣٠.

[٧٢] السابق، ج١، ٢٤٥–٢٥٧.

[٧٣] السابق، ج٤، ٢١٤–٣٣٥، ٣٣٦–٣٦٤.

يهتم بالاختلافات في قراءة كل سورة وتذكر في أول كل سورة إلا فيما ندر. والفهارس التحليلية في نهاية الجزء الرابع مادةٌ خصبة لاستخراج دلالاتها مثل القراءات مرتبةً حسب السور والآيات، والقراءات مرتبة ألفبائيًّا حسب اللفظ. يعتمد على الحديث وآثار الصحابة والتابعين والأشعار والأرجاز والأمثال والأعلام.[٧٤]

(٣) «التبصرة في القراءات السبع» للقرطبي (٤٣٧هـ)[٧٥]

وهو كتابٌ نموذجي في علم القراءات. يبدأ بأسماء القراء وأسانيدهم ثم ذكر الاختلافات في الفاتحة والبقرة، والمذاهب الصوتية بمناسبة سورة البقرة ثم الحروف ابتداءً من البقرة، ونهاية بالتكبير.[٧٦] وفي المقدمة النظرية الصغيرة يظهر القصد من الكتاب وهو كشف وجوه القراءات واختيار العلماء، ومن قرأ بكل حرف من الصدر الأول، وأقاويل النحويين وأهل اللغة، وكان يمكن أن يسمى أيضًا «الكشف عن وجوه القراءات».[٧٧] وتتناثر المذاهب الصوتية عند القراء.[٧٨] ويبرز القياس في علم الأصوات على نحوٍ لا شعوري.[٧٩] ويتم تحديد السور مكيةً أو مدنيةً عرضًا وعدد آياتها. كما تحدد القراءات في مدارس تنتمي إلى المدن مثل الكوفة والبصرة وبغداد حيث عاش القراء الأوائل. وقد ساهم علماء الأندلس في هذا الفن بالرغم من بعد المكان.

(٤) «جامع البيان في القراءات السبع المشهورة» للداني (٤٤٤هـ)

ويقسم علوم القرآن نفس القسمة الثلاثية النمطية؛[٨٠] الأول القراءة والأسانيد والروايات، والثاني المقدمة النظرية في علم الأصوات،[٨١] والثالث التطبيقات العملية،[٨٢] أكبرها الثالث

[٧٤] الأحاديث القولية (٥٨)، الفعلية (١١)، آثار الصحابة والتابعين (٤)، القوافي (٧٠٠)، الأرجاز (٢٨٠)، أنصاف الأبيات (٣٣)، الأمثال (١٩).

[٧٥] الإمام أبو محمد القيسي القيرواني القرطبي، التبصرة في القراءات السبع، اعتنى بتصحيحه ومراجعته جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا، (د.ت).

[٧٦] الإسناد في القراءة، ص٧–١٣؛ أسماء القراء وأسانيدهم المتصلة حتى النبي، ص١٧–٥٨؛ اختلاف القراءات في الفاتحة والبقرة، ص٥٨–٦٣؛ المذاهب الصوتية بمناسبة البقرة، ص٦٣–١٥٣؛ الحروف (السور) ابتداءً من البقرة، ص١٥٣–٢٩٢؛ التكبير ص٣٩٢–٣٩٤.

[٧٧] السابق، ص١٥–١٦.

كالعادة ثم الثاني، وأصغرها الأول.[83] وما بين الأول والثاني تعرض قضية الاستعاذة والتسمية،[84] وهي مشكلةٌ أصولية؛ هل البسملة جزء من القرآن أم أنها فاتحة كل سورة للفصل بين السورتَين؟ وهل الفاتحة جزء من القرآن أم أنها مقدمة للقرآن كله؟ وفي النهاية يذكر موضوع التكبير عند قراءة بعض السور.[85] وقد تم التأليف بناءً على سؤال؛ مما يدل على أن التأليف بناء على حاجةٍ محلية من واقع البيئة.[86] وهو كتاب جامع للأصول والفروع، يورد الاختلافات في القراءات. يوضح الخفي، يختصر ويعلل، ولا يُكرِّر ولا يُطوِّل، يعتمد على نفسه، ومفيد للقارئ والطالب والناسخ والدارس.[87] الروايات

---

[78] مثل هاء الكناية عن المذكر، المد والقصر، اجتماع الهمزتَين، الوقف والابتداء، الرَّوم والإشمام، الإظهار والإدغام، السكون والتنوين، الفتح والإمالة ... إلخ.

[79] باب ما جرى في التسهيل على غير قياس (السابق، ص١٠٢–١٠٥).

[80] الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، جامع البيان في القراءات السبع المشهورة، تحقيق الحافظ المقري محمد صدوق الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م/١٤٢٦هـ.

[81] «باب في ذكر الأخبار الواردة بالحضِّ على اتباع الأئمة من السلف في القراءة والتمسك بما أداه الأئمة القراء عنهم منها» (جامع البيان ص٣٧–١٤٥)؛ «باب ذكر أسماء أئمة القراءة والناقلين عنهم وأنسابهم وكناهم ومواطنهم ووفاتهم ونكت من مناقبهم وأخبارهم» (السابق ص٤٣–١٤٥).

[82] القسم الثاني عن الأصول النظرية، جامع البيان ص١٥٤–٣٨٦.

[83] الأول (١٣٠)، الثاني (٢٤٢)، الثالث (٤١٣).

[84] «باب ذكر الاستعاذة ومذاهبهم فيها» (السابق، ص١٤٥–١٤٧). «باب ذكر مذاهبهم في التسمية والفصل بها بين السورتين» (السابق، ص١٤٧–١٥٤).

[85] «باب ذكر التكبير في قراءة ابن كثير وذكر الأخبار الواردة عن المكيين في ذلك» (السابق، ص٧٩٢–٧٩٩).

[86] «فإنكم سألتموني إسعافكم برسم كتاب في اختلاف قراءة الأئمة السبعة بالأمصار، محيط بأصولهم وفروعهم، مبين لمذاهبهم واختلافهم، جامع للمعمول عليه في روايتهم والمأخوذ به من طرقهم، ملخِّصٌ للظاهر الجلي، موضِحٌ للغامض الخفي، محتوٍ على الاختصار والتعليل، خالٍ من التكرار والتطويل، قائم بنفسه، مستغنٍ عن غيره، يُذكر المقرئ الثاقب، يُفهم المبتدئ الطالب، ويخفف على الناسخ، ويكون عونًا للدارس» (السابق، ص١٦).

[87] «وذكرتُ لكم الاختلاف بين أئمة القراءة في المواضع التي اختلفوا فيها من الأصول المطردة والحروف المتفرقة. وبينتُ اختلافهم بيانًا شافيًا، وشرحت مذاهبهم شرحًا كافيًا. وقربت تراجيحهم وعباراتهم، وميزت بين طرقهم ورواياتهم. وعرَّفت بالصحيح السائر، ونبَّهت على السقيم الدائر. وبالغت في تلخيص ذلك وتقريبه، واجتهدت في إيضاحه وتهذيبه. وأعطيته حظًّا وافرًا من عنايتي، ونصيبًا كاملًا من روايتي.

أربعة، والطرق مائة وستون، والاتفاق بين الأئمة أو بين الحرميَّين (نافع وابن كثير). ولكل قارئ مذهب، ولكل عالمٍ لغوى طريقة. فالمذاهب أفراد، والأفراد مذاهب، وليست أنساقًا تصورية أو أبنيةً نظرية. وتعتمد القراءات على قليل من الشعر والحديث باستثناء المقدمة النظرية عن نزول القرآن على سبعة أحرف.[88] والآن انتهى عصر الرواية وبدأ عصر الدراية، وانتهى عصر السند وبدأ عصر المتن، وانتهى علم الرجال وبدأ علم النقد الداخلي. ولا يهم رصد الاختلافات في القراءات سورةً سورة وآيةً آية، بل المهم تحليلها وبيان أثرها على فهم المعنى؛ فالقراءة وسيلة وليست غاية، والمؤلف على وعي بالمنهج الطولي، سورةً سورة وحرفًا حرفًا.[89] وقد عُرف المصريون بعلم القراءات وفن التجويد لدرجة أن المدرسة المصرية أصبحت هي المدرسة بالأصالة في كل العالم الإسلامي في كافة أرجائه في أفريقيا وآسيا، بل في أوروبا والأمريكيتين وأستراليا. وهناك مدارسُ أخرى في الشام والعراق والحجاز والمغرب العربي.[90] وقد انتهى علم القراءات المنقولة اليوم لصالح القراءات التداولية وإلا كانت القراءة تقعُّرًا وتعالمًا وتفاخرًا وادعاءً لمهارة القراء وفنونهم. ويُقرأ القرآن اليوم باللهجات المصرية والشامية والمغربية والحجازية والخليجية والتركية وبباقي اللهجات الأفريقية والآسيوية والأوروبية والأمريكية. بل وتقرأ داخل المصر الواحد طبقًا للهجات البدو والحضر، الصعيد أو بحري. ما أبدعه القدماء هو قيام علم القراءات على علم الأصول، وتقسيم الحروف حسب مخارجها من الحلق أو الشفاه أو الأنف أو اللسان.[91]

(٥) «كتاب التيسير في القراءات السبع» للداني (٤٤٤هـ)[92]

هو تلخيص لكتاب «جامع البيان» السابق. ويشتركان في نفس التبويب دون إضافةٍ جديدة.[93] وهي القسمة التقليدية الثلاثية للعلم؛ الأول القراء والرجال والأسانيد،[94] والثاني

وأفردت قراءة كل واحد من الأئمة برواية من أخذ عنه تلاوة، وأدى الحروف عنه حكاية دون رواية من نقلها سماعًا في الكتب، ورواية في المصحف؛ إذ الكتب والصحف غير محيطة بالحروف الجلية، ولا مؤدية عن الألفاظ الخفية، والتلاوة محيطة بذلك ومؤدية عنه» (السابق، ص ١٦).

[88] الشعر (٦)، الحديث (١٩).

[89] السابق، ص٣٨٧.

المذاهب والرجال والأصول النظرية،[95] وبين الأول والثاني الاستعاذة والتسمية،[96] والثالث التطبيق الطولي سورةً سورةً، وآيةً آية.[97] أكبرها كالعادة الثالث ثم الثاني وأصغرها الأول،[98] وفي النهاية التكبير عند ابن كثير.[99] صححه مستشرق لأن المستشرقين يعتنون بالجانب المادي للنص من أجل زعزعة الصحة التاريخية للحديث عن طريق الاختلافات في الروايات. وتبدأ معظم الفقرات بفعل «قرأ» أو باسم القارئ. فالقراءة مرتبطة بالقارئ، والموضوع بالذات.

(٦) «المفتاح في القراءات السبع» للقرطبي (٤٦١هـ)[100]

وهو استجابة لسؤال لوضع كتاب عن اختلافات القراءات السبع المشهورة بالمشرق، وقد سبق التأليف فيه.[101] وينقسم إلى قسمَين فقط المذاهب الصوتية وفرش الحروف دون

---

[90] جامع البيان، ص١٩٤.

[91] السابق، ص٢٧٤.

[92] الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، التيسير في القراءات السبع، عُني بتصحيحه أوتو يرتزل. طبعةٌ جديدة اعتمد في أصلها على الطبعة التي نشرتها جمعية المستشرقين الألمانية بمطبعة الدولة بإستامبول عام ١٩٣٠م. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م/١٤٢٦هـ. جامع البيان، (٧٨٥)، التيسير، (١٧٠).

[93] السابق، ص٧–٨.

[94] «ذكر أسماء القراء والناقلين عنهم وأنسابهم وبلدانهم وكُناهم وموتهم، ذكر الرجال، ذكر الإسناد الذي أدى إلى القراءة عن هؤلاء الأئمة من الطرق المرسومة عنهم رواية وتلاوة» (السابق، ص١٧–٢٥).

[95] مذاهب الإدغام والكناية والمد والتقصير والهمزة والفتح والإمالة والوقف واللامات والسكون (السابق، ص٢٨–٦١).

[96] السابق، ص٢٦–٢٧.

[97] فرش الحروف (السابق، ص٦٣–١٨٣).

[98] الأول (١٣)، الثاني (٣٤)، الثالث (١٢٤).

[99] السابق، ص١٨٤–١٨٥.

[100] الشيخ أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب القرطبي: المفتاح في القراءات السبع، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ.

[101] «سألتموني أن أملي عليكم كتابًا مختصرًا في ما اختلف فيه القراء السبعة المسمون بالمشهورين دون غيرهم من الأئمة العظام الذين قرأت بقراءاتهم في تحويلي بديار المشرق التي ذكرت بعضها في الكتاب

الأسانيد.[١٠٢] ويطول باب المذاهب الصوتية وإن ظل أصغر من الجزء التطبيقي؛ فرش الحروف.[١٠٣] وتفصل المذاهب الصوتية في أبواب وفصول.[١٠٤] ويطول باب الهمزة باعتباره أهم الأبواب، وتتعدد المذاهب الصوتية كما تتعدد المذاهب الفقهية والفرق الكلامية. وتحدد السور مكية أو مدنية في فرش الحروف. كما يذكر الاختلاف في أسماء السور. ولقد استقرت القراءة الآن، ولا داعي لفتح الموضوع من جديد. فعلم القراءات علمٌ تاريخيٌّ خالص ما زال يدرس في المعاهد والكليات الأزهرية. ويتخصص فيه الآسيويون والأفارقة الفخورون بمعرفة العربية من أصولها الأولى. فالأولوية للغة التداولية أو إذا أثرت اختلافات القراءات على فهم المعاني. والسؤال الآن هو القراءات الأوروبية بعد تحول كثير من الأوروبيين إلى الإسلام. وقد استقرت اللهجة المصرية في القراءات، وأصبحت من أشهر القراءات. يفتخر بتعليمها باقي الأقوام والشعوب حتى أصبح علم التجويد علمًا مصريًّا خالصًا، تتجلى فيه إبداعات المقرئين، وإظهار المعاني بالأصوات، فالقراءات أداءٌ مثل عازفي الموسيقى وعلاقتهم بالنوتة الموسيقية.[١٠٥] وقد يضاف إلى ذلك ملاحة الوجه وحسن الصوت؛ مما يجعل القارئ يتجاوز مشاهير المطربين.

(٧) «الكافي في القراءات السبع» لابن شريح (٤٧٦هـ)[١٠٦]

ويهدف إلى نفس ما تهدف إليه المؤلفات السابقة في علم القراءات، يصف الأربعة عشرة روايةً المشهورة عن القراءات السبع، يبين الأصول والفروع، ويحذف التطويل؛ ومن هنا تأتي التسمية «الكافي». يقدم المختلف على المتفق ليكون أسهل في الحفظ وأقرب إلى

«الوجيز»، وأن ألخِّص لكم أبوابه، وأقرِّب عليكم فصوله، وأوضح عبارته ليكون لكم مفتاحًا لحفظ كتاب «الوجيز» ...» (السابق، ص٩–١٠).

[١٠٢] «فإني رأيت ألا أذكر الأسانيد التي أوصلت إلينا هذه القراءات كراهة أن يطول بها المختصر؛ إذ هي مذكورة في غير هذا المختصر من كتبي» (السابق، ص١٠).

[١٠٣] مذاهب الأصوات، ص١٢–٥٥، فرش الحروف، ص٥٦–٢٣٠.

[١٠٤] أهمها: الإظهار والإدغام، الدال وتاء التأنيث ولام هل وبل، الحروف الساكنة والمتحركة، الهمزة، الاستفهام، الإمالة والتفخيم ... إلخ.

[١٠٥] الآن هناك أصواتٌ مصريةٌ شهيرة لها حضورها في كافة أرجاء العالم الإسلامي مثل: عبد الباسط عبد الصمد، شعيشع، المنشاوي.

الدرس، ويعتمد على تجربة المؤلف في القراءة وليس فقط على الرواية. كما يعتمد على أسانيده الخاصة طلبًا للاختصار وسهولة الحفظ.[١٠٧] ويتبع القسمة الثلاثية المشهورة لكتب علم القراءات: الأسانيد، والمذاهب الصوتية، وفرش الحروف.[١٠٨] وأكبرها كالعادة القسم الثالث التطبيقي، وتدرس المذاهب الصوتية بمناسبة سورة البقرة.[١٠٩] وهي نفس القسمة الثلاثية التقليدية؛ الأول القراء ورواياتهم وأسانيدهم وتتبع طرقهم،[١١٠] والثاني المذاهب وأصول القراءات،[١١١] والثالث التطبيق الطولي سورةً سورة وآيةً آية.[١١٢] وبين الأول والثاني الاستعاذة والبسملة والفاتحة.[١١٣] ويشترك الأندلسيون في علم القراءات عند المشارقة. وهو كتابٌ تعليمي كما يتضح من العنوان، ومقدمة المحقق تعليميةٌ شارحةٌ واضحة أشبه بمذكرات الطلاب. ويعقد جدولًا توضيحيًّا للأصول النظرية حول المد وأقسامه. ويغيب النظر والتعليل، ولا يعتمد على الشعر أو الحديث أو آراء السابقين.

[١٠٦] أبو عبد الله محمد بن شريح، الكافي في القراءات السبع، تحقيق وتعليق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا، ٢٠٠٤م. وطبعةٌ أخرى تحقيق محمود عبد السميع الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

[١٠٧] «فإني أذكر في هذا الكتاب الأربع عشرة روايةً المشهورة عن السبعة المشهورين، وجامع فيه أصولها، ومبين فروعها، بحذف التطويل، والقصد إلى الاختصار مع تمام المعاني ليكون كافيًا للعالِم وتذكرة، ومنتهًى للمتعلم وتبصرة، وسميته «الكافي». واعلم أني مقدم المتأخر من المختلف فيه لأضمَّه إلى نظيره ليكون ذلك أسهل للحافظ، وأقرب للدارس. ثم لا أذكره في موضعه اكتفاءً بذكره أولًا. وربما نبهت على ما أمكنني منه في مكانه ... واختصرت فيه إلى أقرب أسانيدي، وأرفعها طلبًا للاختصار، وليسهل على من أراد حفظها ...» (السابق، ص٥–٦).

[١٠٨] الأسانيد ص٧–١٦، المذاهب الصوتية ص١٧–٦٠، فرش الحروف ص٦١–٢٢٠.

[١٠٩] وأهمها: المد والقصر، الإدغام والإظهار، السكون والتنوين، الفتح والإمالة، الوقف والاستئناف، التفخيم والتضعيف ... إلخ.

[١١٠] أسماء القراء والرواة عنهم، اتصال قراءتي بهؤلاء الأئمة، اتصال قراءة الأئمة السبعة بالنبي (السابق، ص٢٨–٣٥).

[١١١] المد والقصر، الهمزتان، الإدغام والإظهار، السكون والتنوين، الفتح والإمالة، الوقف، اللامات والراءات (السابق، ص٣٩–٧٦).

[١١٢] فرش الحروف، السابق، ص٧٧–٢٣٦.

[١١٣] السابق، ص٣٥–٣٨.

(٨) «الإقناع في القراءات السبع» للأنصاري (٥٤٠هـ)[١١٤]

وهو كتابٌ نمطي في علوم القرآن، بين في المقدمة تفاضل العلم وتكامله. ويستأنف كتابَي «التبصرة» للقيسي و«التيسير» للقرشي.[١١٥] ويتبع القسمة الثلاثية الشهيرة في علم القراءات: القراء والأسانيد، المذاهب الصوتية، فرش الحروف.[١١٦] ولأول مرة يكون أكبرها الثاني؛ المذاهب الصوتية.[١١٧]

وينتهي بالتكبير.[١١٨] وتساعد الفهارس التفصيلية على اكتشاف بعض الدلالات الخاصة بالآيات أو الأحاديث النبوية والآثار والأشعار.[١١٩]

(٩) «المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر» للنشار (القرن التاسع الهجري)[١٢٠]

ويدل العنوان على تواتر القراءات السبع وتحررها من الشواذ. وكان التأليف استجابةً لمطلب.[١٢١] وقد اختلفت المذاهب الصوتية بين القراء.[١٢٢] ويخلو الكتاب من أي مقدمةٍ نظرية؛ لذلك لا يوجد إلا قسمٌ واحد؛ فرش الحروف سورةً سورة، ولا يتجاوز مجرد رصد لاختلافات القراء دون الاعتماد على الحديث أو الشعر.

(١٠) «غيث النفع في القراءات السبع» للصفاقسي[١٢٣]

وما زال التأليف في علم القراءات مستمرًّا من القدماء إلى المحدَثين، ومن الأموات إلى الأحياء، وكأن الموضوع ما زال مطروحًا ولم يصبح علمًا تاريخيًّا خالصًا، يبدأ بمقدمةٍ إنشائية عن علم القرآن اعتمادًا على القرآن والحديث في فضل تعلم القرآن وتعليمه. ألَّف فيه القدماء متونًا وشروحًا مشهورة مثل «الشاطبية». فقد تواترت القراءات عن النبي الذي أبلغ نزول القرآن على سبعة أحرف، سواء في صيغةٍ بسيطة أو في صيغةٍ مركبة يطالب فيه جبريل بالتخفيف على أمته من حرف إلى سبعة كما هو الحال في الصلاة ونزولها

---

[١١٤] الشيخ الإمام أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري: الإقناع في القراءات السبع، حفظه وعلق عليه الشيخ أحمد فريد المزيدي، قدَّم له وقرَّظه د. فتحي عبد الرحمن حجازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

[١١٥] السابق، ص١٣–١٩.

من خمسين إلى خمس طبقًا لخبرات الأنبياء السابقين، وعدم تكليف ما لا يطاق. والتواتر شرط في صحة القراءة الصحيحة دون الشاذة. وشرط المقرئ الإسلام والعقل والبلوغ، بالإضافة إلى إخلاص النية لله وتحسين الهيئة والملابس اللائقة. ويقرأ المقرئ على الشيخ عدة قراءات وعديدًا من الروايات مع اتباع مذاهبهم في القراءة مع حفظ الكتاب عن ظهر قلب ومعرفة الخلاف الواجب والتمييز بينه وبين الخلاف الجائز، ومعرفة طرق كتابته إذا قرأ من خط اليد.[١٢٤] وبدلًا من المذاهب الصوتية تذكر مصطلحات الكتاب.[١٢٥] ثم يأتي فرش الحروف الذي يستغرق الكتاب كله.[١٢٦] ويظهر القليل من علم الأصوات داخل كل سورة مثل المدغم والممال مع تحديد مكان السورة مكية أم مدنية. وتضاف بعض الأقسام

---

[١١٦] أسماء القراء وأسانيدهم ص٢٠–٩٢، المذاهب الصوتية ص٩٣–٣٦٩، فرش الحروف ص٣٧٠–٤٨٧.

[١١٧] القراء: نافع، ابن كثير، أبو عمرو بن العلاء، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي. المذاهب الصوتية: الإدغام الكبير، الإدغام الصغير، الإمالة، الراءات، اللامات، الهمزة، المد، الحركة والسكون، الهاءات، الوقف والابتداء، ياءات الإضافة، كيفية التلاوة وتجديد الأداء.

[١١٨] السابق، ص٤٨٨–٤٩٢.

[١١٩] الأحاديث (١٠)، الأشعار (٤).

[١٢٠] الإمام أبو حفص عمر بن قاسم بن محمد المصري الأنصاري المعروف بالنشار، المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر، تحقيق أحمد محمود عبد السميع الشافعي الحفيان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

[١٢١] «فقد سألني بعض أصدقائي ومن هو من إخواني في الله وأحبائي أن أجمع له كتابًا في القراءات السبع المتواترة التي لا يتوجه عليها المنع، وأن أذكر ما لكل شيخ أو راوٍ من الخلاف وإن تكرر» (السابق، ص١٦).

[١٢٢] «فبالذكر قد أخبر الله تعالى أن القرآن العظيم تيسَّر، إلا أن يكون الخلاف مما يكثر دوره كالمد والقصر والإدغام الكبير لأبي عمرو، وصلة ميم الجمع لابن كثير وقالون، وهاء الكناية لابن كثير، والنقل لورش، وترقيق الراءات له، وتغليظ اللامات له، والسكت لحمزة، وعدم الغنة لخلف، والفتح والإمالة وبين اللفظين، وأحكام النون الساكنة والتنوين، ووقف حمزة وهشام على الهمز، ووقف الكسائي على هاء التأنيث …» (السابق، ص١٦).

[١٢٣] ولي الله سيدي علي النوري الصفاقسي: غيث النفع في القراءات السبع، ضبطه وصححه وخرج آياته محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

[١٢٤] السابق، ص٣–١٣.

[١٢٥] السابق، ص١٤–١٧.

[١٢٦] السابق، ص٢١–٣٤٠.

الفرعية مثل: تفريع، تنبيه، تكميل، فائدتان، فوائد. ويعتمد على الشعر، أبياتًا معدودة أم قصائد طوالًا.[١٢٧]

(ب) تعدد اللهجات

وقد أُنزل القرآن على سبعة أحرف بنص الحديث. فما هو الحرف؟ وما هي الأحرف؟ وقد اختلفت الآراء إلى أن وصلت إلى الأربعين: وهو إشكالٌ لا حلَّ له لأن الحرف يقال على حرف الهجاء والكلمة والمعنى والجهة. وقد تكون الحروف هي القراءات أو كيفية النطق في التلاوة صحيحةً أم شاذة. وقد يراد بها الأوجه التي يقع بها التغاير.[١٢٨] وقد يكون المقصود الاختلاف في النحو والإعراب طبقًا لفهم المعنى. وقد يكون المراد سبعة من المعاني المتفقة بألفاظٍ مختلفة. وقد يكون المراد سبع لغاتٍ مختلفة وليس فقط لهجاتٍ متعددة للغةٍ واحدة. وكلها عربية.[١٢٩] وقد تعني اللغة الجانب التشريعي في صيغ الخطاب.[١٣٠] واختلف العلماء في هذه الأحرف السبعة بين القراءات واللهجات من الصوتيات، وهو ما اتخذه علم القراءات، إلى المعاني ومستويات العمق عند الفلاسفة والصوفية أهل التأويل.[١٣١]

فماذا تعني هذه القراءات السبع؟ هل هي الحروف في الحديث الشهير، أو لهجات القبائل العربية، أو سبعة أنواع من القرآن، أو سبع لغاتٍ عربية، أو سبعة أوجه من المعاني المتفقة، أو بعض الآيات، أو سبعة أحرفٍ مختلفةٍ معانيها، أو أنها ضرورة انتهى عصرها، أو علوم القرآن، أو مباحث الألفاظ، أو أساليب البلاغة، أو أوجه النحو، أو طرق

---

[١٢٧] الأشعار (٨٠)، القصيدة الطويلة، ص١٣٤–١٣٦.

[١٢٨] الإتقان، ج١، ١٣١–١٤١.

[١٢٩] وهي لغات قريش، وتميم، وهذيل، والأزد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر.

[١٣٠] مثل: الأمر والنهي، والحلال والحرام، والمحكم والمتشابه، والمطلق والمقيَّد، والعام والخاص، والنص والمؤوَّل، والناسخ والمنسوخ، والمجمل والمفسَّر، والمستثنى والمستثنى منه.

[١٣١] عند البعض الآخر هي: تصريف الأسماء، تصريف الأفعال، وجوه الإعراب، النقص والزيادة، التقديم والتأخير، الإبدال، اللغات واللهجات وهو الأصح (ابن غلبون، التذكرة في القراءات، مقدمة المحقق، ص٦–٧)؛ «باب ذكر الخبر الوارد عن النبي بأن القرآن أُنزل على سبعة أحرف وبيان ما ينطوي عليه من المعاني ويشتمل عليه من الوجوه» (جامع البيان، ص٢٠–٣٦).

التلاوة، أو المقامات والأحوال الصوتية؟[١٣٢] والتساؤلات حول هذه الأحرف السبعة كثيرة: معناها، ووجه إنزالها، اختلافها، مكانها فيه أم في لهجات الأمصار ... إلخ.[١٣٣]

ولا تعني اللغة هنا اللسان العربي أو الأعجمي بل اللهجة أو الحرف طبقًا للحديث الشهير «أُنزل القرآن على سبعة أحرف.» فقد نزل القرآن بلهجة قريش وراجعها عدة مرات. وتعني الأحرف السبع لهجات الأمصار؛ أي القراءة وليس مباحث الألفاظ والمعاني، أو الإثبات والحذف، أو تبديل الأدوات، أو التوحيد والجمع، أو التذكير والتأنيث، أو الاستفهام والخبر، أو التشديد والتخفيف، أو الخطاب والإخبار، أو الإخبار عن النفس وغير النفس، أو التقديم والتأخير، أو النفي والنهي، أو الأمر والإخبار، أو تغيير الإعراب أو الحركات اللوازم، أو التحريك والتسكين، أو الاتباع وتركه، أو الصرف وتركه، بل اختلاف اللغات والتصرف في اللهجات.[١٣٤] ويُقرأ القرآن في أمة أمية، سماعًا وليس كتابة. ويقرؤه الرجل والمرأة والغلام والشيخ والسيد والجارية. ولكلٍّ طريقته في القراءة وصوته ومخارج حروفه وإقليمه وقبيلته في مجتمعٍ بدوي ولدى قبائلَ رحل وأثناء الحج من كل فج وصوب.[١٣٥]

وقد تعني الجانب البلاغي.[١٣٦] وقد تنطبق على علوم الصوفية.[١٣٧] وقد يُراد بها موضوعات الكلام أي علم أصول الدين، ونظرية الذات والصفات والأفعال والأسماء.[١٣٨]

وقد يكون الهدف من هذه الحروف السبعة إقرار التعددية في القراءة وإدخال الصوت الإنساني والاعتراف باللهجات الإقليمية داخل اللغة الواحدة للتخفيف على الناس. فقد أقرَّ الرسول كل قراءة على اختلاف القراءات وتباينها. وقال لكل قارئ «أصبت!» «كلٌّ شافٍ كافٍ.» «كلاهما محسن.» فكما أن الصواب في الاجتهاد متعدد فكذلك القراءة للنص

---

[١٣٢] البرهان ج١، ٢١١–٢٢٧.

[١٣٣] جامع البيان، ص٢٣.

[١٣٤] اعتمادًا على حديث: «كان الكتاب الأول نزل من بابٍ واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر آمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، إلى آخره في السبعة أحرف» (السابق، ص٢٥–٣٦).

[١٣٥] وهو معنى حديث: «لقيت جبريل عند أحجار المراء. فقلت: يا جبريل إني أُرسلتُ إلى أمةٍ أمية، الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفاني الذي لم يقرأ قط. قال: إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف» (جامع البيان ص٢١). وهو معنى حديث: «اقرءوا كما علمتم» (السابق، ص٣٣).

متعددة وإلا وقع الخلاف كما وقع في العقائد بناءً على حديث «الفرقة الناجية». وقد تمم التعلم من تجارب الأمم السابقة «إن من قبلكم اختلفوا فأهلكهم ذلك.»

وقد يتدخل الخيال من أجل الإيحاء بالتخفيف بمراجعة الملائكة مثل مراجعة ميكائيل الحديث الأول عن حرفٍ واحد ثم حرفَين حتى الوصول إلى سبعة أحرف. مثل مراجعة جبريل الرسول ليلة الإسراء والمعراج في عدد مرات الصلاة، وإنزاله من خمسين إلى خمس بناءً على تجارب الأمم السابقة.[١٣٩] لذلك في بعض الصياغات «فاقرءوا ما تيسر منه.» ويظهر الرسول في المنام لتثبيت قراءة القارئ.[١٤٠] وقد يدخل جبريل وميكائيل معًا لمراجعة الرسول والتأكيد على تعددية القراءة؛ جبريل على يمينه وميكائيل على يساره. الرسول هو الذي يطلب الاستزادة من عدد القراءات؛ من واحدة إلى اثنتين إلى ثلاث إلى خمس إلى سبع، وهي أعدادٌ فردية أشبه بمقامات الصوفية، وزوجية باستثناء الأربع. وفي كلتا الحالتين هي مقولية حسابية تقف على العدد الرمزي في الشرق القديم سبعة، وفي القرآن سبع سموات وسبع أرضين وسبع ليالٍ، وفي الثقافة الإسلامية في مختلف علومها. وهل حجم الملاك مثل حجم الرسول، وجناح جبريل في الإسراء والمعراج ما بين السموات والأرض؟ والرسول

---

[١٣٦] مثل: الحذف والصلة، والتقديم والتأخير، والاستعارة والتكرار، والمجمل والمفسر، والظاهر والغريب، وهي أساليب الكلام مثل التذكير والتأنيث، والشرط والجزاء، والتصريف والإعراب، والأقسام وجوابها، والجمع والإفراد، والتصغير والتعظيم، واختلاف الأدوات (السابق، ص١٣٧–١٣٨).

[١٣٧] مثل: الزهد والقناعة مع اليقين والجزم، والخدمة مع العطاء والكرم، والفتوة مع الفقر والمجاهدة والمراقبة مع الخوف والرجاء، والتضرع والاستغفار مع الرضا والشكر، والصبر مع المحاسبة والمحبة، والشوق مع المشاهدة (السابق، ص١٣٨).

[١٣٨] وهي: الإنشاء والإيجاد، والتوحيد والتنزيه، وصفات الذات، وصفات الفعل، والعفو والعذاب، والحشر والحساب، والنبوات (السابق، ص١٣٨).

[١٣٩] مثل «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» (جامع الأصول، ص٢٠). وفي صياغةٍ أخرى «حين لقي جبرائيل عليه السلام فقال له: إني أُرسلتُ إلى أمةٍ أمية … فقال إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف.» وفي صياغةٍ ثالثة قال جبريل: «إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفٍ واحد، فقال الرسول: اسأل الله المعافاة والرحمة؛ إن ذلك ليشق على أمتي ولا يستطيعونه. ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفَين، فقال له مثل ما قال له في الأولى حتى انتهى القرآن إلى سبعة أحرف.» «فمن قرأ بحرف منها فقد أصاب» (جامع البيان، ص٢٥).

[١٤٠] السابق، ص٤٩؛ النشر في القراءات العشر، ج١، ٢٣؛ منار الهدى، ص١٨.

يستغيث بميكائيل لمراجعة جبريل نوع من التصوير الفني والإخراج المسرحي.[١٤١] وفي إخراجٍ آخر يدخل العذاب والرحمة كعاملٍ محدِّد لعدد القراءات أو التعجيل والإسراع.[١٤٢]

ليست القراءات السبع الموجودة الآن بل تنوع القراءات على مدى العصور.[١٤٣] ليست قراءاتٍ تاريخيةً لقراءٍ معينين.[١٤٤] فلا يقال قراءة فلان أو فلان.

(٤) التاريخ والرمز

ولماذا تتوقف القراءات على سبع ولا تستمر إلى عشر أو إحدى عشرة أو أربع عشرة؟ هل العدد سبع تاريخي أم رمزي؟ ليس المراد بالسبعة الحصر بل التعدد دون حصر. فإذا كان المقصود اللهجات فالقبائل أكثر من سبع؟ وهل القبائل هي التي وجدت في شبه الجزيرة العربية وقت الإعلان والتبليغ أم هي القبائل في كل زمان ومكان؟

وقد كثرت التآليف في الموضوع وأهمها:

(أ) «المبسوط في القراءات العشر» للأصبهاني (٣٨١هـ)[١٤٥]

وتتعدد القراءات بين السبع، وهي الأشهر، والعشر، والأربع عشرة. ويخلو من أية مقدمةٍ نظرية. بل يكتفي بالروايات والأسانيد للقراءات على تتبعها سورةً سورة وآية آية. والثاني أضعاف الأول حجمًا.[١٤٦] وفي الأسانيد يذكر القراء وأماكنهم وأسانيد كل قارئ، وقرأ على مَن؟ ومثل الرواية سمع من مَن؟ ومعظمها أسماء أعلام دون جرح أو تعديل. وبمناسبة

---

[١٤١] هو حديث: «أتاني جبريل وميكائيل فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري فقال جبريل: بسم الله، أو يا محمد اقرأ القرآن على حرف. فنظرت إلى ميكائيل فقال: استزده. فقلت: زدني، فقال: بسم الله اقرأه على حرفَين، ثلاثة أحرف. فنظرت إلى ميكائيل فقال: استزده. فقلت: زدني. قال: بسم الله اقرأه على خمسة أحرف. فنظرت إلى ميكائيل. فقال: استزده. قلت: زدني. فقال: بسم الله اقرأه على ستة أحرف. فنظرت إلى ميكائيل فقال: استزده. قلت: زدني. فقال: بسم الله اقرأه على سبعة أحرف» (جامع البيان، ص٢٢).

[١٤٢] مثل حديث: «فنظرت إلى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهى العدة. فقال جبريل: اقرأه على سبعة أحرف كلهن شافٍ كافٍ لا يضرك كيف قرأت ما لم تختم رحمة بعذاب أو عذابًا برحمة.» أو «ما لم تختم آية رحمة بعذاب أو آية عذاب بمغفرة.» أو بزيادة «هلم وتعال وأقبل وأسرع واذهب وعجل» (جامع البيان، ص٢٢).

اختلاف القراء تذكر بعض الاختلافات المشابهة.[١٤٧] وتذكر بعض المذاهب الصوتية من خلال عرض اختلافات قراءات السور على التوالي. فيذكر المذهب في الإدغام والإظهار أثناء قراءة السور، والمذهب في الهمز وحذفه، والتفخيم والإمالة والمد، واجتماع الهمزتَين في أول الكلمة، ومذهب حذف الياءات وإثباتها، وفتح الياءات وإسكانها. وكلها استقراءات في سورة البقرة.[١٤٨] ثم يتكرر إثبات الياء وفتحها في عشرات السور الأخرى. وكلها من كلام العرب.[١٤٩] والسؤال الآن: ما فائدة ذلك كله بعد أن استقرت القراءات؟ هل هي دراساتٌ تاريخيةٌ خالصة قبل أن تستقر؛ مما قد يوحي بالشك في القراءات الحالية كما يفعل المستشرقون في التدوين عن طريق الكتابة والخط للتشكيك في مصحف عثمان؟ ولماذا يدرس حتى الآن في المعاهد والكليات الأزهرية؟ ربما ترجع أهميته إذا أثر في فهم المعنى، وبالتالي يكون أدخل في علم التفسير.

(ب) «الغاية في القراءات العشر، الترجيح بينها بالأدلة والبراهين» لابن مهران (٣٨١هـ)[١٥٠]

وهو نفس عنوان «الحجة». وبالرغم من أنه رصد سورةً بسورة وآيةً بآية إلا أنه محاولةٌ تنظيميةٌ مبدئية داخل سورة البقرة حول الإدغام والإمالة.[١٥١] وكذلك حول حذف الياء وإثباتها وفتح الياءات وإثباتها[١٥٢] ولكل قراءة أسانيدها كما هو الحال في علم الحديث. والسند مجرد ذكر أسماء الأعلام وليس خصائص القراء. وتوجد قراءاتٌ متعددة داخل

[١٤٣] الإتقان، ج١، ٢٢٣–٢٢٦، ٢٢٩.

[١٤٤] «وقال أبو بكر بن العربي: ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها» (السابق، ص٦٢٣). «وقال مكي: من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطًا عظيمًا» (السابق، ص٢٢٤). «وقال القراب في الشافي: التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر وأوهم أنه لا يجوز الزيادة على ذلك، وذلك لم يقل به أحد»، «وقد اشتد إنكار أئمة هذا الشأن على من ظن انحصار القراءات المشهورة في مثل ما في التيسير والشاطبية» (السابق، ص٢٢٥).

[١٤٥] أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني: المبسوط في القراءات العشر، تحقيق وتعليق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

[١٤٦] الروايات والأسانيد (٣٨)، السور والحروف (٢٤٨).

[١٤٧] السابق، ص٤٢–٤٣.

كل رواية. كما توجد طرقٌ متعددة داخل كل قراءة.[١٥٣] وقد تم التأليف استجابةً لسؤال؛ مما يدل أن علم القراءات فرض الواقع والاختلافات في النطق.[١٥٤] أحيانًا تكون القراءات سبعًا، وأحيانًا أخرى عشر. ولا يُعتمد إلا على القرآن دون الحديث أو الشعر أو كلام العرب وعاداتهم في القول.

(ج) «المستنير في القراءات العشر» لابن سوار (٤٦٩هـ)[١٥٥]

قد لا يتفق اسم الكتاب «المستنير» مع منهجه في الرواية والأسانيد؛ فالاستنارة تعني إعمال العقل، وإذا كانت القراءة إبداعًا وأداءً فكيف تنقل بالأسانيد؟ والمقدمة في أهمية علم القرآن بوجهٍ خاص وطلب العلم بوجهٍ عام، وأفضلية العلم على العبادة، وأنه أسهل طريق إلى الجنة. ثم يتوجه العلم بحديث نزول القرآن على سبعة أحرف بصياغاته المختلفة ابتداءً من الحسية إلى الخيالية. ثم تأتي أهمية اتباع السنة في القراءة، وأهمية إعراب القرآن، وخطورة اللحن فيه، وللقرآن وتعليمه فضل.[١٥٦] وينقسم الكتاب إلى القسمة الثلاثية

---

[١٤٨] السابق، ص٤٤–٥١، ٥١–٥٥، ٥٥–٦١، ٦٢–٦٣، ٦٣–٦٤، ٦٥–٦٦، ٨٦–٨٧، ٨٧–٩٠، ١٠٦–١١٠، ١٢٠، ١٢٨، ١٣١.

[١٤٩] السابق، ص٩٨، ١١٠، ١٢٠، ١٢٨، ١٣١، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٣، ١٧١، ١٧٥، ١٨١، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٢، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٦–٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٨٣.

[١٥٠] الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران: الغاية في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ، ص٧–١٠٣.

[١٥١] السابق، ص٣٢–٤٧.

[١٥٢] السابق، ص٩٩–١٠٣.

[١٥٣] «فهذه أسانيد القراءات التي أقرأناها، وأخذناها لفظًا اختصرناها كراهةً للإطالة فيها. وسيأتي بعدها الحروف واختلافهم في كل سورة ...» (السابق، ص٣١).

[١٥٤] «سألتَ أسعدك الله أن أجمع لك القراءات التي قرأت بها لفظًا بجميع الروايات التي وجدتها نقلًا عن ذكر الأسانيد وأن أختصرها بألفاظٍ لطيفة وتراجمَ موجزةٍ خفيفة لتقرب على متحفظها وتسهل فلا تطول، وتكثر فتثقل، فأجبتك مستعينًا بالله ...» (السابق، ص٧).

[١٥٥] الإمام أبو طاهر بن سوار: المستنير في القراءات العشر، اعتنى به وعلق عليه جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا، ٢٠٠٢م.

[١٥٦] السابق، ص٢٤–٣٨.

المعروفة في علوم القرآن: الأسانيد، والمذاهب الصوتية، وفرش الحروف.[157] وتذكر عشرة أسانيد.[158] والمذاهب الصوتية سابقة على الفاتحة والبقرة.[159] وينتهي فرش الحروف بالتكبير.[160] وتظهر مصطلحاتٌ جغرافية لعلم الأصوات مثل المدينة والحجاز والبصرة والكوفة.[161] ونادرًا ما يعتمد على الشعر.[162]

(د) «الكنز في القراءات العشرة» للواسطي (٧٤٠هـ)[163]

ويمثل أعلى درجة من التنظير في علم القراءات.[164] يدور حول الأقسام التقليدية الثلاثة؛ الأول أسماء الأئمة وبلادهم ورواتهم وأسانيدهم.[165] والثاني الأصول النظرية.[166] والثالث فرش الحروف.[167] وأكبرها كالعادة الثالث والثاني. وأصغرها الأول.[168] والمؤلف على وعي بهذه القسمة الثلاثية: المقدمة والأصول وفرش الحروف. ويدور كله حول الإدغام كرابطٍ موضوعي بين العرض الطولي، سورةً سورة وآية آية. والأصول عشرة. والمؤلف على وعي

---

[157] الأسانيد ص٣٩–١٥٨، المذاهب الصوتية ص١٥٩–١٩٨، فرش الحروف ١٩٩–٤٤٩.

[158] عبد الله بن كثير المكي، نافع بن أبي نعيم، عبد الله بن عامر اليحصبي، أبو عمرو بن العلاء، أبو بكر عاصم بن أبي النجود، أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات، أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، أبو جعفر يزيد بن القعقاع، يعقوب بن إسحاق الحضرمي، محمد خلف بن هشام بن طالب بن غراب.

[159] مثل النون والتنوين، الهمز، والسكون والحركة، الوقف والابتداء، الإمالة ... إلخ.

[160] السابق، ص٤٥٠-٤٥١.

[161] السابق، ص٢٣.

[162] السابق، ٣٩.

[163] الإمام العلامة الشيخ عبد الله بن عبد المؤمن ابن الوجيه الواسطي: الكنز في القراءات العشر، تحقيق هناء الحمصي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

[164] أسماء الأئمة وبلادهم ورواتهم وأسانيدهم (السابق، ص١١–٣٥).

[165] قواعد الكتاب، مخارج الحروف وصفاتها، الهمس، الأصول عشرة: الإدغام والإظهار، هاء الكناية، الهمز، المد والقصر والوقف على الساكن، الإمالة كانت لامًا في الأسماء والأفعال، ترقيق الراءات وتفخيمها، تغليظ اللامات وترقيقها، الوقف، الياءات، والعاشر في الاستعاذة والبسملة والتكبير عند ابن كثير (السابق، ص٣٦–١٢٣).

[166] السابق، ص١٢٤–٢٧٠.

[167] الأول (٣٠)، الثاني (٨٣)، الثالث (١٤٧).

[168] السابق، ص١٠.

ببنية الكتاب الثلاثية.[١٦٩] وسبب التأليف إبداعٌ نوعيٌّ أدبيٌّ جديد يبتعد عن الاختصار والإطالة وينحو نحو الوضوح.[١٧٠] يعتمد على الشعر دون الحديث.[١٧١] ويخلو من الحجج والتعليل. ويبرز طريقة المصريين الذين عرفوا بفن التجويد.

(هـ) «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٨٣٣هـ)[١٧٢]

وعلى عكس «الكنز» وقدرته على التنظير، يأتي مسهبًا مطولًا جامعًا مواده من كتبٍ سابقة مع ذكره لها تباعًا؛ لذلك تضخم كمًّا. وتسند أصول الكتاب.[١٧٣] ويتبع أسلوب «قلنا، قلت» الأسلوب المملوكي للحوار مع النصوص السابقة المقتبس منها.[١٧٤] قرأها على مشايخه، وأجازوا له النقل عنها؛ لذلك ينقص الإبداع ويفرق بين الكتاب والمفردة التي قد تكون مجرد كراسة أو كتيب أو نسخةٍ وحيدة. والكتب ليست مرتبةً ترتيبًا زمانيًّا؛ مما يدل على غياب الوعي التاريخي. ويعتمد على الشعر دون الحديث.[١٧٥] ويظهر نوعٌ أدبيٌّ جديد هو «تنبيهات».[١٧٦] ويقوم على أربعة أقسام. الأول عرض الكتب السابقة.[١٧٧] والثاني القراءات العشر وأسانيدها.[١٧٨] والثالث بعض الأصول النظرية.[١٧٩] وبين الثاني والثالث الاستعاذة

---

[١٦٩] «وقد ألَّف أئمة القراء في هذا العلم كتبًا كثيرة عدًّا، غير أنها مختلفة بين مختصَرٍ مخلٍّ بالمقصود أو مطوَّل جدًّا؛ فرأيت أن أصنف لك أيها الطالب كتابًا جامعًا بين الوضوح والاختصار في قراءات السبع أئمة الأمصار» (السابق، ص٩).

[١٧٠] الشعر (٢).

[١٧١] السابق، ص٢٣–٢٤، ٣٤، ٤٣.

[١٧٢] الإمام الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري: النشر في القراءات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ (جزآن).

[١٧٣] السابق، ج١، ٧.

[١٧٤] السابق، ص٦١–٨٢.

[١٧٥] الشعر (٣٦). ش.

[١٧٦] تنبيهات (٢٣).

[١٧٧] ثلاثة وخمسون كتابًا وثلاث مفردات (النشر، ج١، ٥٠–٨١).

[١٧٨] السابق، ج١، ٨٢–١٥٦.

[١٧٩] صفات الحروف، التجويد، الوقف والابتداء، الإدغام والإظهار، الهاء، المد والقصر، الهمز، التنوين والسكون، مخارج الحروف، الفتح والإمالة، الوقف والابتداء، التغليظ والترقيق، مرسوم الخط، الباء، اللام (السابق، ج١، ١٥٧–٣٨٧؛ ج٢، ٣–١٥٤).

والبسملة،[١٨٠] وفي الرابع وتظهر أصول على الأصوات،[١٨١] كما تظهر مفاهيم علم أصول الفقه.[١٨٢]

(و) «تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة» للجزري أيضًا (٨٣٣هـ)[١٨٣]

يتم التركيز هذه المرة أكثر من الكتاب السابق حتى ليبدو وكأنه ملخَّص له. يتبع نفس التقسيم الثلاثي: الأول القراء والأسانيد والأنساب والكنى والبلدان وسيرتهم الذاتية،[١٨٤] والثاني المذاهب اللغوية،[١٨٥] والمذاهب رجال، والرجال مذاهب مثل حمزة وورش. والثالث فرش الحروف.[١٨٦] وأكبرها الثالث كالعادة ثم الثاني، وأصغرها الأول.[١٨٧] وبين الأول والثاني تذكر الاستعاذة والتسمية وأم القرآن.[١٨٨] وفي النهاية يذكر التكبير في قراءة ابن كثير.[١٨٩] وفي المقدمة يذكر سند الكتب وإرجاعه موصولًا إلى الداني.[١٩٠] وقد تم التأليف استجابة لمطلب.[١٩١] ويعتمد على القرآن وحده دون الحديث أو الشعر.

---

[١٨٠] السابق، ج١، ١٩٢–٢١٢.

[١٨١] السابق، ج١، ١٦٠–١٧٧.

[١٨٢] السابق، ص٢١٩، ٢٨١.

[١٨٣] الإمام المحقق محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري، تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة، كتب هوامشه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م (ويهمل الناشر تقويس الآيات القرآنية).

[١٨٤] أسماء القراء وأنسابهم وبلداتهم وكناهم وموتهم (السابق، ص١٣–٣٧).

[١٨٥] الإدغام، الكناية، المد والقصر، الهمز، الوقف والابتداء، الفتح والإمالة، الراءات، اللامات، أواخر الكلم، مرسوم الخط، السكون والحركة، الإضافة والزوائد (السابق، ص٤١–٨٤).

[١٨٦] السابق، ص٨٥–٢٠٢.

[١٨٧] الأول (٣١)، الثاني (٤٧)، الثالث (١٢٠).

[١٨٨] السابق، ص٣٨–٤٠.

[١٨٩] السابق، ص٢٠٣–٢٠٤.

[١٩٠] السابق، ص٩–١٢.

[١٩١] «فإنكم سألتموني أن أصنِّف لكم كتابًا مختصرًا في مذاهب القراء السبعة بل العشرة بالأمصار، يقرب عليكم تناوله ويسهل حفظه ويخفُّ عليكم درسه ويتضمن الروايات والطرق ما اشتهر وانتشر عند التالين وصحَّ وثبت عند المتعددين من الأئمة المتقدمين ... واعتمدتُ في ذلك على الإيجاز والاختصار

(ز) «الروضة في القراءات الإحدى عشرة» للبغدادي المالكي (٤٣٨هـ)

سفرٌ ضخم،[١٩٢] يتضمن ثلاثة أقسامٍ نمطية غلبت على معظم المؤلفات في علم القراءات: الأول الروايات والأسانيد والقراءات، والثاني الأسس النظرية في علم الأصوات أو الأصول، والثالث فرش الحروف إلى التطبيق العملي لها سورةً سورة وآيةً آية.[١٩٣] أكبرها الثالث ثم الثاني وأصغرها الأول.[١٩٤] مهمة الأول معرفة الرواة عن طريق ترجمتهم أي سيرهم الذاتية،[١٩٥] ونسبتهم إلى أسماء المدن والأمصار؛ مما يبين أهمية اللهجات فيما يمكن تسميته علم الجغرافيا اللغوي مثل علم النفس اللغوي.[١٩٦] وقد انتهى هذا العصر، ولم نعد في عصر هؤلاء الرجال؛ فهو جزءٌ تاريخيٌّ خالص. والثاني في علم الأصوات مع ضرب الأمثلة.[١٩٧] وهو ما لا يغني عن دراسة الموضوعات. وكل فرد، مثل حمزة أو الكسائي مذهبٌ لغوي. فعلماء اللغة مذاهب مثل مذهب حمزة في الهمزة.[١٩٨] ويتم تفصيل الهمزة وأنواعها، والساكن والمتحرك، والوقف بالروم والإشمام، والإدغام الكبير والصغير، والمد والقصر ... إلخ. أما الجزء الثالث؛ فرش الحروف فيبدأ بالتحديد المكاني للسورة مكيةً أو مدنية؛ مما يدل على ارتباط القراءات بأسباب النزول. وهو مجرد استعراضٍ طولي

وترك التطويل والتكرار، وقربت الألفاظ، وهذبت التراجم ونبهت على الشيم بما يؤدي إلى حقيقته من غير استغراق لكي يوصل إلى ذلك في يسر وبتحفظ من قرب ...» (السابق، ص١٢).

[١٩٢] أبو علي الحسن بن محمد بن إبراهيم البغدادي المالكي، الروضة في القراءات الإحدى عشرة، دراسة وتحقيق د. مصطفى عدنان محمد سلمان، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، دار العلوم والحكم، سوريا (جزآن). ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م. وهي رسالةٌ علمية مقدمة للنشر والتحقيق، ونشرٌ مشترك بين السعودية وسوريا، تختلف فيها بعض عناوين الفهرس مع بعض عناوين الكتاب.

[١٩٣] الأول: الأئمة ومن روى عنهم، ترجمة الأعلام الأسانيد: نافع، ابن كثير، ابن عامر، عاصم، أبو عمرو، حمزة، الكسائي، أبو جعفر، يعقوب الحضرمي، الأعمش، خلف (ج١، ١١٠–١٧٩). والثاني الأصول: الهمزة، الإدغام، الإمالة، الياءات، التسمية (ج١، ١٧٩–٥١٧). والثالث فرش الحروف من الفاتحة حتى الإخلاص (ج٢، ٥١٧–١٠٠٤).

[١٩٤] الأول (٦٩)، الثاني (٣٣٨)، الثالث (٤٨٨).

[١٩٥] الروضة، ج١، ١٢٧–١٧٩.

[١٩٦] علم النفس اللغوي Psycho-linguistics. علم الجغرافيا اللغوي Geo-linguistics.

[١٩٧] وهو ما يمكن تسميته علم اللغة التطبيقي Applied Linguistics أو علم الأصوات التطبيقي Applied Phonetics.

[١٩٨] الروضة ج١، ٢٣١–٢٥٥.

لاختلاف القراءات بعد وضع أصولها الصوتية وضبط رواتها وأسانيدها. فبالرغم من أن كل آية مسألة إلا أنها لم تتحول إلى موضوع، وبالتالي اختفت البنية وغاب العرض الموضوعي. وتبدأ كل مسألة بأفعال «قرأ»، «روى»»، «تفرد» إذا شذت القراءة عن الإجماع. وأحيانًا تبدأ بأفعال تدل على الاختلافات في القراءة مثل «اختلفوا»، «انقسموا». ومن ثم لم تعد الحاجة إلى القسمة إلى أبواب وفصول طالما لا توجد موضوعات بل مجرد رصد لآيات. وإذا غابت فلعدم وجود موضوع، وإن وجدت فإنها مسألةٌ صغيرة مثل فصل ذكر التكبير.[١٩٩] وقد تم التأليف بناءً على سؤال؛ ممَّا يدل أن علم القراءات نشأ طبقًا لحاجةٍ محليةٍ صرفة.[٢٠٠] ويعتمد على القرآن أولًا ثم على الشعر بصورةٍ أقل دون الحديث.[٢٠١]

(ح) «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» للبناء (١١١٧هـ)[٢٠٢]

وهي دراسة لعلم القراءات مقسمة التقسيم الثلاثي الشائع: أسماء القراء وأسانيدهم، مذاهب الأصوات خاصة الإدغام، فرش الحروف أي التطبيق العملي سورة سورة وآية آية. وأكبرها هو الثالث كالعادة. والإدغام هو الموضوع لأنه ضمٌّ حرفَين في صوتٍ واحد.[٢٠٣] وفي مقدمةٍ نظريةٍ صغرى يتم تعريف علم القراءات، موضوعه، واستمداده، وفائدته، وغايته.[٢٠٤] وينتهي بالتكبير.[٢٠٥] ثم تأتي قائمة فيما يتعلق بختم القرآن العظيم؛[٢٠٦] مما يدفع إلى التساؤل هل القرآن كتاب دراسة في علوم القرآن أم كتاب عبادة وأدعية وابتهالات

---

[١٩٩] السابق، ج٢، ٩٩٥–٩٩٦.

[٢٠٠] «سألتَ أن أجمع لك ما نثرته في الخلافات من القراءات التي تلوت بها على شيوخ أهل العراق ذوي السماعات والإجازات والتلاوة على غيرهم من الشيوخ. وقد أجبتك على سؤالك» (الروضة، ج١، ١٠٩).

[٢٠١] الشعر (٣).

[٢٠٢] العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبناء: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، وضع حواشيه الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ.

[٢٠٣] الأسماء ص٩–٢٧، المذاهب الصوتية ص٢٨–١٥٨، فرش الحروف ص١٥٩–٦٠٩.

[٢٠٤] السابق، ص٦–٩.

[٢٠٥] السابق، ص٦١٠–٦١٥.

[٢٠٦] السابق، ص٦١٦–٦٢٠.

كما هو الحال في الممارسات الشعبية الآن؟ ويعتمد على الشعر دون الحديث.[٢٠٧] ويركز على الاختلاف أكثر من الاتفاق دون إحساس بالحرج، وأفضل من تضخيم الاستشراق للاختلاف للشك في الصحة التاريخية لنص القرآن أسوة بالكتب المقدسة السابقة.

(٥) المشهور والشاذ

وهو أحد موضوعات علم القراءات.[٢٠٨] القرآن الوحي المنزَّل على محمد للبيان والإعجاز قبل سماعه وقراءته وتحويله إلى صوت. والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي في قراءة أو كتابة الحروف من تخفيف وتثقيل، والترجيح بينها واختيار إحداها دون الأخرى، وهو مناقض لتعددية القراءات.[٢٠٩] وإذا اختلف إعرابان لا يفضل أحدهما على الآخر وكأن المعنى التداولي هو المحك في استعمال الناس. في حين أنه في علم أصول الفقه الترجيح أحد طرق رفع التعارض.[٢١٠] وتوجيه القراءات وبيان أهم ما ذهب إليه كل قارئ دليل على حسب المدلول عليه أو مرجح دون إسقاط القراءة الأخرى لأن كلتيهما متواترتان.[٢١١]

والقراءات السبع متواترة عند الجمهور أو مشهورة؛ لذلك لا يجوز العمل بالقراءة الشاذة.[٢١٢] في حين أنه في خبر الآحاد يجوز العمل به ولكنه يظل من حيث النظر ظنيَّ الدلالة، والقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وبيان معانيها.

والخلافات في علوم القرآن كثيرة سواء في النص المكتوب أو في القراءة الشفاهية؛ مما يدل على أهمية الحوامل بالنسبة للمحمول، ولا يوجد حلٌّ يقيني لهذه الخلافات. تعتمد على الروايات أكثر مما تعتمد على التحليل، على النقل وليس على العقل. والسؤال هو:

---

[٢٠٧] الشعر ص٥١، ١٠٦، ١٩٨، ٢٧٥، ٢٨١، ٣١٤، ٣٣٥.

[٢٠٨] البرهان، ج١، ٣١٨–٣٣٨. وقد ألَّف فيه أبو عمرو الداني كتاب «التيسير»، ونظمه الشاطبي في لاميَّته، وأبو جعفر بن الباذشي كتاب «الإقناع»، وأبو الكرم الشهرزوري كتاب «المصباح» في القراءات العشر (السابق، ص٣١٨).

[٢٠٩] الإتقان، ج١، ٢٨٨–٢٨٩.

[٢١٠] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٤١٢–٤٢٢.

[٢١١] البرهان، ج١، ٣٣٩–٣٤١، وقد صنَّف فيه أبو علي الفارسي كتاب «الحجة» ومكي كتاب «الكشف»، والمهدوي كتاب «الهداية»، وابن جني كتاب «المحتسب»، وأبو البقاء.

[٢١٢] الإتقان، ج١، ٢٨٨، ٣٤١؛ البرهان، ج١، ٣٣٦–٣٣٨.

كيف تستطيع الذاكرة أن تعي كل هذه الروايات والاختلافات في القراءات والأسانيد؟ وهو ما يدعو إلى التفكير في التحول من العلوم النقلية إلى العلوم العقلية ثم من العلوم العقلية إلى العلوم الإنسانية واللغة التداولية. إذا اختلفت القراءات تحسم بلغة قريش التي نزل بها القرآن.[٢١٣] فاللغة هنا تدخل كعاملٍ مرجِّح في القراءات.

واختلافات القراءات نوعان: نوع يخلُّ بالمعنى وهو الأهم، ونوع لا يخل بالمعنى بل مجرد رصدٍ لغوي لا يؤثر في فهم المعنى.[٢١٤] واختلاف القراءات هو أحد أسباب اختلاف الأحكام.[٢١٥]

ويرجع اختلاف القراء إلى عدة أوجه: إعراب كلمة دون تغيير معناها، وإعرابها مع تغيير معناها، تبديل حروف كلمة دون إعرابها، الاختلاف في الكلمة بما يغير صورة الكتابة دون معناها، الاختلاف في الكلمة بما يغيِّر صورة الكتابة ويغيِّر معناها، التقديم دون التأخير، الزيادة والنقص في الحروف والكلمات.[٢١٦]

ولاختلاف القراءات بعض الفوائد منها التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة وعدم إخضاع الوجدان البشري للحرف. فالحرف صوتٌ يُسمَع أو رسمٌ يُنظَر، والوجدان إحساس وحياة.[٢١٧] وهو فضل الأمة، وشرفها على غيرها من الأمم التي وقعت في حرفية النصوص. وهنا يكون الصوفية والفلاسفة والمعتزلة وجميع أهل التأويل على حق. وقد فرض التأويل نفسه على باقي الكتب المقدسة السابقة كبديل عن تعدد القراءات. وهو عملٌ عظيم الأجر لأنه يتطلب الجهد في المعرفة، والذوق في الفهم، والوجدان في الإدراك، يحمي الكتاب من افتراض التحريف والتغيير والتبديل عن طريق إثبات تعدد القراءات. وهو يعادل تعدد الصواب في علم أصول الفقه. وإنكار القراءة الواحدة في علوم القرآن مثل إنكار الفرق الناجية في علم أصول الدين. وقد تكشف إحدى القراءات ما تخفيه قراءةٌ أخرى على مستوى المعاني.[٢١٨]

---

[٢١٣] الإتقان، ج١، ١٦٩.

[٢١٤] الإتقان، ج٤، ٧٨.

[٢١٥] الإتقان، ج١، ٢٢٦–٢٢٨، وذلك مثل الاختلاف في نقض الوضوء باللمس بسبب اختلاف القراءة في «لمستم» و«لامستم»، وجواز وطء الحائض عند الانقطاع قبل الغسل أو عدمه بسبب اختلاف قراءة «يطهرن».

[٢١٦] البرهان، ج١، ٢٣٤.

ويفرح المستشرقون كلما كثرت الاختلافات، ليس فقط في القراءات بل في الخطوط؛ لزعزعة الثقة بالصحة التاريخية للنص كما فعل النقد التاريخي في القضاء على الصحة التاريخية للعهدَين القديم والجديد.

(أ) التأليف في الموضوع

وقد ازدهر التأليف في تعدد القراءات منها:

(١) «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لابن جني (٣٩٢هـ)[٢١٩]

وهو كتاب في القراءات الشاذة من أحد كبار علماء اللغة ابن جني صاحب «الخصائص». يستعرضها سورةً سورة، وآيةً آية بعد مقدمةٍ قصيرة عن معنى الشاذ وما كتب عنه من قبلُ[٢٢٠] فالقراءة نوعان صحيحة وشاذة، وفي كلٍّ منها عدة تآليف.[٢٢١] وما شذَّ عن القراءات السبعة نوعان: الأول عارض الصنعة لا يهم ولا يدخل في التحليل، والثاني ما شذ عن السبعة وغمض على الصنعة، وهو موضوع الكتاب، وهي أيضًا مرويات لها أسانيدها. وبما أن المؤلف لغوي فإنه يعتمد على الشعراء اعتماده على القرآن والشعر بالآلاف، بعدد صفحات الكتاب.

(٢) «بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات» للمهدوي (٤٤٠هـ)[٢٢٢]

وهو كتابٌ صغير الحجم، خالٍ من القسمة إلى أبواب أو فصول، يكثر من الاعتماد على الحجج النقلية. ويتكرر الحديث لاختلاف صياغاته لأهمية الدليل النقلي. وهو إجابة عن سؤالٍ افتراضي «إن قال قائل: ما سبب هذا الاختلاف الذي كثر بين القراءة في ألفاظ

---

[٢١٧] الإتقان، ج١، ٢٢٧–٢٢٨. مثل «يطهرن» بالتشديد أو التخفيف.

[٢١٨] وهو ما حاوله السيوطي في كتاب «أسرار التنزيل» وقد تكون هذه التعددية في القراءات أحد أوجه الإعجاز.

القرآن؟»[٢٢٣] فقد اشتمل المصحف على جميع الحروف المنزل عليها القرآن.[٢٢٤] والقراءة المستعملة التي لا يجوز ردها لها شروط ثلاثة: موافقة خط المصحف، عدم خروجها على لسان العرب، وثبوتها بالنقل الصحيح.[٢٢٥]

(٣) «مفردة نافع بن عبد الرحمن المدني» لأبي عمرو الداني (٤٤٤هـ)[٢٢٦]

وقد تخصصت دراساتٌ مستقلة عن كل قراءة من القراءات السبع لبيان خصائصها وميزاتها عن القراءات الأخرى. والمؤلف مقرئ، وموضوع الكتاب الاختلاف بين أصحاب نافع الذين أخذوا عنه القراءة تلاوةً، وأدَّوها حكاية.[٢٢٧] وتُذكر عن كل واحد روايتان، إلا عن ورش وقالون ثلاث روايات؛ فيكون المجموع عشر روايات. واليقين من الرواية وليس من علم الأصوات باعتبارها علمًا طبيعيًّا يربط بين مخارج الحروف وأدوات النطق؛ اللسان والحلق والأنف والشفتان.

وكعادة كتب القراءات بالرغم من قسمتها إلى أبواب وفصول إلا أنها تضم ثلاثة أقسام: الأول أسانيد الروايات، والثاني مذاهب الأصوات،[٢٢٨] والثالث فرش الحروف أي تطبيق مذاهب الأصوات في سور القرآن سورةً سورة،[٢٢٩] وتبدأ بالخلافات في الاستعاذة

---

[٢١٩] أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م (جزآن).

[٢٢٠] السابق، ج١، ١٠١–١١٠.

[٢٢١] في القراءات الصحيحة «السبعة في القراءات» لابن مجاهد، «والحجة في القراءات» للفارسي.

[٢٢٢] أربعة كتب في علوم القرآن، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٢٥–٣٥.

[٢٢٣] السابق، ص٢٥.

[٢٢٤] السابق، ص٢٨.

[٢٢٥] السابق، ص٣٠.

[٢٢٦] أبو عمرو الداني، مفردة نافع عبد الرحمن المدني، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

[٢٢٧] هؤلاء الأربعة هم: إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري، إسحق بن محمد المسيبي، عيسى بن مينا قالون، ورش المصري (السابق، ص١٥).

[٢٢٨] وهي ضم ميم الجمع، الهمزة، المد واللين، الإظهار والإدغام، الإحالة ... إلخ (السابق، ص٢٦–٤٨).

[٢٢٩] السابق، ص٤٩–٨١.

والتسمية، والثالث أكبرها.[٢٣٠] وبعض السور خالية من الأمثلة.[٢٣١] وتعدد القراءات مقدمة لتعدد المعاني، واختلاف الروايات مقدمة لاختلاف التفسيرات وليس فقط لحسن الأداء في فن التجويد.

(٤) «مفردة عبد الله بن كثير المكي» لأبي عمرو الداني (٤٤٤هـ)[٢٣٢]

وهي دراسة لقراءةٍ مفردة مع ذكر الاختلافات مع باقي القراءات. والاختلاف أهم من الاتفاق، والتعبير عنه بلفظ ابن كثير.[٢٣٣] وينقسم كعادة كتب علم القراءات إلى القسمة الثلاثية الشهيرة: الأسانيد، والحروف أي الأصوات، ثم فرش الحروف أي تطبيق الأصوات على القرآن سورةً سورة، وآيةً آية،[٢٣٤] وهو الجزء الأكبر، وليس في كل سورة اختلاف.[٢٣٥] ويشمل علم الأصوات الموضوعات المعروفة في كل كتاب بمناسبة سورة البقرة.[٢٣٦] فالقراءة هي منطق الرواية الشفاهي كما أن التواتر هو منطق الرواية المدونة. وبالرغم من وجود أبواب لها عناوين في عباراتٍ شارحة وفصول بلا عناوين إلا أنها لا تخلو من التحليل النظري، وتكتفي بمجرد رصد اختلاف القراءات بين الروايات.[٢٣٧] ولا تتجاوز القراءة التشكيل إلى بيان المعاني. وتنتهي الدراسة بالتكبير الذي يعني ليس مجرد قول «الله أكبر» بل التعظيم والتهليل والمدح والإطراء بعيدًا عن القصد والعمل والعقل. وانفراد القراءة

---

[٢٣٠] القسم الأول (٨)، الثاني (٢٣)، الثالث (٦٦).

[٢٣١] السابق، ص٦٥.

[٢٣٢] أبو عمرو الداني: مفردة عبد الله بن كثير المكي، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

[٢٣٣] «هذا الكتاب أذكر فيه قراءة أبي معبد عبد الله بن كثير المكي الداري من رواية أبي عمرو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن سعيد بن جرجة المخزومي المكي المعروف بقنبل عن أبي الحسن أحمد بن محمد القواس عن أصحابه، فيما خالف فيه نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، من رواية عيسى بن قالون عنه دون ما اتفقا عليه، وأجعل ذلك بلفظ ابن كثير خاصة دون لفظ نافع؛ ليقرب حفظه على الطالبين ويسهل مآخذه على المنتقلين ...» (السابق، ص١٥).

[٢٣٤] الأسانيد ص١٧–٢٧، الحروف والأصوات ص٢٨–٣٨، فرش الحروف ص٣٩–١٠٨.

[٢٣٥] السابق، ص٩٩، ١٠٤، ١٠٧–١٠٨.

[٢٣٦] ومثل: المد والقصر، الهمزة، الإظهار والإدغام، الفتح، ياءات الإضافة.

[٢٣٧] السابق، ص١٠٩.

بخصوصيات تعني أنها فن وأداء،[٢٣٨] تعتمد على الشعر لضبط القراءة بالنسق البلاغي الشعرى.[٢٣٩] ويحيل العمل إلى باقي الأعمال؛ مما يدل على وحدة مشروع التأليف.[٢٤٠] ويضاف إلى الكتاب ملحق بنفس البنية الثلاثية: الأسانيد والأصوات وفرش الحروف؛ لذكر الاختلافات بين القراءات.[٢٤١] ومن الصعب الآن العودة إلى التاريخ بعد أن استقرت القراءات التداولية في آذان الناس. أما الفهارس التحليلية فهي مادةٌ خامٌّ جيدة لتحليلها وإيجاد دلالاتها على علم القراءات.[٢٤٢]

(٥) «مفردة أبي عمرو بن العلاء البصري» لأبي عمرو الداني (٤٤٤هـ)[٢٤٣]

وموضوعه اختلاف هذه القراءة عن باقي القراءات بلفظ البصري.[٢٤٤] ويتبع نفس القسمة الثلاثية في علم القراءات: الأسانيد، والأصوات، وفرش الحروف. وأكبرها القسم الثالث التطبيقي كالعادة.[٢٤٥] ويبدأ بذكر فضائل صاحب القراءة وأئمته الذين أخذ عنهم القراءة وصولًا إلى الرسول. والمؤلف يجمع بين تراث المغرب وتراث المشرق، من قرطبة إلى الشام. ويقوم منطق الكتاب على ذكر القراءة من الرواية ثم رصد الخلاف بين قراءة وأخرى بلفظ القارئ على سبيل الاقتصاد والإيجاز.[٢٤٦] أما المذاهب الصوتية فإنها تعتمد على

[٢٣٨] السابق، ص١٣٧.

[٢٣٩] السابق، ص٦٢.

[٢٤٠] السابق، ص٣٦.

[٢٤١] الاختلاف بين قنبل والبزي عن أصحابهما (السابق، ص١٠٩–١٣٨).

[٢٤٢] وذلك مثل فهرس مصطلحات التجويد، وفهرس الأعلام، وفهرس الجماعات والقبائل، وفهرس الأماكن، وفهرس القوافي، وفهرس الكتب المذكورة في المتن، وفهرس الآيات والشواهد.

[٢٤٣] أبو عمرو الداني: مفردة أبي عمرو بن العلاء البصري، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

[٢٤٤] تهذيب قراءة أبي عمرو بن العلاء المازني البصري من رواية أبي عمر حفص بن عمر الدوري، عن اليزيدي، عنه، مما خالف فيه ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، من رواية عيسى بن مينا قالون عنه، بلفظ أبي عمر خاصته على سبيل الاختصار والإيجاز (السابق، ص٢٢–٢٣).

[٢٤٥] الأسانيد ص٤٠–٤٥، الأصوات ص٤٥–٧٤، فرش الحروف ص٧٥–١٥٧.

[٢٤٦] السابق، ص٢٥–٣٩.

طبيعة الأصوات ومخارج الحروف والسهولة الطبيعية والجمال الصوتي.[٢٤٧] والإعراب مدخل للقراءة، ويعتمد على الشعر باعتباره تقابلًا نسقًا بلاغيًّا سابقًا على القراءة، كما يعتمد على بعض الأحاديث التي يتدخل فيها الخيال والإخراج إلى حدٍّ كبير مثل روايته في المنام.[٢٤٨] وينتهي بملحق عن أسانيد رواية السوسي وأصواتها وتطبيقها على فرش الحروف.[٢٤٩]

(٦) «تهذيب الاختلاف» لأبي عمرو الداني (٤٤٤هـ)[٢٥٠]

وبعد دراسة مفردات القراءة تأتي المقارنات من أجل «تهذيب الاختلاف»، وإيجاد العناصر المشتركة بينها عن طريق وسيطٍ قادر على الجمع بين قراءتَين،[٢٥١] يكشف عن مستوًى أعلى من التنظير، ويضع منطقًا للاختلاف. ورواية الاختلاف عامل مساعد، واللفظ هو مستوى الجمع والفرق.[٢٥٢] وقد تم التأليف بناءً على سؤال.[٢٥٣] وهي نفس المادة في المفردات الثلاث

---

[٢٤٧] مثل: المد، الهمزة، الإدغام، الإمالة، الياءات، الروم والإشمام ... إلخ (السابق، ص٤٧–٧٤).

[٢٤٨] السابق، ص٢٥.

[٢٤٩] السابق، ص١٥٨–١٧٧.

[٢٥٠] أبو عمرو الداني، تهذيب الاختلاف، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ص٨٢–١٤٤.

[٢٥١] «تهذيب الاختلاف بين أبي موسى عيسى بن مينا قالون من طريق أبي نشيط محمد بن هارون عنه بلفظه، وبين أبي سعيد ورش، وكلاهما عن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم على سبيل الإيجاز والاختصار. وفيه الاختلاف بين أحمد بن يزيد الحلواني وبين أبي نشيط، وكلاهما عن قالون بلفظ الحلواني، وفيه الاختلاف بين أبي علي الجمال الرازي وبين أبي عون الواسطي، وكلاهما عن الحلواني عن قالون بلفظ أبي عون. وفيه الاختلاف بين القاضي إسماعيل بلفظه وبين أبي نشيط، وكلاهما عن قالون» (السابق، ص٨٣).

[٢٥٢] السابق، ص٨٣.

[٢٥٣] «سألتَني، نفعنا الله وإياك، أن أُخرج لك الاختلاف بين أبي موسى عيسى مينا قالون المقرئ وبين أبي سعيد عثمان بن سعيد ورش المقرئ فيما اختلفا عن نافع بن عبد الرحمن بن نعيم المدني من الأصول المطردة ومن فرش الحروف المتفرقة دون ما اتفقا عليه عنه من ذلك فأجبتُك إلى ما سألتَه، وخرجتُ ذلك لك على ما رغبتَه، وجعلتُه مفردًا بلفظ قالون خاصة من رواية أبي نشيط محمد بن هارون عنه دون لفظ ورش لكي يقرب عليك حفظه ويخف عليك متناوله» (السابق، ص٨٤).

مكررة؛ مما يدل على وحدة العمل، والإحالة بعضه إلى البعض.[٢٥٤] ويتبع نفس القسمة الثلاثية لمعظم كتب علم القراءات: الأسانيد، وعلم الأصوات وفرش الحروف، ويضيف ثلاثة أجزاء عن الاختلافات.[٢٥٥] وتتكرر عناصر علم الأصوات.[٢٥٦] وتفيد الفهارس التحليلية في إيجاد بعض الدلالات بالنسبة لنشأة مصطلحات علم التجويد، وبالنسبة للأعلام، والأماكن وأهمية مصر، والآيات والشواهد.[٢٥٧]

(٧) «مفردة قراءة ابن كثير المكي» للموصلي (٧١٣هـ)[٢٥٨]

والغرض من الكتاب تجريد مذهب ابن كثير، وإفراد مذهبه وروايته وقراءته ومراجعة ما قاله الشاطبي عنه عن طريق شاهدَين عدلَين. هي دراسة على قراءة، دراسة الموصلي على قراءة ابن كثير مثل الدراسات الحديثة. ويهتم بالاتفاق أكثر من الاختلاف.[٢٥٩] ويُعرِّف الكتاب باسم القارئ وكنيته ونسبه ومناقبه وسنده واتصاله بالنبي، ومولده ووفاته، وذكر روايته وسند قراءته، واتصالها بابن كثير.[٢٦٠] وينقسم كالعادة إلى القسمة الثلاثية الشهيرة في علم القراءات: حياة القارئ، والمذاهب الصوتية بمناسبة سورة الفاتحة، وفرش الحروف ابتداء من سورة البقرة، وينتهي بالتكبير.[٢٦١] وأكبرها القسم الثالث التطبيقي،

---

[٢٥٤] وهي إحالات إلى مؤلفات الداني الأخرى كالأصول والتمهيد والتهذيب (السابق، ص٩٧، ٩٩، ١١٤، ١٤٣).

[٢٥٥] الأسانيد ص٨٥–٨٩، الأصوات ص٨٩–١١٠، فرش الحروف ص١١١–١٢٠، الاختلاف بين أبي نشيط والحلواني ص١٢١–١٣٠، الاختلاف بين أبي عون والجمال وكلاهما عن الحلواني ص١٣١–١٣٦، الاختلاف بين إسماعيل بن إسحاق القاضي وأبي نشيط وكلاهما عن قالون ص١٣٧–١٤٤.

[٢٥٦] مثل ميم الجمع، المد والقصر، الهمزة، الإظهار والإدغام، الفتح والإمالة، الراءات واللامات، الياءات ... إلخ.

[٢٥٧] السابق، ص١٥١–١٦٥.

[٢٥٨] أبو موسى جعفر مكي الموصلي، مفردة قراءة ابن كثير المكي، تحقيق وتعليق د. خالد أحمد الشهداني، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

[٢٥٩] السابق، ص١٩–٢١.

[٢٦٠] السابق، ص٢٢–٢٨.

[٢٦١] التعريف بالقارئ ص٢٢–٢٨، المذاهب الصوتية ٣٧–٧٢، فرش الحروف ص٧٣–٢٧٤، التكبير ص٢٧٥–٢٨٢.

والمذاهب الصوتية متكررة.[٢٦٢] وبعد أن استقرت القراءة الآن وأصبحت متداولة أصبح علم القراءة علمًا تاريخيًّا خالصًا من أجل العلم. وربما ما زالت بعض الخلافات في التشكيل الذي يغير المعنى. ويستعمل الشعر لضبط بعض الاختلافات في القراءة؛ فالشعر والقرآن نسقان بلاغيان.[٢٦٣]

(٨) «رسالة في علم القراءة بالقراءات الشواذ» ليوسف أفندي زاده (١١٦٧هـ)[٢٦٤]

ولم يقتصر التأليف في علوم القرآن على القراءات السبع أو العشر بل شملت أيضًا القراءات الشاذة. تعتمد على السابقين والاقتباسات منهم والتنصيص عليها بعلامة «انتهى».[٢٦٥] وتذكر فتاوى ابن الصلاح والنووي والسبكي وابن الحاجب والعسقلاني في تحريم القراءات الشاذة، وهي لبُّ الكتاب.[٢٦٦] كما يعتمد على الشعر أكثر من القرآن والحديث.[٢٦٧] ويحيل إلى بعض كتب أصول الفقه الحنفي مثل أصول البزدوي.[٢٦٨] والمؤلف يصف نفسه بصفات الاحتقار والذل باسم التواضع.[٢٦٩] والقراءة الشاذة ما لم تتوافر فيها الشروط الثلاثة: موافقة اللغة العربية، وموافقة أحد المصاحف العثمانية، وتواتر نقلها.[٢٧٠]

(٦) علم الأصوات

والقرآن غير القراءات؛ القرآن هو الوحي المنزل على محمد للبيان والإعجاز، في حين أن القراءات اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتشديد مثل القراءات السبع، تتضمن التعبير، وهي متواترة أو مشهورة عند الجمهور. وقد استثنى البعض الألفاظ المختلف فيها عند القراء أو أوجه الأداء مثل المد والإمالة وتحقيق الهمزة بالنقل

---

[٢٦٢] مثل: الوقف والابتداء، هاء الكناية، المد والقصر، المد، الهمز، الحركة والسكون، الإظهار والإدغام، الدال والذال، تاء التأنيث، لام هل وبل، التاء والثاء ... إلخ.

[٢٦٣] السابق، ص٩٧.

[٢٦٤] أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الأماسي الإسلامبولي الحنفي المدعو بيوسف أفندي زاده (١٠٨٥–١١٦٧هـ/ ١٦٧٤–١٨٥٤م)، رسالة في علم القراءة بالقراءات الشواذ، تصدير وتقديم وتحقيق تغريد محمد عبد الرحمن حمدان وعمر يوسف عبد الغني حمدان، مطبعة الطيرة، الطيرة، سلسلة تحقيق التراث الإسلامي (١)، العلوم القرآنية، علم القراءات، تصدرها وتشرف عليها دار الندوة، الطيرة.

أو التبديل أو الوسط أو الإسقاط. وهي اختيارية وليست توقيفية، من اختيار الفصحاء واجتهاد البلغاء، اختفى التمييز بينها ابتداءً من القرن الخامس.[٢٧١]

(أ) التأليف في الموضوع

(١) «الإدغام الكبير» لأبي عمرو البصري (١٥٤هـ)[٢٧٢]

وهو أحد موضوعات علم القراءات. وهي دراسةٌ صوتيةٌ نظرية تبدأ بتعريف الإدغام ثم تطبيقه على القرآن سورةً سورة. فالإدغام هو اللفظ بحرفَين حرفًا كالثاني مشددًا، وينقسم إلى كبير وصغير؛ الكبير ما كان الأول من الحرفين متحركًا، والصغير ما كان الأول فيهما ساكنًا. وينقسم إلى فصلَين: الأول رواته؛ فالرواية مصدر العلم، والثاني أحكامه وأداؤه، ويعتمد على الشعر.[٢٧٣] وتنقسم بعض الفصول إلى تنبيهات.[٢٧٤]

(٢) «القطع والائتناف أو الوقف والابتداء» للنحاس (٣٣٨هـ)[٢٧٥]

والمصطلحان الأوليان غريبان، والثانيان مألوفان؛ فالقطع هو الوقف والائتناف هو الابتداء. هي قضية الوقوف أو الاستمرار في قراءة القرآن بحيث لا يتغير المعنى المقصود، وتعتمد

[٢٦٥] السابق، ص٤٩–٥٨.

[٢٦٦] السابق، ص٤٠–٨٢.

[٢٦٧] الأشعار ص٤–٥.

[٢٦٨] السابق، ص٧.

[٢٦٩] «فيقول أحقر خدام القرآن وأدنى أهل هذا الشأن …» (السابق، ص١).

[٢٧٠] السابق، ص٢.

[٢٧١] الإتقان، ج١، ٢٢٢–٢٢٣؛ البرهان، ج١، ٣١٨–٣٣٨.

[٢٧٢] الإمام زبان بن العلاء بن عمار الشهير بأبي عمرو البصري، الإدغام الكبير، تحقيق أنس بن محمد حسن مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٧.

[٢٧٣] السابق، ص٧–٣٤.

[٢٧٤] السابق، ص٨، ٢٠.

[٢٧٥] أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، القطع والائتناف أو الوقف والابتداء، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

على الذوق في الفهم، والاتساق في المعنى، والبداهة والفطرة، وقد أفاض فيه النحويون.[٢٧٦] وتضم مقدمة شبه نظرية عن الموضوع تبين نشأة الموضوع بتوجيهٍ قرآني.[٢٧٧] ثم تذكر فضائل القرآن وفضائل أهله.[٢٧٨] ثم تذكر قراءة النبي وتبيينه إياها، وإنكاره الوقف على غير تمام، وكيف تعلم أصحابه القرآن.[٢٧٩]

وقد تكلَّم الصحابة والتابعون في الموضوع من قبلُ[٢٨٠] فهو موضوع في أتمِّ الحاجة إليه[٢٨١] ويذكر الكتاب أسانيد القراءات.[٢٨٢] ثم يبدأ التطبيق العملي بعد ذلك سورةً سورة.[٢٨٣] وتذكر العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار.[٢٨٤]

(٣) «المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (٩٢٦هـ)[٢٨٥]

والمتن للعماني،[٢٨٦] والزيادة من المقري.[٢٨٧] ويدخل في الأصول النظرية مباشرة.[٢٨٨] ثم يطبقها في عرضٍ طولي من الفاتحة إلى الناس.[٢٨٩] وبدلًا من الذل في وصف المؤلف نفسه يكون التفخيم والتعظيم في الدنيا والآخرة إلى درجة الغرور.[٢٩٠]

(٤) «منار الهدى في بيان الوقف والابتدا» للأشموني (القرن الحادي عشر)[٢٩١]

وتظل القسمة الثلاثية التقليدية في علوم القرآن مع تقليص أسماء الرواة والأصول النظرية وتكبير العرض الطولي التطبيقي سورةً سورة، وآيةً آية[٢٩٢] يقتصر الأول على فائدةٍ أولى؛ ذكر الأئمة الذين اشتهر عنهم هذا الفن،[٢٩٣] ويقتصر الثاني على فائدةٍ ثانية في الوقف والابتداء مع تنبيهاتٍ مهمة،[٢٩٤] ويفصل الثالث الوقف والابتداء في كل سورة،[٢٩٥] وينتهي

---

[٢٧٦] السابق، ص١٩–٣٥.

[٢٧٧] مثل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، السابق، ص١٩–٢١.

[٢٧٨] مثل: «إن خيركم من قرأ القرآن وعلَّمه» (السابق، ص٢٢–٢٦).

[٢٧٩] مثل قول الرسول لمن جمع بينه وبين الله «بئس الخطيب أنت!» وأيضًا «إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، اقرءوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا تختموا ذكر عذاب برحمة» (السابق، ص٢٧–٢٨).

بفائدة تتعلق بمعاني ألفاظ القرآن، انتقالًا من علم الأصوات إلى علم المعاني من مؤلَّفٍ آخر.[٢٩٦] ويظهر مكان الوحي داخل فرش الحروف وتحديد كل سورة مكية أو مدنية؛ ما يبدو تجميع بعض الآيات حول الآية المذكورة، ما يدل على بداية تشكل التفسير الموضوعي، وتظهر بعض العناوين الجانبية لإبراز موضوعاتها لكسر حدة العرض الطولي، كما تبرز

---

[٢٨٠] السابق، ص٢٩–٣١.

[٢٨١] السابق، ص٣٢–٣٤.

[٢٨٢] السابق، ص٣٥.

[٢٨٣] المقدمة (٢٧)، التطبيق (٥٤٦).

[٢٨٤] الآيات (١٣٥)، الأحاديث (٤٩)، الأشعار (١٠٨).

[٢٨٥] شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري، المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، علَّق عليه شريف أبو العلاء العدوى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م/١٤٢٧هـ. (أسفل كتاب «منار الهدى»).

[٢٨٦] «فهذا مختصر المرشد في الوقف والابتداء الذي ألَّفه العلامة أبو محمد الحسن بن علي بن سعيد العماني ...» (السابق، ص٩).

[٢٨٧] «وأنا أذكر مقصود ما فيه مع زيادة بيان محل النزول وزيادة أخرى غالبها عن أبي عمرو عثمان بن سعيد المقري» (السابق، ص١٠).

[٢٨٨] وهي الألف الوصل، الياءات، هاء التأنيث، الهاءات، هاء الكناية، الوقوف على آخر الكلمة المتحركة منونةً وغير منونة، كلا، ضم كلمتَين (السابق، ص٢٤–٦٩).

[٢٨٩] السابق، ص٧٠–٨٦٩.

[٢٩٠] «قال سيدنا ومولانا قاضي القضاة شيخ مشايخ الإسلام، ملك العلماء الأعلام، عمدة المحققين، زين الملة والدين ... متع الله، وتبتهج سرورًا. وقد أخبر عنهم الصادق المصدوق، ممثلًا بأنهم جراب مسك وأعظِم بذلك فخرًا وتبشيرًا. فيا لها من نعمة طهروا بها تطهيرًا، وجاوزوا بها غرًّا ومهابة وتحبيرًا! فهم أعلى الناس درجات في الجنان، تخدمهم فيها الملائكة الكرام عشيًا وبكورًا، ويقال لهم في الجنتَين وتبشيرًا ...» (السابق، ص٧–٨).

[٢٩١] أحمد بن محمد عبد الكريم الأشموني: منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، علق عليه شريف أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م/١٤٢٧هـ.

[٢٩٢] القسم الأول (١٢)، الثاني (١٧)، الثالث (٨٠٠).

[٢٩٣] السابق، ص١٢–٢٣.

[٢٩٤] السابق، ص٢٤–٦٩.

[٢٩٥] السابق، ص٧٠–٨٧١.

[٢٩٦] هو إسماعيل النيسابوري (السابق، ص٨٧٢–٨٨١).

بعض الفوائد،[٢٩٧] ويتم الاعتماد على الشعر في حين يغيب الحديث،[٢٩٨] وتظهر عبارات التواضع الذي قد يصل إلى الذل لوصف المؤلف نفسه.[٢٩٩]

(ب) آليات القراءة

وهناك عدة آليات للقراءة أهمها:

(١) الوقف والابتداء أحد وسائل منطق القراءة[٣٠٠]

وهما مرتبطان بالنفَس في النطق من أجل الاستراحة في الكلام؛ فالنطق عناء وجهد، وليس مجرد تلفظ بالقول. لا يخلُّ بالمعنى ولا بالفهم[٣٠١] وهو مثل فن «المونتاج» في الشريط السينمائي، متى يتم قطع صورة أو وصلها؛ لذلك خرجت مذاهب في فن الوقف والابتداء.[٣٠٢] وهو ليس فنًّا واحدًا في عدد التقطيع، قد يكون ثلاثةً أو أربعةً أو خمسةً أو ثمانيةً.

والوقف اختياري واضطراري؛ الاختياري طبقًا لتذوق المعنى وحرية الفهم، وفردية القارئ، وشخصية المستمع. وهو الجانب الذاتي في القراءة، والاضطراري هو ما يحافظ على المعنى دون الإخلال به إلى اللامعنى. وهو الجانب الموضوعي في القراءة؛ لذلك لا يتم الوقف والابتداء بتصنُّع بعض القراء وتكلفهم أو تأويل بعض الأهواء ووجود أحكامٍ مسبقة، لا يتم عن تعمد وسوء نية بل عن طبيعة وحسن نية.[٣٠٣] ويحتاج إلى كثير من

---

[٢٩٧] مثل مطلب عدد ياءات الزوائد، مطلب ينفع القارئ، مطلب عدد الأنبياء الذين في القرآن، مطلب فيما اتُّفق عليه من قطع في عن ما، فائدة، فائدة نفيسة.

[٢٩٨] الأشعار (١٣٥).

[٢٩٩] «أما بعد. فيقول العبد الفقير القائم على قدمَي العجز والتقصير، الراجي عفو ربه القدير ...» (الأسبق، ص٨–٩).

[٣٠٠] الإتقان، ج١، ٢٣٠–٢٥١؛ البرهان، ج١، ٣٤٢–٣٧٥.

[٣٠١] مثال ذلك ضرورة الربط بين ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الإتقان، ج١، ٢٤٣).

[٣٠٢] الإتقان، ج١، ٢٣٩–٢٤٠.

[٣٠٣] السابق، ص٢٤٣.

العلوم: القراءة، والقصص، واللغة، والفقه والنحو. ولا يقوم بالوقف والابتداء إلا عالمٌ نحويٌّ متخصص في القراءات، عالم بالتفسير والقصص وبلغة القرآن.[٣٠٤] وربما يضاف إليه عالم التفسير حتى لا يخطئ في المعنى، يجمعهم جميعًا العلم بالمعنى، وهو ليس بدعةً بل ضرورةٌ لضبط الفهم واستنباط الأحكام.[٣٠٥] وقد توجد حالات الموصول فيها لفظًا والمفصول فيها معنًى فتقتضى الأولوية للمعنى عن اللفظ. فاللفظ حامل للمعنى.[٣٠٦] وقد تختلف المصطلحات بين المتقدمين والمتأخرين؛[٣٠٧] إذ يطلق المتقدمون مصطلحات الوقف والقطع والسكت على الوقف، في حين أن المتأخرين فرقوا بينها؛ فالقطع هو إنهاء القراءة، والوقف قطع الصوت عن الكلمة زمنًا لإعادة التنفس ثم استئنافها بعد ذلك، والسكت قطع الصوت زمنًا دون زمن الوقف من غير تنفس.

والوقف على أنواعٍ كثيرة: تام، وحسن، وقبيح. التام يحسن الوقف عليه والابتداء بعده، ولا يكون بعده ما يتعلق به،[٣٠٨] والحسن ما يحسن الوقوف عليه، ولا يحسن الابتداء بعده،[٣٠٩] والقبيح ما ليس بتام ولا حسن؛ فلا يتم الوقف على المضاف دون المضاف إليه، ولا الموصوف دون وصفه، ولا الرافع دون المرفوع، ولا الناصب دون المنصوب، ولا المؤكد دون التوكيد، ولا المعطوف دون المعطوف عليه، ولا البدل دون المبدل منه، ولا إنَّ وكان وأخواتها دون أسمائها، ولا اسم دون خبر، ولا مستثنًى دون الاستثناء، ولا موصول دون الصلة، ولا الفعل دون المصدر، ولا الجار دون المجرور، ولا الشرط دون المشروط.

وقد ينقسم الوقف إلى أربعة أحكام: تامٌّ مختار، وكافٍ جائز، وحسنٍ مفهوم، وقبيحٍ متروك.[٣١٠] فالتام ما لا يتعلق بشيء بعده ويحسن الوقوف عليه، والابتداء بعده، وعادة ما يكون في نهايات الآيات؛ مثال ذلك ياء النداء والمنادى، ولام القسم والقسم. والكافي هو ما انقطع في اللفظ وتعلق بالمعنى، فيحسن الوقوف عنده، والابتداء بعده، وكل الآيات التي بها حروف التعليل والاستثناء، والاستدراك والاستفهام والتهديد، فالاتصال متطابق مع

[٣٠٤] الإتقان، ج١، ٢٤١–٢٤٣.

[٣٠٥] السابق، ص٢٤٣.

[٣٠٦] الإتقان، ج١، ٢٥٢–٢٥٤. وذلك مثل آية ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ﴾.

[٣٠٧] السابق، ص٢٤٣-٢٤٤.

[٣٠٨] السابق، ص٢٣٢، ٢٣٩؛ البرهان، ج١، ٣٥٠–٣٥٥.

[٣٠٩] مثل «الحمد لله» و«رب العالمين».

[٣١٠] الإتقان، ج١، ٢٣٢–٢٣٤.

سيلان الانفعال. والحسن هو ما يحسن الوقوف عليه ولا يحسن الابتداء بعده.[٣١١] والقبيح هو ما لا يُفهَم منه المراد حين الوقوف.[٣١٢]

ولا يجوز الوقف على حرفَين، بل على حرف دون آخر وإلا وقع التضاد.[٣١٣] وهناك استثناءات من الوصل بعد أسماء الصلة.[٣١٤] وهناك مذاهب على الوقف في المستثنى منه دون المستثنى بين الجواز المطلق والمنع المطلق.[٣١٥] ويجوز الوقف في النداء،[٣١٦] ولا يجوز الوقوف بعد القول،[٣١٧] ولا يجوز الوقوف بعد «بلى»، في سبعة مواضع وباقي المواضع عليها خلاف وبعضها جواز،[٣١٨] ويجوز الوقوف بعد «نعم» ولا يجوز.[٣١٩] وكل ما يجوز الوقف عليه يجوز الابتداء بعده.[٣٢٠]

وقد يكون الوقف خمس مراتب: لازم، ومطلق، وجائز، ويجوز لوجه، ومرخَّص لضرورة.[٣٢١] فاللازم ما وصل طرفاه وغير المراد.[٣٢٢] والمطلق ما يحسن الابتداء بعده كالاسم المبتدأ، والفعل المستأنف، والمفعول المحذوف، والشرط، والاستفهام، والنفي. والجائز ما يجوز فيه الوصل والفصل لتجاذبهما معًا. والمجوز لوجه في حالة السببية والجزاء مما يوجب الفصل والوصل معًا. والمرخص للضرورة في حالة عدم استغناء ما بعده عما قبله، لكن يرخص لانقطاع النفَس مع طول الكلام. ولا يلزم الوصل بالعود لأن الكلام مفهوم. وما لا يجوز الوقوف عليه كالشرط دون الجزاء، والمبتدأ دون الخبر. ويقبل الوقف حين طول الفواصل والقصص والجمل المعترضة.[٣٢٣]

---

[٣١١] مثل «الحمد لله» و«رب العالمين».

[٣١٢] مثل ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ﴾ ثم الابتداء بآية ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾.

[٣١٣] مثل الوقوف على «لا ريب» وعلى «فيه» (الإتقان، ج١، ٢٤١).

[٣١٤] السابق، ص٢٤٤–٢٤٥.

[٣١٥] السابق، ص٢٤٥.

[٣١٦] السابق، ص٢٤٦.

[٣١٧] السابق، ص٢٤٦.

[٣١٨] الإتقان، ج١، ٢٤٧–٢٤٨.

[٣١٩] السابق، ص٢٤٨.

[٣٢٠] السابق، ص٢٤٨.

[٣٢١] السابق، ص٢٣٤–٢٣٨.

[٣٢٢] مثل «وما هم بمؤمنين» وضرورة الوقف حتى لا يوصل بآية «يخادعون الله».

[٣٢٣] الإتقان، ج١، ٢٤٠–٢٤١.

وقد يكون الوقف على ثمانية أضرب: تام، وشبيه بالتام، وناقص، وشبيه بالناقص، وحسن وشبيه بالحسن، وقبيح وشبيه بالقبيح.[٣٢٤] وهي نفس القسمة الرباعية دون وضع حدٍّ فاصل بين الأقسام؛ نظرًا لوجود ظلال منها تربط بينها. فالتام هو ما يُتوقف عليه ويُبتدأ بعده، والشبيه بالتام ما يكون تامًّا في تفسير إعراب وقراءة غير تامٍّ على نحوٍ آخر مثل فواتح السور؛ لذلك يتفاضل التام. والناقص والشبيه بالناقص عكس التام والشبيه بالتام. والحسن إذا كان التعلق من جهة اللفظ. والشبيه بالحسن إذا كان حسنًا على تقدير، وكافيًا أو تامًّا على تقديرٍ آخر. والقبيح والشبيه بالقبيح عكسه. فالقبيح هو الوقف اضطرارًا والكلام لم يتم بسبب انقطاع النَّفَس أو عدم الفائدة أو فساد المعنى. ويتفاضل القبيح؛ فبعضه أقبح من بعض.

وللوقف في كلام العرب عدة أوجه أهمها تسعة: السكون، والرَّوْم، والإشمام، والإبدال، والنقل، والإدغام، والحذف، والإثبات، والإلحاق.[٣٢٥] السكون هو الأصل في الوقف على الكلمة المتحركة وصلًا وهو ضد الابتداء. لا يُبتدأ بساكن ولا يوقف على متحرك. والرَّوم النطق ببعض الحركة أو تضعيف الصوت بالحركة ويختص بالمرفوع والمجزوم والمضموم والمكسور دون المفتوح. والإشمام الإشارة إلى الحركة بغير تصويت. والإبدال في الاسم المنصوب المنوَّن يوقَف عليه بالألف بدلًا من التنوين. والنقل فيما آخره همزة بعد ساكن. والإدغام فيما آخره همزة بعد ياء أو واو زائدتَين. والحذف للياء الزائدة، إثباتها وصلًا وحذفها وقفًا. والإثبات للياء المحذوفة وصلًا وإثباتها وقفًا مثل «هادٍ، والٍ». والإلحاق ما يلحق بآخر الكلم من هاء ساكن مثل عمَّ.

وإذا كانت الصفة للاختصاص فلا وقف على الموصوف، وقد يجوز الوقوف على المستثنى منه دون المستثنى إذا كان متصلًا، ولا يوقف على الجملة الندائية، ولا يوقف على أسماء الصلة مثل «الذي» و«الذين».[٣٢٦]

وأما الابتداء فلا يكون إلا اختيارًا لا تدعو إليه الضرورة كالوقف. وأقسامه مثل أقسام الوقف الأربعة: التمام، والكفاية، والحُسن، والقبح، بحسب التمام وعدمه وفساد

---

[٣٢٤] السابق، ص٢٣٦–٢٣٨؛ البرهان، ج١، ٣٥٤–٣٥٥.

[٣٢٥] الإتقان، ج١، ٢٤٨–٢٥٠.

[٣٢٦] البرهان، ج١، ٣٥٦–٣٥٩.

المعنى وإحالته. وقد يكون الوقف حسنًا والابتداء قبيحًا، وقد يكون الوقف قبيحًا والابتداء حسنًا.[٣٢٧]

و«كلا» في القرآن على ثلاثة أقسام: ما يجوز الوقف عليه والابتداء به، وما لا يجوز الوقف عليه والابتداء به، وما يجوز الابتداء به دون الوقوف عليه، وتغيب القسمة الرابعة؛ ما لا يجوز الابتداء به وجواز الوقوف عليه. ولا يجوز الوقف بعد «كلا» إلا في سبعة مواقف للردع.[٣٢٨] ولا يوقف على «نعم» لاتصالها بما سبق.[٣٢٩]

(٢) والإمالة والفتح جائزتان وهما لغتان مشهورتان لدى فصحاء العرب

الفتح لغة أهل الحجاز والإمالة لغة أهل نجد. فالإمالة من الأحرف السبعة ومن لحون العرب.[٣٣٠] وترجع إلى الكسرة والياء، ويقعان بسبب كثرة الاستعمال ووجوههما أربعة: المناسبة والإشعار بالأصل أو في بعض المواضع أو بالشبه، وفائدتها سهولة اللفظ. وتُميل معظم القراءات العشر، وما يُمال مذكور فيها. وقد كرهها البعض؛ لضرورة تفخيم القرآن.[٣٣١] وهي مجرد رخصة، وهما أقرب إلى صوت الرجال، وبه غلظة وشدة، وتعظيم وتبجيل، وتحريك أوساط الكلم بالضم والكسر دون إمالة. وإذا كان المعنى لا يختلف فالأمر بغير ذي دلالةٍ كبيرة إلى حسن الصوت وتذوق القراءة وإيجاد المعنى.

(٣) الإدغام والإظهار والإخفاء والإقلاب من ظواهر القراءات

وهو جزء من علم الأصوات في الغرب الحديث؛ فالإدغام هو اللفظ بحرفَين حرفًا، وينقسم إلى كبير وصغير؛ الكبير ما كان أول الحرفَين متحركًا، وسمى كذلك لكثرة وقوعه، وسببه طلب التخفيف. والصغير ما كان الحرف الأول ساكنًا، وهو واجب وممتنع وجائز. وهو

---

[٣٢٧] الإتقان، ج١، ٢٣٨–٢٣٩.

[٣٢٨] البرهان، ج١، ٣٦٨–٣٧٥.

[٣٢٩] الإتقان، ج١، ٢٤٦–٢٤٧.

[٣٣٠] وقد ألَّف فيه كموضوعٍ مستقل ابن القاصح كتاب «قرة العين في الفتح والإمالة وبين اللفظين» ج١، ٢٥٥.

[٣٣١] نظرًا لحديث «نزل القرآن بالتفخيم».

قسمان: الأول إدغام حرف من كلمة في حروفٍ متعددة من كلماتٍ متفرقة. والثاني إدغام حروف قربت مخارجها وهي سبعة عشر حرفًا. وكل حرفَين التقيا أولهما ساكن وكانا مثلَين أو جنسَين يدغم الأول، وقد كرهه البعض. ويعاد الموضوع في أحكام النون الساكن والتنوين وأقسامها الأربعة: الإظهار، والإدغام، والإقلاب والإخفاء. فالإظهار لجميع القراء في ستة أحرف، والإدغام في ستة، والإقلاب عند حرفٍ واحد، والإخفاء عند باقي الحروف وهي خمسة عشر، وهي حالة بين الإدغام والإظهار، ولا بد من الغنة معه.[٣٣٢]

(٤) والمد والقصر جزء من جماليات الصوت وتذوق المعنى والإيحاء به للمستمع حين القراءة[٣٣٣]

المد هو زيادة مطٍّ في حرف المد عن الحد الطبيعي، والقصر عكسه، حذف الزيادة والإبقاء على المد الطبيعي، وهي لحروف العلة الثلاثة. وسببها لفظي ومعنوي؛ اللفظي همز أو سكون، وله سبع مراتب: القصر، فوق القصر قليلًا على أطوالٍ مختلفة حتى المرتبة السابعة وهي الإفراط. والمعنوي قصد المبالغة في النفي. وقد يجتمع السببان اللفظي والمعنوي مثل «لا إله إلا». وإذا تغير سبب المد جاز المد مراعاة للأصل. وإذا اجتمع سببان قويٌّ وضعيف عُمِل بالقوي.

(٥) ويخفف الهمز لأنه أثقل حروف العرب نطقًا وأبعدها مخرجًا. وفرض تخفيفه[٣٣٤]

وهو أربعة أنواع، النقل لحركته إلى الساكن قبله، والإبدال؛ تبديل الهمزة الساكنة حرف مدٍّ من جنس حركة ما قبلها، والتسهيل بينها وبين حركتها، والإسقاط بلا ثقل، وهو ما يسمى في النحو الحديث همزة القطع وهمزة الوصل، وهي تتبع جماليات النطق سهولةً أو صعوبة.

---

[٣٣٢] الإتقان، ج١، ٢٦٣–٢٧٠.

[٣٣٣] السابق، ج١، ٢٧١–٢٧٦.

[٣٣٤] السابق، ص٢٧٧–٢٧٨.

(٧) فن القراءة

ويمكن تجويد القرآن[٣٣٥] وهو حلية القراءة، وإعطاء الحروف حقها، هو رياضة للألسن والعناية بمخارج الحروف السبعة عشر. وقد يصل التجويد إلى حد الغناء. ويُبتدع فيه الترعيد والتخصيص والتطريب والتحزين. ويجوز أخذ قراءةٍ واحدة لاستمرار اللحن الواحد، كما يجوز الجمع بين عدة قراءات بشرط عدم التنافر بينها. ويمكن الجمع إما بالحرف أو بالوقف. وللجمع شروطٌ خمسة: حسن الوقف، وحسن الابتداء، وحسن الأداء، وعدم التركيب، ورعاية الترتيب دون تلفيق.

ومن أصل فن القراءة تحسين الصوت، والقراءة من المصحف خشية النسيان، والسؤال عنه حين التردد خشية الوقوع في الخطأ. ولا تقطع القراءة للحديث الجانبي مع أحد وترك اللفظ والحديث. ولا يقرأ بالأعجمية؛ فالقرآن لسانٌ عربيٌّ مبين. ولا يُقرأ بالشواذ. ويقرأ على ترتيب المصحف دون خلط سورة بسورة، أو القراءة التعليمية فيجوز أن تكون موضوعية في القصص أو في الأمثال أو في الأخلاق أو في الاجتماع أو في السياسة. وتُوفَّى الحروف حقها من القراءة، ويُسجَد عند قراءة آيات السجدة. وعند الختم يشرع في ختمٍ آخر. ولا تكرر سورة الإخلاص عند الختم، وهي تعادل ثلث القرآن. ولا يُتخذ القرآن معيشةً للتكسب فيها وهو ما عمَّ حول القبور، وتكون القراءة ثوابًا للميت وهو ما كثر في زيارات القبور.

والأوقات المختارة للقراءة بداية تحول القرآن إلى وثن وسحر وخرافة، مثل الليل أو النصف الأخير أو بين المغرب والعشاء أو بعد الصبح. ومن الأيام يوم عرفة ويوم الجمعة ثم الاثنين والخميس. ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان والأُوَل من ذي الحجة. ومن الشهور رمضان. ويبتدأ ليلة الجمعة وختمه ليلة الخميس. والختم أول النهار وأول الليل، وفي الشتاء أول الليل وفي الصيف أول النهار، في شهر أو نصف شهر أو جمعة أو ثلاثة أيام، ويصام يوم الختم. والتكبير من الضحى إلى آخر القرآن، والدعاء عقب الختم. وبهذه الطريقة تصبح القراءة حرفة ومهنة. إنما القراءة طبقًا للحاجة وبحثًا عن حل، وتلبية لمطلب.

---

[٣٣٥] السابق، ص٢٨١–٢٩١.

وللتلاوة آدابها.[٣٣٦] وهي آدابٌ عامة للعلم واحترام كتب العلم مثل القرآن، وهي مقدمة لتحويل القرآن إلى أُحجيات، ومن هذه الآداب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته. والخشية الآن المغالاة فيه ونسيان العالم، زيادة في الحسنات وشفاعة به يوم القيامة ونزول البركة على أهله وإنارته. هو مأدبة الله، لا يُنسى بعد الذكر، ويؤخذ في العهود. ويستعاذ بالله قبل القراءة، وتقرأ البسملة، ولا تحتاج إلى نية، في حين أن الأعمال بالنيات، والقراءة عمل وقصة. ويُرتَّل ترتيلًا تفخيمًا لألفاظه وتعظيمًا لها، والبكاء عند قراءتها، الذي يتحول هذه الأيام عند مشايخ الفضاء إلى تمثيل للتأثير في الناس، تكسُّبًا به. وهنا تصبح قراءة القرآن كالأحجبة المكتوبة. وتقوم بوظيفتها في التبرك والتعوذ بها، وكأن القراءة في حد ذاتها دون فهم قادرة على فعل الأعاجيب، وكما يحدث في الممارسات الشعبية خاصة عندما تحل المصائب.

وتكون القراءة في مكانٍ نظيف، والمسجد أفضل، وجلوس القارئ مستقبلًا القبلة بخشوع وسكينة ووقار، ويقرأ بعد السواك تعظيمًا وتطهيرًا. وهذه ليست آدابًا بل توصيات، والكثير منها بديهيٌّ ذوقي في آداب العلم والمتعلم. وعلى هذا النحو تدخل القراءة كجزء من الشعائر والرسوم، وتتحول تدريجيًّا من فعل «اقرأ» إلى فعل المقدس. ويتحول من دافعٍ ذاتي إلى شيءٍ موضوعي، ومن حاملٍ ذاتي إلى حاملٍ موضوعي.

---

[٣٣٦] السابق، ج١، ٢٩٢–٣١٨.

الفصل الثالث

التدوين

(١) التأليف في الموضوع

التدوين هو تحول النص الشفاهي إلى نصٍّ مكتوب، والصوت إلى الحرف، والقراءة إلى الكتابة. هو منطق النص القرآني المدوَّن من الحروف والألفاظ. والسؤال هو كيفية الانتقال من الشفاه إلى التدوين، ونقل الحروف السبعة إلى المصحف العثماني؟[١] ويرتبط علم القراءات بعلم الخطوط مثل طريقة كتابة الألف الرحمان أو الرحمن، السموات أو السماوات؛ لذلك كان الاتفاق مع المصحف من شروط صحة القراءة وبالتالي الكتابة.

وقد تم التأليف في الموضوع على نحوٍ مستقل مثل معظم موضوعات علوم القرآن قبل أن تنتظم كلها في علمٍ واحد في «البرهان» و«الإتقان»، وأهمها:

(أ) «كتاب المصاحف» للسجستاني (٣٣٠هـ)[٢]

«المصاحف» عنوانٌ آخر لعلوم القرآن، يشير إلى القرآن ككتابٍ مدوَّن، كشيءٍ مرئي وليس كوحيٍ مقروء ومسموع. وهي نظرةٌ تشبيهية وليست تنزيهيةً كما هو الحال في التجسيم والتشبيه في علم العقائد. ولا يشير إلى علوم القرآن ككلٍّ بل إلى أحد موضوعاته الجزئية وهو التدوين، ويعتمد على الرواية الشفاهية في تدوينه أو في مادته العلمية.[٣] وتكثر

---

[١] الإتقان، ج١، ١٤١.

[٢] السجستاني أبو بكر بن أبي داود سليمان بن الأشعث: كتاب المصاحف، دار الكتاب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

[٣] السابق، ص٥.

الروايات والأسانيد لدرجة أن تصبح أهم من المتون.[٤] يخلو من التحليلات النظرية أو الاستدلالات على اختلاف المصاحف في تدوينها. ويُكتفى برصد هذه الاختلافات لدراساتٍ نظريةٍ أخرى في علوم التدوين. خاصة علم الكتابة لتعليلها، وكيف يستطيع المعنى ضبط التدوين والقراءة.

وينقسم إلى خمسة أجزاء: الأول كتابة القرآن والأمر به وجمعه، والثاني توحيد مصحف عثمان بالرغم من الاختلافات بين مصاحف الصحابة، والثالث مقارنة وحدة مصحف عثمان مع تنوع مصاحف الصحابة، والرابع صنعة المصحف كتابةً وورقًا وتجليدًا وتغليفًا وتزيينًا، والخامس تجارة المصحف بيعًا وشراءً ونقلًا وتقديسًا. أكبرها الثاني وأصغرها الأول.[٥] وتتداخل الأجزاء فيما بينها مثل آخر الجزء الثاني عن اختلاف مصاحف الصحابة وأول الثالث حول نفس الموضوع.[٦] كما يتداخل الجزء الرابع عن المصحف كشيء للصناعة والجزء الخامس عن المصحف كسلعة للبيع والشراء،[٧] ويتم اتباع هذه الاختلافات سورةً سورة ابتداءً من البقرة.[٨]

وكلها موضوعاتٌ علميةٌ خالصة تتعلق بفن الكتابة. وتقسيمه إلى أجزاء، تعشيرًا أو تربيعًا كنوع من التسهيل والقسمة الكمية الإجرائية التي لا تؤثر في مضمونه.[٩] أما صنعة المصحف وتجليده وتذهيبه وتزيينه ونسخه ونقله والاتجار به فهي ظاهرةٌ اجتماعيةٌ اقتصاديةٌ فنية لا شأن لها بمضمون الوحي. ومنها حساسيات لم يعد لها وجود الآن مثل نسخه من نصراني أو تصغير الخط وتكبيره أو طريقة فصل السور أو ترقيمها وترقيم الآيات أو أخذ الأجر على كتابته أو قراءته أو تقسيم سوره إلى طوال وقصار. كلها ظواهرُ اجتماعيةٌ اقتصاديةٌ فنيةٌ متغيرة بتغير عادات المجتمع. أما وراثته والسفر به إلى أرض العدو أو تعليقه ووضعه في اتجاه القبلة فهو تحولٌ تدريجي من الكتاب إلى المقدس. كذلك عدم جواز مسِّه إلا عن طهر أو بعد مس الذكر أو ممن ليس على وضوء

[٤] السابق، ص١٤٥–١٦١.

[٥] الأول (٢٧)، الثاني (٥٢)، الثالث (٤٥)، الرابع (٤٢)، الخامس (٤٠).

[٦] السابق، ص٦٠–٩١، ٩٢–١٠١.

[٧] السابق، ص١٣٧–١٨٢، ١٨٣، ٢٢٤.

[٨] السابق، ص٦٧–٨٨.

[٩] السابق، ص١٣١–١٣٥.

أو رهنه؛ فكلها عاداتٌ اجتماعيةٌ متغيرة كما يحدث اليوم من تعليقه في الصدور وحول النحور ووضعه في العربات وفوق المناضد وفي الفنادق وتعليق أجزاء منه أحجبةً وتعاويذ أو تهاديه في المناسبات الوطنية والدينية في كافة الطبقات الاجتماعية من رؤساء الدول وقواد الجيش حتى الأفراح والأعراس، وحمله أمام الزفة من احتفال تتساقط عليه الورود وتتقدمه الراقصة. وأيضًا تقبيله بالشفتَين ووضعه على الجبين وعدم جواز حرقه، بقايا تقديس للجسد كرد فعل على تفعيل الروح. وثورة الاتصالات الآن تجاوزت هذا التصور الشيئي لمصدر العلم؛ إذ يمكن نقل المصحف الآن عبر شبكات الاتصال التي تخترق أرض العدو والصديق.

وبعد تقنين مصحف عثمان وتداوله في مشارق الأرض ومغاربها ما فائدة العودة إلى رصد الاختلافات بين مصاحف الصحابة؟ ألا يشكك ذلك في الصحة التاريخية للمصحف وهو ما يفعله المستشرقون؛ حتى يصبح النص القرآني مثل غيره من النصوص الدينية، التوراة والإنجيل، مشكوكًا في صحته. وإن كان القرآن لم يمر بفترةٍ شفاهية مثل الكتب المقدسة السابقة ليخضع لمناهج النقل الشفاهي كما خضع الحديث فإنه على الأقل يخضع لمناهج النقل الكتابي. وما زالت مناهج النقل التاريخي تعتمد على صدق الكاتب اعتمادًا على آية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ كما هو الحال في علم أصول الفقه مثل الإجازة والمناولة.[١٠] والسؤال اليوم هو: هل هذه الاختلافات صحيحة تاريخيًّا؟ ولماذا تكون أكثر صحة عن مصحف عثمان؟ وهل أهملها عثمان عن قصد أم لضعف تواترها؟[١١] وإذا كان البعض منها صحيحًا تاريخيًّا، وهو ما لا يمكن التيقن منه، فإن الأذن لم تتعوَّد عليه. وسيظل القرآن المقروء باللسان والمسموع بالآذان والمحفوظ في الصدور أقوى تأثيرًا في النفس من القرآن «المعدل» طبقًا لاختلافات الصحابة. وهل يستطيع النقاد اليوم، لطول المسافة الزمنية بين زمن التدوين وزمن اليوم وعدم عيشهم نفس تجارب القراء القدماء في السماع المباشر للقرآن الشفاهي قبل التدوين؛ أن يصلوا إلى نتائجَ مغايرة تمامًا لمصحف عثمان؟ وإذا وصلوا افتراضًا إلى شيء من هذا ألا يكون ضرره أكثر من نفعه ويجعل القرآن عرضة في كل عصر للتغيير والتبديل طبقًا لمهارة النقاد وتطور مناهج النقد؟

[١٠] السابق، ص٣٧–٤٠؛ من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١٥٠–١٦٦.

[١١] «اتفاق الناس مع عثمان على جمع المصاحف»، ص١٨-١٩.

(ب) «المحكم في نقط المصاحف» للداني (٤٤٤هـ)[١٢]

وهو جزء من علم القراءة والتدوين، وأثر كلٍّ منهما على الآخر واعتماد ذلك على علم النحو عند المتقدمين والمتأخرين.[١٣] ويُستعمل المنهج التاريخي لمعرفة متى بدأ التنقيط، وكيف تطور من القدماء إلى المحدثين، من المتقدمين إلى المتأخرين، وأهمية أبي الأسود الدؤلي كأول من اقترح التنقيط. ويعني التنقيط التشكيل والإعراب. وقد يسبب الخطأ في التنقيط خطأً في المعنى، وقد تكون صحة المعنى أحد وسائل ضبط التنقيط. وترجع حساسية الموضوع إلى التدخل في كتابة الوحي بعلاماتٍ ترشد إلى القراءة. وقد يتطور الوضع ويصبح تغييرًا في لفظ الوحي. وتقلُّ الشواهد النقلية في البداية ثم تكثر في النهاية، ويُستشهد بالشعر مرةً واحدة.[١٤] ولا يُتبع في التنقيط سورةً سورة وآيةً آية بل يُجمع طبقًا للحروف وهي بداية التنظير. والملحق في نهاية الكتاب استمرار له، ولا يتميز بشيءٍ خاص كنوع من الخاتمة التنظيرية للموضوع، إلا إذا كان الاستعانة برسم الحروف ومكان التنقيط عليها أو بجانبها يستحق جزءًا خاصًّا متميزًا عن الكتاب؛ وفي هذه الحالة يكون الكتاب صنعة وليس تأليفًا.[١٥] وفي النهاية يتعامل الكتاب مع المصاحف باعتبارها شيئًا يُرى بالخط ولا يُسمع بالأذن أو يُقرأ باللسان، فالحرف في النهاية بدن، والمعنى روح.[١٦]

والكتاب مقسَّم إلى أبواب وفصولٍ عدة دون تمييزٍ موضوعي بينها ودون ترقيم، والفصول بلا عناوين.[١٧] فأتت أقرب إلى الفقرات المتتالية حول بداية التنقيط بعد أن كانت المصاحف خالية منها ثم الحكم الشرعي فيه بين السلب والإيجاب، وقسمة المصاحف إلى

[١٢] الداني (الإمام الشيخ أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان): المحكم في نقط المصحف، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ.

[١٣] «هذا الكتاب علم نقط المصاحف وكيفيته على صيغ التلاوة ومذاهب القراءة فيما اتفقوا عليه وما اختلفوا، وعلى ما سنَّه الماضون، واستعمله الناقطون، وما يوجبه قياس العربية، وتحققه طريق اللغة، مشروط ذلك بأصوله وفروعه، مبينًا بعلله ووجوهه، مع ذكر السنن الواردة عن السلف الماضين والأئمة المتقدمين في النقط ومن ابتدأ به أولًا، ومن كرهه منهم، ومن ترخص فيه إلى غير ذلك مما ينضاف إليه ويتصل به من ذكر رسم فواتح السور ورءوس الآي والخموس والعشور، ومن أبى ذلك ومن أجازه» (السابق، ص٩).

[١٤] السابق، ص٤٠.

[١٥] السابق، ص١٢١–١٤٦.

[١٦] يستعمل في اللغات الأجنبية نفس الشيء بكتابة الحروف كما تقرأ مثل xvossing.

تعشير وتخميس، وما يجمع في أوائل السور من أسمائها ومكانها وعدد آياتها. ويشمل التنقيط علامات الوقف والوصل والحروف المعجمة، والتشديد والسكون والمد والتنوين والإدغام. وتأخذ الهمزة مساحةً طويلة ومواضع كتابة ومواضع كتابتها، والألف القصر والمد، وحذف حروف العلة وطريقة كتابتها. وهي موضوعات كانت لها مناسباتها القديمة واستقرت ولم تعد تثير أي إشكال في القراءة أو الكتابة.

(ج) «تناسق الدرر في تناسب السور» للسيوطي (٩١١هـ)[١٨]

يعرض لأسرار ترتيب القرآن، وهو أحد موضوعات علوم القرآن عن الترتيب الموضوعي التوفيقي عند القدماء وليس الترتيب الزماني التاريخي عند المحدثين. وبتعبير المحدثين الأول البنية، والثاني التاريخ. وهو صراعٌ قائم بين العرب والمستشرقين. فقد اختار العرب البنية، والمستشرقون التاريخ طبقًا لجدل الدفاع والهجوم. والتوقيف لا يحتاج إلى تعليل، ومع ذلك يتم تعليل الترتيب الموضوعي بمضمون السور حتى ولو بدا مفتعلًا. ويتم الربط بناءً على التفسير، تفسير مضمون السور، وربط آخر آية في السورة بأول آية في السورة التالية كبيان وجه الاتصال بين السورتَين. فالمناسبة في الموضوع وليس أسباب النزول، والموضوع هو العقائد والشرائع والمصالح. يفسر القرآن بالقرآن، ثم القرآن بالحديث، ويندر تفسير القرآن بالشعر لأنه لا ضرورة له إلا في تفسير القرآن باستعمالات اللغة والبلاغة.[١٩] والآيات منتقاة كأدلة وبالتالي ليست كثيرة. ويتم عرض المناسبات، سورةً سورة، وآيةً آية، طبقًا للفهم الطولي في علوم التفسير. ويعرض التبويب في الباب أول الكتاب كما هو الحال في الرسائل العلمية الحديثة، ويبدأ برصد أقوال السابقين، وهو تجميع لكثير منها؛ مما دفع خصومه مثل السخاوي إلى اتهامه بالسرقة العلمية، وهي عادة القدماء في التأليف في ثقافة لا تعرف حق الملكية الفكرية ونسبة الأفكار إلى أصحابها؛[٢٠]

---

[١٧] ومع ذلك الأبواب (٢٠)، والفصول التي تنقسم إليها بعض الأبواب (١٥).

[١٨] الحافظ جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، دار الاعتصام، القاهرة، ج١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

[١٩] السابق، ص١٥٩.

[٢٠] السابق، ص٥٨.

فالأفكار تنتسب إلى حضارةٍ جماعية يشارك الجميع في صنعها؛[٢١] لذلك سُمي السيوطي «الحافظ».

(٢) تسمية القرآن

وأول مظهر من مظاهر التدوين التسمية، تسمية القرآن وسوره. التسمية إعلان وبيان.[٢٢] وقد سُمي القرآن على وزن ما سمى به العرب كلامهم، القرآن على وزن الديوان، والسورة كقصيدة، والآية كالبيت، والفاصلة كالقافية.[٢٣]

وللقرآن خمسون اسمًا يمكن تجميعها في أنواع: الأول ما يدل على الكلام قراءةً وكتابةً وحديثًا وتنزيلًا ووحيًّا وزبورًا. وقد يوصف كل اسم بوصف كتابٍ عزيز، كتابٍ مبين، القرآن الكريم، كلام الله، أحسن الحديث، العروة الوثقى، صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، ذكر مبارك، صراط مستقيم، حكمة بالغة، قول فصل، نبأ عظيم، قرآن عربي، القصص الحق. وأحيانًا يكون الوصف ثلاثيًّا متتاليًا مثل ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۞ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾. وأحيانًا تكون التسمية معرفة بالألف مثل «الكتاب»، «الفرقان»، «النبأ»، «الوحي»، «العروة»، أو «تنزيل رب العالمين»، «أمر الله» أو بالإضافة «كلام الله»، «حبل الله»، «صراطي»، «أحسن الحديث». وأحيانًا تكون نكرة «قرآن»، «نور»، «موعظة»، «شفاء»، «ذكر»، «حكمة»، «قول»، «روح»، «بيان»، «علم»، «حق»، «هداية»، «عجبًا»، «تذكرة»، «صدق»، «عدل»، «أمر»، «منادي»، «بشرى»، «مجيد»، «زبور»، «بشير»، «نذير»، «بلاغ». وهو في الغالب مفرد. وأحيانًا يكون مثنًّى مثل «مثاني». وأحيانًا يضاف إلى لام التوكيد مثل «لتنزيل»، «لتذكرة». وأحيانًا يكون جمعًا مثل «بصائر»، «قصص»، «صحف». وأحيانًا يأتي الاسم مفردًا وهو الغالب وأحيانًا عطوفة اسم على آخر مثل «هدًى ورحمة»، «صدق وعدل»، «هدًى وبشرى»، «بشير ونذير».

---

[٢١] Intellectual property. انظر أيضًا بحثنًا. Property and the concept of clash of civilizations, cultures and civilizations, Conflict or Dialogne, Vol. i. the meridian thought, pp. 335–344.

[٢٢] الإتقان، ج١، ١٤٣–١٦٣؛ البرهان، ج١، ٢٧٣–٢٨٢؛ وصنف فيه الحراني ووصلت إلى نيف وتسعين.

[٢٣] السابق، ص١٤٣.

والثاني «الكتاب المبين». الكتاب هو التدوين، الحروف والألفاظ. وهو مبين وواضح بالرغم من المبادئ اللغوية التي وضعها لشرحه وتفسيره وتأويله، وليس بالضرورة لأنه جامع للعلوم والقصص والأخبار.

وهو قرآن، وهو لفظ غير مشتق مثل لفظ «الله»، وإن كان مشتقًا فمن القراءة إذا كان مهموزًا أو من القران أو من القرن إن لم يكن مهموزًا من قرن السور والآيات بعضها ببعض أو من القرائن أي الأدلة التي يصدق بعضها بعضًا أو من البيان والتوضيح.[٢٤]

وهو «قرآن كريم» مقروء بالصوت، كريم في عطائه لمعانيه، وهو كلام الله وقولٌ فصل، يجمع بين الشفاهي والمدوَّن؛ كلام يُسمع ويُقرأ، وهو مشتق من الكلم أي التأثير، وهو نبأٌ عظيم للإخبار، وهو قول، وهو فصل، وهو أحسن الحديث الذي يُحدَّث به الناس، وهو «تنزيل» من رب العالمين، وهو «وحي» يُنذَر به، وهو «بلاغ للناس» لما أمروا به ونهوا عنه وليس لأنه بلغ بلاغة وكفاية عن غيره، وهو مبارك، وهو المهيمن، وهو الزبور أو السِّفر، إحالةً إلى الكتب المقدسة السابقة، ففُضِّل عليه المصحف.

والثالث على صيغه اللغوية مثل «مثاني»، «متشابه»، «عربي»، «بيان». فالمثاني إيقاعٌ موسيقي وليس لأنه بيانٌ ثانٍ لما تَقدَّمه من الكتب المقدسة، أو لتكرار المواعظ والقصص، أو لأنه نزل مرةً باللفظ ومرةً بالمعنى.[٢٥] والمتشابه حرية اختيارٍ معنوي وليس لأنه يشبه بعضه بعضًا في الحسن والصدق، والعربي نسبة إلى اللغة وتفرُّد العربية بين باقي اللغات، وهو بيان من الوضوح، وهو «عجب» مما أوحي بالإعجاز، وهو «قصص» أي شكل من الأشكال الأدبية، وهو «الحكيم» في النظم والبيان وإحكام الآيات دون تحريف أو تبديل أو تباين أو اختلاف، وهو العزيز المتعالي، وهو البصائر والرؤى.

والرابع يدل على المعارف النظرية مثل «علم»، «حق»، «صدق»، «فرقان»؛ هو «علم» لأنه يعطي المعارف النظرية، وهو «حق» لأنه علمٌ صادق، وهو «صادق» يمكن التحقق من صدقه، وهو حكمة طالما بحث عنها الفلاسفة، والحكمة وضع الشيء في محله.

والخامس مجموعة من الأسماء تدل على عالم الأخلاق والتوجه العملي مثل: «هدى»، «رحمة»، «موعظة»، «ذكر»، «قيم»، «تذكرة»؛ هو «هُدًى» و«هدْي»، توجيه وإرشاد نحو

---

[٢٤] بعد أن جمع أبو بكر القرآن طلب تسميته فاقترح البعض «إنجيل» والبعض الآخر «سِفر» وهو تسمية اليهود. واقترح ابن مسعود «المصحف» بناءً على ما رآه في الحبشة من كتب (الإتقان، ج١، ١٤٩).

[٢٥] وهو نفس اشتقاق اسم «سفر التثنية» Dèutronomy في العهد القديم.

الصراط المستقيم أو «هادي». وهو رحمةٌ مهداة، لا يشق على الناس، وهو موعظة وقيمة أخلاقية، وهو «قيم» لأنه قيمة تضع القيم، وهو «ذكر» و«تذكرة» ينبِّه الناس بما لديهم من فطرة، وإذكاء للوعي التاريخي، وهو «عدل»، فالصدق نظري وعملي، وهو أمرٌ وواجب، وهو «ينادي» على الناس للإيقاظ، وهو بشرى للناس بالنهاية السعيدة كما كان الإنجيل بشارةً طيبة، وهو «بشير»، وهو «نذير».

والسادس بعض الصفات الإنشائية للتمجيد والتعظيم مثل «عليٌّ»، «مجيد»، «عزيز»، «مُكرَّم»، «مُطهَّر»، «مرفوع»؛ فالعلو للقدر، والمجيد للعظمة والشرف، والعزيز للعزة على معارضته، والمكرَّم للاحترام، والمطهَّر للنقاء، والمرفوع للرفعة، وهو عجب.

وهناك مجموعة من الصور الفنية مثل «نور» وهو من صور الله ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وبه يدرك غوامض الكلام، وهو «فرقان» لأنه يفرق بين الحق والباطل، وهي أيضًا تسمية الفاروق عمر، صورةٌ مستقاة من السيف. وهو اسم لسوره وتفصيل آياته اسم «فصلت»، وهو شفاء، صورة مستقاة من علم الطب، يشفي من الأمراض القلبية كالجهل والغلِّ والحقد، أما الشفاء من الأمراض البدنية فعن طريق النفس نظرًا لارتباط الجسم بالنفس وليس مباشرة كما هو الحال في العادات الشعبية، قراءة القرآن على المريض أو كتابة أحجبة تعلق على الأعضاء المؤلمة. وهو حبل يعتصم به الناس. والحبل هو السبب الموصل للغاية. وهو «العروة الوثقى» التي تربط بين الناس. وهو صراطٌ مستقيم يمشي عليه الناس، طريق لا عوج فيه. وهو «روح» من أمر الله، تحيا به القلوب والنفوس، وهو إيمان ويقين في القلب.

(٣) تسمية السور

ليست أسماء السور توقيفًا من النبي وإلا لما اختلفت وتعددت. وكانت الأسماء تُقترح من الصحابة أيضًا ولا تُوقَف فقط من النبي.[٢٦] فلكل صحابي مصحف به أسماء سورٍ خاصة به؛ مما يدل على أنها من اختياره للتعرف عليها، فبعض السور لها أكثر من اسم مثل الفاتحة.[٢٧] وسورٌ أخرى لها أكثر من اسم أو ثلاثة أسماء.[٢٨] وتعدد أسماء

[٢٦] الإتقان، ج١، ٥٠؛ البرهان، ج١، ٢٦٩–٢٧٢.

[٢٧] وأيضًا فاتحة الكتاب، خاتمة القرآن، أم الكتاب، أم القرآن، القرآن العظيم، السبع المثاني، الكنز، الكافية، الأساس، النور، سورة الحمد، سورة الشكر، سورة الحمد الأولى، سورة الحمد القصرى، الرقية،

السور.[٢٩] قد يكون لكل سورة اسمان أو ثلاثة أسماء أو أكثر.[٣٠] وقد يجمع اسم واحد بين سورتَين.[٣١] وقد يكون الاسم الثاني اسمًا أو وصفًا، الاسم مفرد مثل تسمية النحل النعم، والموصوف عبارة مثل تسمية «يس» قلب القرآن، والطلاق النساء القصرى. وقد يتغير الاسم بالتشكيل مثل الممتحَنة أو الممتحِنة أو الاشتقاق مثل الممتحنة الامتحان، والتحريم المتحرم أو لمَ تحرم.

ويمكن استخراج أسماءٍ كثيرة لكل سورة من معانيها كما جرت بذلك عادة العرب. وكلما كان المعنى خاصية كان أقرب إلى الاسم مثل سورة «البقرة» أو «النساء» أو «الأنعام».[٣٢] وفي قصص الأنبياء إذا امتلأت سورة بأسماء الأنبياء يؤخذ اسمها من أكثر

الشفاء، الشافية، سورة الصلاة، الصلاة، الدعاء، السؤال، تعليم المسألة، المناجاة، التعويض. وسورة براءة: التوبة، والفاضحة، والعذاب، المشقشقة، والمنقرة، والبحوث، والحافرة، والمثيرة، والمبعثِرة، والمخزية، والمنكِّلة، والمشرِّدة والمدمِدمة. وسورة لم يكن: البينة، والقيامة، والبرية، والانفكاك.

[٢٨] البقرة، سنام القرآن، فسطاط القرآن. والمائدة، المنقِذة والعقود. الإسراء سبحان، وبني إسرائيل. وغافر الطَّول، والمؤمن. وفصِّلت، السجدة، والمصابيح. وسأل، المعارج، والواقع. وأرأيت، الدين، والماعون. والكافرون، المشقشقة، والعبادة. والجاثية، الشريعة، والدهر.

[٢٩] البرهان، ج١، ٢٦٩–٢٧٢.

[٣٠] للبقرة اسمان؛ فسطاط القرآن. واسم آل عمران في التوراة «طيبة». وتسمى «النحل» «النعم». وتسمى «حم عسق» الشورى. وتسمى «الجاثية» «الشريعة»، وتسمى «محمد» «القتال». ولسورة «المائدة» ثلاثة أسماء مع «العقود» «والمنقِذة». ولسورة «غافر» «الطَّول» «والمؤمن»، ولسورة براءة عدة أسماء أخرى مثل «التوبة» أو «القاصمة»، «الحافرة» «العذاب»، «المشعشعة»، «المبقرة»، «المسورة»، «البحوث» (السابق، ص٢٦٩).

[٣١] تسمى البقرة وآل عمران الزهراوان (الإتقان، ج١، ١٥٥)، والفلق والناس المعوذتان أو المشقشقتان، تسمى الأنفال بدر، والنحل النعم، والكهف أصحاب الكهف، محمد القتال، وق الباسقات، واقتربت القمر، والمجادلة الظهار، والحشر بني النضير، طه الكليم، الشعراء الجامعة، النمل سليمان، السجدة المضاجع، يس قلب القرآن، والنصر التوديع، وتبت المسد، والإخلاص الأساس، والشعراء الجامعة، والزمر الغرف، وغافر الطول.

[٣٢] «ينبغي البحث عن تعدد الأسامي: هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فلم يعدم القطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتفي اشتقاق أسماء لها.» وهو قول الزركشي في البرهان؛ الإتقان، ج١، ١٥٩–١٦٠. «ولا شك أن العرب تراعي في كثير من المسمَّيات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرَب يكون في الشيء من خُلق أو صفة تخصُّه أو يكون معه أحكم أو أكثر أو سبق لإدراك الرأي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها» (السابق، ص١٦٠).

الأنبياء تكرارًا أو من أطولهم في القصص خاصة إذا ما أخذت سورةٌ أخرى أسماءَ أنبياء آخرين حتى لا تتكرر أسماء الأنبياء أسماءً للسور.[٣٣]

وترتبط أسماء القرآن وسوره بالكتب المقدسة السابقة؛ فالقرآن هو «الزبور» وهو المهيمن على الكتب المقدسة السابقة ومطوِّرٌ لمضمونها.[٣٤] وقد تمت روايات بعض الأحاديث لتأكيد هذه الاستمرارية بين الكتب المقدسة السابقة والقرآن؛ فالتوراة هي السبع الطوال، والزبور هو المائتين، والإنجيل المثاني، وزِيدَ عليها المفصل في «فصلت».[٣٥] وقد تستمد بعض الأسماء من التوراة مثل «اقتربت» التي تسمى «القمر»، وفي التوراة «المبيضة».

ويمكن تصنيف الأسماء في سبع مجموعات: الأولى قصص الأنبياء بصرف النظر عن الترتيب الزمني أو الكمي، الطول والقصر.[٣٦] وقد يكون الاسم للنبي أو للعائلة مثل «آل عمران». وقد يكون لمعجزة للنبي مثل «المائدة» معجزة عيسى، و«الإسراء» معجزة محمد. وقد يكون جامعًا للأنبياء.[٣٧] والثانية أسماء الحيوانات.[٣٨] والثالثة تكون الأسماء طبقًا لأمور المعاد. الاعتقادية وهو البعد الجديد في الثقافة الجاهلية في شبه الجزيرة العربية.[٣٩] والرابعة تكون طبقًا للأمور الاجتماعية، والسياسية؛ مما يدل على جدل الوحي والواقع.[٤٠] كما تؤخذ من المجموعات والشعوب.[٤١] وهذا يدل على ارتباط الوحي بالأقوام والأوطان، والخامسة قد تكون طبقًا للموضوعات الخلقية مثل التوبة

---

[٣٣] الإتقان، ص١٦٠.

[٣٤] وهو ما يدل عليه اللفظ الألماني Aufheben.

[٣٥] الإتقان، ج١، ٢٤٥، ١٦٣.

[٣٦] سور الأنبياء (١٣)؛ نوح، هود، إبراهيم، يونس، سليمان، يوسف، محمد، المزمل، المدثر، مريم، لقمان، يونس، سبأ، آل عمران، أهل الكهف.

[٣٧] مثل سورة: الأنبياء، القصص، الأحزاب.

[٣٨] مثل: «البقرة»، «الأنعام»، «الفيل»، أو الحشرات مثل العنكبوت، أو الزواحف مثل النمل، أو الطيور مثل النحل.

[٣٩] مثل: الأعراف، الحشر، القيامة، الذاريات، الصف، القلم، الحاقة، المعارج، المرسلات، النبأ، النازعات، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الطارق، الغاشية، البينة، الزلزلة، العاديات، القارعة، الواقعة، يوم التغابن، اليوم الآخر، الكوثر، المسد، المجادلة، الجاثية، الزخرف.

[٤٠] مثل: الأنفال، الحج، السجدة، الشورى، الفتح، الحجرات، الصف، الجمعة، الطلاق، التحريم، المطففين، التكاثر، الماعون، النصر، الناس.

[٤١] مثل: الروم، الأحزاب، قريش، البلد.

والإخلاص من الفضائل، والهمزة من الهمز واللمز والغمز من الرذائل، وقد تكون من الموضوعات الإيمانية.[٤٢] ويتفرد الإنسان بسورة، كما يتفرد الجن نقيض الإنس بسورةٍ أخرى.[٤٣] والسادسة قد تكون بالنسبة إلى الظواهر الطبيعية.[٤٤] وقد تكون الأسماء بالنسبة للزمان.[٤٥] وقد يؤخذ الاسم من علاقة الله بالطبيعة مثل «فاطر»، «رب الفلق»، «ربك الأعلى»، «بيده الملك»، «غافر». والسابعة قد يؤخذ الاسم من الحروف في أوائل السور.[٤٦] وقد يكون «طه» اسمًا آخر للرسول كما هو الحال في الثقافة الشعبية، ليس حرفين. وليس كل السور التي تبدأ بالحروف اشتُقَّت أسماؤها منها مثل «الم» واسمها البقرة أو آل عمران أو الروح أو العنكبوت أو لقمان أو السجدة، ومثل «الر» اسمها يونس أو هود أو يوسف أو إبراهيم أو الحجر، وطسم واسمها الشعراء، وطس واسمها النمل، وطسم واسمها القصص، وحم واسمها غافر، وفصلت أو الشورى أو الزخرف أو الدخان أو الجاثية أو الأحقاف، نون والقلم. في أسماء السور حتى يسهل نطقها.

وقد تكون الحروف حرفًا أو اثنين، في حين أن الحروف أسماء السور قد تكون ثلاثية مثل «الم»، أو رباعية مثل «المص»، «المر» أو خماسية «كهيعص».

وإعراب أسماء السور بين التدوين واللغة، ومع ذلك فهي أقرب إلى الشكل منها إلى المضمون، ومن اللفظ أقرب منها إلى المعنى. وهي تتعلق ببداية السور عندما تصبح اسمًا لها من ضمن الأسماء الأخرى مثل ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾. وكذلك الحروف أوائل السور هل هي معربة أم مبنية، مصروفة أم ممنوعة من الصرف.[٤٧]

(٤) جمعه وحفظه

لم يُجمع القرآن في عهد الرسول بالإجماع. وفي أي عصر جُمع القرآن بعد ذلك؟ في أيٍّ من الخلفاء الأربعة؟ عليها خلاف، كما هو الحال في تدوين الإنجيل. النظريات المحافظة

---

[٤٢] مثل: التوبة، الإخلاص، الشرح.

[٤٣] مثل: المؤمنون، الكافرون، الشعراء، الماعون، المنافقون.

[٤٤] مثل: الرعد، النور، الدخان، الطور، النجم، القمر، الحديد، البروج، الشمس، التين.

[٤٥] مثل: الفجر، الليل، الضحى، القدر، العصر.

[٤٦] مثل: يس، ص، ق، طه، طس.

[٤٧] الإتقان، ج١، ١٦٢–١٦٣.

تجعل الجمع مبكرًا قدر الإمكان؛ الخليفة الأول. والنظريات الأكثر تحررًا وجرأة تجعله متأخرًا حتى الخليفة الرابع. ولا يهم الحسم التاريخي بل الدلالة النقدية؛ حجة الجمع المتأخر حرج المتقدمين من فعل ما لم يفعله الرسول.[٤٨] وقد يجمع بين العصور الثلاثة في نظرية الجمع ثلاث مرات، في كل عصر مرة، عصر الرسول، ثم أبي بكر، ثم عثمان، الجمع والترتيب.[٤٩] ويتسع عدد الجامعين أو يضيق طبقًا لبعض الأهواء السياسية، إذا اتسع فإن الإرث النبوي متاح للجميع، وإذا ضاق فإنه يقتصر على نخبةٍ صغيرة تجمع بين النبوة والخلافة، بين الدين والسياسة. ويختلف الناس على إدخال عثمان أو علي بسبب الخلاف السياسي في عصر الفتنة. وقد وضعت بعض الأحاديث من أجل تقوية فريق على فريق.[٥٠]

وكان التدوين لا يتم إلا بشهادة رجلَين طبقًا للعقود.[٥١] وقد تلعب الصدف دورًا في الجمع وعدم نسيان شيء.[٥٢] ثم حرقت باقي المصاحف التي جمع منها عثمان المصحف.[٥٣] ثم نسخ من المصحف الموحد خمسة أو سبعة أرسله إلى الآفاق وربما كانت أربعة في كل ناحية واحد، الكوفة والبصرة والشام والحجاز. ثم زادت ثلاثة إلى مكة واليمن والبحرين.

والبسملة والمعوذتان فواتح للسور أو جزآن منها موضوعٌ أصولي في المصدر الأول للتشريع؛ القرآن.[٥٤] وللفاتحة فضلها، وهي السبع المثاني، والبسملة جزء من السورة أو

---

[٤٨] السابق، ج١، ٦٤–١٧٢؛ البرهان، ج١، ٢٣٣–٢٤٣.

[٤٩] هم أربعة من الأنصار: أُبي بن كعب، معاذ بن جبل، زيد بن ثابت، أبو زيد. وقد حل أبو الدرداء محل أبي بن كعب. وربما كان منهم عثمان، وتميم الداري، وسعد بن عبيد، ومجمع بن جارية، وقد يتفرد عثمان بالجمع، وقد يدخل عليٌّ وعاصم الذي قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي الذي قرأ على علي، وعبد الله بن مسعود، وأبو يوسف الأشعري، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن عمر، وعقبة بن عامر، وأبو هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن السائب (البرهان، ج١، ٢٤١–٢٤٣).

[٥٠] مثل «طوبى للشام» ثم يأتي التعليل لأن ملائكة الرحمة باسطة أجنحتها عليه. ثم تأتي الزيادة «تؤلف القرآن في الرقاع» (البرهان، ج١، ٢٥٦).

[٥١] أبى عمر أن يكتب الرجم لأنه كان وحده (الإتقان، ج١، ١٦٨).

[٥٢] تذكر الروايات أن آخر سورة التوبة لم توجد إلا مع أبي خزيمة الأنصاري. وكذلك آية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ لم توجد إلا مع خزيمة بن ثابت (الإتقان، ج١، ١٦٥–١٧٠؛ البرهان، ج١، ٢٣٩). وقد يكون مجمع بن جارية قد أخذه إلا سورتَين أو ثلاثًا (السابق، ص٢٤١).

[٥٣] الإتقان، ج١، ١٦٩، ١٧٢؛ البرهان، ج١، ٢٤٠.

[٥٤] أين أسباب النزول؟ (من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١٣٦–١٣٨).

فاتحة لها في الأصل من علوم القرآن دخلت في علم أصول الفقه[٥٥] ونُسيتْ في أول سورة براءة أو أنها خلت منها عن قصد، والحكمة منها تسوير السورة، والفصل بين السور السابقة والسورة اللاحقة.[٥٦] وقد سقطت «البسملة» في أول «براءة»، وهي عادة العرب عند نقض العهود. وقد يكون السبب أنها كانت جزءًا من «الأنفال» ثم فُرِّق بينهما. وقد يكون السبب هو أن «البسملة» أمان في حين أن «براءة» سيف. وقد يكون السبب تاريخيًّا صرفًا؛ أن الوحي لم ينزل بها.[٥٧]

(٥) قسمته وترقيمه

ويتكون القرآن من سور وآيات. والسور تهمز ولا تهمز؛ فإذا هُمزت فهي من أسأرت أي أفضلت، والسؤر هو ما بقي من الشراب في الإناء، وقد يكون مشتقًّا من السور، سور البناء، سور المدينة لإحاطته. وقد يكون مشتقًّا من الارتفاع. وقد يكون مشتقًّا من السور أي التصاعد وتركيب بعضها على بعض. والسورة قرآن تشتمل على آيات، أقلها ثلاثة. وبها فاتحة وخاتمة أي أنها شكلٌ أدبي.[٥٨]

وتعني الآية في اللغة ثلاثة معاني: جماعة الحروف، العجب، والعلامة. ولا يهم وزنها لأنها ليست شعرًا. وفي الاصطلاح الآية قرآنٌ مركَّب من جُمل، متقطعة مع ما قبلها وما بعدها، وهي وحدةٌ صغيرة داخل وحداتٍ أكبر، وقد تكون كلمةً واحدة لحالةٍ فريدة مثل ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾. وهي توقيف إلا إذا كان التقسيم مبنيًّا على وحدات المعاني وليس وحدات الألفاظ. وأوائل الحروف، وهي ست آيات. والكلمة لفظةٌ واحدة من حرفَين أو أكثر، وأكثرها عشرة أحرف.[٥٩]

وتُقسَّم السور طبقًا للكم إلى السبع الطوال، والمئين، والمثاني، والمفصَّل.[٦٠] السبع الطوال هي السور السبع الأولى، والمِئون هي السور التي تزيد كلٌّ منها عن مائة آية،

[٥٥] الإتقان، ج١، ١٧٢–١٧٣؛ من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١١٠–١١٢.

[٥٦] السابق، ص١٨٤–١٨٦.

[٥٧] البرهان، ج١، ٢٦٢-٢٦٣.

[٥٨] الإتقان، ج١، ١٥٠–١٥١؛ البرهان، ج١، ٢٦٣–٢٦٥.

[٥٩] البرهان، ج١، ٢٦٦–٢٦٨.

والمثاني ما ولي المئين أقل من مائة آية أو لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر والقصص. والمفصَّل ما ولي المثاني من قصار السور، وتسمى أيضًا بالحكم.[٦١] وتنقسم نسبيًّا إلى طوال وأواسط وقصار. وقد انتهت القضية الآن بعد عصر التدوين وتقنين القرآن عبر التاريخ في مصحف عثمان بالخط العثماني، من الخليفة الثالث حتى دولة الخلافة، من المدينة إلى إستانبول. وقد يقسم القرآن أحزابًا أو أجزاءً كما هو الحال الآن. ويطبع في أجزاءٍ متفرقة لسهولة الحمل والتوزيع والاستخدام في المناسبات.

وعدد السور والآيات والكلمات والحروف فائدة منه دون قراءة كيفية.[٦٢] أما عدد الآيات في كل سورة فلا نفع فيه.[٦٣] يكفي العدد الكلي للسور.[٦٤] ومن ثم لا إشكال في اعتبار الحروف الأولى في أوائل بعض السور آياتٍ أم حروفًا، ولم تكن الصحف القديمة كاملة العدد.[٦٥] والحكمة في تسوير القرآن جعل القرآن وحدات من السور، كل سورة آية ومعجزة، والإعجاز ليس كمًّا بل كيفٌ. وقد تكون آيةٌ واحدةٌ معجزةً. كل سورة بها رحمة وموضوع؛ مما يفسر أهمية التفسير الموضوعي للقرآن.[٦٦] وكذلك كانت الكتب المقدسة السابقة، التوراة والإنجيل.

---

[٦٠] السبع الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، براءة (الإتقان، ج٢، ١٧٩–١٨٣)؛ (البرهان، ج١، ٢٤٤–٢٧٢).

[٦١] وهي حوالي اثنتي عشرة سورة: ق، الحجرات، القتال، الجاثية، الصافات، الصف، تبارك، الرحمن، الإنسان، سبح، الضحى.

[٦٢] قال السخاوي: «لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة؛ لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان، والقرآن لا يمكن فيه ذلك» (الإتقان، ج١، ١٩٧).

[٦٣] الإتقان، ج١، ١٩١–١٩٥.

[٦٤] الإتقان، ج١، ١٨٤–١٩٨؛ البرهان، ج١، ٢٤٩–٢٥٢.

[٦٥] العدد ١١٤ سورة، وإذا ضمت «الأنفال» و«براءة» يكون ١١٣ سورة، وعدد الآيات ستة آلاف، وعدد الحروف ٣٠٠٢٣٦٠٠ أو ٣٠٠٢١٠٠٠، وعدد كلمات القرآن ٧٧٩٣٤ كلمة (الإتقان، ج١، ١٩٧–١٩٨)؛ (البرهان، ج١، ٢٤٩).

[٦٦] وهو موضوع الجهة الثالثة من مشروع «التراث والتجديد»، الموقف من الواقع أو نظرية التفسير التي تقوم بالتفسير الموضوعي للقرآن حول دوائرَ ثلاث: الوعي الذاتي، الوعي بالآخر، الوعي بالعالم، انظر: Method of Thematic interpretation, Islam in the Modern world vol. Religion, Ideology and Derelopment pp. 484–509. وهي نفس البنية السياسية في «نظرية الدوائر الثلاث، قراءة بعد نصف قرن، مصر والعرب والعالم».

وسور القرآن ثلاثة أقسام؛ قسم لا خلاف عليه لا إجمالًا ولا تفصيلًا، وقسم فيه خلاف تفصيلًا لا إجمالًا، وقسم فيه اختلاف إجمالًا وتفصيلًا.[٦٧]

كما أن اتفاق بعض السور في عدد الآيات واتفاق بعض الآيات في عدد الحروف، واتفاق حروف البسملة مع العدد تسعة عشر كل ذلك لا دلالة له بالرغم من تحوُّله إلى علم الحروف والأعداد كأحد العلوم الدينية السحرية التي بها تكتب الألغاز والأحجبة لشفاء الأصدقاء والإضرار بالأعداء.

وقد تُقسم الحروف القرآن إلى أنصاف فكلمة «نكرًا» تقسم النون القرآن ما قبلها، وتقسم الكلمات والكاف إلى القرآن ما بعدها. وتقسم الآيات في كلمة «الجلود» ما قبل الجيم وما بعد اللام، وتقسم الآيات في كلمة «يأفكون». وتقسم السور في كلمة «الحديد». وهي بداية مدخل الخرافات في علم الأعداد التي لا فائدة منها، وضرورة البحث عن فائدة بالضرورة.

وأنصاف القرآن ثمانية.[٦٨] بالحرف نون قبل مثل «نكرًا» أو بالكلمات التي تنتهي بحرف الدال مثل «والجلود». والنصف على عدد السور وهو تصورٌ كمي للقرآن وتقطيع وحدةٍ واحدة بلا هدف. ويتحول الأمر إلى تمريناتٍ رياضية، عدد تكرار الكلمات دون تحليل للمضمون، وعدد الكلمات التي أولها أو آخرها شين أو عدد الحروف المتحركة أو السور التي تجمع حروف المعجم وعدد الميمات. وقد تُستعمَل الآيات لتحقيق مناطها في الرد على الفرق المخالفة كالمرجئة والمشبهة والمجبرة، وهو التوظيف السياسي في فهم الآيات.

أما بالنسبة لترتيب السور والآيات فإنه ليس مثبتًا مسبقًا في اللوح المحفوظ بل هو فعلٌ بشريٌّ خالص، ويدل على اختلاف ترتيب مصحفَي أُبي وابن مسعود.[٦٩] والترتيب ليس زمانيًّا؛ مما يدل على أهمية الموضوع وليس التطور، البنية وليس التاريخ. وكل محاولة لإعادة ترتيب القرآن ترتيبًا زمانيًّا في قرآنٍ مدوَّنٍ جديد هو قرآن للدراسة وليس قرآنًا للتعبد.[٧٠] والمشهور أن ترتيب الآيات توقيفي، وفي هذه الحالة لا توجد له أسباب،

---

[٦٧] الأول أربعون سورة، والثاني أربع سور، والثالث سبعون سورة.

[٦٨] البرهان، ج١، ٢٥٣–٢٥٦.

[٦٩] الإتقان، ج١، ١٧٧، ١٨١–١٨٢؛ البرهان، ج١، ٢٥٦–٢٦٢.

[٧٠] وهو ما قام إليه بلاشير في ترجمته للقرآن وإعادة ترتيب سوره وآياته ترتيبًا تاريخيًّا. وما وعى إليه أيضًا خلف الله أحمد خلف الله في بعض مقالاته الصحفية.

وإذا كانت له أسباب فهو اصطلاحيٌّ مُعلَّل. وتعدد الأسباب إما بحسب الحروف مثل «الحواميم» أو لموافقة أول السور لآخر ما قبلها أو للوزن في اللفظ أو لمشابهة جملة السورة لجملةٍ أخرى.[٧١] والغالب أن ترتيب السور توقيفي.[٧٢] وقد يُجمَع بين النظريتَين التوقيف والاصطلاح؛ التوقيف من الرسول باستثناء سورتَي الأنفال والبراءة من الاصطلاح تفويضًا من الأمة.[٧٣]

وتدخل المناسبة في التدوين أي ترتيب الآيات في السور، كما تدخل في أساليب البلاغة، وهي مناسبةٌ توقيفية على عكس أسباب النزول؛ أسباب النزول «دياكرونية» ومناسبة الآيات للسور «سنكرونية» بلغة اللسانيات الغربية المعاصرة.[٧٤] والحكم بأن هذا الترتيب التوقيفي مطابق للوح المحفوظ يندُّ عنه التجربة والحكم. والمناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة ورابط الآيات بينها بعام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، والسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرَين والضدَّين في الراهن أم في الواقع. ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط أو لا تكون كل آية مستقلة عن الأخرى، ويكون الارتباط بالعطف أو التضاد مثل القبض والبسط أو شبه التضاد مثل السماء والأرض والاستطراد والتخلص عكسه وحسن المطلب والغرض العام للسورة والعادة؟[٧٥] وعلى هذا النحو تفسَّر فواتح السور وخواتيمها، والمناسبة هي المقاربة، وفائدتها ربط الكلام بعضه ببعض من أجل بناءٍ محكم الأجزاء، آخر كل سورة مرتبطٌ بأول سورة قبلها، وهي مبنية على أن ترتيب السور توقيفي.[٧٦]

والتوقيف لا يعني إلغاء السببية.[٧٧] ومن الأسباب حسب الحروف، وموافقة أول السور وآخر ما قبلها، والوزن في اللفظ، والمشابهة بين جملة السور. وتفتح السور

---

[٧١] الإتقان، ج١، ١٧٢–١٧٦؛ البرهان، ج١، ٢٦٠–٢٦٢.

[٧٢] الإتقان، ج١، ١٧٦–١٧٧.

[٧٣] السابق، ج١، ١٧٧.

[٧٤] السابق، ج٣، ٣٢٢–٣٣٨. ألَّف فيه أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن»، وبرهان الدين البقاعي «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، ولخص السيوطي في «تناسق الدرر في تناسب السور».

[٧٥] «لا يطلب للآي الكريم مناسبة لأنها حسب الوقائع المفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلًا وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا» (السابق، ص٣٢٣).

[٧٦] البرهان، ج١، ٣٥–٥٢، وصنَّف أبو جعفر بن الزبير.

[٧٧] الإتقان، ج١، ٢٣٢–٢٣٤.

بالحروف المقطعة واختصاص كل واحدة بما بدئت.[78] وتناسب السور ومقاصدها.[79] وقد يتصل اللفظ باللفظ دون المعنى.[80]

وقد يكون السبب المضمون الجامع مثل «الفاتحة» التي تضمنت التوحيد والربوبية والإسلام والتمايز عن الديانات الأخرى والمراحل السابقة للوحي. وتضمنت «البقرة» قواعد الدين، وتكملها «آل عمران»؛ في «البقرة» الدليل على الحكم وفي «آل عمران» الجواب عن شبهات الخضوع. وفي «النساء» جميع أحكام الأسباب بين الناس الطبيعية كالنسب والمصاهرة والتعاقدية. و«المائدة» سورة العقود. و«الأنعام» و«الأعراف» ذكر للمقاصد؛ لذلك قد تكون آخر القرآن نزولًا؛ فالترتيب: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، يشير إلى وحدة المقصد.[81]

(٦) فواصله وفواتحه

وتدخل فواصل الآي في القراءة إذا كان النقل شفاهيًّا بالصوت وفي التدوين إذا كانت القراءة من الخط. وإن كان الأول فهو مثل الوقف، واللفظ قرآني ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾. الفاصلة كلمة في الآية كقافية الشعر وقرينه السجع؛ هي حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعنى، يحكمها السجع.[82] وتعرف توقيفًا أو قياسًا، والقياس صوتيٌّ إيقاعي مثل الشعر، وقد يحتم ذلك مراعاة المناسبات لهذا الغرض مثل التقديم والتأخير وحذف بعض الحروف أو الكلمات أو زيادتها.[83] والصرف لما لا يصرف، والتذكير أو التأنيث، إيثار أغلب اللفظَين، الإفراد والتثنية والجمع، إبدال العاقل بغير العاقل، والإمالة، والمبالغة.

---

[78] السابق، ص٢٣٤–٣٣٧.

[79] وذلك مثل افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح، والكهف بالتمجيد، السابق، ص٣٣٧–٣٣٨.

[80] البرهان، ج١، ٥٠–٥١.

[81] في مصحف عبد الله بن مسعود تتقدم «النساء» على «آل عمران». وترتيب بعضها بعد بعض ليس أمرًا أوجبه الله بل هو أمر راجع إلى اجتهادهم واختيارهم. ولهذا كان لكل مصحف ترتيب (البرهان، ج١، ٢٦٢).

[82] الإتقان، ج١، ٢٩٠–٣١٥؛ البرهان، ص٩٨–١٠١.

[83] وأيضًا مثل: الاقتصار على أحد الوجهَين، الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، اعتبار الظاهر مضمرًا، إبدال الفاعل بالمفعول ... إلخ (الإتقان، ص٢٩٦–٣٠٢).

وإيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل. وهي في الحقيقة موسيقى القرآن مثل موسيقى الشعر.

والفواصل أربعة أنواع: التمكين، والتصدير، والتوشيح، والإيغال؛ التمكين هو ائتلاف القافية، وهو التمهيد للتأثر بالقرينة، وللشاعر بالقافية؛ والتصدير أن يكون اللفظ بعينه تقدَّم في أول الآية، وهو رد العجز على الصدر؛ والتوشيح أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية، ودلالته معنوية؛ في حين أن التصدير دلالته لفظية؛ والإيغال هو نوع من الإطناب.[٨٤]

ويرتبط التدوين بالقراءة أو تُختم مقاطع الفواصل بحروف المد اللين، ومبنى الفواصل على الوقف، ويحافظ على الفواصل لحسن النظم والْتئامه. وتقسم الفواصل باعتبار المتماثل والمتقارب في الحروف، وتأتلف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام، وقد تجتمع فواصل في موضعٍ واحد ويخالَف بينها في مواضع.[٨٥]

والفواصل في علم البديع خمسة أقسام: مطرف، ومتوازٍ، ومرصَّع، ومتوازن، ومتماثل؛ المطرف اختلاف الفاصلتَين في الوزن واتفاقهما في السجع، والمتوازي الاتفاق في الوزن والتقفية، والمتوازن الاتفاق في الوزن دون التقفية، والمرصع الاتفاق في الوزن والتقفية، والمتماثل المساواة في الوزن دون التقفية.[٨٦]

وهناك نوعان في البديع متعلقان بالفواصل؛ الأول التشريع أو التوأم وهو بناء الشاعر بيته على وزنَين في العروض، إذا سقط جزء أصبح الباقي من الوزن الآخر؛ والثاني الالتزام وهو لزوم ما لا يلزم، وهو الالتزام في الشعر أو النثر بحرف أو حرفَين بشرط عدم الكلفة. وأفضل السجع ما تساوت قرائنه أو تتلوه أو ما طالت قرينته الثانية أو ما كان قصيرًا أو سرد المعاني أو بناء الفواصل على الوقف أي بالسكون أو النهاية بألف ونون.

وتدخل فواتح السور في موضوع التدوين أو في فنون البلاغة.[٨٧] فمن البلاغة حسن الابتداء لأنه أول ما يطرق السمع، وتسمى براعة الاستهلال. وفواتح سور القرآن عشرة

---

[٨٤] الإتقان، ج١، ٣٠٢–٣١٠؛ البرهان، ج١، ٩٢–٩٨.

[٨٥] البرهان، ج١، ٦٨–٧٥، ٧٨–٨٤.

[٨٦] الإتقان، ج٣، ٣١١–٣١٥.

[٨٧] الإتقان، ج٣، ٣١٦–٣١٩؛ البرهان، ج١، ١٦٤–١٨١. ألَّف فيه ابن أبي الأصبع «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح».

أنواع بعد إحصائها وتصنيفها في مجموعات كعادة القدماء في علوم القرآن: الثناء على الله، إثباتًا لصفات الكمال ونفيًا لصفات النقص، وحروف الهجاء، والنداء، والجمل الخبرية، والقسم، والشرط، والأمر، والاستفهام، والدعاء، والتعليل.[٨٨] وبراعة الاستهلال بالفاتحة، فقد نزلت مائة وأربعة كتب أودعت أسرارها في أربعة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ثم أودعت علوم القرآن، ثم أودعت فاتحة الكتاب.[٨٩] وكذلك حوت سورة ﴿اقْرَأْ﴾ كل العلوم.[٩٠]

وكما يطرق أول الكلام السمع كذلك يطرقه آخر الكلام الذي يشمل الأدعية والوصايا والفرائض والتحميد والتهليل والمواعظ والوعد والوعيد والتبجيل والتعظيم والتعريض والحض.[٩١] والحروف أوائل آية سواء كانت معربة أم لا، يكون عليها الوقف. كتبت في المصاحف. وقد تكون مأخوذة من اسم الله أو أقسم بها الله أو من حروف الهجاء أو اختصار الجمل أو اسمًا لسور أو سر الكتاب أو لبساطة التأليف أو رغبة في التأويل أو لإثارة الذهن والخيال، وهي نصف حروف المعجم. وهو تسع وعشرون سورة طبقًا لأسرار الأعداد.[٩٢] وتقديم المفردات على مركباتها حركةٌ طبيعية في النطق والهجاء والخط، وتناسب فواتح السور خواتمها وخاتمة التي قبلها.

(٧) رسمه وخطه

وهو موضوع تحويل الشفاهي إلى مدوَّن، والقراءة إلى كتابة.[٩٣] وقد يستقل الموضوع عن علوم القرآن.

---

[٨٨] إثبات صفات الكمال ونفي صفات النقص (١٤سورة)، حروف الهجاء (٢٩)، النداء (١٠).

[٨٩] أودع علم أصول الدين في ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ومعرفة النبوة في ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومعرفة المعاد في ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وعلم العبادات في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وعلم السلوك أي حمل النفس على الآداب الشرعية في ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وعلم القصص وأخبار الأمم السابقة في ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ (السابق، ص٣١٨).

[٩٠] وكذلك في سورة ﴿اقْرَأْ﴾ براعة الاستهلال، والأمر بالقراءة، والبداية باسم الله، والإشارة إلى علم الأحكام، وتوحيد الرب وإثبات ذاته وصفاته، والإشارة إلى الأخبار (السابق، ص٣١٩).

[٩١] الإتقان، ج٣، ٣٢٠–٣٢١؛ البرهان، ج١، ١٨٢–١٨٦.

[٩٢] البرهان، ج١، ١٧٣–١٧٨.

وقد تطورت الكتابة من حيث فصل الحروف وربطها.[٩٤] والسؤال هو: كيف يكون الخط توقيفيًّا إذا كانت أشكاله قد تطورت؟[٩٥]

والقاعدة كتابة اللفظ بحروفٍ هجائية مع مراعاة الابتداء والوقف عليه. ثم فصلت هذه القاعدة في ست قواعد هي:

(أ) الحذف؛ مثل حذف الألف من ياء النداء أو اجتماع ألفَين أو حذف الياء من كل منقوص نُوِّن. وتحذف الألف في حالاتٍ كثيرة. والدافع سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة وقوع المنفعل المتأثر في الوجود.[٩٦]

(ب) الزيادة؛ زيادة الألف بعد الواو مثل بنوا إسرائيل.

(جـ) الهمز؛ إذ يكتب الساكن بحرف حركة ما قبلُ أو وسطًا أو آخرًا، والمتحرك إذا كان أولًا ووسطًا بحرف حركته.

(د) البدل؛ يكتب بالواو للتفخيم مثل الصلوة.

(هـ) الوصل والفصل مثل ألا.

(و) الكتابة على إحدى القراءتَين.

وتوضع النقاط والأشكال فوق الحروف مثل الهمز والتشديد والنقاط والفواتح والخواتم. ولا تكتب الأقسام، الأجزاء والأشعار وأسماء السور.[٩٧]

وقد تدوَّن القراءة الشاذة. وفي حالة الزيادة تكون الكتابة حسب القراءة. وتكتب فواتح السور على صورة الحروف.[٩٨] وللكتابة آداب مثل تحسين الكتابة وبيانها وإيضاحها وتحقيق الخط دون مشقة، والكتابة في الشيء الصغير. ويكتب بالذهب ويكره كتابه على الحيطان والجدران والسقوف. وماذا عن حوائط المساجد؟[٩٩] ولا يكتب المصحفَ إلا مصريٌّ من أجل إتقانه اللغات.[١٠٠]

---

[٩٣] الإتقان ج٤، ١٤٥–١٦٦. صنَّف فيه الكثيرون من المتقدمين والمتأخرين مثل أبي العباس المراكشي «عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل».

[٩٤] كانت «بسم الله الرحمن الرحيم» تكتب «بسمللهرحمنرحيم» (السابق، ص١٤٥).

[٩٥] الإتقان، ج٤، ١٤٥.

[٩٦] السابق، ص١٤٦–١٥٧.

[٩٧] الإتقان، ج٤، ١٦٠–١٦٢.

[٩٨] السابق، ص١٥٧–١٥٨.

والإجماع على اتباع رسم المصاحف العثمانية في الوقف إبدالًا وإثباتًا وحذفًا ووصلًا وقطعًا بالرغم من اختلاف القراء. فالعثمانيون آخر من حفظوا القرآن.[١٠١] وهزُّ ذلك الآن والتشكيك فيه يشبه ما يستقصيه المستشرقون في مصاحف اليمن والبحث عن المصحف الأصلي أسوة بالإنجيل الأصلي[١٠٢]

ويُكره أخذ الأجرة على كتابة المصحف. وقد أصبحت المصاحف الآن تجارة، طباعةً وتغليفًا وتزيينًا وتلوينًا وزخرفة وتحلية بالفضة. والقيام للمصحف بدعة، وقد استُبدل به القيام للوجهاء. وتقبيل المصحف تحويله إلى وثن، وتطييب المصحف التعامل معه كوثن. وهو للقراءة والتدبر وليس للتحنيط. وإذا بَلِيَتْ بعض أوراقه فإنها لا توضع في شق الحوائط حتى لا تسقط وتُداس، بل تُغسل أو تحرق، وهي وثنية لأن المصحف ليس الأوراق بل المعاني. كما أن الإنسان ليس الجسد بل الروح. وهذه بقايا تجسيمٍ يهودي. ولا يصغر المصحف في «مصيحف» أو المسجد في «مسيجد» لضرورة التفخيم والتعظيم. ويحرم لمسه للمُحدِث ليس لأنه نجس بل لمزيد من اليقظة والصفاء بعد الغسل.[١٠٣]

وعلى هذا النحو يتحول المصحف من الحامل إلى المحمول، ومن البشري إلى المقدس في الممارسات الشعبية التي تكتشف أصولها الوثنية.

---

[٩٩] السابق، ص١٥٨–١٦٠.

[١٠٠] السابق، ص١٦٠.

[١٠١] السابق، ج١، ٢٥٠–٢٥١.

[١٠٢] Proto-Evangelium, Ud. Evangelium.

[١٠٣] الإتقان، ج٤، ١٦٣–١٦٦.

الباب الثالث

الحوامل الذاتية

اللغة

الفصل الأول

اللفظ والمعنى

وتعني الحوامل الذاتية دور الذات العارفة في تلقِّي الوحي وفهمه وإعادة التعبير عنه وإيصاله. الوحي هنا مجرد خطاب إلى مخاطَب أو رسالة إلى مرسَل إليهم. وهو المعنى المعاصر للخطاب كعالمٍ مستقل بذاته عن حوامله الموضوعية مثل المكان والزمان والبيئة الاجتماعية أو الموضوعية الذاتية مثل الخبر والقراءة والتدوين. القرآن موضوع للبحث اللغوي والبلاغي وعلم القراءات والتفسير عند القدماء وليس موضوعًا للتقديس. ولما كانت اللغة أحد العلوم الإنسانية أصبح القرآن موضوعًا للعلوم. وإذا كانت اللغة هي الحامل الرئيسي للنص عند القدماء فإن العلوم الاجتماعية هي الحوامل الرئيسية للنص عند المحدثين. لم نعد في عصر اللغة بل في عصر العلوم الإنسانية. وعلوم اللغة عند القدماء تعادل العلوم الاجتماعية والإنسانية عند المحدثين. كانت ثقافة القدماء لغويةً شعرية في حين أن ثقافة المحدثين علميةٌ أدبية.

وتشمل اللغة موضوع اللفظ والمعنى كما هو الحال في مباحث الألفاظ عند الأصوليين، وفنون القول وأساليب البلاغة وإعجاز القرآن، وأخيرًا التفسير والفهم والتأويل كمقدمة لعلم التفسير. وقد تصل المباحث اللغوية إلى حد التخصص والتفصيل بحيث تصبح غاية في ذاتها وليست مجرد وسيلة، من علوم القرآن. فتتشعب وتصبح موضوعًا لغويًّا بذاتها.

(١) التأليف في الموضوع

وقد تم التأليف في هذه الموضوعات كموضوعاتٍ مستقلة قبل أن تنتظم في علوم القرآن، أهمها:

(أ) «معاني القرآن» للكسائي (١٨٩هـ)

كان التأليف في الألفاظ والمعاني مبكرًا جدًّا منذ القرن الثاني، والمعاني قبل الألفاظ … ولا تنفصل المعاني عن الألفاظ في علوم اللغة. بدأت علوم القرآن بعلوم اللغة؛ لذلك تظهر قصة الإعراب التي هي جدل اللفظ والمعنى. فالإعراب السليم عند الفهم السليم بصرف النظر عن أصل اللغة توقيفية أم اصطلاحية. يبدأ الإعراب لغويًّا قبل أن تتحول اللغة إلى فنون القول وأساليب البلاغة. فالنحو قبل البلاغة والنحاة قبل البلاغيين. ويوظف الإعراب في ضبط القراءات وتصحيحها. وكلاهما يؤديان إلى المجاز وأساليب البلاغة. لذلك تظهر أهمية ضبط الحركات، الضمة والفتحة والكسرة.[١]

وتُستعرض معاني الألفاظ، سورة سورة، وآية آية بالمنهج الطولي من المعوذتين والبسملة والبقرة حتى الناس وكما هو الحال في مناهج التفسير دون أن تكون بالضرورة كل آية داخل كل سورة بل فقط بما يقتضيه تعريف الألفاظ. وتظهر قضية الشواذ في الألفاظ وفي المعاني. وهي ما سميت فيما بعدُ «الغريب» في ألفاظ القرآن.[٢] ويستشهد بالشعر، فالشعر هو ديوان العرب، فيه تفسير الكتاب طبقًا للقول المشهور.[٣] وأحيانًا يكون الشعر منسوبًا لقائله، سواء كان الكسائي أو غيره، أو مرسلًا.[٤] كما يستشهد بأمثال العرب في الجاهلية؛ فاللغة العربية، مثل الشعر، متَّصَلٌ لغوي وثقافي وفني قبل الإسلام وبعده. ويُعتمد على عادات العرب في الكلام. فاللغة للتداول.[٥] كما يتم الاستشهاد بالقراءات الصحيحة؛ فالقراءة أساس الإعراب، وهو جدل اللفظ والمعنى.[٦] والمعيار قراء أهل مكة.[٧] ويتم الاعتماد على الرواية وحدها والنقل عن السابقين دون إعمال للعقل أو

[١] علي بن حمزة الكسائي: معاني القرآن، أعاد بناءه وقدم له د. عيسى شحاتة عيسى، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (عبده غريب)، القاهرة، ١٩٩٨م.

[٢] السابق، ص١٠٨، ٢٤٨.

[٣] الشعر (٣٤) (السابق، ص٦٥).

[٤] الكسائي، ص١٩٧، ٢٠٥.

[٥] السابق، ص٦٢، ٦٦، ٨٩، ١٠١، ١٠٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٣، ١٥٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٤، ١٣٧، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٥٠–٢٥١، ٢٥٩، ٢٥٦.

[٦] السابق، ص٦٠.

[٧] السابق، ص٦٠، ١١٢، ١٩٣.

القياس. وهم قليل نظرًا لأن المؤلف من القرن الثاني ولم يسبقه الكثير. وأحيانًا يتم الاعتماد على القراءة المقارنة لمجموع اللغات السامية، العربية والعبرية لمزيد من التوثيق مع ضرب أمثلة من اللغة العبرية في معاني الألفاظ.[٨] ولا يتم الاعتماد على الحديث مثل الاعتماد على الشعر.

ولغة التدوين هي لغة قريش، والقراءة لأهل مكة. ولهجات العرب كثيرة ومتعددة، منها لهجات قيس وكنانة وبني تميم.[٩] ومنها عادات العرب في الخطاب.[١٠] لذلك تظهر بدايات علم القراءات من إضمار وحذف، وتقديم وتأخير، وجمع وإفراد، وإدغام وتنوين، وحذف وتكرار، ونقصان وزيادة، ومبالغة وتفخيم، وتصغير وتحقير، واستعمال الضمائر مما يقترب من أساليب البلاغة وفنون القول. والكسائي مثل الفراء صاحب مذهبٍ لغوي.[١١] وتظهر بعض الموضوعات الأخرى الخاصة بالحوامل الموضوعية مثل المكان في المكي والمدني، والزمان في الناسخ والمنسوخ، والبيئة الاجتماعية في أسباب النزول.

ويخلو الكتاب من أي قسمة إلى أبواب أو فصول أو مسائل لتحديد بنية الموضوع. كما يخلو من أي مقدمةٍ نظرية حول جدل اللفظ والمعنى. يبدأ مباشرة بالبسملة ثم بالفاتحة.[١٢] فالتأليف ما زال مبكرًا كي يبلغ درجة التنظير المتأخر.

(ب) «معاني القرآن» للأخفش الأوسط (٢١٥هـ)[١٣]

والعنوان دالٌّ في معاني الألفاظ أي في جدل اللفظ والمعنى المقارب للتفسير. هو أقرب إلى شرح معجم ألفاظ القرآن، سورةً سورة وآيةً آية، دون أي مقدمةٍ نظرية في جدل اللفظ والمعنى أو في نظرية في التفسير. ربما كان الوقت مبكرًا لظهور نظرية «النَّظم»

---

[٨] السابق، ص٦٨، ١١٥، ٢٣٩.

[٩] السابق، ص٦٧، ١١٣–١١٥، ١٩١، ٢١٢، ٢٥٨.

[١٠] السابق، ص١٩٧.

[١١] للفراء أيضًا (٢٠٧هـ) «معاني القرآن».

[١٢] الكسائي، ص٥٩.

[١٣] أبو الحسن سعيد بن سعد المجاشعي البلخي البصري المعروف بالأخفش الأوسط: معاني القرآن. قدَّم له وعلَّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

عند عبد القاهر الجرجاني في القرن الرابع. ويتم شرح القرآن بالقرآن دون أي وسيلةٍ شارحةٍ أخرى لغوية أو بيانية أو عقلية أو تاريخية. فجاء الشرح أقرب إلى الإعراب وتحليلٍ مجرد للألفاظ دون الذهاب إلى ما هو أبعد إلى علوم المعاني والدلالات. فغلب على المعاني اللغة والنحو والإعراب والتشكيل. وتظهر بعض المقولات الخاصة بتركيب الجملة مثل الفصل والاسم والزمان والتأنيث والتذكير. وقد يتجاوز الأمر إلى أساليب البلاغة مثل المجاز والاستثناء والدعاء والإضافة والمجازاة.[١٤] ويتم الاعتماد على الشعر، المنسوب إلى قائله أو المجهول.[١٥] وكذلك الاعتماد على الحديث وعلى أقوال الصحابة.

جاءت التحليلات متجزئة دون رؤيةٍ عامة؛ مما يبين أهمية علوم القرآن كرؤيةٍ كلية. ويبدو أن تطور العلوم من النشأة والتكوين إلى البنية مرهون بهذا التطور من الجزئي إلى الكلي؛ لذلك جاءت الآيات قصيرةً متقطعة، مجرد ألفاظٍ متناهية في الصغر إلى درجة الحروف، حروف الاستفهام وغيرها.[١٦] وتدخل قراءاتٌ أخرى دون استقراء لها.[١٧] كما تعطي كتابات أخرى واستبدال الحروف مثل السين والصاد مما يدل على ارتباط القراءة بالكتابة، والصوت بالخط. ونظرًا لغياب التحليل النظري تصبح القراءة مملةً لا استنباط فيها. المادة أداة للعمل، ومادة التحليل خاصة بفهارسها التحليلية للآيات والمسائل النحوية وللأعلام وللقوافي ولأجزاء وأنصاف الأبيات مرتبة أبجديًّا.[١٨]

(ج) «ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن العظيم» للمبرد؛ عالم اللغة الشهير (٢٨٥هـ) صاحب الكامل[١٩]

وتظهر موضوعات علوم القرآن قبل تنظيرها في القرنَين الثامن والتاسع عند الزمخشري في «البرهان» (٧٩٤هـ) والسيوطي في «الإتقان» (٩١١هـ) متفرقة منذ القرن الثالث.

---

[١٤] السابق، ص٥٠–٦٢.

[١٥] الأشعار (٢٧٥) أجزاء وأنصاف الأبيات (٢٠).

[١٦] الأخفش، ص١٦١.

[١٧] السابق، ص١٨١.

[١٨] السابق، ص٣١٩–٣٥٦.

[١٩] الإمام العلامة أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ، ص١٠٥–١٢٦، وله أيضًا «معاني القرآن» (السابق، ص١٠٨).

فالبداية من علم اللغة، والمدخل اللغوي لعلوم القرآن، ومحاولة وضع نسقٍ منطقي وليس مجرد رصد للموضوع، سورةً سورة، وآيةً آية. هو نسقٌ رياضي يقوم على احتمالاتٍ ثلاثة: اختلاف اللفظَين واختلاف المعنيَين وهو الطبيعي، واختلاف اللفظَين والمعنى واحد، واتفاق اللفظَين واختلاف المعنيَين. وهل يوجد الترادف أم أن كل لفظ له ظلال من المعنى غير الآخر؟ ويعتمد على القرآن ثم الشعر ثم الحديث. كما يعتمد على كلام العرب وقول العرب.[٢٠] والشعر إما معروف صاحبه أو شعرٌ مرسل.

(د) «غريب القرآن على حروف المعجم» للسجستاني (٣٣٠هـ)[٢١]

كتاب في الألفاظ وحدها، أصالتها وغربتها مرتبةً ترتيبًا أبجديًّا كما هو الحال في المعاجم اللغوية. الغريب في الكناية، والشاذ في القراءة. الغريب في الخط والشاذ في الصوت. وهو السجستاني صاحب كتاب «المصاحف» المشغول بتدوين الفروق بين الخطوط والقراءات. والغريب في الأول يتوقف على التداول. فقد يكون اللفظ غريبًا في البداية مألوفًا في النهاية مثل معظم الألفاظ المعرَّبة. وقد يكون غريبًا في بيئةٍ ثقافيةٍ لغوية مألوفًا في بيئةٍ ثقافيةٍ أخرى. فالأمصار مثل مصر والشام والمغرب عوالمُ ثقافية. والحروف في أوائل السور ليست نموذجًا للغريب اللفظي بل للغريب البلاغي لإثارة الانتباه عن طريق الصوت كما هو الحال في «السيمفونيات» الحديثة أو دقات المسرح الحديث. وكثير من الألفاظ المذكورة ليست غريبة بل مألوفة مثل لفظ أماني.[٢٢] فقد اتسع لفظ الغريب بحيث شمل المألوف.

وهو مجرد إحصاء لألفاظ القرآن وفقًا لترتيب حروف المعجم ترتيبًا أبجديًّا، وكما هو الحال في المعاجم المفهرسة الحديثة لألفاظ القرآن. وهو ليس تفسيرًا موضوعيًّا طبقًا للألفاظ والموضوعات لأنه لا توجد أي محاولة للتجميع والتنظير في حقولٍ دلاليةٍ متشابهة أو مختلفة. ولا حكمة ظاهرة في التركيب طبقًا لحروف المعجم، وكان يمكن إيجاد تصنيفٍ آخر أكثر دلالةً من حيث إيجاد نسق للألفاظ حول حقولٍ دلاليةٍ متمايزة. وتقسيم القرآن

---

[٢٠] الآيات (٧٥)، الأشعار (٣٥)، الأحاديث (٥)، كلام العرب (٣)، قول العرب (٢).

[٢١] الإمام أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني: غريب القرآن على حروف المعجم، دراسة وتحقيق أحمد عبد القادر صلاحية، دار أطلس، دمشق، ١٩٩٣م.

[٢٢] السابق، ص٩٨.

طبقًا للألفاظ يقضي على الجملة والتركيب والسياق والمنطوق والمفهوم والدلالات العامة. وتتكرر الألفاظ دون داعٍ أو جديد. ويخلو الكتاب من أي تحليلٍ نظري في المقدمة أو في الوسط أو في الخاتمة. توجد فقط إحالةٌ عابرة في أول الكتاب لما يمكن أن يوحي بأنه منهج للتأليف، القصد منه قرب تناول القرآن وسهولة حفظه.[٢٣] ويشرح القرآن بالقرآن وبالشعر وبالحديث وبالأمثال العربية.[٢٤] ويكون الشرح للفظ مرة وللجملة مرةً أخرى. كما يذكر تعدد القراءات.[٢٥] وبالرغم من الشرح اللفظي إلا أنه يقع في التفسير الشيئي للألفاظ كما هو الحال في بداية سورة العاديات.[٢٦] وبالرغم من كثرة الفهارس الفنية لجذور المفردات القرآنية الغريبة وللآيات القرآنية والقراءات والأحاديث والأشعار والأمثال والأعلام والقبائل والمدن والأماكن إلا أنها تظل بلا دلالاتٍ كبيرة.[٢٧]

(هـ) «الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز» للدامغاني (٤٧٨هـ)[٢٨]

والعنوان مشابه لتعبير «الأشباه والنظائر» في علم القواعد الفقهية ولكنه في الحقيقة بين الألفاظ والمعاني من ناحية والتفسير من ناحيةٍ أخرى. فهو تفسير لبعض ألفاظ القرآن مرتبة ترتيبًا أبجديًّا (حوالي خمسمائة لفظ). وهو نوع من التفسير الموضوعي اللفظي الأبجدي، أشبه بالمعجم المفهرس أو القاموس دون أي دلالة أبعد من الألفاظ. ومعاني الألفاظ متعددة بل ومتضاربة لتعدد التفسيرات وإمكانيتها. فالإنسان مثلًا له عشرون وجهًا.[٢٩] وتتراوح بين المعاني الحسية والعقلية، العيانية والمجردة، الحقيقية والمجازية. والتضاد ليس في ذاته بل للسماح للاختيار بين أحد المعنيَين طبقًا للحاجة والظروف.

---

[٢٣] «هذا تفسيرٌ غريب للقرآن أُلِّف على حروف المعجم ليقرب تناوله، ويسهل حفظه على من أراده» (السابق، ص٩٦).

[٢٤] الأحاديث (١٣)، الأشعار (٢٥)، الأمثال (١٠).

[٢٥] السجستاني، ص١٢٩، ١٧٠.

[٢٦] السابق، ص٢٤١-٢٤٢، ٢٩٠.

[٢٧] السابق، ص٣٨٣–٤٦٠.

[٢٨] الإمام الشيخ أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تقديم وتحقيق عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م/١٤٢٤هـ.

[٢٩] السابق، ص٦٨–٧١.

وكذلك تتعارض معاني لفظ الجنة لاختيار أحدها.[30] وتغفل هذه الطريقة التجزيئية المتقطعة السياق الدلالي للألفاظ ونواتها. وتمنع من السيولة الفكرية والاتصال النظري بينها. لذلك جاءت قصيرة أشبه بمعاني القاموس الحديث ومن محض الذاكرة دون الاعتماد على معاجم الألفاظ الحديثة كما هو الحال عند المحدثين. ولا يُعرف هل هذه المعاني اشتقاقية أم اصطلاحية أم عرفية طبقًا للمعاني الثلاثة للفظ عند الأصوليين.[31] ويخلو التحليل من أي بنيةٍ نظرية أو قسمة للمعاني تتجاوز الألفاظ. وإذا كان لكل لفظ معنًى فأين ظلال المعاني وقدرتها على الإيهام والتأثير.[32] ويتراوح التفسير بين المعاني المطلقة والأشخاص المحددة موروثة أو وافدة.[33] ويتراوح الإنسان بين المعاني العامة والأشخاص المحددة، أشبه بأسباب النزول. وتفسر الأفعال والحروف مع الأسماء مثل القاموس الشامل. بل قد تضمن بعض الأسماء المعربة مثل أتون.[34] ويعتمد بطبيعة الحال على القرآن أكثر من اعتماده على الحديث، تفسيرًا للقرآن بالقرآن. كما يستعمل الشعر.[35]

وكان الدافع على التأليف استكمال ما نقص عند المفسرين مثل «وجوه القرآن» لمقاتل ابن سليمان، وإغفال حروف من القرآن لها وجوهٌ كثيرة. فجعله مرتبًا على حروف المعجم لتسهل مطالعته وحفظه.[36]

(و) «معجم مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني (٥٠٣هـ)[37]

واستمر ذلك حتى الفهارس الحديثة. ومؤلفو هذا النوع بين علماء اللغة والنحو والبلاغة والأدب وعلوم القرآن. ويتم تبويب الألفاظ طبقًا للحروف الأبجدية كالمعجم المفهرس.

---

[30] السابق، ص١٢٣–١٢٤، ١٥٣–١٥٤.

[31] من النص إلى الواقع، بنية النص، ج٢، ص٢٥٢–٢٥٥.

[32] تأويل الظاهريات، ص١٥٤–١٥٦.

[33] تفسير «أحد» على ثمانية أوجه: الله، النبي، بلال تمليخا، زيد بن حارثة، أحد من الخلق، دقيانوس، ساتي الملك (الوجوه والنظائر، ص٤٣).

[34] السابق، ص١٢٦–١٢٧.

[35] السابق، ص١٤٧.

[36] «إني تأملت كتاب وجوه القرآن لمقاتل بن سليمان وغيره فوجدتهم قد أغفلوا حروفًا من القرآن لها وجوهٌ كثيرة. فعمدت إلى عمل كتابٍ مشتمل على ما صنعوا وما تركوا منه، وجعلته مبوَّبًا على حروف المعجم ليسهل على الناظر فيه مطالعته وعلى المتعلم حفظه» (السابق، ص٣٧).

وهو اختيارٌ لغوي وليس اختيارًا موضوعيًّا. فالحروف الأبجدية عرضٌ تاريخي توضع تحتها الألفاظ التي تشير إلى الموضوعات الاجتماعية والسياسية مثل ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾. فهي آية ليست فقط تحت حرف الباء ولكنها تدل على أسباب انهيار المجتمعات، تعطيل مصالح الناس؛ الآبار، وبناء الإقطاعي فوقها القصور المشيدة.[38] يقوم على مجرد الرصد دون أي استنتاجات. وهو عمل قواميس اللغة. يعتمد على القرآن ثم الشعر ثم الحديث.[39] وتطبع الأشعار والألفاظ بالمداد الأحمر لإبراز أهميتها. وترقم الأشعار وليس الألفاظ. ولا تستعمل أقوال القدماء بل أحيانًا أقوال بعض الصحابة. ويتم التركيز على اشتقاق الألفاظ والقراءات المختلفة.[40]

(ز) «البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان» للكرماني (٥٠٥هـ)[41]

ويظهر فيه موضوع التكرار في القرآن، يتبع نفس المنهج في علوم التفسير ليرصد مظاهر التكرار أو التشابه بين الآيات لتقليلها ونفيها، سورةً سورة، وآيةً آية، اعتمادًا على القرآن؛ فالقرآن يفسِّر نفسه بنفسه ثم الشعر، ونادرًا الحديث.[42] والتكرار في القرآن موجود، وله أسبابه اللغوية. فالترادف موجود في اللغة، ولكنه لا يعني المطابقة في المعنى. فكل لفظ من الألفاظ المترادفة يوحي بظلال من المعنى مخالفة للآخر. والبدل في اللغة ولكنه لا يعني الإحلال المطابق بل إعادة الضبط والتكييف. فالعلاقة بين آيتَين متكررتَين مثل العلاقة بين الخاص والعام، الجزئي والكلي، الفرعي والأصلي على مستوى الإيهام، والعلاقة بين الحقيقة والمجاز، والظاهر والمؤوَّل، والمحكم والمتشابه، والمجمل والمبين، والمطلق

---

[37] العلامة أبو القاسم الحسن بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٣هـ)، ضبطه وصححه وخرَّج آياته وشواهده إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ.

[38] السابق، ص٤٤.

[39] الآيات بالآلاف، والأحاديث بالمئات، والأشعار (٤٦٥).

[40] السابق، ص٦٣.

[41] تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني: أسرار التكرار في القرآن، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، ط٢، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

[42] الأشعار (٦) الأحاديث (١).

والمقيد، والمستثنى والمستثنى منه على مستوى الصياغة. وقد يكون على مستوى التصوير الفني مثل الأمر والقصص، الحكم والمثل. وقد يكون على مستوى تعدد المعاني والتعبير من خلال المعنى بألفاظٍ مترادفة لتعدد الفهم، واختلاف مستويات العمق، والتفاوت بين الظاهر والباطن، بين الصريح والمؤول، وقد يكون على مستوى الكم مثل الإيجاز والإطناب، الحذف والإضافة. وقد يكون على مستوى العمل بين التخفيف والشدة، الرحمة والعقاب، وقد يكون على مستوى الإعجاز في تعدد الصياغات الأدبية لنفس الشيء واستقراء نفس الحكم من تعدد أسباب النزول، واستنباط نفس الأمر من تعدد الصياغات. وقد يكون على مستوى الفهم بين الحدس والبرهان، الإدراك المباشر والاستنباط، الظن واليقين، الاحتمال والتوكيد. وقد يكون على مستوى المعاني من أجل الجدال مع المخالفين والحرص على التنزيه ونقاء العقائد. ومع ذلك يحتاج ذلك كله إلى تجميع في نظريات للتكرار ومستوياته المتعددة.

(ح) «تذكرة الأريب في تفسير الغريب» لابن الجوزي (٥٩٧هـ)[٤٣]

وهو كتاب في شرح ألفاظ القرآن الغريبة دون تحديد معنى الغريب، هل هو الدخيل المعرَّب من لغةٍ أخرى هندية أو فارسية أو رومية أو هو ما لم تألفه لهجة قريش؟ وهو مجرد رصد لألفاظ القرآن بالمعنى الواسع، أشبه بقواميس اللغة دون أي مقدمةٍ نظرية في الغريب. ولا تشمل فقط غريب اللفظ بل أيضًا غريب اللفظ والمعنى.[٤٤] ويتطرق إلى موضوعاتٍ أخرى مثل النسخ وأسباب النزول وتخصيص العموم مع المبالغة في الاختصار.[٤٥] ويستمر الرصد سورةً سورة، وآيةً آية كما هو الحال في علم التفسير الكلى، التفسير الطولي. والشرح لغويٌّ خالص.[٤٦] ويتغير المعني بتغير التشكيل. ويتم الاعتماد

---

[٤٣] جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي: تذكرة الأريب في تفسير الغريب، تحقين طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ.

[٤٤] «وهذا الكتاب يتميز عن كل كتاب يصنَّف في الغريب لأن تلك تشتمل على غريب اللفظ فقط، وهذا على غريب اللفظ والمعنى» (السابق، ص١٣).

[٤٥] السابق، ص٤٥٣.

[٤٦] السابق، ص٤٦٧.

على اللغويين مثل الفراء، وعلى الحديث دون الشعر.[٤٧] ولا عجب أن يبدو في الحديث التنبؤ السياسي بخلافة الشيخَين.[٤٨]

(ط) «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» للعز بن عبد السلام (٦٦٠هـ)

الكتاب كله لمجاز القرآن، مع درجةٍ عالية من التنظير والتفصيل في أنواع المجاز، مع تجاوز رصد المجاز سورةً بسورة وآيةً بآية كما هو الحال في التفسير الطولي الذي أثر في تناول موضوعات علوم القرآن الأخرى اللغوية أو البلاغية.[٤٩] وبالرغم من الخطة التفصيلية العامة الشاملة لأنواع المجاز إلا أنها مليئة بالأمثلة من القرآن والحديث والشعر.[٥٠] كما تستعمل بعض الأمثال العامية نظرًا لأن الوحي قد نزل على ثقافة العرب، شعرًا ونثرًا.[٥١] والسؤال هو: هل نزل الوحي على أساليب البلاغة العربية استنباطًا وبطريقةٍ قبلية أم أن علماء النحو والبلاغة طبقوها عليه استقراءً وبطريقةٍ بعدية؟ ويمكن الجمع بين الاثنين، الاستنباط والاستقراء، القبلي والبعدي.[٥٢] وتنطبق أيضًا قواعد النحو وأساليب البلاغة على أقوال الرسول. وهي ليست وحيًا لفظيًّا مباشرًا، فقد أوتي جوامع الكلم. وهو أفصح بلغاء العرب.

ويعتمد المجاز أساسًا على الحذف.[٥٣] والمجاز فرع للحقيقة وليس مجرد خيال أو تصوير في اللفظ الواحد يجمع الحقيقة والمجاز.[٥٤] وتتفرع أنواع المجازات بالعشرات.

---

[٤٧] السابق، ص٣٨٩، ٣٣٣؛ الحديث، ص٥٥، ٣٠١، ٣٩٣، ٤٠٧، ٤٧٥.

[٤٨] السابق، ص٣٥٩.

[٤٩] الإمام أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الشافعي: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (مجاز القرآن)، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي؛ السلسلة التراثية (١١)، طرابلس، الجماهيرية الليبية، ط١، ١٤٠١هـ من وفاة الرسول، ١٩٩٢م.

[٥٠] الآيات (دون المكرر منها) (١٥٦٠)، الأحاديث (١٥٢)، الأشعار (٦٢).

[٥١] مجاز القرآن، ص١٠٠.

[٥٢] وهذه هي الأحكام القبلية التركيبية عند كانط.

[٥٣] مجاز القرآن، ص٩٢–١٤٢. وهي: حذف المضافات، والمفعولات، والموصوفات، والأقوال وأجوبته، والشروط، وأجوبة القسم، والمبتدأ، والخبر، والأفعال العاملة، ومفاعيل المشيئة، والإفساد، وضمائر الموصولات، وفعل الأمر، والجملة، والجمل الكثيرة.

[٥٤] السابق، ص١٤٥–١٨٠.

وبتعبير المحدثين في الغرب هو تجوُّز بالذات عن الموضوع أو بالموضوع عن الذات، بالشعور عن مضمونه، ومضمون الشعور عن الشعور.[٥٥] وكما يكون المجاز عن طريق الحذف يكون أيضًا عن طريق النسبة.[٥٦] ومنها نسبة البعض إلى الكل أو الكل إلى البعض.[٥٧] وبالإضافة إلى مجاز الحذف، هناك مجاز التضمين والأهم مجاز اللزوم وهو أنواع.[٥٨] ومجاز التشبيه هو الأكثر تفصيلًا. له أكثر من مائة نوع.[٥٩] منها التجوز بشيء عن شيء.[٦٠] ومنها ربط شيء بشيء أو التعبير عن شيء بشيء.[٦١] ويصل التنظير إلى درجة وضع مفاهيمَ جديدة، وتصورٍ واحد يجمع بين الشبه والمشبه به.[٦٢] وأحيانًا يوصف الشيء بأنه مجاز.[٦٣] وقد تستعمل الآية القرآنية لأنها بصياغتها مجاز. ولا تحتاج إلى صياغةٍ نظريةٍ أخرى.[٦٤]

ويتشعب نوعٌ واحد مثل وصف المعاني بصفات الأجرام إلى عدة أنواعٍ فرعية. منها ما يتضمن حركتَين.[٦٥] ومنها ما يتضمن حركةً واحدة.[٦٦] ومن ضمن الأنواع تعدد مصححات

---

[٥٥] مثل: التجوز بلفظ العلم عن المعلوم، وبالمعلوم عن العلم، وبالقدرة عن المقدرة، وبالمقدرة عن القدرة، وبالإرادة عن المراد، وبالمراد عن الإرادة، وبالأمل عن المأمول، وبالوعد عن الموعود، وبالعهد عن المعهود، والعقد عن المعقود، وبالبشرى عن المبشَّر به، وبالقول عن المقول، وبالنبي عن المُنبَّأ به، وبالاسم عن المسمى، وبالكلمة عن المتكلم، وبالحلف عن المحلوف به، وبالحكم عن المحكوم به، وبالعزم عن المعزوم عليه، وبالهوى عن المهوي، وبالخشية عن المخشي، وبالحب عن المحبوب، وبالظن عن المظنون، وباليقين عن المتيقن، وبالشهوة من المشتهى، وبالحاجة عن المحتاج إليه، وبالسبب عن المسبب، وبالمسبب عن السبب (السابق، ص١٨٣–٢٢٢).

[٥٦] مثل الإخبار عن الجماعة بما يتعلق ببعضهم، والتعبير بالبعض عن الكل، وبالكل عن البعض، وبالفعل عن مقاربته، وتسمية الشيء بما كان عليه وبما يئول إليه، وتنزيل الموهَم منزلة المحقَّق، والمخاطبة والأخبار المبنيين على زعم الخصم.

[٥٧] مثل نسبة الفعل إلى سببه أو إلى سببٍ أو إلى سبب السبب أو إلى الأمر به أو الإذن فيه (السابق، ص٢٢٣–٢٣٦).

[٥٨] مثل: التعبير بالإذن عن المشيئة وعن التيسير والتسهيل، وتسمية ابن السبيل، ونفي الشيء لانتفاء ثمرته وفائدته، والتجوز بلفظ الريب عن الشك، وبترك الكلام عن الغضب، وبنفي النظر عن الإذلال والاحتقار، وباليأس عن العلم، والتعبير بالمسافحة عن الزنا، وبالمحل عن الحالّ، وبالإرادة عن المقاربة، وبالدخول عن الوطء، ووصف الزمان بصفة ما يشتمل عليه، والمكان بصفة ما يقع فيه، والإعراض بصفة ما قام به، والكنايات (السابق، ص٢٧٦–٢٩٣).

[٥٩] السابق، ص٢٩٣–٤٢٤.

التجوز في محلٍّ واحد مثل الذات والصفات والأفعال.[٦٧] وهناك المجاز المزدوج أي مجاز المجاز.[٦٨] ويمكن الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظٍ واحد.[٦٩]

---

[٦٠] منها: التجوز بالصراط والطريق والسبيل، وبالميزان عن العدل، وبالحبال عن العهود والعقود، وبالنور عن الهدى، وبالظلمات عن الضلالات والشدائد، وبالأبصار عن البصائر، وبالبصائر عن الأبصار، وبالموت عن الكفر، وبالحياة عن الإيمان، وبالروح عن الوحي والقرآن، وبالسجود عن الانقياد لقدرة الله، وبالقال عن دلالة الحال، وبالقتل عن الإهلاك واللعن، وبالدعاء عن العبادة، وبالظن عن العلم، وبالوقوع عن الثبوت والتحقق، وبالخيط عن الفَجرَين، وبكثرة السماع للصحيح والباطل بالأُذن، وبالصدق عن الشرف والحسن.

[٦١] مثل: نحت إنسان على صورة إنسان، مدح الأقوال والأفعال بلفظ الاستقامة والطيب والبركة، والذم بلفظ الاعوجاج، والطبع على القلوب والختم عليها، والانقلاب على الأعقاب، والتعبير عن الإحاطة على الإتلاف والإهلاك، وتشبيه المؤمن بالحي والسميع والبصير، والكافر بالميت والأعمى والأصم، ووصف الكتاب بالفتيا والقصص والحكمة، وتشبيه المعنى المنتسب إلى شيئين بالجرم المنتسب إلى جرمَين بلفظٍ بين، وتشبيه ثبوت القرآن والإسلام إلى آخر الزمان بالجبال الراسيات، وتسمية عقوبة المذنب بالعذاب، وجعل الهوى إلهًا، وتشبيه الناس بالحطب، وتشبيه خلو القلب من الأمن والسرور بالهواء، وتشبيه من خرج عن الصدق في هجوه وذمه بالهائم في الأودية، والتعبير بالإخبات عن الخضوع والتواضع، وتمثيل المرأة بالنعجة، والتعبير بالجهاد عن النصر، وتقديم رِجْل وتأخير أخرى، وتشبيه الداخل في الباطل بالخائض في الماء، وجعل الذوات في الأعراض وفي الصفات، والأمر المجازي هو أمر التكوين.

[٦٢] مثل اللباس، النقض، الربط، الشد، الكظم، الميل والزيغ والصفو والحنف، الحجاب، الكفر، الأكنة والأغطية والأغشية والأقفال، البعد، اللين، الغلظة، القسوة، المرض والشفاء، الضلال، الصُّم والعُمي والبُكم، البشارة والنذارة والمجازيان، القبض والبسط، الشرح والضيق والسعة والفتح، التولي والإعراض، الزلل والاستزلال، الصرف، الشدة، القرع، ثني الصدور، الدرء، الستر، الإيقاد والإطفاء والنار، النفخ، إسباغ النعم، صبغة الله، محو الباطل، نسخ الأحكام، الحرث، المهاد، الصبو، الركن، الأوتاد، الشراء والبيع والقرض، الجنوح، الأمثال، الاعتداء، التناوش.

[٦٣] مثل: السد المجازي، الرفض المجازي، السقوط المجازي.

[٦٤] مثل: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾، ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى﴾، و﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ﴾، ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ﴾، ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾، ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ﴾.

(ي) «المجيد في إعراب القرآن المجيد» للسفاقسي (٧٤٢هـ)[٧٠]

وهو مثل كتب إعراب القرآن في علوم التفسير. ويقوم بإعراب القرآن سورةً سورة، وآية آية، البسملة والفاتحة فقط نموذجًا. ويعتمد على آراء السابقين مع اقتباس نصوص ووضع لفظ «انتهى».[٧١] واللغة عند القدماء كانت ثقافة العصر مثل العلوم الإنسانية عند المحدثين. كما يعتمد على الشعر والمثل العربي.[٧٢] ويخلو من أي مقدمةٍ نظرية باستثناء أهمية علم اللغة.[٧٣] فهو القادر على تمييز الخطأ من الصواب كما فعل «البحر المحيط» لأثير الدين الذي جمع بين التفسير والإعراب كما فعل أبو البقاء في «البيان في إعراب القرآن». والكتاب يعتمد على تلخيص آراء السابقين، والانتقاء بين القراءات الشاذة.[٧٤] يظهر تطبيق قواعد النحو على الوحي مثل تطبيق أساليب البلاغة. فقد نزل الوحي بلغة

---

[٦٥] مثل: وصفها بالمجيء والإقبال، وبالزهوق والذهاب والإذهاب، وبالصعود والإصعاد، والإفراغ والصب، وبالدخول والخروج والإدخال والإخراج، وبالنزول والإنزال، وبالنبذ والقذف والرجم والإلقاء والرمي، وبالقرب والبعد، وبالفك والانفكاك.

[٦٦] مثل: الأخذ، الكشف، اللمس، الذوق، التمسك، الخلط، الملء، يمكن وصفها بأنها مرجوع إليها وبأنها مركوبة.

[٦٧] مثل: الرحمة، المحبة، الود، الرضى، الشكر، الضحك، الفرح، الصبر، الغيرة، الحياء، الابتلاء، السخرية والاستهزاء والمكر والخداع، التعجب، التردد، الاستواء، الغضب، السخط، الأسف، القلي، المقت، العداوة، اللعن، الكشف عن الساق، والإشارة إليه بـ «ذلك».

[٦٨] مثل: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ (مجاز القرآن، ص٤٥٢-٤٥٣).

[٦٩] مثل: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السابق، ص٤٥٣–٤٦٠).

[٧٠] أربعة كتب في علوم القرآن، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١١–٤٥، وهناك طبعةٌ أخرى تحقيق موسى محمد زين، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، السلسلة التراثية (١٣)، طرابلس، الجماهيرية الليبية، ج١، ١٤٠١هـ من وفاة الرسول، ١٩٩٢م.

[٧١] السابق، ص١٣، ٢١، ٢٧.

[٧٢] الأشعار (٣٤)، الأمثال العربية، ص١٦.

[٧٣] «وبعدُ، فلما كان اللسان العربي هو الطريق السني إلى فهم مفردات القرآن العزيز وتركيباته، وعليه المعول في معرفة معانيه وتدبر آياته، وبحسب قوة الناظر فيه، تلتقط درر المعاني من فيه …» (السابق، ص١٢).

[٧٤] السابق، ص١٢-١٣.

العرب. واتبع قواعد النحو العربي. وتم تطبيق ذلك سورةً سورة وآية آية، سورة الفاتحة والجزء الأول من سورة البقرة دون أن يكتمل. والسؤال هو: وماذا عما يندُّ عن قواعد النحو؟ هل هي الشواذ عن القاعدة؟ هل هي استعمال لهجات قبائلَ عربيةٍ أخرى، وقد أنزل القرآن على سبعة أحرف؟ هل هي أخطاء في التدوين؟

(ك) «بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب» للمارديني ابن التركماني (٧٥٠هـ)[٧٥]

وهو أيضًا في غريب الألفاظ دون تحديد الغربة بالنسبة لمن، وفي ماذا؟ هل في اللغة أي الدخيل من اللغات المجاورة، أم في الصور الأدبية وفنون القول وأساليب البلاغة، أم في الأحكام الشرعية، أم في العقائد والتصورات النظرية؟ ويتسع مفهوم الغريب بحيث يشمل ألفاظ القرآن كلها، وليس الغريب وحده، سورةً سورة، وآيةً آية دون أي تحليلٍ نظري باستثناء فقرة في المقدمة في نقد الدراسات القرآنية اللغوية دون القصدية والتي اقتصرت على الألفاظ دون المعاني والمقاصد والغايات. والقرآن موجَّه إلى العقول والألباب وليس إلى الألسن والشفاه.[٧٦] يشرح القرآن بالقرآن، وبالحديث نادرًا وبالشعر كثيرًا. ويعتمد على أقوال الصحابة والسابقين.[٧٧]

---

[٧٥] علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان الماريديني ابن التركماني: بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م/١٤٢٤هـ.

[٧٦] «فإن الله جعل القرآن الكريم تذكرةً للعقلاء وتبصرة؛ لتكون ألبابهم في معانيه متفكرة، ولأسراره متدبرة. فاشتغل الناس بتلاوة ألفاظه، وغفلوا عن المقصود والأعظم وهو فهم مقاصده وأغراضه. وهذا وصف كثير من حفاظه. فلو سألت عن غريبة من غرائبه لوجدت أكثرهم لها جاهلًا، وعن معناها ذاهلًا. فحملني ذلك على أن جمعت في غريب القرآن كتابًا غريبًا مسلكه قريبًا مدركه، صغيرًا حجمه، غزيرًا ملحه، يهيج الخاطر، ويروق الناظر ... ورأيت ترتيبه على السور مقللًا ألفاظه ومسهلًا على حفاظه» (السابق، ص١١).

[٧٧] الأشعار (٥٠)، «ألَّفته من غريب أبي بكر الغزيزي، وأبي محمد بن قتيبة، وأبي عبيد الهروي» (السابق، ص١١).

(ل) «كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر» لابن العماد (٨٨٧هـ)[٧٨]

ويستمر حتى بعد بداية علوم القرآن في «البرهان» للزركشي (٧٩٤هـ) في عرض بعض الموضوعات المنفصلة، الأشباه والنظائر، وكأنها موضوعاتٌ مستقلة مثل موضوع «المتشابهات»، ولا تعني التشابه في مقابل المحكم في علوم أصول الفقه من مباحث الألفاظ بل تعنى الآيات المتناظرة. لا يعني التشابه والتناظر هنا ما سُمي في علم القواعد الفكرية «الأشباه والنظائر» وهو تجميع الآيات المتشابهة في قاعدةٍ أصوليةٍ واحدة كما فعل ابن النجيم وغيره الذين وضعوا هذا العلم المتوسط بين الفقه وأصوله. تعني «الأشباه والنظائر» هنا رصد ألفاظ، أفعال وأسماء وحروف لها معانٍ متعددة. وهو يقابل التكرار في القرآن بدلًا من وحدة اللفظ واختلاف المعنى، وحدة المعنى واختلاف الألفاظ. هو أشبه بالتفسير الموضوعي للقرآن، بتجميع آياتٍ متشابهة نحو موضوعٍ واحد دون معجمٍ مفهرس لألفاظ القرآن كما هو موجود هذه الأيام. الموضوعات تتجاوز المائة.[٧٩] معظمها تقليدي، يدور حول الإيمان والهدى والكفر والشرك والإسلام والآخرة والشكر والروح والتقوى والذكر ... أو المعرفي مثل الحكمة، التأويل، الحس، الوحي، الحق، آية، أو السياسي مثل الأرض، الأمر بالمعروف، أمة، إمام، البأس، البغي، الطاغوت، الظلم، عدوان، السلام. ويستطيع هذا الجيل أن يضيف القهر، الطغيان، الفقر، الضنك، الاحتلال، الاستعمار، الاستغلال، الاحتكار، الاستيطان في أراضي الغير، الغزو، قتل الأبرياء، التعذيب، الاعتقال، سجن الأبرياء. وأقلها الأخلاقي مثل الحسنى، الرجاء الرحمة، الصدق، الصلاح، العفو، الفرح ... إلخ، أو الاجتماعي مثل السعي.

(م) «الترجمان عن غريب القرآن» للقرشي اليماني[٨٠]

ويركز على الألفاظ الغريبة في القرآن يرصدها في سورةٍ سورة وآية آية. يشرحها حتى تكون مألوفة. فاللغة للاستعمال. وهي ألفاظ عربية. البعض منها لم يعد متداولًا.[٨١] ومرتبطة بحياة البدو كما هو في ألفاظ الشعر. يشرحها لفظيًّا واشتقاقيًا ولغويًّا واصطلاحيًّا. ومنها

[٧٨] ابن العماد: «كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر» تحقيق ودراسة د. فؤاد عبد المنعم أحمد، تقديم ومراجعة د. محمد سليمان داود، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٧٧م. واعتبره المحقق والمراجع والناشر من التفسير القرآني.

ألفاظٌ عادية لا غربة فيها. ومنها ألفاظٌ أعجميةٌ معربة من اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية والنبطية والسريانية. يخلو من مقدمةٍ نظرية في اللغة وكيفية تعريب الألفاظ ودوافعه. ويعتمد على اللغويين والنحويين. كما يعتمد على الحديث والشعر، والشعر أكثر.[٨٢] ويذكر اسم الشاعر أو يظل مجهولًا. كما يعتمد على أقوال اللغويين والنحويين السابقين. ويكون الشرح بالمرادف أو العبارة الشارحة. وقد يكون الشرح بالشيء المشار إليه، أسماء الطيور والحيوانات. يبدأ الشرح بحروف «أي». ويدل على علمٍ غزير ومعلوماتٍ واسعة. ويكون الشرح بتعدد القراءات كحل الخلاف حول معاني الألفاظ. ويُفسر وجود بعض الأخطاء النحوية في الآيات. ويقترب من التفسير الموضوعي للقرآن بتجميع الآيات حول موضوع أو لفظٍ واحد. وبعض التفاسير ظنية خالصة مثل «النازعات» و«المغيرات»، «الصافات»، ملائكة أو غير ذلك.

(٢) العربي والغريب

والألفاظ القرآنية بها العربي وبها الغريب.[٨٣] العربي يقبل الإعراب، والغريب ما لا يقبله. وقد أَلَّف فيه خلقٌ كثير.[٨٤] وتركوا مؤلفاتٍ عديدة.[٨٥] ولا يضير فهم النص عن فهم الألفاظ الغريبة وهو أدخل في التفسير.[٨٦]

---

[٧٩] هي ١١٦ موضوعًا.

[٨٠] الإمام العلامة تاج الدين أبو المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد القرشي اليماني: الترجمان عن غريب القرآن، قرأه وعلق عليه الدكتور يحيى مراد. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ.

[٨١] مثل: جنفًا، صفوان، حصورًا، كلالة، الرجس، الوصيلة، الحام، الحوايا، مذءومًا، غواش، مُتَبَّر، مُكاء، تصدية، النسيء، قتر، أخبت، صديد، الجودي، منضود، مسوَّمة، تتبيب، داخرون، دلوك، الوصيد، المهل، زلقًا، أمتًا، المعتر، الأجداث، يقطين، مريج، ذو مرة، سامدون، مهطعين، وطرا، شواظ، زنيم، عتل، الصريم، حسومًا، المهل، العهن، عزين، قِددًا، وأغطش، أبًّا، قترة، الخنَّس، تسنيم، وسق، مسغبة، متربة، الماعون ... إلخ.

[٨٢] الشعر (٦٨)، الحديث (٢٢).

[٨٣] الإتقان، ج٢، ٣–٨٨؛ البرهان، ج١، ٢٩١–٢٩٦.

[٨٤] مثل: أبو عبيدة، أبو عمر الزاهد، ابن دريد، أبو حيان (السابق، ص٣).

[٨٥] منها كتاب العزيزي، الذي استغرق تأليفه خمسة عشر عامًا مع شيخه الأنباري (السابق، ص٣)، والمفردات للراغب وهو أيضًا التأليف في معاني القرآن مثل كتب الفراء والزجاج والأخفش وابن الأنباري

ويختلف القدماء عن المحدثين في الحكم على العربي والغريب. فما كان غريبًا عند القدماء هو عربي عند المحدثين. وما كان عربيًّا عند القدماء قد يكون غريبًا عند المحدثين. فاللغة تداولية. تحيا بالاستعمال، وتموت بعدم الاستعمال. وليس من المعقول أن يمتلئ القرآن بكل هذه الألفاظ الغريبة التي عفَّى عليها الزمن ولم تعد مستعملة، وإلا أصبحت لغةً تاريخيةً خالصة، وأصبح القرآن ذاته غير صالح لكل زمان ومكان. وهذا يدل على مدى انفتاح شبه الجزيرة العربية على الشعوب المجاورة، والتداخل بين الثقافات واللغات في مصر وبلاد الروم وفارس والهند والحبشة والقرن الأفريقي والنبط.[٨٧]

والقصص الغريبة على من؟ على أي قبيلة وفي أي لهجة. وكل ما كان غريبًا. في قريش كان غريبًا في العربية إذا كان الوحي قد نزل بلغة قريش؟ وكثير من هذه الألفاظ تعبر عن البيئة الصحراوية؛ الشجر، البلح، الرمل، النواة، الناقة، الصخر.

وقد تكون هذه الألفاظ الغريبة قد استُعملت من قبلُ في الشعر.[٨٨] ولا يعني ذلك أن الشعر أصل القرآن بل على أن هذا الغريب كان مستعملًا من قبلُ في اللغة التداولية.[٨٩] وذم الشعر في القرآن ليس على الإطلاق بل بسبب الأخلاق وليس بسبب اللغة والصياغة والشكل الأدبي. فالشعر غواية للغاوين، خيال دون فعل، وقول دون عمل. الشعر ديوان

(السابق، ج٢، ٣) وصنف أبو عبيدة كتاب «المجاز»، وأبو عمر غلام ثعلب «ياقوته»، «الصراط»، وكتاب ابن عزيز، وكتاب «الغريبين» للهروي، «والمفردات» للراغب (البرهان، ج١، ٢٩١).

[٨٦] مثل: «أبًّا»، «حنانا»، «غسلين»، «أواه»، «الرقيم» (الإتقان، ج٢، ٤–٥).

[٨٧] يذكر السيوطي ٧٣٤ لفظًا غريبًا، وأكثرها عربي بالاستعمال والغريب لا يتجاوز ٨١ لفظًا أي ٩٪ مثل وفومها (الحنطة)، جنفًا (إثمًا)، صفوان (حجر صلد)، كلالة (من لم يترك والدًا ولا ولدًا)، الجبت (الشرك)، نقيرًا (النقطة في ظهر النواة)، شنآن (عداوة)، الأزلام (الأقداح)، غير متجانف (متعدٍّ لإثم)، مُكلِّبين (ضَوارٍ)، بحيرة (الناقة)، مبلسون (آيسون)، أن تبسل (تُفضَح)، قنوان (قصار النخيل) قبلًا (معاينة)، الحوايا (المصير)، مذءومًا (ملومًا)، عفَوا (كثروا)، مُتبَّر (خسران)، أخبتوا (خافوا)، مسوَّمة (مصلحة)، مهطعين (ناظرين)، مواخر (جوارٍ)، لأحتنكن (لأستولين)، بالوصيد (الفناء)، المهل (عكر الزيت)، زبر الحديد (قطع الحديد)، المعترُّ (السائل)، لا يأتلِ (لا يقسم)، هضيم (معشبة)، سلقوكم (استقبلوكم)، من قطمير (الجلد على ظهر النواة)، غوْل (صداع)، ضغثًا (حزمة)، غساق (الزمهرير)، في تباب (خسران)، تحبرون (تكرمون)، مريج (مختلف)، وما ألَتْناهم (ما نقصناهم)، ذو مرة (منظر حسن)، سامدون (لاهون)، من غسلين (صديد)، كفاتًا (كفاء)، عسعس (أدبر)، لن يحور (لن يبعث)، أحوى (أسود)، من ضريع (شجر ذو شوك)، إلًّا (قرابة)، مخمصة (مجاعة) … إلخ (الإتقان، ج٢، ٦–٥٤).

العرب.[٩٠] والقرآن يرث الشعر كمحور للحياة العربية، وبؤرةٍ ثقافية. والوراثة تقوم على التواصل والانقطاع في نفس الوقت، تواصل الثروة، وانقطاع الأنساب. وقد نشأت منافسة بين الشعر والقرآن بعد نزول الوحي، بين أنصار القديم وأنصار الجديد. أنصار القديم يدافعون عن الشعر، وأنصار الجديد يدافعون عن القرآن. فالقرآن بالنسبة للشعر تجديد في فنون البلاغة. ليست القضية بين الشعر والقرآن قضيةً لغويةً لفظيةً بلاغية فقط أي قضية شكلٍ أدبي بل هي قضية تجربةٍ إنسانيةٍ حياتية. فالشعر تجربةٌ حياتية مثل الوحي، يشاركان في نفس المعنى والدلالات.

وفي القرآن ألفاظ بغير لغة الحجاز.[٩١] وهي أقرب إلى اللهجات مثل هذيل، وحمير، وجرهم، وكنانة ... إلخ.[٩٢] وقد تصل إلى الخمسين لغةً.[٩٣] وإذا كانت هذه اللغات قد اندثرت فكيف يمكن فهم القرآن الآن؟ والآن هناك قراءاتٌ أفريقية وأسيوية وأوروبية.

---

[٨٨] يذكر السيوطي ٨٩ شاهدًا شعريًّا به بعض الألفاظ الغريبة الواردة في القرآن (الإتقان، ج٢، ٥٥–٨٨).

[٨٩] من الألفاظ القرآنية الغريبة التي استعملت في الشعر من قبلُ: «عزين»، «ثبورًا»، «المعتر»، «شواظ»، «سامدون»، «آن»، «ذو مرة»، «كالصريم»، «لكنود»، «أبابيل»، «قمطريرًا»، «نقيرًا»، «فارض»، «المهل»، «مريج»، «دُسر»، «ركزًا»، «ختار»، «خمط»، «أبًّا»، «مهطعين»، «يعمهون»، «مخمصة»، الشعر ديوان العرب، فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم، رجعوا إلى ديوانهم فالتمسوا معرفة ذلك، ثم إن كان ما تضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم كفى فيه الاستشهاد بالبيت والبيتين. وإن كان ما يوجب العلم لم يكن ذلك بل لا بد من أن يستفيض اللفظ وتكثر شواهده من الشعر (البرهان، ج١، ٢٩٤).

[٩٠] عند ابن عباس «الشعر ديوان العرب»، وعن عمر «عليكم بديوان جاهليتكم ففيه تفسير كتابكم.»

[٩١] ١٧٦ لفظًا (الإتقان، ج٢، ٨٩–١٠٤)؛ (البرهان، ج١، ٢٨٣–٢٨٦).

[٩٢] وهي موزعة كالآتي: هذيل (٣٩)، حمير (٢٢)، جرهم (٢٠)، كنانة (١٧)، قيس عيلان، اليمن (٨)، أزد شنوءة (٧)، مذحج (٦)، خثعم، عمان (٥)، حضرموت (٤)، كندة، غسان، بنو حنيفة، الأشعريون، همدان (٣)، سعد العشيرة، لخم، سبأ، تميم، أغار (٢)، عذرة، مزينة، جذام، اليمامة، سليم، عمارة، خزاعة، الأوس، الخزرج، بلي، ثقيف، ثعلبة، نصر بن معاوية، صمصة، ثقيف، عك (١).

[٩٣] هي لغات: قريش، هذيل، كنانة، خثعم، الخزرج، أشعر ونمير، قيس عيلان، جرهم، اليمن، أزد شنوءة، كندة، تميم، حمير، مدين، لخم، سعد العشيرة، حضرموت، سدوس، العمالقة، أنمار، غسان، مذحج، خزاعة، غطفان، سبأ، عمان، بنو حنيفة، ثعلبة، طي، عامر بن صعصعة، أوس، مزينة، ثقيف، جذام، بلي، عذرة، هوازن، النمر، اليمامة.

وفي القرآن ألفاظ من لغاتٍ غير عربية؛ الحبشية والفارسية، والنبطية، والعبرية، والسريانية والبربرية، والقبطية، والرومية، والهندية ثم الزنجية واليونانية، والتركية. وهي مائة وسبعة عشر لفظًا. وقد يكون لفظٌ واحد في أكثر من لغة.

وكلما كانت النظرية محافظة لم يكن في القرآن حرفٌ غريب من لغة قريش إلا ثلاثة لأن كلام قريش سهلٌ واضح. وكلام العرب وحشيٌّ غريب.[٩٤] وذلك دفاعًا عن نقاء اللغة واستعمال الوحي أقل قدر ممكن من الحوامل الأجنبية.[٩٥] وكلما كانت النظرية أكثر جرأةً امتلأ القرآن بالألفاظ غير العربية كحوامل للوحي بعد أن أصبحت الألفاظ غير العربية جزءًا من اللغة العربية التداولية.

واللغة العربية نفسها هي لغة العرب العاربة والعرب المستعربة التي أحضرت بعض ألفاظها معها فعرَّبتها. فلم يكن العرب في جزيرةٍ منعزلة عن باقي الشعوب المجاورة لها، بلغاتها وثقافتها وأديانها وعاداتها.[٩٦] وبعد تعريب بعض الألفاظ أصبحت أكثر عربية من الألفاظ العربية الأصيلة لقدرة العربية على تعريب غيرها من الألفاظ غير العربية مثل «السندس» و«الإستبرق» و«الإبريق» من الفارسية، و«الأرائك» و«الطاغوت» بالحبشية، و«أسفار» و«ربانيون» من السريانية، و«أكواب» و«سفرة» بالنبطية، و«بطائن» بالقبطية

[٩٤] الإتقان، ج٢، ١٠٣–١٢٠. هي حوالي إحدى عشرة لغةً طبقًا للأهمية: الحبشية (٢٦)، الفارسية (٢٤)، النبطية (٢٢)، العبرية (٢١)، السريانية (١٥)، البربرية (أهل المغرب) (٧)، الرومية (٦)، القبطية (٥)، الهندية (٢)، الزنجية، اليونانية، التركية (١).

[٩٥] وقد كتب السيوطي في ذلك كتابًا مستقلًّا هو «المهذب في ما وقع في القرآن من المعرب» (الإتقان، ج٢، ١٠٥)؛ (البرهان، ج١، ٢٨٧–٢٩٠).

[٩٦] «وقال أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك: إنما وجدت هذه الألفاظ في لغة العرب لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظًا. ويجوز أن يكونوا قد سبقوا إلى هذه الألفاظ» (الإتقان، ج٢، ١٠٦). الطور بالسريانية جبل، وطفقا أي قصدا بالرومية، والقسط والقسطاس والعدل بالرومية، وهُدْنا أي تُبنا بالعبرانية، والسجلُّ الكتاب بالفارسية، والرقيم اللوح بالرومية، والمهل عكر الزيت بالبربرية، والسندس الرقيق من الستر بالهندية، والإستبرق الغليظ بالفارسية والسَّريُّ النهر الصغير باليونانية، وطه أي طأ يا رجل بالعبرانية، ويُصهر أي ينضح بالبربرية، وسينين الحسن بالنبطية، والمشكاة الكوة بالحبشية، والدري المضيء بالحبشية، والأليم المؤلم بالعبرانية، إناه أي نضجه بالبربرية، الآخرة أي الأولى بالقبطية، وراء أي أمام بالقبطية، اليم البحر بالقبطية، بطائن أي ظواهر بالقبطية، الأَبُّ الحشيش بالبربرية، نشأ بالحبشية أي قام ليلًا، كِفل بالحبشية ضعف، القسورة الأسد بالحبشية. التوراة والإنجيل أعجميان (البرهان، ج١، ٢٨٨-٢٨٩).

و«سيدها» و«جهنم» و«الرحمن» و«الرمز» بالعبرانية، و«الرقيم» و«الصراط»: بالرومية، و«المهل» بالبربرية. وقد عُرِّبت هذه الألفاظ عبر اتصال العرب بغيرهم من الشعوب المجاورة عبر التجارة قبل نزول الوحي، فالحامل اللغوي بصرف النظر عن نشأته وتكوينه قادر على حمل المحمول.[٩٧] وقد وضعت معظم هذه الألفاظ غير العربية في قصائدَ عربية للاستنكار.[٩٨]

(٣) ألفاظ يكثر دورانها

ونظرًا لأن ثقافة القدماء ثقافةٌ لغوية فقد جمعوا بعض الألفاظ المتكررة في القرآن في تفسير الشبه بالتفسير الموضوعي. تجمع بين الأفعال مثل «فعل»، «حسب»، «كاد»، «رأى»، «ظن»، «عسى»، «لعل»، «اتخذ»، «سأل»، «وعد»، «شعر»، «علم»، «ود»، ومعظمها الأفعال التي تنصب ما بعدها، وبعض صيغ التفضيل والتي تأخذ مفعولَين، وبعضها للجزم والنصب، وأفعال المضارعة، ولفظ «سواء»، وبعض الآيات.[٩٩] وهي خطوة نحو الخروج من مباحث الألفاظ، والبعد التشريعي، وأساليب البلاغة، والبعد الجمالي إلى التجارب الاجتماعية والسياسية أي الموضوعات بالرغم من أن بدايتها تحليل الألفاظ المتكررة في القرآن خاصة الأفعال وليس الأسماء أو الحروف.

---

[٩٧] «بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسن بتجارات وبرحلتَي قريش وبسفر مسافرين كسفر أبي عمرو إلى الشام، وسفر عمر بن الخطاب، وكسفر عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشى إلى الحيرة وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلَّقت العرب بهذا كله ألفاظًا أعجمية غيَّرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت في تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح. ووقع بها البيان. وعلى هذا الحد نزل بها القرآن. فإن جهلها عربي فلجهله الصريح بما في لغة غيره، وكما لم يعرف بها ابن عباس معنى «فاطر» إلى غير ذلك. قال: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعرَّبتها فهي عربية بهذا الوجه» (البرهان، ج١، ٢٨٩). «وذلك أن هذه أصولها أعجمية كما قال الفقهاء إلا أنها أسقطت إلى العرب فعرَّبتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية. ثم نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب؛ فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال إنها أعجمية فهو صادق» (السابق، ص٢٩٠). «وليس كل من خالف قائلًا في مقالته ينسبه إلى الجهل. فقد اختلف الصدر الأول في تأويل القرآن» (السابق، ص٢٩٠).

[٩٨] الإتقان، ج٢، ١١٩–١٢٠.

[٩٩] البرهان، ج٤، ١٢١–١٧٤.

وليست كل الأفعال دالة مثل «فعل». ومن نفس الحقل الدلالي أفعال «جعل»، «عمل»، «طفق»، «أنشأ»، «أقبل». «فعل» هو الأعم، يفيد القول والهم. وأقله «عمل» يعم النية والهم والعزم والقول. وتعني «جعل»، «سمى»، «كاد»، «طفق». وهي معاني المقاربة. كما تعني الخلق والاختراع، والنقل من حال إلى حال والتصيير، والاعتقاد، والحكم بالشيء على الشيء. وتأتي بمعنى «ألقى».[١٠٠]

وبعضها أكثر دلالة مثل فعل «كان» هل يدل على الماضي وحده أم هو مستمرٌّ متجدد في الحاضر والمستقبل. فكان تدل على الماضي والحاضر في آنٍ واحد، على التطور والبنية. هل فَعَل ماضٍ وإذا وقع بعد «إن» أو «أما» المستقبل. ويمكن أن يسبقه نفي مثل باقي الأفعال.[١٠١]

ويفيد فعلا «عسى» «ولعل» الرجاء والطمع. ويتضمنان الشك والظن. «عسى» ماضي اللفظ والمعنى أو ماضي اللفظ مستقبل المعنى. ويفيد فعل «ود» نفس المعنى؛ التمني. ويأتي معها حرف «ل» أو «أن».[١٠٢]

وهناك عدة أفعال تتعدى مفعولَين مثل «حسب»، «ورأى» إذا كانت بصرية تعدَّت لواحد أو علمية تعدَّت لاثنين، الأول مفعول، والثاني حال. وقد تكون بمعنى «أخبر» أو «انتبه». ولا يتعلق فعل «علم» إلا بالمعاني. ويعنى فعل «ظن» الاعتقاد والراجح، وربما اليقين. فالظن محمود حتى ولو كان شكًّا. ولا يستبعد أحد المحمولين. ويعني «شعر»، علم، ومصدره «شعره» مثل فطنه. و«اتخذ» يتعدى إلى مفعولٍ واحد أو مفعولَين. و«أخذ» يعني غصب وعاقب. ويستعمل للمقاربة والقسم. ويتعدى «سأل» لمفعولين.[١٠٣]

ويفيد فعل «كاد» أن الإثبات إثبات، والنفي نفي، أو أن الإثبات نفي والنفي إثبات، ووقوع الفعل بعسر، والتفصيل في النفي بين المضارع والماضي. فنفي المضارع نفي، ونفي الماضي إثبات.[١٠٤] وقد يعني «أراد».[١٠٥]

---

[١٠٠] السابق، ج٤، ١٢١، ١٢٨–١٣٥.

[١٠١] السابق، ج٤، ١٢١–١٢٨.

[١٠٢] السابق، ج٤، ١٥٨–١٦٨.

[١٠٣] السابق، ج٤، ١٣٥–١٦٧.

[١٠٤] البرهان، ج٤، ١٣٦–١٣٩.

[١٠٥] مثل: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

وفعل المطاوعة هو الواقع مسبَّبًا عن سببٍ اقتضاه مثل كسرته فانكسر.[١٠٦] ويحتمل الفعل الجزم والنصب.[١٠٧]

وأفعل التفضيل له قواعد، منها: إذا أضيف إلى جنسه لم يكن بوضعه.[١٠٨] وإذا ذكر بعد أفعل جنسه وواحد من آحاده يضاف إليه.[١٠٩] أن يكون الأصل للأفضلية على ما أضيف إليه، لا يطلق على العاهات.[١١٠] ويكثر حذف المفضول إذا دل عليه دليل.[١١١] وقد يأتي مجردًا عن معنى التفضيل.[١١٢] وأفعل على ثلاثة أضرب: مضاف، ومعرف باللام، وخالٍ منها. أما لفظ «سواء» فيعني الاستواء، وهو عكس التفضيل.

ويمكن تصنيف الآيات طبقًا لصياغتها اللغوية الكلية وليس طبقًا لمعانيها. وهي حدود الخطاب المغلق على ذاته.[١١٣]

(٤) الإعراب

والإعراب بين اللفظ والمعنى، فهو تشكيل اللفظ طبقًا للمعنى وحفاظًا على الاثنين.[١١٤] وفهم المعنى يساعد على الإعراب.[١١٥] وقد يتجاذب الإعراب والمعنى الشيء الواحد. ويكون ذلك طبقًا للصياغة، وهي فنون البلاغة، وأن يتم طبقًا لقواعد اللغة العربية، وأن يستوفي

---

[١٠٦] البرهان، ج٤، ١٣٩–١٤٤، مثل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

[١٠٧] السابق، ج٤، ١٤٤–١٤٩، مثل: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾.

[١٠٨] البرهان، ج٤، ١٦٨–١٧٣، مثل: ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

[١٠٩] السابق، ج٤، ١٧٣-١٧٤.

[١١٠] مثل: ﴿أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

[١١١] مثل: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

[١١٢] مثل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

[١١٣] البرهان، ج٤، ١٤٤، مثل ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾.

[١١٤] «ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنى لأن الإعراب يميز المعاني ويتوقف على أغراض المتكلمين» (السابق، ص٢٦٠)، وقد ألَّف فيه مكي في كتابه في الشكل خاصة، والحوفي وهو أوضحها، وأبو البقاء العكبري وهو أشهرها، والسمين وهو أجلُّها على ما فيه من حشو وتطويل، ولخَّصه السفاقسي وحرره، وتفسير أبي حيان مملوء به (الإتقان، ج٢، ٢٦٠).

[١١٥] في معرفة إعرابه، الإتقان، ج٢، ٢٦٠–٢٨٠.

جميع ما يمثله اللفظ من الأوجه الظاهرة، وأن يراعي الشروط المختلفة حسب الأبواب، وأن يراعي في كل تركيب ما يشاكله.

وأول ما يُعرف الإفراد والتركيب، وهو موضوع في النحو من أجل إعراب القرآن.[116] وفي الإعراب تُتجنب الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة واللغات الشاذة. ولا يخرج على القريب والقوي والفصيح. وتُجنَّب القراءات الشاذة. ويفضَّل الترجيح بين القراءات. ويُراعى الرسم والخط. ويُستحسن التروي في المتشابهات. ويراعى عدم الخروج على الأصل أو الظاهر دون مقتضى، والبحث عن الأصل دون الزائد، وهي الأعاريب، وتجتنب الألفاظ الزائدة.

وقد يتجاذب اللفظَ الواحد إعرابان لمعنيَين، وكلاهما صحيح، وقد يتعارض الإعراب والمعنى مع بعضهما البعض. وقد تقرأ بأكثر من وجه، الإعراب أو البناء. وليس في القرآن على كثرة منصوباته مفعول معه.

ويقوم النحوي ببيان مراتب الكلام، فالعُمد قبل الفضلة، والمبتدأ قبل الخبر، والوصول بالنفس قبل الوصول بالجر، والمفعول الأول قبل الثاني، وارتباط الضمير بالتأخير أو التقديم.[117]

والتصريف هو ما يلحق ببنية الكلمة. وهو قسمان: الأول جعل الكلمة على صيغٍ مختلفة بضروب من المعاني مثل التصغير والتكبير، والمصدر، واسمي الزمان والمكان، واسمي الفاعل والمفعول، وحركتَي المقصور والممدود. والثاني تغيير الكلمة لمعنًى طارئ عليها فتحدث الزيادة والحذف، والإبدال والقلب، والنقل والإدغام. وفائدته توليد المعاني الفرعية من المعنى الأصلي. فالمعنى ليس تصورًا منطقيًّا جامعًا مانعًا بل هو ظلال من المعاني يوحي بأكبر قدر ممكن من الإيحاءات.[118]

وطبقًا لمعاني الألفاظ الثلاثة: الاشتقاقي، والاصطلاحي، والعرفي؛ إذا كان المعنى الاشتقاقي ثابتًا، والاصطلاحي ثابتًا فإن المعنى العرفي، وهو المعنى التداولي، يتغير بتغُّير الاستعمالات والأعراف واختلاف المجتمعات والمراحل التاريخية. لذلك وجدت القواميس

[116] البرهان، ج١، ٣٠١–٣١٠، من أهم مؤلفاته؛ وكتاب «المشكل»؛ وكتاب «المنتخب» للهمذاني؛ وكتاب الحوفي؛ وأبي البقاء العكبري؛ والزمخشري؛ وكتاب ابن عطية؛ والشيخ أبو حيان؛ السابق، ص٣٠١.

[117] البرهان، ج١، ٣١٠.

[118] السابق، ج١، ٢٩٧–٣٠٠.

التاريخية للغة والتي يندر منها أن توجد في اللغة العربية وكأنها خارج التاريخ قبل الإسلام وبعده.

ثم يتم الخروج من مستوى اللفظ والمعنى إلى مستوى الشيء ذاته وهي الأفعال. وهي أحكام التكليف الخمسة كجزء من مباحث الألفاظ.[١١٩] وهي لا تتجاوز خمسمائة آية مما يزيد على الأربعة آلاف. فالغاية من القرآن ليس التكليف بل التحرر الوجداني كما قال الصوفية. والأحكام نوعان: الأول صريح ومباشر، والثاني مستنبطة وغير مباشرة من آيةٍ أخرى أو من سياق مجموع الآيات.[١٢٠] ويمكن استنباط الأحكام من العواطف الإنسانية مثل تعظيم فعل أو الإقلال من شأنه، مدحه أو ذمه، محبته أو كراهيته، الرضا أو السخط من الشيء، الفرح والحزن. فتعني الوجوب أو التحريم أو الندب والكراهية، والواقعة والعقاب، والتعجب والنفور. ويعرف الحلال بألفاظ رفع الجناح والإذن والعفو والتخيير والامتنان. وقد تجمع آيةٌ واحدة أكثر من حكم. هنا يتم الانتقال من اللغة إلى الفعل. فالتوجه القرآني ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾، لذلك تختتم علوم القرآن بالعلم والعمل.[١٢١]

(٥) الأشباه والنظائر

وهو ما يسمى بالوجوه والنظائر.[١٢٢] الوجوه للفظ المشترك هي معانيه المتعددة. والنظائر هي الألفاظ المتواطئة. النظائر في الألفاظ، والوجوه في المعاني. وهو ليس معجزة بمعنى خرق قوانين الطبيعة دون معرفة أسبابها. وليس إعجازًا لأنه جزء من طبيعة اللغة وقواعد التفسير. وإذا كان للكلمة عشرون وجهًا فإن ذلك من غنى اللغة العربية وفضلها على غيرها من اللغات، وليس معجزةً قرآنية. ومعرفة وجوه الألفاظ جزء من فهم القرآن.[١٢٣]

---

[١١٩] السابق، ج٢، ٣–٢٣.

[١٢٠] السابق، ص٣–٦.

[١٢١] السابق، ج٢ ص١٠.

[١٢٢] الإتقان، ج٢، ١٢١–١٣٩؛ البرهان، ج١، ١٠٢–١١١. وقد صنف في هذا الموضوع من المتقدمين مقاتل بن سليمان.

[١٢٣] السابق، ص١٢١؛ ومن المتأخرين ابن الجوزي، وابن الدامغاني، وأبو الحسين محمد بن عبد الصمد المصري، وابن فارسون، وآخرون، السابق، ص١٢١.

وقد يكون للفظ معنًى واحد بصرف النظر عن الاستعمال والسياق. فاللفظ له نواة المعنى.[١٢٤] وقد يعني لفظٌ واحد معنيَين من أجل حرية الحركة في الفهم طبقًا للموقف والظروف المتغيرة.[١٢٥] الأول معنًى حسيٌّ مادي، والثاني روحيٌّ أخلاقي. الأول ظاهري والثاني باطني. فالظلمات والنور إما العتمة والنور أو الإيمان والكفر. بل إن معنى اللفظ يتغير من آيةٍ إلى أخرى طبقًا للسياق.[١٢٦] والصبر يكون محمودًا في آية ومذمومًا في أخرى. وقد يكون للفظ ثلاثة معانٍ مثل العفو.[١٢٧]

وقد تعني الوجوه الإشارات الباطنة دون الظاهرة.[١٢٨] والأمثلة على ذلك كثيرة. قد يعني لفظ الذكر تسعة عشر وجهًا.[١٢٩] الذكر باللسان والقلب والذاكرة نظرًا، ويكون في العظة والبيان والخبر والشرف والوحي والثناء كشفًا. ويكون في القرآن والحديث والتوراة تدوينًا، ويكون في الطاعة ونيل الجزاء عملًا. ويكون في الصلاة وفي الصلوات الخمس

[١٢٤] القنوت الطاعة، والأليم الموجِع، والقتل اللعن، والزجر العذاب، والتسبيح الصلاة، والسلطان الحُجة، والدين الحساب، والرياح الرحمة، والريح العذاب، والكأس الخمر، والفاطر الخالق، والإفك الكذب، والجعل الخلق، والمباشَرة الجماع، والفسق الكذب ... إلخ، السابق، ج٢، ١٣٥–١٣٨.

[١٢٥] يعني الأسفُ الحزنَ والغضب، والبروج الكواكب والقصور الطوال الحصينة، والبر والبحر التراب والماء أو البرية والعمران، والبخس النقص والحرام، البعل الزوج والصنم، والبكم الخَرَس وعدم الكلام، وجثيًّا جميعًا أو الجثي على الركب، والحسبان العدد والعذاب، والحسرة الندامة والحزن، والدحض الباطل والمقروع، والرجز العذاب والصنم، والرَّيب الشك وحوادث الدهر، والرجم القتل والظن، والزور الكذب والشرك، والزكاة المال والطهر، والزيغ الميل والتشخيص، والسخرية الاستهزاء والاستخدام، والسعير النار والعناء، والشيطان إبليس أو الغواية، والشهيد المقتول والشاهد، وأصحاب النار أهلها وخزنتها، والصلاة عبادة ومكان، والصمم السماع والإسراء، والعذاب التعذيب والضرب، والقنوت الطاعة والقرب، والكنز المال والعلم، والمصباح الكوكب والسراج، والنكاح الزواج والحلم، والنبأ الخبر والحجج، والورود الدخول أو الهجوم، وكل ما في العمل والمنفعة، واليأس قنوط، والعلم والصوم عبادة وصمت، والإنفاق الصدقة والمهر ... إلخ (السابق، ج٢، ١٣٢–١٣٥).

[١٢٦] اليأس قنوط إلا في «الرعد» فنفي العلم (السابق، ج٢، ١٣٤).

[١٢٧] معنى العفو: تجاوز الذنب، القصد في النفقة، الإحسان فيما بين الناس، (السابق، ج ٢، ١٣٨).

[١٢٨] الإتقان، ص١٢١-١٢٢.

[١٢٩] يعنى الذكر: ذكر اللسان، وذكر القلب، والحفظ، والطاعة، والجزاء، والصلوات الخمس، والعظة والبيان، والحديث، والقرآن، والتوراة، والخبر، والترف، والعيب، واللوح المحفوظ، والثناء، والوحي، والصلاة، وصلاة الجمعة، وصلاة العصر (السابق، ص١٢٩-١٣٠).

وصلاة الجمعة وصلاة العصر ممارسة. ولفظ الهدى سبعة عشر وجهًا.[١٣٠] وتعني المعرفة والبيان والدين والإيمان والحجة والتوحيد والإلهام والإرشاد. كما تعني الجوانب العملية مثل الثبات، والدعاء، والاسترجاع، والإصلاح والتوبة. وتعني التدوين مثل القرآن والسنة والتوراة. ومنها لفظ القضاء.[١٣١] ويعني الأجل والموت والوصية والهلاك أو الأمر والفصل والمعنى والوجوب والإبرام، والإعلام والنزول، والخلق والفصل والعهد. والفتنة خمسة عشر وجهًا.[١٣٢] وتعني الجوانب النظرية مثل الشرك والإضلال، والمعذرة، والقضاء، والإثم، والمرض والعبرة أو الجوانب العملية مثل: القتل، والصد، والعقوبة، والاختبار، والعذاب، والإحراق، والجنون. والرحمة اثنا عشر وجهًا.[١٣٣] والسوء أحد عشر وجهًا.[١٣٤] والروح.[١٣٥] أو الصلاة تسعة وجوه.[١٣٦] والدعاء ستة وجوه.[١٣٧] والإحصان ثلاثة وجوه.[١٣٨]

(٦) منطق الاشتباه

وهو ما يعادل مباحث الألفاظ في علم أصول الفقه.[١٣٩] وتتفاوت كمًّا فيما بينها. تبدأ بأكبرها؛ الحقيقة والمجاز لبعد الصورة الفنية في اللغة، ثم المحكم والمتشابه لبيان دور

---

[١٣٠] ويعني الهدى: الثبات، والبيان، والدين، الإيمان والدعاء والرسل والكتب، والمعرفة، والنبي، والقرآن، والتوراة، والاسترجاع، والحجة، والتوحيد، والسنة والإصلاح، والإلهام، التوبة والإرشاد (السابق، ص١٢٢–١٢٤).

[١٣١] ويعني القضاء: الفراغ، والأمر، والأجل، والفصل، والمعنى، والهلاك، والوجوب، والإبرام، والإعلام، والموت، والنزول، والخلق، والفصل، والعهد (السابق، ص١٢٨–١٢٩).

[١٣٢] السابق، ص١٢٦–١٢٧.

[١٣٣] تعني الرحمة: الإسلام، والإيمان، والجنة، والمطر، والنعمة والنبوة، والرزق، والنصر والفتح، والمودة والسعة، والمغفرة، والعصمة.

[١٣٤] وهي: الشدة، والعقر، والزنى، والعذاب، والشرك، والشدة، والذنب، ويأس، والضر، والقتل والهزيمة.

[١٣٥] وتعني الروح: الأمر، والوحي، والقرآن، والرحمة، والحياة، وجبريل، وملك عظيم، وجيش من الملائكة، وروح البدن.

[١٣٦] وتعني الصلاة: الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، والجنازة، والدعاء، والدين، والقراءة، والرحمة والاستغفار، ومواضع الصلاة.

[١٣٧] ويعني الدعاء: العبادة، والاستعانة، والسؤال، والقول، والنداء، والتسمية.

[١٣٨] ويعنى الإحصان: العفة، والتزوج، والحرية.

[١٣٩] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٢٤٧–٣٥٨.

الفهم الإنساني في اختيار معنًى واحد من المعاني المتعددة للفظ، ثم المجمل والمبين لتوضيح المعاني واختيار أقرب المعاني إلى البداهة والوضوح، ثم الظاهر والمؤول طبقًا لأعماق الفهم ومستويات الشعور المعرفي، ثم العام والخاص وتوجه اللفظ نحو الشخصي، والخطاب نحو المخاطب، ثم المطلق والمقيد وهو نفس التقابل بين العام والخاص على مستوى التجريد، ثم الأمر والنهي وهو توجه الخطاب نحو الفعل وهو بيت القصيد. وأخيرًا يتم التحول من المنظوم إلى المنطق والمفهوم لوضع منطق للمعنى يتجاوز منطق الألفاظ.[١٤٠]

(أ) الحقيقة والمجاز: الموضوعات الشرعية حقائق بالنظر إلى الشرع، مجازات بالنظر إلى اللغة.[١٤١] ولما كان الشرع قد عُرف من اللغة فإن الموضوعات الشرعية قد تكون مجازًا بالنسبة للخاصة، حقائق بالنسبة إلى العامة. وإنكار المجاز وقوع في الحرفية وضيق الأفق ووحدانية النظرة.[١٤٢]

الحقيقة هي كل لفظ بقي على موضوعات دون تقديم أو تأخير. والمجاز هو إخراج اللفظ عما وُضع له. وهو نوعان: الأول المجاز في التركيب. وهو المجاز العقلي وعلاقته الملابسة بإسناد الفعل إلى ما هو له أصالة لملابسته.[١٤٣] والثاني المجاز في المفرد ويسمى المجاز اللغوي. وهو استعمال اللفظ في غير موضعه.[١٤٤] وتسمية الداعي إلى الشيء باسم

---

[١٤٠] السابق، ص٣٥٩–٣٧٤.

[١٤١] الموضوعات الشرعية مثل: الصلاة والصوم والزكاة والحج، (الإتقان، ج٣، ١٢٦).

[١٤٢] البرهان، ج٢، ٢٥٤–٢٥٦.

[١٤٣] في حقيقته ومجازه، الإتقان، ج٣، ١٠٩–١٢٧.

[١٤٤] ويكون ذلك بالحذف أو الزيادة أو إطلاق الكل على الجزء أو الجزء على الكل، والمطلق على المقيد، والمقيد على المطلق، والجمع على المثنى، والمثنى على الجمع. والخاص على العام، والعام على الخاص، والملزوم على اللازم، واللازم على الملزوم، والسبب على المسبب، والمسبب على السبب، وتسمية الشيء باسم ما كان عليه أو ما يئول إليه، وتسمية الشيء بما كان عليه، وإطلاق اسم الحالِّ على المحل أو المحل على الحالِّ، وتسمية الشيء باسم آلته أو ضده، وإضافة الفعل إلى ما لا يصح منه تشبُّهًا، وإطلاق الفعل والمراد مشارفته ومقاربته وإرادته، والقلب وإقامة صيغة مقام أخرى. ويتفرع إلى أنواعٍ كثيرة، ويمكن اختصارها في ستة أنواع: الحذف، والتأكيد، والتشبيه، والكناية، والتقديم والتأخير، والالتفات. وقد صنَّف فيه عز الدين بن عبد السلام ولخَّصه السيوطي ثم زاد فيه في كتابه «مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن» (الإتقان، ج٣، ١٠٩).

الصارف عنه، وإقامة صيغة مقام أخرى، وإطلاق الأمر وإرادة التهديد والتلويح، وإضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل له في الحقيقة، وإطلاق الفعل والمراد مقاربته ومشارفته لا حقيقته، وإطلاق الأمر بالشيء للتلبس به والمراد دوامه، وإطلاق اسم البشرى على المبشَّر به. وقد يكون اللفظ مشتركًا بين حقيقتَين أو أحدهما حقيقة والآخر مجاز.[١٤٥]

والمجاز نوعان: الشبه وهو المجاز اللغوي عند الأصوليين. والثاني الملابسة وهو المجاز العقلي عند اللغويين.[١٤٦] فاللغة أداة العقل. والعقل تعبير باللغة.

وقد تكون هناك واسطة بين الحقيقة والمجاز، وهي الألفاظ قبل الاستعمال مثل الحروف أوائل السور من أجل إيقاظ الانتباه وإثارة الخيال.[١٤٧] وقد تكون الألفاظ المستعملة للمشاكلة على التقابل للإعلام والإخبار فهي مجاز لعلاقة المصاحبة.[١٤٨]

وقد يجوز مجاز المجاز أي أن يكون المجاز المأخوذ عن الحقيقة حقيقة بالنسبة إلى مجازٍ آخر.[١٤٩] فالمجاز سلسلة لا تتناهى. فلا توجد حقيقة إلا ولها مجاز. ولا يوجد مجاز إلا ويكون حقيقة لمجازٍ آخر. الحقيقة بداية، والمجاز نهاية. البداية بالحرف المتناهي، والنهاية بالصورة التي لا تتناهى.

وقد يُنفى الشيء ويثبت باعتبارَين. فالرمي حقيقة في الإنسان ومجاز في الله.[١٥٠] فالحقيقة والمجاز يتوقفان على المستوى. قد يكون المستوى الحسي حقيقة ثم يتحول مجازًا بالانتقال من الحسي إلى المعنوي، وهو طريق التنزيه. وقد يكون المستوى الحسي مجازًا ثم يتحول إلى حقيقة بالانتقال من الحسي إلى المعنوي، وهو طريق التشبيه.[١٥١]

(ب) المحكم والمتشابه: وفي القرآن محكم ومتشابه. ليس كله محكمًا وإلا ضاق الخناق على الفهم والتفسير والتأويل. وليس كله متشابهًا وإلا تحولت التعددية إلى تكافؤ الأدلة، وتساوى كل شيء بكل شيء، وانتهى الأمر إلى التشبيه واللاأدرية والعدمية.[١٥٢]

[١٤٥] البرهان، ج٢، ٢٠٧-٢٠٨، ٢٥٤، ٢٩٩.

[١٤٦] السابق، ج٢، ٢٥٦.

[١٤٧] الإتقان، ج٣، ١٢٦-١٢٧.

[١٤٨] مثل: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾.

[١٤٩] وذلك مثل: ﴿لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ (الإتقان، ج٣، ١٢٧)؛ (البرهان، ج٢، ٢٩٨-٢٩٩).

[١٥٠] البرهان، ج٢، ٣٠٨-٣٠٩، وذلك مثل ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾.

[١٥١] من العقيدة إلى الثورة، ج٢، التوحيد، ص٢٠٠-٢٢٣.

[١٥٢] «في المحكم والمتشابه» الإتقان، ج٣، ٣-٣٢؛ البرهان، ج٢، ٦٨-٧٧.

المحكم هو الذي يحتمل وجهًا واحدًا، والمتشابه هو الذي يحتمل أكثر من وجه. الأول هو الواضح، والثاني المتشابه. المتشابه يمكن معرفته عن طريق منطق الألفاظ. فما فائدة وجوده وهو مجهول، لا يعلمه إلا الله؟ والمحكم ما تكرر لفظه، والراسخون في العلم هم أصحاب هذا المنطق اللغوي، وليس علمًا سريًّا باطنيًّا. ليس المحكم والمتشابه في الموضوع، المحكم الوعد والوعيد والفرائض، والمتشابه القصص والأمثال بل ما يتعلق بصياغة الخطاب، وهو على أنواع مثل ما لم يُنسخ، والناسخ، والفرائض، والوعد والوعيد.[١٥٣]

المحكم: ما استقلَّ بنفسه ويُدرك بالحدس. والمتشابه: ما اعتمد على غيره ويحتاج إلى التحليل اللغوي العقلي. ليس المحكم والمتشابه هما الناسخ والمنسوخ. فالأول يتعلق بالصياغة اللغوية، والثاني ينطق بمدة الحكم. ليس المحكم هو الآيات، والمتشابه الحروف أوائل السور. فقد تكون الآيات أيضًا متشابهة. أما أوائل السور فإنها من أسرار البلاغة ولا تحتوي على حكم.[١٥٤]

ويعني المحكم في اللغة المنع، منع الحاكم الظالم من الظلم وإلجام الفرس من الاضطراب. وفي الاصطلاح أحكام الأمر والنهي، وبيان الحلال والحرام.[١٥٥]

والمتشابه على ثلاثة أنواع: متشابه من جهة اللفظ، ومتشابه من جهة المعنى، ومتشابه من الجهتين معًا. واللفظ نوعان بسيط ومركب. والمركب ثلاثة أنواع: لاختصار الكلام، ولإيضاح الكلام وبسطه، ولنظم الكلام. والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله والقيامة الحسية وضرورة تأويلها معنويًّا. وهي على خمسة أنواع: من جهة الكمية كالعموم والخصوص، ومن جهة الكيفية كالوجوب والندب، ومن جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ، ومن جهة المكان كعادات الجاهلية، ومن جهة الشروط التي بها يصح الفعل. ومن حيث الموضوع المتشابه ثلاثة أنواع، ما لا يمكن الوقوف عليه مثل أمور المعاد، وما يمكن معرفته كالألفاظ والأحكام، وما يتوسط بين الاثنين، وهو ما يعرفه الراسخون في العلم، وهم أهل الاختصاص.

ومن المتشابه آيات الصفات مثل الاستواء الذي يعني الاستقرار والاستيلاء والصعود والارتفاع والخلق والاعتدال. وكلها معانٍ حسية. وقد يلجأ البعض إلى تغيير الوقف في

[١٥٣] البرهان، ج٢، ٦٨–٦٩.

[١٥٤] السابق، ص٣–١٠.

[١٥٥] الإتقان، ج٣، ١٠–١١.

قراءةٍ أخرى بالوقوف على العرش ثم البداية بـ «استوى» كفعل لباقي الآية. والوجه يعني إخلاص النية أو قصد التوجه. والعين تعني البصر أو الإدراك. واليد تعني القدرة. والساق هي الشدة والأمر العظيم. والجنب الطاعة. والعزب العلم. والفوق العلو. والمجيء الأمر، والعند الإشارة والتمكين. وأخرى أقل حسية وأكثر معنوية مثل المحبة والغضب والرضا والعجب والرحمة. فهي انفعالاتٌ إنسانية يتم إسقاطها وتكبيرها. فالتأويل ضروري حفاظًا على التنزيه، وحذرًا من التجسيم والتشبيه.[١٥٦]

ومن المتشابه أوائل السور من دلائل الإعجاز. ولا تعني أي قصد أو توجه خاص بأوصاف الله أو أسمائه أو أفعاله أو صفاته.[١٥٧] فلو كان المقصود كذلك لصرح به في آيةٍ كاملة دون اختصارها في حروف. ولا تشير الحروف إلى أسماء.[١٥٨] ولا دليل على أنها من أسماء القرآن. وليست حروف اللغة العربية بأعدادها أو حروف البسملة طبقًا لعلم أسرار الحروف.[١٥٩] ووجه الإعجاز أن القرآن نظم من الحروف الهجائية العادية. هي مجرد تنبيهات.[١٦٠] دقاتٌ صوتية من دقات خشبة المسرح لإعلان بداية التمثيل.

وهناك التشابه في الأفعال لحاجة السلوك إلى أساسٍ نظريٍّ محكم.[١٦١] فالتشابه ليس فقط مقولةً لغوية بل أيضًا مقولةٌ سلوكية في الحيرة والتردد.[١٦٢] بل هي مقولةٌ وجودية في التوتر بين الفناء والبقاء، بين الموت والخلود.

ووظيفة المتشابه شحذ الذهن، وجعل القارئ جزءًا من المقروء، والموضوع إحالة إلى الذات كما أن الذات إحالة إلى الموضوع. يحث العلماء على النظر الموجب للعلم، وبذل

---

[١٥٦] السابق، ج٢، ١٢–٢١؛ البرهان، ج٢، ٧١–٧٤، ٧٨–٨٩.

[١٥٧] الإتقان، ج٢، ٢١–٣٠ مثل: «الم» أنا الله أعلم، «المص» أنا الله أفصل، «الر» أنا الله أرى، و«المص» أنا الله الصادق، «المر» أنا الله أرفع.

[١٥٨] مثل: الكاف للكريم، الهاء للهادي، الصاد للصادق أو المصور أو الصمد، والياء للحكيم، والعين للعليم، والقاف القادر، والنون النور والناصر.

[١٥٩] «يس» سيد المرسلين، «ص» صدق الله، «ق» جبل.

[١٦٠] «وقيل إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه؛ فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم منه سببًا لاستماعهم، واستماعهم له سبب لاستماع ما بعده فترقَّ القلوب، وتلين الأفئدة» (الإتقان، ج٣، ٢٧).

[١٦١] البرهان، ج٢، ٧١.

[١٦٢] لذلك كتبت سيمون دي بوفوار «من أجل أخلاق للاشتباه».

الجهد للوصول إلى المراد. ويتفاوت الناس في درجات العلم. وكلما ازداد العلم ازداد الفهم. ولو كان القرآن كله محكمًا لكان مذهبًا واحدًا، وقراءةً واحدة، وفهمًا واحدًا. وهو ضد روح القرآن. ويستدعي ذلك تحصيل علومٍ كثيرة لفهم الجوانب المختلفة للقرآن وممارسة التأويل، والاعتماد على علوم اللغة: النحو، والمعاني، البيان، وأصول الفقه. ويدعو الخواص إلى إعمال النظر.[١٦٣]

(ج) المجمل والمبين: المجمل ما لم تتضح دلالته. وله أسباب مثل الاشتراك، والحذف، واختلاف مرجع الضمير، واحتمال العطف والاستئناف؛ أي مواقع الوقف والابتداء، وغرابة اللفظ أو كثرة الاستعمال، والتقديم والتأخير، وقلب المنقول، والتكرير القاطع، لوصول الكلام في الظاهر. وقد يقع البيان متصلًا أو منفصلًا. الأول تخصيص وتأويل، والثاني بيان.

وقد يكون المجمل والمحتمل شيئًا واحدًا، وقد يتمايزان. فالمجمل لفظٌ مبهم لا يُفهم مراده، والمحتمل لفظٌ واقع بالوضع الأول على معنيَين. المجمل يدل على أمورٍ معروفة على عكس المحتمل. ليس المجمل هو الغامض بل هو المركب الذي يحتاج إلى تحليل إلى بسائط.[١٦٤]

(د) الظاهر والمؤوَّل: إذا كان اللفظ محتملًا لمعنيَين وفي أحدهما أظهر، فالراجح ظاهر، والمرجوح مؤول. ولا يوجد شيء في القرآن لا تعلم الأمة تأويله وإلا كان تجهيلًا. والتأويل يتغير بحسب الزمان والمكان والمؤول وتطور التاريخ وتغير الظروف والأحوال.[١٦٥] وكلها ممكنة لأنه لا يوجد تأويلٌ واحدٌ ثابت وإلا أصبح القرآن كله ظاهرًا.[١٦٦]

(هـ) العام والخاص: العام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر. وصيغته «كل» وأسماء الصلة «الذي»، «التي» و«أي» و«ما» و«مَن» للشرط والاستفهام، والجمع المضاف، واسم الجنس للمضاف، والنكرة في سياق النفي والنهي، والمعرف بألف ولام التعريف. وهو على ثلاثة أقسام: الباقي على عمومه، العام الذي يراد به المخصص، والعام

---

[١٦٣] الإتقان، ج٣، ٣٠–٣٢؛ البرهان، ج٢، ٧٥–٧٧.

[١٦٤] الإتقان، ج٣، ٥٣–٥٨؛ البرهان، ج٢، ٢٠٨–٢١٦؛ من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٢٦٩–٢٨١.

[١٦٥] البرهان، ج٢، ٢٠٥–٢٠٧.

[١٦٦] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٢٦٩–٢٨٠.

المخصوص. والمخصص له متصل أو منفصل. والمتصل خمسة: الاستثناء، والوصف، والمشروط، والغاية، وبدل البعض من الكل. وقد يكون الكلام متصلًا، أحده عام والآخر خاص. والعموم للمدح أو الذم باقٍ على عمومه. والخطاب الخاص بالرسول لا يعمَّم. صيغ الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، على مستوياتٍ عدة من العموم، من الأكثر عمومًا إلى الأقل عمومًا والأكثر خصوصًا.[١٦٧] وقد يراد بالخطاب العام العموم، وبالخطاب الخاص الخصوص، وقد يراد بالخطاب الخاص العموم، وبالعموم الخاص.[١٦٨]

ويشمل خطاب العموم الجنس والنوع وخطاب المدح للمؤمنين والذم للكافرين. ويشمل خطاب الخصوص خطاب العين. ويشمل العموم والخصوص للأفراد والجماعات خطاب الذم والكراهية والإهانة والتهكم والجمع بلفظ الواحد، والواحد بلفظ الجمع، والواحد والجمع بلفظ الاثنين، والاثنين بلفظ الواحد، وخطاب الجمع بعد الواحد وخطاب العين والمراد غيره، وخطاب الاعتبار، وخطاب الشخص ثم العدول إلى غيره.[١٦٩]

(و) المطلق والمقيد: المطلق والمقيد مثل العام والخاص.[١٧٠] والمقيد هو تعليق الحكم بصفة أو شرط. وقد يكون التقييد باللغة وبالقياس، بالنقل أو العقل. والمطلق هو الأساس ثم يدخل المقيد عليه.[١٧١] وقد يكون التقييد بصفة.[١٧٢] ولا يستدل بالصفة العامة إذا لم يظهر تقييد عدم التعميم.[١٧٣]

(ز) الأمر والنهي: وإذا كان العموم والخصوص للأفراد فإن الأمر والنهي للأفعال. وقد يأتي الأمر كصيغةٍ لغوية بلا حرف أو بحرف. وهو الإثبات في اللغة. والنهي هي صيغة النفي في اللغة. والنفي للصدق والجحد للكذب. لذلك كان الصدق شرط صحة النفي. ويسبق النفي أداته. وإذا كان نفيًا عامًّا فأداته للعموم. وأدوات النفي كثيرة «لا»، «ما»، «لا»، «لم»، للماضي والحاضر والمستقبل.[١٧٤]

---

[١٦٧] الإتقان، ج٣، ٤٣–٥١؛ من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٣١٦–٣٤٨.

[١٦٨] البرهان، ج٢، ١٨–١٩.

[١٦٩] البرهان، ج٢، ٢١٧–٢٤٥.

[١٧٠] في مطلقه ومقيده، الإتقان، ج٢، ٩١–٩٣.

[١٧١] البرهان، ج٢، ١٥–١٧.

[١٧٢] السابق، ص٢١.

(حـ) المنطوق والمفهوم: ومن الصعب الفصل بين اللفظ والمعنى. فاللفظ حامل للمعنى، والمعنى محمول على اللفظ. ويمكن ذلك في علم أصول الفقه بالتمييز بين المنظوم والمفهوم.[١٧٥] ثم يأتي المنطوق فيخرج اللغة من التقابل بين اللفظ والمعنى إلى التقابل بين اللفظ والشيء، والخروج من اللغة إلى العالم. فاللغة منزل الوجود.[١٧٦]

المنطوق والمفهوم هما اللفظ والمعنى.[١٧٧] وهما في أصول الفقه المنظوم والمفهوم. فالمنطوق ما دل عليه اللفظ أي محل النطق. والمفهوم هو المعنى الذي لا يحتمل غيره. والمفهوم ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق. وهو قسمان: مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة. الأول ما يوافق حكم المنطوق. فإن كان أولى سمِّي فحوى الخطاب أو دلالة الخطاب. والثاني ما يخالف المنطوق وهو مفهوم الصفة نعتًا أو حالًا أو ظرفًا أو عددًا أو الشرط أو الحصر أو الغاية. فالألفاظ تدل إما بمنطوقها وهي الألفاظ، أو بفحواها وهي المعاني أو الدلالات أو باقتضائها وضرورتها وهي التجارب الحدسية الذاتية أو بمعقولها المستنبط منها.[١٧٨] وهو ما سماه الأصوليون المنظوم والمفهوم والمعقول والمنظور.[١٧٩]

(٧) وهم الاختلاف

والتعارض بين الآيات وهم؛ فالقرآن لا يتعارض بعضه مع بعض بل يتكامل. وحل التعارض مباحث الألفاظ وثنائياتها: الحقيقة والمجاز، الظاهر والمؤول، المحكم والمتشابه، المجمل والمبيَّن المطلق والمقيد، المستثنى والمستثنى منه، العام والخاص، الأمر والنهي ... إلخ. كما يمكن حل التعارض عن طريق الناسخ والمنسوخ والأولوية في الزمان من حيث التقديم والتأخير، تقديم المكي على المدني. ويمكن حل التعارض عن طريق الأسلوب، أن يكون أحد المعنيين مستقلًّا بحكمه، والثاني مرتبطًا بلفظٍ زائد. وتعارض القراءتين حله في

[١٧٣] السابق، ص١٨-١٩.

[١٧٤] البرهان، ج٢، ٣٧٤–٣٨١.

[١٧٥] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٢٤٧–٣٤٧.

[١٧٦] هي عبارةٌ شهيرة لهيدجر.

[١٧٧] في منطوقه ومفهومه، ج٣، ٩٥–٩٨.

[١٧٨] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٣٧٥–٤٤٢.

[١٧٩] السابق.

علم القراءات. وإيهام التناقض في الأسماء وليس في المعاني. الأول حله في منطق الألفاظ، والثاني حله بالقياس ومناهج الاستنباط. وقد تكون الأسباب الموهمة للاختلاف وقوع المختبر به على أحوالٍ مختلفة وأطوارٍ شتى أو اختلاف الموضوع أو اختلاف جهتي الفعل أو لوجهَين واعتبارَين مختلفَين بين المتفرقات.[١٨٠] وإذا وقع تعارض بين الآية والحديث فالأولوية للآية طبقًا للأولوية في ترتيب المصادر الأربعة.[١٨١]

وقد يوهم بوقوع تعارض بين النصوص.[١٨٢] وهو أحد أبواب أصول الفقه في التعارض والتراجيح.[١٨٣] وكيف يكون تعارض في وحي منزل في ذاته دون أن يكون في تدوينه أو قراءاته أو فهمه وتفسيره؟ قد ينشأ هذا الوهم بالتعارض إما لمقتضياتٍ بلاغيةٍ صرفة أو لتباين مستويات الفهم والتفسير أو لاختلاف السياق. وللاختلاف أسباب، منها: وقوع المخبَر به على أنواعٍ مختلفة وتطويراتٍ شتى، واختلاف الموضوع، وتباين جهتي الفعل، واختلاف الحقيقة والمجاز، ووجود وجهَين واعتبارَين. وقد تعمق الأصوليون في ذلك، وإعطاء بعض الحلول للتعارض بين الآيات عن طريق نسخ المتأخر للمتقدم أو تخصيصه أو تعميمه أو باقي المبادئ اللغوية.

وما أكثر الخلافات في علوم القرآن مثل الخلافات في علم أصول الدين وعلم أصول الفقه وفي علوم الحكمة وفي علوم التصوف، بل لقد تحول الخلاف الفقهي إلى علمٍ مستقل هو علم الخلاف. ولا يضير ذلك الوحي في شيء. فاختلاف الحوامل لا تقلل من ثبات المحمول. واختلاف المياه الجوفية وتياراتها وأعماقها واتساعها ومدتها لا تمنع من الشرب من مياهه.

---

[١٨٠] البرهان، ج٢، ٤٥–٦٧.

[١٨١] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١٦٧–١٩٠.

[١٨٢] في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض، الإتقان، ج٣، ٧٩–٨٩.

[١٨٣] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٤١٢–٤٢٢.

الفصل الثاني

أساليب البلاغة

(١) فنون القول ووجوه الخطاب

الوحي قولٌ بليغ للتأثير في المتلقي، وله وجوهٌ متعددة للخطاب طبقًا لأنواع الخطاب في اللغة العربية. هو فنٌّ من فنون القول وأسلوب من أساليب البلاغة؛ ومن هنا أتى الإعجاز ومنافسة الشعر. هو تعبير وإيصال مثل الفن تمامًا، هو عملٌ فنيٌّ شعري، يعتمد على أساليب البلاغة؛ لذلك أثَّر في العرب وهم أهل فصاحة وبيان، ونافس شعرهم وهو فنهم الأصيل.[١]

(أ) فنون القول

وتعني أساليب أو فنون البلاغة تجاوز جدل اللفظ والمعنى واختيار أوجز لفظ للتعبير عن أعظم المعاني. وتسمى أيضًا أساليب القرآن وفنونه البليغة. وهو لبُّ علوم القرآن كيفًا وكمًّا.[٢] ويتضمن حوالي خمسين فنًّا. وإذا كانت مباحث الألفاظ على المستوى الاستدلالي فإن أساليب البلاغة هي استمرار لمباحث اللغة ولكن على المستوى الجمالي، الأول لاستنباط الأحكام، والثاني للتأثير في النفس.

وتعني بدائع القرآن الاستمرار في أساليب البلاغة في القرآن إلى ما لا نهاية. في كل آية فن من فنونها والتي قد تبلغ المائة لدرجة صعوبة حصرها لتداخلها.[٣] لكلٍّ منها تفصيلات وتقسيمات وأنواع. تدخل فيها مباحث الألفاظ عند الأصوليين مثل الحقيقة والمجاز. وهي

---

[١] البرهان، ج٢، ٣٨٢–٥١٦، ج٣، ج٤، ٣–١٧٤.

أساليبُ معروفة في البلاغة العربية اتبعها القرآن لخلب لُبِّ العرب. ومنها ما يخرج على أساليب البلاغة ويكون أدخل في العلوم الإسلامية مثل المذهب الكلامي.[٤] وقد تبلغ فنون البلاغة خمسين فنًّا.[٥]

اللفظ والتركيب أحسن وأفصح موضوع لعلم البيان والبديع. يحتاج إليه المفسر في البحث عن مقتضيات الإعجاز، والحقيقة والمجاز، والتأليف والنظم والسياق، واستقامة الوزن والملاحة. ويدركها أصحاب الفطر السليمة. وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة. ووظيفتها تقوية الأفهام والتأثير في النفس.[٦] ومن المعاني التي يتكلم فيها البليغ مثبتًا ونافيًا تحقيق العقائد الإلهية، وبيان الحق فيما يشكل من الأمور غير العقائد،

---

[٢] هو أكبر الأنواع كمًّا (٧٨٣ ص).

[٣] الإتقان، ج٣، ٢٤٩–٢٨٩ صنَّف فيه ابن أبي الأصبع وأورد مائة نوع.

[٤] ومنها: المجاز، الاستعارة، التشبيه، الكناية، الإرداف، التمثيل، الإيجاز، الاتساع، الإشارة، المساواة، البسط، الإيغال، التتميم، التكميل، الاحتراس، الاستقصاء، التذييل، الزيادة، الترديد، التكرار، التفسير، الإيضاح، نفي الشيء بإيجابه، المذهب الكلامي، القول بالموجب، المناقضة، الانتقال، الإسجال، التسليم، التمكين، التوشيح، التسهيم، رد العجُز على الصدر، تشابه الأطراف، لزوم ما لا يلزم، التخيير، التشجيع، التشريع والإيهام والتورية، الاستخدام، الالتفات، الاطراد، الانسجام، الإدماج، الافتنان، الاقتداء، ائتلاف اللفظ مع اللفظ، ائتلاف اللفظ مع المعنى، الاستدراك، الاستثناء، تأكيد المدح بما يشبه الذم، التفويف، التغاير، التقسيم، التدبيج، التبكيت، التضمين، الجناس، جمع المؤتلف والمختلف، حسن النسق، عتاب المرء نفسه والعكس، العنوان، الفوائد، القسم، المبالغة، المطابقة، المقابلة، المواربة، المراجعة، النزاهة، الإبداع، المقارنة، حسن الابتداء، حسن الختام، حسن التخلص، الاستطراد (السابق، ص٢٤٩).

[٥] البرهان، ج٢، ٣٨٣، وهي: التوكيد، الحذف، الإيجاز، التقديم والتأخير، القلب، المدرج، الاقتصاص، الترقي، التغليب، الالتفات، التضمين، وضع الخبر موضع الطلب، وضع الطلب موضع الخبر، وضع النداء موضع التعجب، وضع القلة موضع الكثرة، تذكير المؤنث، تأنيث المذكر، التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل، مشاكلة اللفظ للمعنى، النعت، الإبدال، المحاذاة، قواعد في النفي والصفات، إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة، الإعراض عن صريح الحكم، الهدم، التوسع، الاستدراج، التشبيه، الاستعارة، التورية والتجريد، التجنيس، الطباق، المقابلة، إلجام الخصم بالحجة، التقسيم، التعديد، مقابلة الجمع بالجمع، قاعدة فيما ورد في القرآن مجموعًا تارة ومفردًا أخرى، قاعدةٌ أخرى في الضمائر، قاعدة في السؤال والجواب، الخطاب بالشيء في اعتقاد المخاطب، التأدب في الخطاب، تقديم ذكر الرحمة على العذاب، الخطاب بالاسم، الخطاب بالفعل، قاعدة في ذكر الموصولات والظرف تارة وحذفها أخرى، قاعدة في النهي ودفع التناقض عما يوهم ذلك، وملاك ذلك الإيجاز والإطناب، الإجمال والإيجاز، التفصيل والإشباع.

وتمكين الانفعالات النفسانية من النفوس مثل الاستعطاف والإعراض، والإرضاء والغضب، والتشجيع والتخويف، والذم والمدح، والشكاية والاعتذار، والإذن والمنع، واستدعاء المخاطب إلى فضل تأمل. والاستمالة والاسترضاء، والإغضاب العجيب، ويسمى القول البلاغي الضمير أو التمثيل. والضمير أن يختفي أحد الطرفين، والتشجيع، والإبانة والمدح.[٧]

(ب) وجوه الخطاب وأقسام الكلام

والوحي خطاب. والخطاب له وجوه. وهو أيضًا كلام. والكلام له أقسام:

(أ) وجوه الخطاب: ووجوه الخطاب في القرآن عديدة.[٨] وهي أقرب إلى مباحث الألفاظ تفصيلًا مثل العام والخاص، والمدح والذم، والكرامة والإهانة والتهكم، والواحد والجمع، والواحد والاثنين، وخطاب الأنا والغير، والعام والخاص، والتلوين وهو الالتفات، والجماد والعاقل، والتهييج والتمنن، والتحبب والتعجيز، والتشريف والمعدوم.[٩] وهي حوالي أربعين وجهًا. وقد تختلف أعداد أنواع الخطاب طبقًا لمباحث الألفاظ وقواعد البلاغة.[١٠] وبالنسبة للرسول هناك خطاب للنبي، وآخر لغيره، وثالث لكليهما.

ويمكن التصنيف إلى عشرة: نداء، ومسألة، وأمر، وتشفع، وتعجب، وقسم، وشرط، ووضع، وشك، واستفهام. ويمكن تسعة بعد إسقاط الاستفهام مع أنه قسمٌ رئيسي من أقسام الكلام. ويمكن ثمانية وإسقاط التشفع مع أنه قسمٌ رئيسي في الكلام خاصة في ثقافة ترتكز على الشفاعة من موروث الأشاعرة. ويمكن سبعة بعد إسقاط الشك لأنه

---

[٦] البرهان، ج١، ٣١١–٣١٧. وقد صنف فيه شمس الدين محمد بن النقيب مجلدَين مقدمة لتفسيره، وحازم الأندلسي «منهاج البلغاء وسراج الأدباء».

[٧] «ولا شك أن هذه الصناعة تُفيد قوة الإفهام على ما يريد الإنسان ويراد منه ليتمكن بها من اتباع التصديق به وإذعان النفس له» (البرهان، ج١، ٣١٢–٣١٧).

[٨] في وجوه مخاطباته، الإتقان، ج٣، ٩٩–١٠٧؛ البرهان، ج٢، ٢١٧–٢٥٣، ٣١٦–٣٨١.

[٩] هناك عام يراد به العموم، وعام يراد به الخصوص، وخاص يراد به الخصوص، وخاص يراد به العموم، وخطاب الجنس والنوع والعين (السابق، ص٩٩).

[١٠] ومنها المقطوع والموصول، السبب والإضمار، الوعد والوعيد، الحدود الأحكام، الخبر والاستفهام والأبهة، والحروف المصرفة، والإعذار والإنذار، والحجة والاحتجاج، والمواعظ والأمثال، والقسم (السابق، ص١٠٦–١٠٧).

متضمن في الخبر، مع أن الشك قسم من أقسام الكلام له أهميةٌ خاصة في ثقافة يغلب عليها اليقين. ويمكن ستة بعد حذف التشفع والتعجب والقسم والشرط والوضع والمسألة وإبقاء النداء وإضافة الأمر والنهي والخبر والاستخبار والتمني. ويمكن خمسة بحذف التمني والاستخبار وإضافة التصريح والطلب.[١١]

وهناك خطاباتٌ أخرى بلاغية مثل خطاب التلوين وهو خطاب الالتفات عند أهل المعاني، وخطاب العقل للجمادات، وخطاب المعدوم. وهو نوع من أنسنة الطبيعة. وهناك الخطاب المباشر للحث على الفعل مثل خطاب التهييج، والإغضاب، والتشجيع، والتحريض، والتنفير، والتحنن، والاستعطاف، والتحبيب، والتعجيز، والتحسير، والتلهف، والتكذيب، والتشريف. وهو خطابٌ شعوري للانفعالات الإنسانية المتضادة.[١٢] وقد يكون الخطاب بالشيء عن اعتقاد المخاطب دون ما في نفس الأمر. فالخطاب لغة.[١٣] والتصديق يخرج عن إطار اللغة، اللغة للتخاطب، والتصديق في الواقع، ويقرب منه التهكم.[١٤]

(ب) أقسام الكلام: الكلام خبر أو إنشاء.[١٥] الخبر ما يحتمل الصدق والكذب. والإنشاء يضم النداء والمسألة والأمر والتشفع والتعجب والقسم والشرط والوضع والشك والاستفهام. وقد يضاف إلى الاستخبار وهو طلب الفهم والنهي مع الأمر والتمني والتصريح. ولا يعني التمييز بين الخبر والإنشاء الفصل التام بينهما. فالقصد بالخبر إفادة المخاطب. وقد يرد بمعنى الأمر والنهي والدعاء والتعجب، والتمني والوعد والوعيد والإنكار، والنفي في الماضي والمستقبل، والجحد. وقد يفصل الاستفهام في صيغٍ عديدة.[١٦] قد توجد مباشرة أو بطريق غير مباشر. والتفصيلات العديدة للإنشاء تدل على أنه هو السائد في الخطاب القرآني.[١٧]

---

[١١] السابق، ج٢، ص٣١٦.

[١٢] السابق، ج٢، ص٢٤٦–٢٥٣.

[١٣] السابق، ج٤، ٥٥–٥٨ مثل ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

[١٤] السابق، ص٥٨، مثل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

[١٥] الإتقان، ج٣، ٢٢٥–٢٤٨؛ السابق، ج٢، ص٣١٧–٣٢٦.

[١٦] مثل: الإنكار، التوبيخ، الاعتراف، التعجب، العتاب، التذكير، الافتخار، التفخيم، التهويل والتخويف، التسهيل والتخفيف، التهديد والوعيد، التكثير، التسوية، الأمر، التنبيه، الترغيب، النهي، الدعاء، الاسترشاد، التمني، الاستبطاء، العرض، التحضيض، التجاهل، التعظيم، التحقير، الاكتفاء، الاستبعاد، الإيناس، التهكم، الاستهزاء، التأكيد (السابق، ص٢٣٥–٢٤٠).

ويوضع الخبر موضع الطلب في الأمر والنهي.[18] كما يوضع الطلب موضع الخبر.[19] فصيغ الكلام متداخلة. قد يكون الخبر طلبًا غير مباشر. وقد يكون الطلب خبرًا لا يقتضي الفعل.

والأمر هو اقتضاء الفعل. وله عدة أقسام مجازًا. والنهي صيغته لا تفعل. وهو التحريم والحظر والمنع. ويرد مجازًا في عدة صيغ.[20] والتمني هو طلب على سبيل المحبة.[21] ويعبر عنه بحروف «ل» و«لعل» «وهل». والترجي في الممكن، والتمني في المستحيل.[22] وقد يرد النداء مجازًا في الإغراء والتحذير والاختصاص والتنبيه والتحسر.[23] والاستعطاف ليس قسمًا.[24] ويوضع النداء موضع التعجب. فكلاهما صيغتان إنشائيتان انفعاليتان وجدانيتان.[25]

ويمكن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وعن الماضي بلفظ المستقبل؛ فالزمان متصل الحلقات. وقسمته إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل قسمةٌ وهمية. فالماضي هو مستقبل الحاضر، والحاضر هو مستقبل الماضي، والمستقبل هو ماضي الحاضر. فالحقائق في الزمان وخارجه بنيةٌ تند عن التطور.[26]

(٢) طرق التوكيد

التوكيد أهم أسلوبٍ بلاغي في القرآن من أجل مزيد من اليقين. والقصد منه العمل على ما لم يقع ليصير واقعًا. لذلك لا يؤكد الماضي ولا الحاضر لوقوعهما. إنما التأكيد في المستقبل. فإذا وقع فهو حقيقة.[27] الماضي حدث. والحاضر المشاهد. والمستقبل هو الحامل لأمور

---

[17] السابق، ج٢، ص٣١٧.

[18] السابق، ج٣، ص٣٤٧–٣٤٩.

[19] السابق، ص٣٥٠–٣٥٢.

[20] مثل: الندب، الإباحة، الدعاء، التهديد، الإهانة، التسخير، التعجيز، الامتنان، العجب، التسوية، الإرشاد، الاحتقار، الإنذار، الإكرام، التكوين، الإنعام، التكذيب، المشورة، الاعتبار، التعجب (الإتقان، ج٣، ٢٤٢–٢٤٣؛ البرهان، ج٢، ٣٢٠–٣٢٦).

[21] مثل: الكراهة، الدعاء، الإرشاد، التسوية، الاحتقار والتقليل، وبيان العاقبة، واليأس، والإهانة (السابق، ص٢٤٣–٢٤٤).

[22] البرهان، ج٢، ٣٢٣.

المعاد الذي يحتاج إلى توكيد الماضي في قصص الأنبياء. والحاضر مدرَك بالحس والمشاهدة. والتوكيد نوعان باصطلاح النحاة، صناعي ومعنوي.[٢٨] والصناعي نوعان لفظي ومعنوي. اللفظي بالمرادف.[٢٩] ويكون في الاسم النكرة بالإجماع، وفي اسم الفعل، وفي الجملة، وفي فصل الجملتَين، وقصد تحقيق المخبر، وقصد إغاظة السامع، والإعلام بأن المخبر به كله من عند المتكلم، والتعريض بأمرٍ آخر، والحاجة للتحرر من ذكر ما لا فائدة له، ونزول المنكر لغير المنكر وعكسه.[٣٠] ويلحق بالتأكيد الصناعي تأكيد الفعل بالمصدر. والسؤال هو: هل الأولى التأكيد بالمصدر أو الفعل؟ المصدر أولى. وينعت المصدر بالوصف.[٣١] وقد يقع الحال بعد الجملة الاسمية فتلزم مؤكداتها بحروف «إن» و«أن» و«كأن» و«لكن» و«لام الابتداء» والفصل، وضمير البيان للمذكر والقصة للمؤنث، وتأكيد الضمير، وتصوير الجملة بضمير مبتدأ يفيد التأكيد، وهاء التنبيه في النداء، و«ياء» الموضوع للبعيد، و«واو» التأكيد، و«إما» المكسورة، و«أما» المفتوحة، و«ألا» الاستفتاحية و«ما» النافية، و«الباء» في الخبر.[٣٢] أما مؤكدات الجملة الفعلية فهي «قد»، «السين» للتنفيس، النون «الشديدة»، «لن» لتأكيد النفي.[٣٣] والنون للتوكيد، خفيفة لتأكيد الفعل مرتين أو شديدة لتأكيده ثلاثًا.

والخطاب درجة من اليقين في الشعور. تعبر عنه حروف التوكيد مثل «إن» التي تفيد التأكيد والتحقيق. وقد تفيد التعليل ومعنى نعم. ومثلها «أن». وقد تفيد التعليل. فالتوكيد لعله. ويفيد «إنما» قصر الصفة على الموصوف.[٣٤] و«ظن»، تفيد الاعتقاد الراجح.[٣٥] وهو الشك والحسبان. وهو درجة من درجات اليقين العلمي.[٣٦]

---

[٢٣] السابق، ص٣٢٣–٣٢٦.

[٢٤] السابق، ص٣٢٦.

[٢٥] السابق، ج٣، ٢٥٣-٣٥٤.

[٢٦] السابق، ج٣، ٣٧٢–٣٧٦.

[٢٧] السابق، ج٢، ٣٨٤–٥١٦، ج٣، ٣–١٠٢.

[٢٨] السابق، ص٣٨٥.

[٢٩] السابق، ص٣٨٥–٤٢٢.

[٣٠] السابق، ص٣٨٥–٣٩١.

[٣١] السابق، ص٣٩١–٤٠٤.

[٣٢] السابق، ص٤٠٥–٤١٧.

[٣٣] السابق، ص٤١٧–٤٢٢.

والصفة هو القسم الثاني من التأكيد، التأكيد المعنوي.[٣٧] وتأتي لعدة أسباب، منها مجرد المدح والثناء، ولزيادة البيان، ولتعيينه للجنسية.[٣٨] والصفة العامة لا تأتي إلا بعد الصفة الخاصة. وتأتي لازمة لا للتقييد. وقد تأتي بلفظ والمراد غيره. وقد تجيء للتنبيه على التعميم. وقد يحتمل اللفظ أكثر من سبب، وإذا اجتمع مختلفان في الصراحة والتأويل، وإذا اجتمع التابع والمتبوع، وعندما تتكرر النعوت لواحد. وفصل الجمال في مقام المدح والذم أبلغ من جعلهما نمطًا واحدًا. ويوصف الجمع بالمفرد. وتدخل «الواو» على الجملة الواقعة صفة للتأكيد. ولا تقوم الصفة مقام الموصوف إلا على استكراه.[٣٩]

والبدل نوع من أنواع التأكيد والقصد به الإيضاح بعد الإبهام. يفيد البيان. وهو نوعان: بدل البعض وبدل الاشتمال. وقد ينقسم إلى بدل مفرد عن مفرد، وجملة عن جملة. ويبدل الفعل من الفعل الموافق له في المعنى لزيادة بيان. وقد يتكرر البدل.[٤٠] وللتأكيد وسائلُ كثيرة منها:

(أ) عطف البيان: وهو كالنعت في الإيضاح وإزالة الاشتراك الكائن فيه.[٤١] وينقسم العطف ثلاثة أقسام: عطف على اللفظ وهو الأصل، وعطف على المحل، وعطف التوهم، ولا يعني التوهم الغلط. ويجوز عطف الخبر على الإنشاء، والإنشاء على الخبر. ويجوز عطف المفرد على مثله، وعطف الجملة على مثلها. وللجملة ثلاثة أحوال: أن يكون ما قبلها بمنزلة الصفة من الموصوف أو أن يغاير ما قبلها أو أن يغاير مع نوع ارتباط أو أن يكون بتقدير الاستئناف. فالأصل في العطف التغاير. وقد يعطف الشيء على نفسه للتأكيد.[٤٢] وربما لا يجوز عطف على معمولَي عاملَين.[٤٣]

---

[٣٤] الإتقان، ج٢، ١٧٣–١٧٤؛ البرهان، ج٤، ٢٢٩–٢٣٠.

[٣٥] البرهان، ج٤، ٢٣١.

[٣٦] الإتقان، ص٢٠٠–٢٠١.

[٣٧] البرهان، ج٢، ٤٢٢–٤٥٣.

[٣٨] السابق، ج٢، ٤٢٢–٤٢٩.

[٣٩] السابق، ج٢، ٤٢٩–٤٥٣.

[٤٠] السابق، ص٤٥٣–٤٦٢.

[٤١] السابق، ص٤٦٢–٤٦٤.

[٤٢] الإتقان، ج٢، ٣١٩–٣٢٣؛ البرهان، ج٤، ١٠١–١١٧.

[٤٣] البرهان، ج٤، ١١٧.

ويجوز عطف الاسم على الاسم، والفعل على الفعل. ويجوز عطف الفعل على الاسم، والاسم على الفعل.[٤٤] ويجوز في الحكاية عن المخاطبين، إذا طالت، الاستغناء عن الواو والفاء.[٤٥] ويجوز العطف على ضمير إن كان منفصلًا مرفوعًا.[٤٦] وقد يعطف أحد المترادفَين فيه على الآخر أو ما هو قريب منه في المعنى من أجل التأكيد.[٤٧]

والتعديد مثل العطف هو إيقاع الألفاظ المعددة على سياقٍ واحد. وأكثرها في الصفات، وعدم عطف بعضها على بعض لاتحادها في المحل. لذلك يقل العطف في الصفات.[٤٨]

ومن طرق التأكيد ذكر الخاص بعد العام. والعام بعد الخاص بالعطف بالواو للتنبيه على فضله. وذكر العام بعد الخاص جائز لفائدته. ويقع النوعان في الأفعال والأسماء، في الأفعال في النفي، وفي الإثبات في عطف المطلق على المقيد أو المقيد على المطلق.[٤٩]

(ب) ومن وسائل التأكيد الإيضاح بعد الإبهام، مثل التأكيد للعدد بمائة إلا واحدًا.[٥٠] والتعبير عن المثنى بإرادة الواحد يعني وجود إرادةٍ كيفيةٍ كلية وراء الإرادة الكمية العددية.[٥١] كما يعبر عن الجمع بإرادة الواحد.[٥٢] ويطلق لفظ التثنية ويراد به الجمع.[٥٣] وقد يجيء لفظٌ دال على التكثير والمبالغة بإحدى صيغ المبالغة مثل «فعَّال» و«فعيل» و«فَعلان» فإنها أبلغ من فاعل.[٥٤] وصيغ أخرى «فعال»، «فعول»، «فعيل»، «فُعل»، «فعلى».

(ج) وقد يتم التأكيد بالتكرار: وهو من أساليب الفصاحة.[٥٥] ويكون مرتَين. وحقيقة إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنًى خشية نسيان الأول لطول العهد به. وفائدته التأكيد

---

[٤٤] السابق، ص١٠٧–١١٠.

[٤٥] السابق، ص١١٣-١١٤.

[٤٦] السابق، ص١١٤–١١٧.

[٤٧] السابق، ج٢، ٤٧٢–٤٧٧.

[٤٨] السابق، ج٣، ٤٧٥–٤٧٧. مثل: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾.

[٤٩] السابق، ج٢، ٤٦٢–٤٧٢.

[٥٠] السابق، ص٤٧٧–٤٨٢.

[٥١] السابق، ج٣ ص٣–٦.

[٥٢] السابق، ص٦–٨.

[٥٣] السابق، ص٨.

[٥٤] السابق، ج٢، ص٥٠٢–٥١٦.

[٥٥] وفي المثل الشعبي «التكرار يعلم الشطار» وفي نقلٍ آخر بالرغم من قلة ذوقها «التكرار يعلم الحمار».

بإعادة التقرير، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة. وإذا طال الكلام وخُشي تناسي الأول أعيد ثانيًا تذكيرًا به، وفي مقام التعظيم والتهويل، ومقام الوعيد والتهديد، والتعجب، ولتعدد المتعلق. والتكرار على أنواع. منه تكرار الإضراب بحرف «بل» لإبطال ما قبله، وتكرار الأمثال، وتكرار القصص.[٥٦] وفي كل مرة يبرز جانبٌ جديد من الموعظة. وبسبب الهجرة والسفر تتكرر القصة حتى يسمعها أكبر عددٍ ممكن من الناس. وهو أحد أشكال الفصاحة، التعبير عن المعنى بأساليبَ كثيرة. وهو أقرب إلى الفن الشعبي الذي يجمل تكراره على غير الأحكام الثقيلة على النفس. والقصص في النهاية نوع من التسلية والتذوق الفني. وإذا كان المقصود هو الإعجاز فتكرار القصة يثبت الإعجاز. وفي كل رواية زيادة ونقصان وتقديم وتأخير.[٥٧]

ولم تتكرر سورة يوسف لحكمة وحدة الموضوع، التشبيب بالنسوة، حصول الفرج بعد الشدة، بيان الإعجاز دون التكرار.[٥٨] ولا يوجد نظامٌ خاصٌّ ظاهر لتكرار القصص إلا وحدة الموضوع الشامل للقصص مثل هلاك الأمم أو امتحان المؤمنين، ورسم صورةٍ متكاملة لكل نبي؛ إبراهيم الرحيم، محمد العادل. وقد يصبح تكرار اللفظ ثقيلًا فيحول إلى معناه باشتقاقٍ آخر.[٥٩]

(د) ومن طرق التأكيد الزيادة في بنية الكلمة لزيادة في التأكيد على المعنى[٦٠]: وقد تكون الزيادة بالتشديد والتضعيف والتكثير.[٦١] والزيادة للتأكيد. وكيف تكون زيادة في الوحي بمعنى ما لا لزوم له أو حتى اللغو؟ كذلك تسمى الصلة أو المقحم. ويكون الزائد إقحامًا للتأكيد، في الحروف والأفعال، وليست بالضرورة حشوًا. وتكون لتأكيد النفي أو الإثبات. وحروف الزيادة سبعة: إنْ، أنْ، ما، من، الباء، اللام. وقد تكون مؤكدة في موضع، وتحذف في آخر لاقتضاء المقام.[٦٢]

---

[٥٦] مثل قصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى (٧٠ مرة)، وقصة نوح (٢٥ مرة).

[٥٧] البرهان، ج٣، ص٢٥–٢٩.

[٥٨] السابق، ص٢٩–٣٠.

[٥٩] السابق، ص٣٠–٣٣. تذكر قصص قوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى في سورة الأعراف وهود والشعراء دون قصة إبراهيم المذكورة في سور الأنبياء ومريم والعنكبوت والصافات.

[٦٠] مثل ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾، السابق، ص٣٣–٣٤.

[٦١] السابق، ص٣٤–٣٦.

[٦٢] السابق، ص٧٠–٩٠.

ومثل الزيادة التذييل للمبالغة عن طريق جعل شيء ذيلًا لآخر. ويعني في الاصطلاح أن يأتي بعد الكلام كلامٌ مستقل في معنى الأول تحقيقًا للدلالة، منطوقة أو مفهومة.[٦٣] وهو مثل التذييل؛ وهو أن يتم الكلام فيلحق به ما يكمله مبالغة أو احترازًا أو احتياطًا.[٦٤]

ومن طرق المبالغة التوكيد بإبراز الكلام في صورة المستحيل على طريق المبالغة ليدل على بقية جملة.[٦٥] والمبالغة عن طريق الزيادة والتكثير والتضخيم والتضعيف أحد طرق المبالغة.[٦٦] والمبالغة من محاسن الكلام. ويخرج اللفظ مخرج الغالب للتأكيد دون ما حاجة إلى زيادة.[٦٧]

(هـ) والتفسير أيضًا للتوكيد والتعظيم وبيان العلة والسبب[٦٨]: وبالرغم من أن التعليل ليس من مباحث الألفاظ إلا أنه مقرن به لأن برهانه لفظ. وهو إضافة الحكم إلى الوصف المناسب.[٦٩]وذكر العلة أبلغ من عدم ذكرها. والعلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول. كما أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة. والحرف الثاني للتعليل فاء السببية. وطرق التعليل متعددة: التصريح بلفظ الحكم، الدخول بلام التعليل مع واو العطف، ظهور الحرف «كي» مع باقي أدوات التعليل، ظهور المفعول له علة للفعل، اللام في المفعول له، حرف «إنَّ»، «أنْ» والفعل، من أجل، لعل، الوصف المناسب، غياب المانع، ذكر الغاية. فالعلة قد تكون غائية كما قد تكون فاعلة.

(و) والقَسَم جملة لتأكيد الخبر: ويعني الحلف. ولا يكون إلا باسم معظم لكمال الحجة وتأكيدها مع أن الله لا يحتاج إلى قسم ولكن لمزيد من إقناع الناس. وقد ينقسم القَسَم إلى مُظهَر ومضمر. وقد يكون مثل الخبر وبالتالي لا تميز فيه. وأكثر الأقسام بواو القسم. وهو جملتان مثل الشرط وجوابه. والقسم بالمخلوقات جائز من باب حذف المضاف مثل ﴿وَالْفَجْرِ﴾، والأصل «ورب الفجر»، كما أن مخلوقات الله دليل على صنعه.

---

[٦٣] السابق، ص٦٨–٧٠.

[٦٤] السابق، ص٧٠.

[٦٥] السابق، ص٤٧–٤٨.

[٦٦] السابق، ص٥٢–٥٦.

[٦٧] السابق، ص٣٨–٤٠.

[٦٨] السابق، ص٣٦–٣٨.

[٦٩] السابق، ج٢، ٩، ج٣، ٩١–١٠١.

وقد أقسم الله بذاته وفعله ومفعوله.[٧٠] والقسم في القرآن بالمخلوقات يعني القسم برب المخلوقات. وقسم الله بنفسه تحصيل حاصل لأن الله وقسمه من نفس درجة اليقين. وقد يعني القسم بالمخلوقات تعظيمها حتى توحي للإنسان بعظمتها وتقديرها. ومن ضمنها القسم بالنبي. وقد يكون القسم بذات الله أو بفعل أو بمفعوله. وكلها لا تخرج عن ذاته، وقد يكون القسم بواو القسم.[٧١]

والقسم إما لفضيلة أو منفعة. والحسن في ذاته أو القبيح في ذاته لا يحتاج إلى قسم.[٧٢] والقسم ليس دليلًا على الصدق. بل إنه من الأفضل عدم القسم حتى يكون الصدق داخليًّا ذاتيًّا وليس اعتمادًا على سلطةٍ خارجية.[٧٣]

(ز) ووجه التأكيد في الاستثناء والاستدراك أنه ذكر للموضوع مرتين، مرة إجمالًا بالنفي، ومرة تفصيلًا بالاستثناء.[٧٤] والمثل الأول على ذلك «لا إله إلا الله».

(ح) والاعتراض هي الجملة الاعتراضية عند النحاة: تخلل جملةٌ صغرى جملةً كبرى. ويسمى عند البلغاء «الْتفات». وأسبابه تعزيز الكلام، وقصد التنزيه، وقصد التبرك، وقصد التأكيد، وبيان الثاني للأول، وتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد، وزيادة الرد على الخصم، والإدلاء بالحجة. ويمكن الاعتراض في الاعتراض وهو الاعتراض المزدوج.[٧٥]

(ط) والاحتراس أن يكون الكلام محتملًا لشيء بعيد فيأتي ما يدفع ذلك الاحتمال.[٧٦]

(٣) الحذف والإيجاز والإطناب

(أ) الحذف

ويعني لغة الإسقاط. ويقال على الشعر أولًا. واصطلاحًا هو إسقاط جزء من الكلام أو كله لدليل. وشرطه الإيجاز. والفرق بينه وبين الإضمار أن شرط المضمر بقاء أثر المقدَّر

---

[٧٠] السابق، ج٣، ٤٠–٤٦.

[٧١] الإتقان، ج٢، ١٨٨.

[٧٢] السابق، ج٤، ٤٦–٥١؛ البرهان، ج٢، ٣٧٤. صنف فيه ابن القيم «التبيان» (مجلدان).

[٧٣] وهذا مثل نظرية الصدق الإلهي عند ديكارت الذي جعل يقين العلوم معتمدًا على الصدق الإلهي.

[٧٤] البرهان، ج٣، ٤٨–٥١.

[٧٥] السابق، ص٥٦–٦٤.

[٧٦] السابق، ص٦٤–٦٨.

في اللفظ في حين أن الحذف إسقاط له. وهو نوع من الإيجاز. وهو خلاف الأصل. فإذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان العدم أولى لأن الأصل عدم التغيير.[٧٧] وإذا دار الأمر بين القليل والكثير فإن القليل أولى.[٧٨]

وللحذف أنواعٌ كثيرة يصعب جمعها في أنواعٍ أقل.[٧٩] وتارة يقوم مقام المحذوف شيء وتارةً أخرى لا يقوم.

وفوائد الحذف متعددة، منها: التفخيم والإعظام لما فيه من الإيهام، زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، زيادة الأمر بسبب الاجتهاد، طلب الإيجاز والاختصار، التشجيع على الكلام، موقعه في النفس.[٨٠]

وإيجاز الحذف له أسبابه. ويمثل شجاعةً لغوية تنم عن الشجاعة العربية.[٨١] وله شروطه.[٨٢] ويمكن الحذف تدريجيًّا قدر الإمكان. والأصل وضع الشيء في محله والحذف هو لوضع الشيء في غير محله. وتقليل المتن قدر الإمكان لتقل مخالفة الأصل. وإذا كان المحذوف بين الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، فالثاني أولى بالحذف.[٨٣]

وأسباب الحذف أيضًا متعددة، منها: الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، والتنبيه على أن الزمن يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى

---

[٧٧] السابق، ص١٠٢–٢٣٢.

[٧٨] السابق، ص١٠٢–١٠٤.

[٧٩] مثل: الاقتطاع لبعض حروف الكلمة، الاكتفاء بذكر شيء من شيئَين بينهما تلازم، والاحتباك وهو الحذف المقابلي، حذف من الأول، ثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما ثبت نظيره في الأول، والاختزال لحذف الاسم أو الفعل أو الحرف أو أكثر من ذلك، وحذف الاسم مثل المضاف والمضاف إليه والمبتدأ والموصوف والصفة والمعطوف عليه والبدل والفاعل والمفعول والحال والعائد والحال. وحذف الفعل إذا كان مفسرًا أو يكثر في جواب الاستفهام والقول، وحذف الحرف مثل همزة الاستفهام وحرف الجر والعاطف وإلغاء حرف النداء، وقد ولا النافية ولام الأمر ونون التوكيد والتنوين ونون الجمع وحركة الإعراب والبناء وحذف أكثر من كلمة مثل حذف مضافين أو ثلاثة والجار والمجرور والعاطف والمعطوف، وفعل الشرط وجواب الشرط، وجملة القسم (الإتقان، ج٣، ١٨٠–١٩٢).

[٨٠] البرهان، ج٣، ١٠٤-١٠٥.

[٨١] مثل مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث، والتنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف والتفخيم والإعظام، والتخفيف لكثرة الدوران في الكلام، أنه لا يصلح إلا له، وشهرته، والصيانة عن الذكر تشريفًا، صيانة اللسان، وقصد العموم، ورعاية الفاصلة، وقصد البيان بعد الإبهام (الإتقان، ج٣، ١٧٠–١٧٤).

تفويت المهم وهي فائدة التحذير، والتفخيم والإعظام، والتخفيف، ورعاية الفاصلة، والصيانة للمحذوف، صيانة اللسان، وعدم الصلاحية إلا له، وشهرته بحيث يكون ذكره وعدمه سواءً.[٨٤] وأدلة الحذف أيضًا متعددة. ويدل الدليل إما على محذوفٍ مطلق أو محذوفٍ معين. وفي كلتا الحالتَين أدلة الحذف العقل حيث لا يصح الكلام عقلًا إلا بتقدير محذوف. فالعقل يدل على أصل الحذف. والعادة تدل على تعيين المحذوف. كما يدل اللفظ واللغة والسياق وسبب النزول.[٨٥] وشروط الحذف متعددة. منها أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف من اللفظ والسياق. والدلالة مقالية من إعراب اللفظ، أو حالية من النظر في المعنى، وألا يكون الفعل طالبًا له بنفسه، وأن يكون في الأطراف لا في الوسط.[٨٦]

وينقسم الحذف إلى اقتطاع، واكتفاء وضمير أو تمثيل أي إضمار القول لبيان أحد أجزائه الأخرى، واستدلال بالفعل لشيئين وهو في الحقيقة لأحدهما، واقتضاء الكلام شيئين والاقتصار على أحدهما، وذكر شيئين ثم عود الضمير إلى أحدهما دون الآخر، حذف مقابلي وهو اجتماع متقابلَين في الكلام فيحذف من أحدهما مقابلة لدلالة الآخر عليه. قد يحذف من الأول لدلالة الثاني عليه أو العكس. والاختزال وهو الافتعال أي حذف كلمة أو أكثر. وتكون الكلمة اسمًا أو فعلًا أو حرفًا.[٨٧]

(١) حذف الاسم: وقد يكون الاسم المبتدأ أو الخبر أو كليهما أو الفاعل أو المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه أو استمرار الالتفات إلى المضاف أو المضاف إليه أو كلاهما أو الجار والمجرور أو الموصوف أو الصفة أو المعطوف أو المعطوف عليه أو المبدل منه أو الموصول أو المخصوص في باب نعم إذا عُلم من سياق الكلام أو الضمير المنصوب المتصل مع تفاوت الأنواع أو المفعول اختصارًا أو احتقارًا مع ذكر مفعول المشيئة والإرادة عندما

---

[٨٢] مثل: وجود دليل مثل العقل على التعيين والعادة والشروع في الفعل والصناعة النحوية، ألا يكون المحذوف كالجزء، ألا يؤدي المحذوف إلى اختصار المختصر، ألا يكون عاملًا ضعيفًا، ألا يكون عوضًا عن شيء، ألا يؤدي إلى تهيئة العامل القوى (السابق، ص١٧٤–١٧٨).

[٨٣] السابق، ص١٧٨–١٨٠.

[٨٤] البرهان، ج٣، ١٠٥–١٠٨.

[٨٥] السابق، ص١٠٨–١١١.

[٨٦] السابق، ص١١١–١١٧.

[٨٧] السابق، ص١١٧–١٣٤.

يكون المقصود محذوفًا أو غير محذوف، وحذف الحال والمنادى، خاصة المنادى المضاف إلى ياء المتكلم، وحذف الشرط وجوابه والأجوبة، وحذف جواب القسم، والجملة المسببة أو غير المسببة، وحذف القول.[٨٨]

(٢) حذف الفعل: وينقسم إلى خاص وعام. الخاص مثل «أعني» مضمرًا. ويُنصب به المفعول في المدح. والعام كل منصوب دال عليه الفعل لفظًا أو معنى أو تقديرًا. ويحذف لعدة أسباب، منها: أن يكون مفسرًا، وأن يكون هناك حرف جر، وأن يكون جوابًا لسؤال، وأن يدل عليه معنى الفعل الظاهر، وأن يدل عليه العقل، ذكره في موضعٍ آخر، والمشاكلة، وأن يكون بدلًا من المصدر.[٨٩]

(٣) حذف الحرف: وذلك لأن الحرف نائب عن الفعل بفاعله. ومنه الواو مثل واو العطف، والفاء في جواب الشرط، وهمزة الاستفهام، وألف ما الاستفهامية، والياء وحرف النداء، و«ل» و«قد» و«أن» و«لا». وقد يحذف الجار لإيصال الفعل إلى المجرور. وقد يحذف في آية ويثبت في أخرى إما لأنه محمول على مذكور أو لأنه غير مراد.[٩٠]

(ب) الإيجاز والإطناب

ليسا من المبادئ اللغوية بل من أساليب البلاغة.[٩١] فالبلاغة هي الإيجاز والإطناب. الإيجاز محمود، والإطناب مذموم. وهناك درجة المساواة بينهما. القول على قدر المقام. وهو أقرب إلى الإيجاز المحمود أو لا هو محمود ولا مذموم بل من فنون القول العادي. والإيجاز والاختصار بمعنًى واحد. وقد يكون الاختصار بحذف الجمل، والإيجاز بتركيز المعنى.[٩٢] فالإيجاز إيجاز حذف أو إيجاز قصر. إيجاز القصر هو الوجيز بلفظه. تكثير المعنى وتقليل اللفظ. وهو إيجاز القصر. وهو أن يقصر اللفظ على معناه أو التصوير. وهو إيراد معنًى زائدٍ على المنطوق أو الجامع وهو احتواء اللفظ على معانٍ متعددة. ومن

---

[٨٨] السابق، ص١٣٥–١٩٨.

[٨٩] السابق، ج٣، ١٩٨–٢٠٩.

[٩٠] السابق، ص٢٠٩–٢٢٠.

[٩١] الإتقان، ج٣، ١٦١–٢٢٤.

[٩٢] وبهذا المعنى يكون اختصار ابن سينا «الشفاء» في «النجاة» اختصارًا وليس إيجازًا، في حين أن الملخصات بالنسبة للشروح عند ابن رشد، والجوامع بالنسبة للملخصات إيجاز.

أنواع الإيجاز الإشارة، وهو ذكر معنًى زائد في اللفظ دون ذكر لفظ له. والحصر بأدوات الاستثناء وطرح المفعول وجميع أدوات الاستفهام والشرط وألفاظ العموم.[٩٣]

والإيجاز قسم من الحذف. ويسمى إيجاز القصر. فالإيجاز قسمان؛ وجيز بلفظ، ووجيز بحذف. الوجيز باللفظ وهو أن يكون أقل من المعنى. وهو من «جوامع الكلم». اللفظ المساوي للمعنى هو المقدر، الأقل منه هو المقصود. ومن أقسام الإيجاز الاقتصار على السبب الظاهر للشيء دون باقي الأسباب، والاقتصار على المبتدأ دون الخبر والنائب عن الفاعل، وألفاظ العموم، ولفظ الجمع، وباب الضمائر ولفظ «فعل».[٩٤]

والإطناب أيضًا نوعان: بسط وزيادة؛ البسط تكثير الجمل أو الزيادة. وتتفصل أنواعها إلى عشرين؛ مما يقضي على وحدة الموضوع والتأثير المباشر للنص دون تقسيماتها العقلية. وتظهر بعض مصطلحات الأصول مثل الطرد والعكس.[٩٥]

والاستطراد هو التعريض بعيب إنسان بذكر عيب غيره مثل ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.[٩٦] وقد يوضع موضع المضمر لزيادة التقرير. وهو من أقسام الإطناب أيضًا. والأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة. ومع ذلك يمكن الخروج عليها لعدة أسباب مثل: قصد التعظيم، وقصد الإهانة والتحقير، الاستلذاذ بذكره، زيادة التقرير، إزالة اللبس حين يوهم الضمير أنه غير المراد، قصد تربية المهابة وإدخال الروعة في ضمير السامع، قصد تقوية داعية المأمور، تعظيم الأمر، قصد التوصل بالظاهر إلى الوصف، التنبيه علة الحكم، قصد العموم، قصد الخصوص، مراعاة التجنيس، تحمل ضمير لا بد منه، كونه

---

[٩٣] السابق، ص١٦١–١٧٠.

[٩٤] البرهان، ج٣، ٢٢٠–٢٣٢.

[٩٥] وتكون الزيادة بحروف التوكيد والأحرف الزائدة. والتأكيد الصناعي بالمعنى واللفظ والفعل والحال. والتكرار بالتقرير والتنبيه والتذكير والتعظيم والتهويل. والصفة للتخصيص في الفكرة والتوضيح والمدح والثناء والذم، والبدل، وعطف البيان، وعطف أحد المترادفين فيه على الآخر، وعطف الخاص على العام والعام على الخاص، والإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، والتفسير، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التقرير، والتعظيم والإهانة والتحقير وإزالة اللبس، وتربية المهابة وتقوية داعية المأمور، والاستلذاذ بالذكر، والتوصل من الظاهر إلى الوصف، وقصد العموم والخصوص، والإشارة والجناس واستبدال الضمير، والإيغال وهو الإمعان، والتذييل، والطرد والعكس، والتكميل، والتتميم، والاستقصاء، والاعتراض، والتعليل (الإتقان، ج ٣، ١٩٣–٢٢٤).

[٩٦] البرهان، ج٣، ص٣٠٠.

أكثر أهمية من الضمير، ما يصلح للعود ولم يُسق الكلام له، الإشارة إلى عدم دخول الجملة في حكم الأولى.[٩٧] والاشتغال هو إضمار الشيء ثم إظهاره وتفخيمه وتعظيمه.[٩٨]

(٤) التقديم والتأخير

وقد تتقدم بعض الألفاظ أو الآيات على أخرى. يقدم الأهم على المهم. وقد يكون للبلاغة أثر في ذلك. فهو أحد أساليبها. وقد يكون السبب في ذلك التبرك، والتعظيم، والتشريف، والمناسبة، والحثُّ والحضُّ، السبق، والسببية، والكثرة والترقي من الأدنى إلى الأعلى، والتدلي من أعلى إلى أدنى.[٩٩] وقد يُعدُّ من المجاز بالمعنى الواسع.

وقد تكون هناك أسبابٌ أخرى أكثر صوريةً وأقل وجدانية وأقرب إلى بنية اللغة منها إلى أثرها النفسي مثل: أن يكون أصله التقديم، وأن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى، وأن يكون في التأخير إخلال بالتناسب، ولعظمه والاهتمام به، وأن يكون الخاطر ملتفتًا إليه والهمة معقودة به، وأن يكون التقديم والتأخير لإرادة التبكيت والتعجيب، والاختصاص بتقديم المفعول والخبر والظرف والجار والمجرور ونحوها على الفعل.[١٠٠]

وهما على ثلاثة أنواع: إما أن يُقدم والمعنى عليه، أو يقدم وهو في المعنى مؤخر أو العكس. الأول ما يقدم والمعنى عليه مثل السبق بالزمان والإيجاد والتقدم بالذات، وبالعلة والسببية، وبالرتبة، وبالداعية وبالتعظيم، وبالشرف، وبالغلبة والكثرة، وسبق ما يقتضي تقديمه، ومراعاة اشتقاق اللفظ، والحث عليه خيفة من التهاون به، وتحقق ما بعده واستغناؤه هو عنه في تصوره، والاهتمام عند المخاطب، والتنبيه على أنه مطلق لا مقيد، والتنبيه على أن السبب مرتَّب، والتنقل، والترقي، ومراعاة الإفراد، والتحذير منه والتنفير عنه، والتخويف منه، والتعجب من شأنه، وكونه أدلَّ على القدرة، وقصد الترتيب، وخفة اللفظ، ورعاية الفواصل. وقد يجتمع أكثر من سبب للتقديم، فيكون الترجيح لأقوى الأسباب وإن تساوى فالخيار.[١٠١] والثاني ما قدم بنية التأخير كما يدل على ذلك الإعراب

---

[٩٧] السابق، ج٢، ٤٨٢–٤٩٩.

[٩٨] السابق، ج٣، ٩٠.

[٩٩] السابق، ص٣٣–٤١؛ الإتقان، ج٣، ٢٣٣–٣٨٧.

[١٠٠] البرهان، ج٣، ٢٣٣–٢٣٧.

[١٠١] السابق، ص٢٣٨–٢٧٥.

كتقديم المفعول على الفاعل، والخبر على المبتدأ، وما يدل على المعنى وللعناية.[102] والثالث ما قُدِّم في آية وأُخِّر في أخرى بقصد البداية والختم به وبقصد الفصاحة.[103]

والترقي نوع من التقديم مثل ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وهو نوع من تجاوز صورية اللغة ورتابة النحو ونمطية البلاغة.[104] والترقي والتدلي نوعان من التقديم والتأخير. وهو أيضًا العكس. والتقسيم هو استيفاء أقسام الشيء الموجودة لا الممكنة.[105] والترتيب هو إيراد الأوصاف على ترتيب الخلقة الطبيعية.[106] وحسن النسق أن تأتي الكلمات متتالياتٍ معطوفاتٍ متلاحمات.

والجمع هو أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم جمع المؤتلف والمختلف للتسوية. وقد يقرن بالتقسيم أولًا. والتفريق وهو العكس.[107] واللفُّ والنشر إما تفصيلًا بالنص على كل واحد أو إجمالًا بذكر لفظ يشتمل على متعدد ثم تذكر أشياء على حسب العدد. والمزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء.[108]

(٥) التورية والإيهام، والكناية والتعريض، والتشبيه والاستعارة

(أ) التورية

التورية هي الإيهام والتخييل والمغالطة والتوجيه. هي التكلم بلفظٍ مشترك بين معنيين قريب وبعيد. يريد البعيد ويوضح بالقريب. والفرق بين التورية والاستخدام أن التورية استعمال أحد المعنيين في اللفظ وإهمال الآخر. وفي الاستخدام استعمالهما معًا بقرينتَين.[109]

---

[102] السابق، ص٢٧٥–٢٨٣.

[103] السابق، ص٢٨٤–٢٨٧.

[104] السابق، ص٢٩٦.

[105] الإتقان، ج٣، ٢٦٧.

[106] السابق، ص٢٦٩–٢٧٠.

[107] السابق، ص٣٧٤–٣٧٧.

[108] السابق، ص٢٧٩–٢٨٢.

[109] البرهان، ج٣، ٤٤٤–٤٤٧.

والإيهام هو التورية، ذكر لفظ له معنيان بالاشتراك أو بالتواطؤ بالحقيقة أو المجاز. والتورية أشرف أنواع البديع.[١١٠] والالتفات هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، من المتكلم إلى المخاطب أو إلى الغائب للتخفيف من حدة التقابل بين ضمائر الخطاب.[١١١] والاطراد هو ذكر أسماء آباء الممدوح بترتيب الولادة.[١١٢] والانسجام هو انسياب الكلام كسيلان الماء لعذوبة الألفاظ وكأنها أشعارٌ عربية تخضع لأوزان العرب وبحورهم.[١١٣] والإدماج هو دمج غرض في غرض، والكلام في أحد الغرضَين. والافتنان هو الإتيان بفنَّين مختلفَين مثل الفخر والتعزية.[١١٤] والاقتصاص هو أن يكون كل كلام في سورة مقتصًّا في سورةٍ أخرى أو في تلك الصورة. والإبدال هو إقامة بعض الحروف مقام بعض.[١١٥] والجناس تشابه اللفظين في اللفظ. وهو من المحاسن اللفظية لا المعنوية.[١١٦]

(ب) الكناية والتعريض

وهما من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة. والكناية أبلغ من التصريح. وهو لفظ أريد به لازم معناه في الدلالة على الشيء من غير تصريح باسمه. وإنكار المجاز إنكار للكناية. وأسباب الكناية عدة: التنبيه على عظم القدرة، ترك اللفظ لما هو أجمل، التكنية عما يُستقبح ذكره، قصد البلاغة والمبالغة في التشنيع، قصد الاختصار، التنبيه على المصير، واستعمال جملة ورد معناها على خلاف الظاهر.[١١٧] ومن أنواع البديع التي تشبه الكناية الإرداف وهو إرادة معنًى دون لفظه أو إشارته بل بلفظ يرادفه. استعمل في القرآن وفي الحديث.[١١٨] ومن عادة العرب أنها لا تكني عن الشيء بغيره إلا إذا كان يقبح ذكره.[١١٩]

والفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية ذكر الشيء بغير لفظه، والتعريض ذكر شيء للدلالة به على شيء لم يُذكر. هي ما دلَّ على معنى حقيقة أو مجازًا لوصف جامع.

---

[١١٠] الإتقان، ج٣، ٢٥٠–٢٥٢.

[١١١] السابق، ص٢٥٣–٢٥٩.

[١١٢] السابق، ص٢٥٩.

[١١٣] مثل الطويل والبسيط والوافر والكامل والهزج والرجز والرمل ... إلخ (السابق، ص٢٥٩–٢٦١).

[١١٤] السابق، ص٢٦١.

[١١٥] السابق، ص٢٦٤–٢٦٥.

[١١٦] السابق، ص٢٧١–٢٧٤.

[١١٧] السابق، ص١٤٣–١٤٧؛ البرهان، ج٢، ٣٠٠–٣١٥، ألَّف فيها أبو عبيد وغيره كتابًا في الأمثال.

وهو لفظ دالٌّ على معنًى لا من جهة الوضع الحقيقي أو المجازي، والسؤال هو: هل يشترط في الكناية قرينة كالمجاز؟ هو لفظ استعمل في معناه، والتعريض لفظ استعمل في معناه للتلويح بغيره. والغاية إما التلطف أو استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم أو للذم أو للإهانة والتوبيخ.[١٢٠] أما التعريض فهو للدلالة على المعنى عن طريق المفهوم مثل مخاطبة الشخص والمراد غيره، وإعلام السامع على صورته لا تقتضي مواجهته بالخطاب.[١٢١] والتوجيه ما احتمل معنيَين، ويؤتى به عند فطنة المخاطب.[١٢٢]

(ج) التشبيه والاستعارة

التشبيه من أرفع أساليب البلاغة.[١٢٣] وهو الدلالة على مشاركة أمرَين في أمرٍ ما. هو الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار. وإذا كان المجاز أبلغ فإن الاستعارة أعلى مراتب الفصاحة. الكناية أبلغ من التصريح، والاستعارة أبلغ من الكناية، والفرق بين الاستعارة والتشبيه المحذوف الأداة، أن من شرط الاستعارة إمكان حمل الكلام على الحقيقة. وقد تكون الاستعارة أبلغ لأنها مجاز، والتشبيه حقيقة. أدواته حروف وأسماء وأفعال.[١٢٤] في الحروف يدخل حرف التشبيه أو يضاف إليه حرف توكيد. والتشبيه بغير حرف يقصد به المبالغة، وينقسم باعتبار طرفَيه إلى أربعة أقسام لأنهما إما حسيَّان أو عقليَّان أو المتشبه به حسي والمتشبه عقلي أو العكس. ولم يقع في القرآن القسم الرابع لأن العقل مستفاد من الحس، والمحسوس أصل المعقول.[١٢٥] وينقسم إلى مفرد ومركب، والمفرد تشبيه شيء بشيء.[١٢٦] والمركب أن ينتزع وجه الشبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض.[١٢٧]

---

[١١٨] كنَّى الرسول بشد المئزر عن الامتناع عن الجماع، وكنى بالعُسيلة عن الجماع حياء (البرهان، ص٣٠٠).

[١١٩] السابق، ص٣١٠–٣١١.

[١٢٠] السابق، ص١٤٧–١٤٨؛ البرهان، ج٢ ص٣٠١، ٣١٠.

[١٢١] البرهان، ج٢، ٣١٢–٣١٤.

[١٢٢] السابق، ص٣١٤–٣١٥.

[١٢٣] الإتقان، ج٣، ١٢٨–١٤٢.

[١٢٤] السابق، ص١٢٨–١٢٩؛ البرهان، ج٣، ٤١٦.

التشبيه إلحاق شيء بذي وصف في وصفه أو إثبات حكم للمشبه من أحكام المشبه به.[128] والغرض منه تأنيس النفس بإخراجها من خَفيٍّ إلى جَلي، وإدناء البعيد من القريب كمزيد من البيان. وهو الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار، وهو حقيقة لا مجازًا. وكما كان من فنون البلاغة فقد يكون مجازًا أيضًا. وقد يرد التشبيه في المعنى.

وينقسم أيضًا إلى خمسة أقسام: الأول تشبيه ما تقع عليه الحاسة بما لا تقع اعتمادًا على معرفة النقيض والضد مثل التشبيه برءوس الشياطين. والثاني عكسه تشبيه ما لا تقع عليه الحاسة بما تقع عليه مثل التشبيه بسرابٍ بقيعة. والثالث إخراج ما لم تجرِ العادة به إلى ما جرت مثل التشبيه بارتفاع الجبل فوق الرءوس كظل. والرابع إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها مثل تشبيه الجنة بعرض السموات والأرض. والخامس إخراج ما لا قوة له إلى حالة قوة مثل التشبيه بالسفن في البحر.[129]

وينقسم أيضًا إلى مؤكد وهو ما حذفت فيه الأداة، ومرسل وهو ما لم تحذف فيه الأداة، والأول أبلغ. فالاستعارة بلاغة، والبلاغة تركيز. والأصل دخول أداة التشبيه على المشبه به. وقد تدخل على المشبه بقصد المبالغة فيقلب التشبيه، ويصبح المشبه به هو الأصل مثل تشبيه البيع بالربا، أو لوضوح الحال مثل تشبيه الذَّكر بأنه ليس كالأنثى، أو لمراعاة الفواصل، أو اعتمادًا على فهم المخاطب.[130]

وهناك بعض قواعد في التشبيه مثل المدح، تشبيه الأدنى بالأعلى، وفي الذم، تشبيه الأعلى بالأدنى.[131] ولا يشبه شيئان بشيئين بل شيء بشيء. فالتشبيه فردي. وقد تشبه أشياء بأشياء. وأعلى درجة في التشبيه في البلاغة ترك وجه الشبه وأدواته. وقد تدخل الأداة على شيء ليس هو عين المشبه. وإذا كانت فائدته تقريب الشبه في فهم السامع وإيضاحه له فحقه أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم. وتدخل أداة التشبيه على المشبه به وهو الكامل. وقد يدخل التشبيه على لفظ وهو محذوف.

---

[125] الإتقان، ص١٢٩؛ البرهان، ج٣، ٤٢٠-٤٢١.

[126] الإتقان، ص١٣٠؛ البرهان، ج٣، ٤٢٢-٤٢٣.

[127] وصنف فيه أبو القاسم بن البندار البغدادي «الجمان»، الإتقان، ج٣، ١٢٨؛ البرهان، ج٣، ٤١٤–٤٣١.

[128] البرهان، ج٣، ٤١٤–٤٢٠.

[129] الإتقان، ج٣، ١٣١–١٣٢؛ البرهان، ج٣، ٤٢١-٤٢٢.

[130] الإتقان، ج٣، ص١٣٢-١٣٣.

[131] السابق، ج٣، ١٣٣؛ البرهان، ج٣، ٤٢٣–٤٣١.

وإنكار المجاز يؤدي إلى إنكار الاستعارة.[١٣٢] وهي نوع من المجاز العقلي. وإطلاقها إيهام للحاجة. وهي نوع من أنواع البلاغة، وكثيرة في القرآن. وهي من العادية ثم نقلت إلى نوع من التخيل لقصد المبالغة والتشبيه مع الإيجاز. وهي استعارة شيءٍ معروف إلى شيء غير معروف من أجل إظهار الخفي أو للمبالغة. حكمتها جعل ما ليس بمرئي مرئيًّا لأجل حسن البيان. وتنقسم إلى مرشحة، وهي أحسنها وهي مراعاة جانب المستعار، وتجريدية وهي النظر إلى جانب المستعار له ثم الإتيان بما يناسبه. والاستعارة بالكناية عدم التصريح بذكر المستعار بل تذكر بعض لوازمه فقط.[١٣٣]

والاستعارة جمع بين المجاز والتشبيه. هي مجازٌ لغوي لأنها موضوعة للمشبه به وليس للمشبه. هي قسم من أقسام المجاز لاستعمال اللفظ في غير ما وضع له. وهي مجازٌ عقلي لأن التصرف في أمرٍ عقلي لا لغوي. وحقيقتها استعارة كلمة من شيءٍ معروف إلى شيء غير معروف مثل تفجير الأرض عيونًا.[١٣٤] وقد تكون الاستعارة بلفظَين مثل القوارير من فضة وسوط العذاب. وأركانها ثلاثة: مستعار وهو لفظ المشبه به، ومستعار منه وهو معنى اللفظ المشبه، ومستعار له وهو المعنى الجامع.[١٣٥] وتنقسم هذه الأركان الثلاثة إلى خمسة أقسام: استعارة محسوس لمحسوس مثل اشتعال الرأس شيبًا، واستعارة محسوس لمحسوس بوجهٍ عقلي مثل سلخ الليل من النهار، واستعارة معقول لمعقول بوجهٍ عقلي مثل البعث من الرقاد، واستعارة محسوس لمعقول لوجهٍ عقلي مثل الحس بالبأساء والضراء، واستعارة معقول لمحسوس لجامعٍ عقلي مثل طغيان الماء. والكل علاقة بين الحس والعقل.[١٣٦]

وتنقسم الاستعارة باعتبار اللفظ إلى أصلية وهي ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس مثل «حبل الله»، وتبعية وهي ما كان اللفظ فيها غير اسم جنس فعلًا أو حرفًا مثل ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ وتنقسم أيضًا إلى مرشحة وهي الاقتران بما يلائم المستعار منه، ومجردة وهي الاقتران بما يلائم المستعار له، ومطلقة وهي ما لا يقترن بشيء.

---

[١٣٢] الإتقان، ج٣، ١٤٠–١٤١؛ البرهان، ج٣، ٤٣٢–٤٣٤.

[١٣٣] البرهان، ج٣، ٤٣٨.

[١٣٤] الإتقان، ج٣، ١٣٣–١٣٥؛ البرهان، ج٣، ٤٣٢–٤٤٤.

[١٣٥] الإتقان، ص١٣٥–١٣٧؛ البرهان، ج٣، ص٤٣٥–٤٣٧.

[١٣٦] الإتقان، ص١٤٠؛ البرهان، ج٣، ٣٤١–٣٤٤.

وتنقسم أيضًا إلى تحقيقية وهي ما تحقق معناها حسًّا، وتخييلية بإضمار التشبيه في النفس، ومكنية لأنه لم يصرح به، وتصريحية للتصريح به. وتنقسم إلى وفاقية بأن يكون الاجتماع في شيءٍ ممكن، وعنادية وهو ما يستحيل اجتماعها، ومنها التهكمية والتحليلية مثل البشارة بالعذاب الأليم. وقد تكون تمثيلية وهو ما كان الشبه من متعدد مثل الاستمساك بحبلٍ وثيقٍ مدلًّى من مكانٍ مرتفع يأمن انقطاعه. وأبلغ الأنواع التمثيلية ثم المكنية. الترشيحية أبلغ من المجردة والمطلقة. والتخيلية أبلغ من التحقيقية. وتعني أبلغ زيادة التأكيد والمبالغة في كمال التشبيه لا زيادة في المعنى.[١٣٧]

(٦) الشرط والنفي

(أ) الشرط

الشرط يلازم جملتَين فعليتَين واسمية أو فعليتين جازمة وغير جازمة، ظرفية أو شرطية. الأولى شرط، والثانية جزاء. الأولى مقدمة والثانية نتيجة. ويتوقف الثاني على الأول. ولا يتعلق إلا بمستقبل، وأحيانًا يتعلق بحاضر لجعل غير الحاصل كالحاصل، وإظهار رغبة المتكلم في وقوعه، والتعريض.[١٣٨]

أدوات الشرط حروف مثل «إنْ»، وأسماء في معناها، ومنها ما ليس بظرف مثل «مَن»، «ما»، «أي»، «مهما». ومنها أسماء هي ظروف مثل «أين»، «أينما»، «متى»، «حيثما»، «إذ ما». وأقواها «إنْ» لبساطتها. وقد تُستعمَل في مقام الجزم على طريق الشرطي المتصل أو تبيين الحال أو لتصوير المقام أو للتوبيخ والتجهيل أو تنبيه المخاطب. ولا تستعمل إلا في المعاني المحتملة إذا كان الفعل مضارعًا أو المعاني المحققة الواقعة إذا كان الفعل ماضيًا. وتدل «إذا» على المضارع والماضي معًا في المعاني المحقَّقة. فالشرط في الزمان وليس صوريًّا خارج الزمان. والزمان متصل بين الماضي والحاضر والمستقبل.[١٣٩] وإذا تعلق الشرط بفعلٍ محال كان الجواب محالًا آخر.[١٤٠]

---

[١٣٧] الإتقان، ج٣، ١٣٧–١٤١.

[١٣٨] البرهان، ج٢، ٣٥١–٣٥٩.

[١٣٩] السابق، ص٣٥٩–٣٦٤.

[١٤٠] السابق، ص٢٦٤–٢٦٥.

وقد يدخل الاستفهام على الشرط جمعًا بين التحقق والتساؤل.[١٤١] وقد يذكر فعل الشرط دون جوابه لإثارة الوضع والتنبيه عليه وعدم تقدير جوابه في اتجاهٍ معين وترك ذلك لعدة احتمالات.[١٤٢] وكذلك إذا دخلت واو الحال على أداة الشرط لا يتطلب جوابًا ويكون أقرب إلى الحكم الأخلاقي.[١٤٣]

ويتغاير الشرط والجزاء لفظًا، وقد يتحدان ويكونان في حاجة إلى تأويل. وقد يتقاربان في المعنى. وقد يعترض الشرط على الشرط، ويكون شرطَين وجوابًا واحدًا. ويمكن ضبط ذلك بحرف «الفاء».[١٤٤] وقد يسمى الشرط يمينًا.[١٤٥] وكلها مباحثُ لغوية ناتجة عن إسقاط علم اللغة، تراث القدماء على القرآن، والعصر الآن عصر العلوم الإنسانية التي تسقط أيضًا على القرآن.[١٤٦]

(ب) النفي

إذا كان الشرط يمثل الإيجاب فإن النفي يمثل السلب، قد يكون نفي الذات الموصوفة نفيًا للصفة دون الذات نظرًا للتمييز بينهما عند الأشاعرة. وقد يكون نفيًا للذات بناءً على التوحيد بينهما عند المعتزلة. وهي مشكلةٌ لغوية قبل أن تكون مشكلةً كلامية. وهو على أربعة أقسام: نفي المسند، نفي المسند إليه فينتفي المسند، نفي المتعلق دون المسند والمسند إليه، نفي قيد المسند إليه أو المتعلق.[١٤٧] وقد ينفى الشيء رأسًا لأنه عدم كمال وصفه أو لانتفاء ثمرته.[١٤٨] ونفي العام يدل على نفي الخاص. وثبوته لا يدل على ثبوته. وثبوت الخاص يدل على ثبوت العام ولا يدل نفيه على نفيه. ولما كانت زيادة المفهوم من اللفظ توجب الالتذاذ به كان نفي العام أحسن من نفي الخاص، وإثبات الخاص أحسن

[١٤١] السابق، ص٣٦٥–٣٦٦.
[١٤٢] السابق، ص٣٦٦–٣٦٧.
[١٤٣] السابق، ص٣٦٧.
[١٤٤] السابق، ج٢، ٣٦٨–٣٦٩.
[١٤٥] السابق، ص٣٦٩–٣٧٤.
[١٤٦] السابق، ص٣٧٤.
[١٤٧] السابق، ج٣، ٣٩٣–٣٩٤.
[١٤٨] السابق، ص٣٩٥–٤٠١.

من إثبات العام.[١٤٩] والمجاز يصح نفيه بخلاف الحقيقة.[١٥٠] ونفي الاستطاعة قد يراد به نفي الامتناع أو عدم إمكان وقوع الفعل مع إمكانه.[١٥١] فالنفي ليس فقط نظريًّا بل هو نفيٌ عملي، ليس حكمًا منطقيًّا بل هو توجهٌ عملي.

(٧) الالتفات والتضمين والتجريد والمقابلة

(أ) الالتفات

وتتكاثر أساليب البلاغة بحيث يصبح لا شيء بليغًا. منها الالتفات وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر تطرية واستدرارًا للسامع وتجديدًا لنشاطه وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه.[١٥٢] وأقسامه عديدة: الالتفات من المتكلم إلى المخاطب، ومن المتكلم إلى الغائب، ومن المخاطب إلى المتكلم، ومن المخاطب إلى الغائب، ومن الغائب إلى المتكلم، ومن الغائب إلى المخاطب في حوار بين المتكلم والمخاطب والغائب. وقد يبنى الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلُّمه.[١٥٣]

وأسبابه عديدة، عامة وخاصة. من العامة التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر لتنشيط السامع واستجلاب صفائه، واتساع مجاري الكلام، وتسهيل الوزن والقافية، والتنبيه على ما حق الكلام أن يكون واردًا عليه، وأن يكون الغرض به التتميم لمعنى مقصود المتكلم، وقصد المبالغة، وقصد الدلالة على الاختصاص، وقصد الاهتمام، وقصد التوبيخ.[١٥٤] وشرط الالتفات أن يكون الضمير في المتنقل إليه عائدًا في نفس الأمر إلى المتنقل عنه، وأن يكون في جملتَين أي كلامَين مستقلَّين.[١٥٥]

---

[١٤٩] السابق، ص٤٠٢–٤٠٧.

[١٥٠] السابق، ص٤٠٨.

[١٥١] السابق، ص٤٠٧.

[١٥٢] السابق، ج٣، ٣١٤–٣٣٧.

[١٥٣] السابق، ص٣١٤–٣٢٥.

[١٥٤] السابق، ج٣، ٣٢٥–٣٣١.

[١٥٥] السابق، ص٣٣١–٣٣٣.

ويقرب من الالتفات نقل الكلام إلى غيره.[١٥٦] ويحدث ذلك إذا ما ابتلي العاقل بخصمٍ جاهلٍ متعصب فيقطع معه الكلام. فالخوض معه يبعده ولا يفيده. ومثله الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطابٍ آخر. وهو ستة أقسام: الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين، ومن خطاب الواحد إلى خطاب الجمع، ومن الاثنين إلى الواحد، ومن الاثنين إلى الجمع، ومن الجمع إلى الواحد، ومن الجمع إلى الاثنين. ويقوم كله على التبادل بين الإفراد والجمع. ومن الالتفات تعقيب الكلام جملة مستقلة ملاقية له في المعنى عن طريق المثل أو الدعاء. ومن الالتفات التحول من الماضي إلى الأمر أو من المستقبل إلى الأمر أو من الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي بإدخال عامل الزمان بأبعاده الثلاثة.

(ب) التضمين

والتضمين إعطاء الشيء معنى الشيء في الأسماء أو الأفعال أو الحروف، ويراعى في التضمين المحذوف لا المذكور. ويطلق على غير ما سبق، وإدراج كلام الغير أثناء الكلام لتأكيد المعنى أو ترتيب نظم، وإيقاع الظن موقع اليقين في الأمور المحقَّقة.[١٥٧]

وهناك عشرات أخرى من المفاهيم الموازية بحيث يصعب تطبيقها كلها في أساليب البلاغة. منها الاقتدار وهو إبراز المعنى الواحد في عدة صور، وائتلاف اللفظ مع اللفظ، واللفظ مع المعنى. والاستدراك والاستثناء هو تضمن ضرب من المحاسن زيادة على ما يدل عليه المعنى اللغوي.[١٥٨] والتفويف إتيان المتكلم بمعاني شيء من المدح والوصف في جملٍ منفصلة.[١٥٩] والتعديد إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد.[١٦٠] والتضمين إيقاع لفظ موقع غيره لتضمنه معناه مثل المجاز أو حصول معنى فيه من غير ذكر اسم له مثل الإيجاز، وإدراج كلام الغير أثناء الكلام. والفرائد تختص بالفصاحة دون البلاغة وهو

---

[١٥٦] السابق، ج٣، ٣٣٣–٣٣٧.

[١٥٧] السابق، ج٣، ٣٣٨–٣٤٦.

[١٥٨] الإتقان، ج٣، ٢٦٢–٣٦٤.

[١٥٩] السابق، ص٢٦٦.

[١٦٠] السابق، ص٢٦٩–٢٧١.

الإتيان بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من العقد.[١٦١] والمشاكلة ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقريرًا.[١٦٢]

(ج) التجريد

التجريد هو الاعتقاد بأن في الشيء من نفسه معنًى آخر كأنه مُبايِن له فتخرج ذلك إلى ألفاظه بما اعتقدت ذلك.[١٦٣] وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة أخرى مثله مبالغة في كمالها.[١٦٤]

وهناك عدة مفاهيم أخرى موازية تتشعب وتتعدد بحيث يصعب معرفة أين أساليب البلاغة فيها، منها التدبيج وهو ذكر المتكلم ألوانًا يقصد التورية بها والكناية. والتنكيث هو قصد المتكلم شيئًا بالذكر دون غيره، والمبالغة ذكر وصف مع زيادة لتكون أبلغ في المعنى.[١٦٥] لذلك كانت صفات الله على المبالغة. والمطابقة الطباق، وهو الجمع بين متضادَّين في الجملة، وهو قسمان: حقيقي ومجازي، لفظي أو معنوي، إيجابي أم سلبي، والمواربة قول شيء يتضمن الإنكار عليه. المراجعة في الحوار لاختيار عبارة أو خبر وألفاظ أغرب. والنزاهة خلوص ألفاظ الهجاء من الفحش. والإبداع شمول الكلام عدة ضروب من البديع.[١٦٦]

(د) المقابلة

هي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها. والفرق بينها وبين الطباق أن الطباق لا يكون في الغالب إلا بين ضدَّين، والمقابلة تكون بين أكثر من ذلك. الطباق لا يكون إلا بين الأضداد، والمقابلة بالأضداد وبغيرها. وهي ثلاثة أنواع: نظيري

---

[١٦١] السابق، ص٢٧٨.

[١٦٢] السابق، ص٢٨١–٢٨٢.

[١٦٣] البرهان، ج٣، ص٤٤٨–٤٤٩.

[١٦٤] الإتقان، ج٣، ٢٦٨–٢٦٩.

[١٦٥] السابق، ص٢٨٢–٢٨٤.

[١٦٦] السابق، ص٢٨٤–٢٨٩.

ونقيضي وخلافي. والخلافي أتمُّها في التشكيك، وألزمها بالتأويل ثم النقيضي ثم النظيري. وقد تُقسَّم المقابلة إلى أربعة أنواع: أن يأتي بكل واحد من المقدمات مع قرينه من الثواني، أن يأتي بجميع الثواني مرتبةً من أولها، أن يأتي بجميع المقدمات ثم بجميع الثواني مرتبةً من آخرها وهو رد العجز على الصدر، أن يأتي بجميع المقدمات ثم بجميع الثواني مختلفةً غير مرتبة، وهو اللف. وقد يكون التقابل نوعَين فقط، مقابلة في اللفظ دون المعنى ومقابلة في المعنى دون اللفظ.[١٦٧]

وقد تكون المقابلة اثنين باثنين، وأربعةً بأربعة، وخمسًا بخمس، وستًّا بست.[١٦٨] وقد يكون نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر وهو من أكملها. والعكس أن يقدَّم في الكلام جزء ثم يؤخر.[١٦٩] ويقابَل الجمع بالجمع، والمفرد بالمفرد. ويقابل كل فرد من الجمع بكل فرد من الجمع. ويقابل الجمع بالمفرد، بثبوت الجمع لكل واحد.[١٧٠]

ويشمل جمع التكسير أولى العلم.[١٧١] إذ يمكن مخاطبة غير العاقل من ظواهر الطبيعة باعتبارها أقل لأن العقل مثل التأنيس هو الأساس، ونون ضمير الجمع في جميع العلاقات.[١٧٢] ويعامل جمع التكسير باعتباره مفردًا.

(٨) الإبدال، والنحت، والمحاذاة، والتجنيس، والمدرج، والاقتصاص، والترديد، ومشاكلة اللفظ، واللفظ، والطباق، والترادف، والعدد

(أ) الإبدال

ويتم إبدال الحروف بعضها مكان بعض مثل الحاء والهاء في «مدحه» والجيم والحاء في «حاس». ويرجع ذلك إلى اللهجات العربية مثل الجيم والغين في «هيجل»، والجيم والقاف في «قاموس»، «عقول» والتي يتندر بها البحاروة والصعايدة كلٌّ منهما على الأخرى.[١٧٣]

---

[١٦٧] البرهان، ج٣، ٤٥٨–٤٦٦ مثال النظيري ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

[١٦٨] السابق، ج٣، ٤٦٤–٤٦٦.

[١٦٩] السابق، ص٤٦٧ مثل ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

[١٧٠] السابق، ج٤، ٣–٢٢ مثل سماء وسموات، جنة وجنات.

[١٧١] السابق، ج٤، ٢٢. مثل ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

[١٧٢] السابق، ص٢٣–٢٤ مثل ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

[١٧٣] السابق، ج٣، ٣٨٨–٣٩٠.

(ب) النحت

هو صياغة لفظ من أوائل حروف لبعض الكلمات مثل «الحوقلة»، «البسملة»، «الحمدلة».[١٧٤] فعلوم القرآن تسمح بالصياغات اللفظية. فاللغة عاملٌ مشترك بين الوحي والكلام، وهو ما يحاوله بعض المحدثين مثل «بخمس» أي كتب الإصحاحات الخمسة.

(ج) المحاذاة

وتعني الإتيان بلفظ على وزن لفظٍ آخر للانضمام إليه توصيفًا للسمع، وهو أحد أساليب البديع ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾، ﴿لَأَذْبَحَنَّهُ﴾.[١٧٥] وذلك من أجل استمرار موسيقى القرآن.

(د) التجنيس

هو تساوي حرفَي الكلمتَين، وأن يجمع الكلمتَين أصلٌ واحد مثل الروح والريحان. وهو من المحاسن اللفظية. وإذا نفي التجنيس أصبح طباقًا.[١٧٦]

(هـ) المدرج

وهو مصطلح من الحديث وهو زيادة لفظ من الراوي في متن الحديث فتُنقَل وكأنها منه.[١٧٧] وفي علوم القرآن أن تجيء الكلمة إلى جنب أخرى كأنها في الظاهر معها وهي في الحقيقة غير متعلقة بها.[١٧٨]

(و) الاقتصاص

وهو أن يكون كلام في سورة مقتصًّا من كلام في سورة أخرى أو في السورة نفسها.[١٧٩] فالقرآن وحدةٌ واحدة. تتكرر معانيه بصيغٍ مختلفة حسب سياق الكلام.

---

[١٧٤] السابق، ج٣، ٣٨٧.

[١٧٥] السابق، ص٣٩١–٣٩٢.

[١٧٦] السابق، ج٣، ٤٥٠–٤٥٤. مثل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

[١٧٧] ظاهريات التأويل، ص١٨٦–٢١٠.

(ز) الترديد

وهو تعليق لفظة من الكلام ثم تردُّ لتعليقها بمعنًى آخر.[١٨٠]

(ح) مشاكلة اللفظ باللفظ

وهي قسمان: مشاكلة الثاني للأول وهو الأكثر، ومشاكلة الأول للثاني وهو الأقل، مثل الفعل المتعدي لمفعولين.[١٨١] وقد يشاكل كل اللفظ المعنى. فإذا كان اللفظ خبر «لا» أصبح المعنى كذلك. فالمعنى محمول على اللفظ، واللفظ حامل للمعنى. وبقدر ما يكون الحامل لينا يكون المعنى أيضًا مستريحًا. وإذا اجتمع الحمل على اللفظ والمعنى بدأ باللفظ ثم بالمعنى.[١٨٢]

(ط) الطباق

هو الجمع بين متضادَّين مع مراعاة التقابل. وهو قسمان: لفظي ومعنوي.[١٨٣] والطباق الخفي مثل الجمع بين الماء والنار.[١٨٤]

(ي) الترادف

وقد يُظَن ببعض الألفاظ الترادف وهي ليست كذلك مثل الخوف والخشية، والخشية أعلى وأعمق، والسبيل والطريق، الأول للحيز غالبًا. وجاء وأتى، ومدَّ وأمدَّ، وعمل وفعل، والقعود

---

[١٧٨] البرهان، ج٣، ٢٩٤–٢٩٥.

[١٧٩] السابق، ج٣، ٢٩٧–٢٩٨.

[١٨٠] السابق، ج٣، ٣٠١. مثل: ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ﴾، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ❁ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

[١٨١] السابق، ج٣، ٣٧٧.

[١٨٢] السابق، ص٣٧٨–٣٨٦.

[١٨٣] السابق، ص٤٥٥–٤٥٧. مثل: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾.

[١٨٤] مثل: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾.

والجلوس، والتمام والكمال، والإعطاء والإتيان، والضياء والنور، والغبط والمنافسة، والحسد والحقد، والشح والبخل، سواء في الأفعال أو في الأسماء.[١٨٥]

(ك) العدد

والاسم الفاعل المشتق من العدد له استعمالان: الأول أن يراد به واحد من هذا العدد، والثاني أن يكون بمعنى التصيير.[١٨٦] ما يضاف إليه العدد من الثلاثة إلى العشرة اسم جنس أو اسم جمع.[١٨٧] وألفاظ العدد نصوص، لا يدخلها التأكيد لدفع مجاز.[١٨٨]

(٩) منطق العواطف

(أ) الشك للمساهمة وحسم المضاد: وقد يخرج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد. فاللغة ليست آليةً صورية بل هي جدل العواطف في الحوار بين الذوات.[١٨٩]

(ب) الإعراض عن صريح الحكم: ويمكن الإعراض عن صريح الحكم تركًا إياه للقارئ. فالتأكيد على الفعل وليس نتيجته، وعلى القصد وليس جزائه.[١٩٠]

(ج) الألغاز: والألغاز اشتقاقًا من اللغز وهو الطريق المنحرف. سمي كذلك للانحراف عن نمط الكلام. ويسمى أيضًا الحجية من الحجى أي العقل لأن هذا النوع يقوي العقل بالتمرن عليه والارتياض بحلِّه والتفكر فيه مثل قول إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، أو قول نمرود ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.[١٩١]

(د) الهدم: وهو أن يأتي الخبر بكلامٍ يتضمن معنًى ثم يأتي الثاني بضده لهدم ما بناه.[١٩٢]

---

[١٨٥] الإتقان، ج٢، ٣٠٦–٣١٠؛ البرهان، ج٤، ٧٨–٨٧.

[١٨٦] البرهان، ج٤، ١١٧–١٢٠. مثل ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾.

[١٨٧] مثل: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾.

[١٨٨] مثل: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

[١٨٩] السابق، ج٣، ٤٠٩–٤١٠، مثال ذلك ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾.

(هـ) التغليب: وهو إعطاء الشيء حكم غيره أو ترجيح أحد المغلوبين على الآخر أو إطلاق لفظ عليهما معًا أو إجراء المختلفَين مجرى المتفقَين. وهو من المجاز، ومراعاة الأشرف. وهو على أنواع: تغليب المذكر، تغليب المتكلم على المخاطب، والمخاطب على الغائب، تغليب العاقل على غيره، تغليب المتصف بالشيء على ما لم يتصف به، تغليب الأكثر على الأقل، تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس مضمون فيما بينهم بأن يطلق اسم الجنس على الجميع، تغليب الموجود على ما لم يوجد، تغليب الإسلام، تغليب ما وقع بوجهٍ مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه، تغليب الأشهر.[١٩٣]

(و) القلب: وهو أحد أساليب البلاغة. ولا يعيب القرآن أو ينال من التنزيه والعبث والتهكم والمحاكاة أو الحال. وهو على أنواع: قلب الإسناد، وهو أن يشمل الإسناد إلى شيء والمراد غيره، وقلب المعطوف عليه معطوفًا والمعطوف معطوفًا عليه، والعكس وهو أمرٌ لفظي، والمستوى وهو أن تقرأ الكلمات من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى أولها، ومقلوب البعض وهو أن تكون الكلمة الثانية مركبةً من حروف الأولى مع بقاء بعض حروف الأولى.[١٩٤]

(ز) التقسيم: وهو القسمة العقلية عند المتكلم لأنها قد تقتضي أشياء مستحيلة.[١٩٥]

(ح) الحصر والاختصاص: الحصر أو القصر هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصص. وهو إثبات الحكم للشيء ونفيه عما عداه. وينقسم إلى قصر الموصوف على الصفة، وقصر الصفة على الموصوف حقيقة أو مجازًا. وينقسم أيضًا ثلاثة أقسام: حصر أفراد لمخاطبة من يعتقد الشركة، وقصر قلب لمخاطبة من يعتقد إثبات الحكم للغير،

---

[١٩٠] السابق، ج٣، ٤١١ مثل ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾.

[١٩١] السابق، ج٣، ٢٩٩.

[١٩٢] السابق، ج٣، ٤١٢ مثل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ... ﴾، ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ﴾، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

[١٩٣] السابق، ج٣، ٣٠٢–٣١٣.

[١٩٤] السابق، ج٣، ٢٨٨–٢٩٣.

[١٩٥] السابق، ج٣، ٤٧١–٤٧٤.

وقصر تعيين لمخاطبة من تساوى عنده الأمران. وطرق الحصر كثيرة.[١٩٦] وقد يكون تقديم المعمول منها وقد يختصر الحصر إلى ثلاثة أقسام: «ما» و«إلا»، «إنما»، «التقديم».[١٩٧]

(ط) وضع جمع القلة موضع الكثرة: ويوضع جمع القلة موضع الكثرة لاشتراكهما في الجمع. فالجمع جمع لا يهم المقدار. ويكون ذلك في النكرة غالبًا. أما في المعرفة فيستكفي بالعموم.[١٩٨] ويعني تنبيه الخطاب على الطلب أو في الخبر بالتنبيه بالقليل على الكثير أو بالكثير على القليل. وهو نوع من أنواع البديع. وفي القرآن إفراد وجمع، لأرض دون جمع، في حين أن السماء مفرد وجمع. وتختلف الدلالتان. الجمع أكثر قوة من المفرد مثل ريح ورياح. ومقابلة الجمع بالجمع تقضي بمقابلة الفرد بالفرد.[١٩٩]

(١٠) المتشابهات والمبهمات والأمثال والجدل والعلوم المستنبطة والتأدب في الخطاب

(أ) المتشابهات: وتعني المتشابهات الآيات المتشابهة في الموضوع أو الصياغة أو ما يسمى بظاهرة التكرار في القرآن، مثل إيراد القصة بصياغاتٍ شتى وفواصلَ مختلفة، بالتقديم والتأخير وبالزيادة والنقصان أو بالتصريف والتنكير أو بالجمع والإفراد أو بالإدغام والفك أو بحروف دون حرف أو كلمة مكان أخرى، وأن يكون في وضع على نظم وفي آخر على عكسه.[٢٠٠] والسبب اختلاف السياق، وإظهار القدرة على التعبير عن الحدث بطرقٍ عديدة. فلا توجد رؤيةٌ واحدة للحدث الواحد أو صياغةٌ واحدة

---

[١٩٦] الإتقان، ج٣، ١٤٩–١٦٠.

[١٩٧] مثل: النفي والاستثناء، إنما للتعريض، إن للإثبات وما للنفي، إن للتأكيد، تقديم المعمول، ضمير الفصل، تقديم المسند إليه، تقديم المسند، ذكر المسند إليه، تعريف الجزأين، التأكيد بالنفس، قلب بعض حروف الكلمة.

[١٩٨] البرهان، ج٣، ٣٥٥–٣٥٨.

[١٩٩] الإتقان، ج٢، ٢٩٩–٣٠٦، وقد ألَّف أبو الحسن الأخفش كتابًا في الإفراد والجمع مع أمثلة كثيرة.

[٢٠٠] السابق، ج٣، ص٣٣٩–٣٤٤؛ البرهان، ج١، ١١٢ ألَّف فيه كثيرون مثل الكسائي، ونظمه السخاوي، وألَّف الكرماني في توجيهه «البرهان في متشابه القرآن»، والرازي «درة التنزيل غرة التأويل» وأبو صقر بن الزبير «ملاك التأويل»، وابن جماعة «كشف المعاني من متشابه المثاني»، وألَّف السيوطي «قطف الأزهار في كشف الأسرار».

له. ويدخل في أساليب البلاغة أكثر مما يدخل في التدوين، وتسمى أيضًا علم المتشابه. ومنها ما يجيء على حرفَين أو على ثلاثة أو على أربعة أو على خمسة أو على ستة أو على سبعة أو على ثمانية أو على تسعة أو على عشرة أو على أحد عشر حرفًا، ومنها ما يجيء على خمسة عشر وجهًا أو ثمانية عشر وجهًا أو عشرين وجهًا أو ثلاثة وعشرين وجهًا.[٢٠١]

(ب) المبهمات: لا تعني المبهمات المتشابهات بل تعني العموم دون الخصوص، عموم الحكم دون خصوص السبب. فالمحمول أهم من الحامل، والروح أهم من البدن وإن كانت محمولًا فيه. وأسبابه كثيرة مثل الاستغناء ببيانه في موضعٍ آخر، عدم التعين لاشتهاره، التستر عليه، غياب الفائدة في التعيين، العموم دون الخصوص، التعظيم بالوصف الكامل دون الاسم للمعنى وليس للشخص، تحقيره بالوصف الناقص. ولا تعرف إلا بالنقل والرواية دون العقل وهو مما لا فائدة منه، لا نقلًا وعقلًا. ويمكن تصنيفها إلى قسمَين: الأول فيما أُبهم من رجل أو امرأة أو ملك أو جني أو مثنى أو مجموع عرف أسماء كلهم والإشارة إليهم بكلمات مثل «مَن» أو «الذي». وإذا كان القرآن قد اكتفى بالمحمول دون الحامل فإن تعيين الحامل يكون ضد قصد القرآن.[٢٠٢] والثاني المتعينات في الغالب لأشخاص أفرادًا أو مجموعات أو الملاك، ذكرًا أم أنثى، إنسانًا أو حيوانًا، مكانًا أم زمانًا.[٢٠٣] وقد يكون للشخص اسمان ويقتصر على أحدهما دون الآخر. وقد يبالغ في الصفات لتعيين إنسان بعينه. لم يذكر القرآن اسم امرأة إلا مريم في حين ذكر كثيرًا من أسماء الرجال.[٢٠٤]

(ج) الأمثال: والمثل حكم يتضمن في ذاته وسائل الإمتاع عن طريق التخيل والتشبيه والمقارنة وتحويل الأمر والنهي إلى إحساس بالجمال والقبح وإلى قبول أو نفور بالطبيعة. فالغاية من المثل عند القدماء التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير، وتقريب المواد إلى العقل، وتصويره بصورة المحسوس. والمثل قادر على كشف المعاني وبيان إمكانياتها وإشعاعاتها. وهي نوعان: ظاهر مصرح به وكامن.[٢٠٥]

---

[٢٠١] البرهان، ج١، ١٣٣–١٥٤.

[٢٠٢] الإتقان، ج٤، ٧٩–١٠٠، البرهان، ج١، ١٥٥–١٦٣، ألَّف فيه السهيلي «التعريف والإعلام» وابن عساكر «التكميل والإتمام»، وابن جماعة والسيوطي.

[٢٠٣] يعطي السيوطي ٢٤٣ مثلًا.

[٢٠٤] البرهان، ج١، ١٦٠–١٦٣.

[٢٠٥] الإتقان، ج٤، ٣٨–٤٥. وصنَّف فيه أبو الحسن الماوردي.

(د) الجدل: وهو أدخل في علم أصل الدين والفرق والرد على الخصوم.[٢٠٦] ويضم أنواع البراهين والأدلة وتقسيم وتحذير ودلالة. فالقرآن كتاب حوار واستدلال، مقدمات ونتائج، لذلك استخرج المتكلمون من القرآن الأدلة على وجود الله وخلق العالم وخلود النفس والثواب والعقاب. واعتمد على عديد من الأقيسة مثل قياس الأولى، وقياس الإعادة على الابتداء، ودليل التمانع لإثبات الوحدانية. ومن ضمن علم الجدل السبر والتقسيم الذي اعتمد عليه علماء أصول الفقه، وفحوى الخطاب ولحن الخطاب في علم أصول الفقه، وحمل اللفظ على خلاف مراده، والتسليم والإسجال وهو الإتيان بألفاظ تسجل على المخاطب، والانتقال من استدلال إلى آخر، والمناقضة، ومجاراة الخصم ليعتبر. وهو ما تحول إلى علمٍ مستقل وهو «الحجاج» أو «الجدل والمناظرة». وقد عرفه المتكلمون مثل الاستدلال على أن صانع العالم واحد بدليل التمانع، والاستدلال على المعاد الجسماني بقياس الإعادة على الابتداء، وبطريق الأولى في خلق السموات والأرض وإحياء الأرض بعد موتها، وإخراج النار من الشجر الأخضر. وهي استدلالاتٌ اضطرارية.[٢٠٧] وإلجام الخصم الحجة هو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجةٍ عقلية تقطع المعاند له فيه. ومنه نوعٌ منطقي وهو استنتاج النتيجة من مقدمتَين.[٢٠٨]

(هـ) العلوم المستنبطة: والقرآن به كل شيء.[٢٠٩] ويمكن استنباط كل العلوم منه. وهو الأصل فيما يقال هذه الأيام من أن كل العلوم والتقنيات الحديثة في القرآن عند أصحاب الإعجاز العلمي في القرآن.[٢١٠] من العلوم الإنسانية علوم اللغة وعلم أصول الدين مع علم الجدل وعلم أصول الفقه وعلوم التصوف علوم أصحاب الحقيقة. ومن العلوم النقلية علم الفقه وعلم التاريخ والقصص وعلم التعبير أي تفسير الأحلام أي تعبير الرؤيا، والعلوم العقلية الخالصة الرياضية والطبيعية، الرياضية الهندسية الجبر والمقابلة والحساب وفروع الحساب مثل الجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة

[٢٠٦] الإتقان، ج٤، ٥٢–٥٧. صنف فيه الطوخي.

[٢٠٧] البرهان، ج٣، ٢٤–٢٧.

[٢٠٨] السابق، ج٣، ٤٦٨–٤٧٠.

[٢٠٩] الإتقان، ج٤، ٢٤–٣٧.

[٢١٠] «قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء. أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها ...» (السابق، ج٤، ٣٣).

والتصنيف والمضاعفة. والطبيعية مثل الطب والهيئة أي الفلك والنجامة. والتطبيقية مثل أصول الصنائع وأسماء الآلات.[٢١١] وهو من أوجه الإعجاز. وقد تنفصل العلوم إلى خمسين أو أربعمائة أو سبعة آلاف أو سبعين ألفًا على عدة كلمات القرآن مضروبة في أربعة. إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحدٌّ ومطلع. وقد يصغر العدد إلى ثلاثة: توحيد وتذكير وأحكام أو التوحيد والإخبار والديانات.[٢١٢] وقد تكون العلوم ثلاثين علمًا تجمع بين العلوم الإنسانية والعقلية والعقلية النقلية.[٢١٣] وهي موضوعات في علوم مثل الأخلاق أو أصول الفقه أو أصول الدين وليست علومًا.

(و) التأدب في الخطاب: وقد يكون بإضافة الخير إلى الله.[٢١٤] فالله هو المثل الأعلى. والقاعدة ذكر الرحمة قبل العذاب، والخير قبل الشر، والعدل قبل الظلم. والاستثناء تقديم العذاب ترحيبًا وزجرًا.[٢١٥] ويعني التوسع الاستدلال بالنظر في الملكوت. ويكون ذلك عادة في العقائد الإلهية لتتمكن في النفوس. كذلك يتوسع في ترادف الصفات.[٢١٦]

(١١) إعجاز القرآن

(أ) التأليف في الموضوع

(١) «إعجاز القرآن» للباقلاني (٤٠٣هـ)

وبدأ موضوع إعجاز القرآن عند المتكلمين الأشاعرة مثل الباقلاني. وهي نفس المادة التي دخلت فيما بعدُ في علوم المتأخرين عندما استقلَّت علوم الدين عند الزركشي (٧٩٤هـ) في «البرهان»، والسيوطي (٩١١هـ) في «الإتقان»، نفس الفصول والأبواب مع نفس الترتيب المنطقي. وهو من الموضوعات الكلامية في الدليل على صدق النبوة والفرق بين المعجزة

---

[٢١١] كالخياطة والحدادة والتجارة والغزل والنسج والفلاحة، وعلوم الصيد مثل الغوص والصياغة والزجاجة والفخارة والملاحة والكتابة والخبز والطبخ والغسل والقصارة والجزارة والبيع والصبغ والحجارة والكيالة والوزن والرمي، وضروب من المأكولات والمشروبات والمنكوحات.

[٢١٢] في التوحيد معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق أسماءه وصفاته وأفعاله. والتذكير هو الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن. والأحكام هي التكاليف وبيان النافع والضار والأمر والنهي والندب.

والإعجاز، في إطار من الأشعرية السائدة.[٢١٧] ويبدأ الحجاج الكلامي بصياغة «فإن قال ... قيل ...» وقد أصبحت موضوعًا في النبوة في علم الكلام.[٢١٨]

وتتفاوت الفصول كمًّا. أكبرها كيفية الوقوف على إعجاز القرآن «ثم» البديع من الكلام «حتى أصغرها»، «رد شبهة حول الإعجاز».[٢١٩] تمتلئ بالآيات القرآنية والشواهد الشعرية ما يزيد على المئات؛ مما يدل على أن أهم تجربة في علوم القرآن البلاغة والشعر كرابطَين بينهما. وعندما تكثر الآيات يقلُّ الشعر. وعندما يكثر الشعر تقلُّ الآيات.[٢٢٠] وموضوع الشعر والقرآن موضوع من موضوعات علوم القرآن. فقد ورث القرآنُ الشعرَ بلغته وبلاغته، واستطاع إثارة خيال العرب أهل الفصاحة والبيان وثقافة الشعر والشعراء. ويذكر الشعراء وعلوم النحو والبلاغة أكثر الفقهاء والمتكلمين والمفسرين، وينتقد الشعر

---

[٢١٣] وهي: الإعلام، التشبيه، الأمر والنهي، الوعد والوعيد، الجنة والنار، الإقرار باسم الله وصفاته وأفعاله، الاعتراف بإنعامه، الاحتجاج على المخالفين، الرد على الملحدين، الرغبة والرهبة، الخير والشر، الحسن والقبح، نعت الحكمة، فصل المعرفة، مدح الأبرار، ذم الفجار، التسليم، التحسين، التوكيد والتفريغ، ذم الأخلاق، شرف الأدب (السابق، ج٤، ٣٢-٣٣).

[٢١٤] السابق، ج٤، ٥٩–٦٣.

[٢١٥] السابق، ج٤، ٦٣–٦٦.

[٢١٦] السابق، ج٣، ٤١٣، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

[٢١٧] كيفية الوقوف على إعجاز القرآن (١٢٩)، البديع من الكلام (٤٤)، الدلالة «على أن القرآن معجز»، وصف وجوه البلاغة (١٩)، جملة وجوه إعجاز القرآن (١٨)، نفي السجع عن القرآن (١١)، نفي الشعر عن القرآن (٨)، الإعجاز (٦)، كلام الرسول وأمور تتصل بالإعجاز (٥)، نبوة النبي معجزتها القرآن، قدر المعجز من القرآن، حقيقة المعجز (٤)، شرح ما بينَّا من وجوه الإعجاز (٣)، التحدي، ما ينطق به الإعجاز (٢).

[٢١٨] الشعر ص٦٧–٦٩، ٧٠، ٧٦، ٨٢–٨٤، ٩٠، ٩٢-٩٣، ٩٦، ١٠٣، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥، ١٧١، ١٧٨، ١٨٦، ١٩٥، ١٩٧–٢٠٨، ٢٣٣–٢٣٥، ٢٣٧–٢٦٣، ٢٦٥. ولا تكاد تخلو صفحة من عدة آيات.

[٢١٩] يذكر أبو الحسن الأشعري ٤ مرات (إعجاز القرآن، ص٨٩، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٩)، والمعتزلة مرةً واحدة ص٢٧٥، ويشار إلى المتكلمين.

[٢٢٠] من العقيدة إلى الثورة، ج٤ النبوة والمعاد، ص١٨٢–٢٠٤.

كما ينقد القرآن.[٢٢١] ويظهر النثر الفني أيضًا في خطابة الرسول وبلاغته، وخطب الصحابة والتابعين لبيان مظاهر التواصل والانقطاع في الخطابَين، ما تفرد به النثر القرآني عن النثر النبوي، والنثر النبوي عن نثر الصحابة والتابعين.[٢٢٢] وإذا كان الشعر تجربة القدماء الفنية والثقافية والاجتماعية فإن أزمة العصر هي تجارب المحدثين الاجتماعية والسياسية. تؤثر فيهم كما أثر الشعر في القدماء.[٢٢٣] وقد كان «إعجاز القرآن» نفسه جزءًا من مشروعٍ أهم لدراسة «معاني القرآن» والأصول.[٢٢٤]

(٢) «أسرار البلاغة» للجرجاني (٤٧١هـ)

«أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» هما الشهيران التكوينيان، واجهتان لعملةٍ واحدة. «أسرار البلاغة» النظرية، و«دلائل الإعجاز» التطبيق. الأول تنظير للغة، والثاني تنظير للشعر. وكلاهما تنظير لإعجاز القرآن. وقد أصبح الحامل اللغوي أحد الحوامل الرئيسية للوحي، الألفاظ والمعاني، وأساليب البلاغة، والتفسير.[٢٢٥] وقد اعتنى به المصلحون؛ محمد عبده ورشيد رضا. درَّسه الأول في الأزهر، ونشره الثاني في «المنار». عند رشيد رضا تدريسه في الأزهر أحد علامات النهضة ورفعه من البرنامج أحد عوامل الانهيار. كما اهتمَّ به المحدثون المعاصرون لأنه «بنيوي» قبل البنيوية. وقارنوه بالمذاهب الغربية.[٢٢٦] تم فيها التحول من التعليل كمفهومٍ أصولي إلى «التخيل» كمفهومٍ نقدي. وبالرغم من أن المؤلف أشعري إلا أن اتجاهه معتزلي، ليس فقط لاعتماده على نظرية الحسن والقُبح ولكن أيضًا لاعتماده على التصوير الفني والتأويل حرصًا على التنزيه وتجنُّبًا للتشبيه

[٢٢١] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص١٤٤.

[٢٢٢] السابق، ص١٥٩–١٦٤.

[٢٢٣] السابق، ص٧٧، ٢٣٤، ٢٦٨.

[٢٢٤] وقد جمع سيد قطب بين تجارب الشاعر والناقد والمفسر والسياسي.

[٢٢٥] الإمام عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان. صححها على نسخة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده التي قرأها ودرسها في الجامع الأزهر وأودع فيها جُلَّ تعليقاته على حواشيها ووضع بجانبها حرف (شي) المقتطع من كلمة شيخنا، وعلَّق على حواشيه السيد محمد رشيد رضا، منشي المنار، رحمه الله تعالى، محمد علي صبيح وأولاده، ط٦، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

[٢٢٦] ذلك مثل كمال أبو الديب، وجابر عصفور في أحد مراحل حياته العلمية.

كما فعلت المعتزلة.[٢٢٧] والعنوان الفرعي لكتاب «أسرار البلاغة»، «في علم البيان». والبيان والبديع من علوم البلاغة. ويعتمد على الشعر أكثر من اعتماده على القرآن عشرات المرات أو الحديث مئات المرات.[٢٢٨] وهذا يدل على أولوية المادة الشعرية. ومن الشعراء يتقدم الشعر المجهول المؤلف، فالشعر أهم من قائله، دلالته من طبيعة الشعر وليس من ذوق الشاعر.[٢٢٩]

(٣) «دلائل الإعجاز» للجرجاني (٤٧١هـ)[٢٣٠]

وإذا كان «أسرار البلاغة» في علم البيان فإن «دلائل الإعجاز» في علم المعاني. وفيه صاغ عبد القاهر نظرية «النظم». وقد كان أحد مواطن الاهتمام في الحركة الإصلاحية عند محمد عبده ورشيد رضا «النظم» أولًا نظرية في البلاغة ثم طبقت في الشعر. فقد استعمل القرآن أساليب البلاغة العربية كما استعملها الشعر. لذلك يفسر القرآن بالشعر، والشعر بالبلاغة. فاللغة هي الحامل الرئيسي للشعر والقرآن. وقد ساعدت نظرية النظم على نقد الشعر وفهم بلاغة القرآن. ويستعمل القرآن قبل الشعر كمادةٍ تطبيقية للبلاغة، شعرٌ أكثر، وآياتٌ أقل، وأحاديثُ نادرة.[٢٣١] استعمل الشعر أولًا والقرآن ثانيًا أساليب البلاغة العربية. لا فرق بين الشعر الجاهلي والشعر العربي بعد الإسلامي، بين شعراء الجاهلية امرؤ القيس، وشعراء العرب بعد الإسلام كالمتنبي، والشعراء المخضرمين كحسان وكعب بن زهير. لذلك يفسر القرآن بالشعر «عليكم بديوان جاهليتكم ففيه تفسير كتابكم.» كما

---

[٢٢٧] أسرار البلاغة، ص٣، ٢٣٨، ٢٤٣.

[٢٢٨] الأشعار (٤٣٧)، الآيات (٤٤)، الأحاديث (٦).

[٢٢٩] الشعر المجهول المؤلف (١٠٠)، ابن المعتز (٤٤)، ابن الرومي، البحتري (٢٨)، امرؤ القيس (١٦)، قيس ابن الحطيم (١٥)، المتنبي (١٤)، الفرزدق (١٢)، ابن لنك، ابن نباته (٦)، مزرد، الصنوبري، النسبي (٤)، الحطيئة، لبيد، رؤبة، الخوارزمي، القاضي أبو الحسن، أبو العتاهية، كشاجم، ابن فارس، المهيلي، الوزير، علي محمد بن جعفر، التنوخي (٢).

[٢٣٠] الإمام عبد القاهر الجرجاني. صحح أصله علَّامتا المعقول والمنقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، والأستاذ اللغوي المحدث الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي. ووقف على تصحيح طبعه وعلق على حواشيه السيد محمد رشيد رضا، منشي المنار، رحمه الله ورضي عنه، مكتبة القاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

[٢٣١] الأشعار (٤٢٧)، الآيات (١١٩)، الأحاديث (١٩).

قال عمر. كما يفسر الشعر بأساليب البلاغة العربية. وإذا كان القرآن قد نقد الشعراء وليس الشعر لإسرافهم في الخيال، وانفصال قولهم عن عملهم إلا أنه استثنى الشعراء المؤمنين. كما أيَّد الرسول الشعر والشعراء ومدحهم وقرَّبهم إليه واستعملهم في نشر الدعوة.[٢٣٢]

وعند عبد القاهر إحساس بالجدة، جدة المحدثين بالنسبة لتقليدية القدماء.[٢٣٣] والأسلوب هو أسلوب «قيل ... قلنا ...»، الرد على تساؤلات واعتراضاتٍ متخيَّلة، ويخاطب القارئ. فالقضية مشتركة بين المؤلف والقارئ. وهو أسلوبٌ مسهب غير مركز وكأن الكتاب أَمَالٍ أو محاضراتٌ شفاهية. ونظرية النظم في النهاية نظريةٌ «شكلانية» تجعل الكلام بليغًا في صياغاته وتآليفه وتراكيبه وأساليبه باعتبار اللغة عالمًا مغلقًا بذاته وعلى ذاته كما هو الحال في «تحليل الخطاب» في الغرب المعاصر دون بيان الآثار النفسية والاجتماعية كما هو الحال في «علم اللغة النفسي وعلم اللغة الاجتماعي». وإذا كانت اللغة والبلاغة والشعر ثقافة القدماء فإن العلوم الإنسانية، النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والسياسة والفلسفة والثقافة والحضارة والتاريخ والقانون علوم المحدثين.

(٤) «معترك الأقران في إعجاز القرآن» للسيوطي (٩١١هـ)

ويدخل موضوع إعجاز القرآن في علومٍ كثيرة، علم أصول الدين في موضوع النبوة والدليل عليها، وفي علوم البلاغة لمعرفة أسرارها، وفي علوم القرآن في الحوامل الذاتية وهي اللغة، في أساليب البلاغة. والعنوان غريب «معترك الأقران». وهو كتابٌ تعليمي تجميعي. يجمع أقوال القدماء كما هي العادة في مؤلفات السيوطي عصر التدوين الثاني في مصر وتركيا. وقد بلغت مؤلفاته أكثر من ثلاثمائة بعد أن تفرغ للتأليف والكتابة وترك الفتيا والتدريس.[٢٣٤] ويبدأ الكتاب بمقدمةٍ نظرية في التأليف، لا صلة لها بموضوع الإعجاز.[٢٣٥] أهميتها بيان الحوامل الذاتية للوحي المحفوظ في الصدور، المقروء بالألسنة، المكتوب في

[٢٣٢] الشعراء: المتنبي (٣٦)، البحتري (٣٣)، أبو تمام (٣١)، الفرزدق (١٢)، أبو نواس (١١)، بشار (٨)، امرؤ القيس، ابن المعتز (٦)، ابن الرومي، حسان، لبيد (٤)، جرير، ابن هرمه (٣)، النابغة الجعدي، أرطأة بن سُهية، كعب، الخنساء، الأعشى، دعبل، الحطيئة (٢)، الحسن البصري، ذو الرمة، أمية بن أبي الصلت، خالد بن يزيد، مصعب بن الزبير، الحميري، قس بن الحصين، وعشرات آخرون (١).

[٢٣٣] دلائل الإعجاز، ص٤٣.

المصاحف؛ لأن الشيء له وجودات أربع: في الأذهان، وفي الأعيان، وفي اللسان، وفي البنان.[٢٣٦] ومراتب تأليف الكلام خمس: ضم الحروف لتحصل الكلمات، الاسم والفعل والحرف، تأليف الكلمات فتحصل الجمل المفيدة، ضم الجمل في منظوم، تأليف أواخر المنظوم في السمع، إخضاع ذلك للوزن فيصبح شعرًا. والمنظوم إما محاورة وهي الخطابة أو مكاتبة وهي الرسالة. والقرآن جامع لأنواع هذه الأشكال الأدبية.[٢٣٧]

وأوجه الإعجاز خمسة وثلاثون وجهًا. أكبرها الأخير الذي يشمل تقريبًا جزأين من ثلاثة أجزاء.[٢٣٨] فكل شيء معجز في القرآن: العلوم المستنبطة منه، مع أنها من وضع العقل واجتهاد العلماء، حفظه من الزيادة والنقصان مع أنه من وضع مناهج النقد التاريخي وشروط التواتر، أحسن تأليفه مع أنه من إدراك علوم البلاغة وفنون القول، مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض مع أن ذلك جهدٌ بشري في الفهم، افتتاح السور وخواتيمها مع أن ذلك من فنون القول وأساليب البلاغة، مشتبهات آياته وتعارضها وذلك خاضع لمنطق الألفاظ، ناسخه ومنسوخه، والزمان أحد الحوامل الموضوعية للوحي، والمحكم والمتشابه جزء من منطق الألفاظ، واختلاف الألفاظ في الحروف وكيفياتها وتقديم بعض ألفاظه وتأخيرها وهو خاضع أيضًا لمنطق الألفاظ، حصره واختصاصه واحتواؤه جميع لهجات العرب وذلك لهجرات القبائل العربية نحو طرق الحجيج، والعموم والخصوص، والإجمال والتبيين، والمنطق والمفهوم، ووجوه المخاطبات، كل ذلك جزء من مباحث الألفاظ عند الأصوليين، والإخبار عن الأمم السالفة جزء من قصص الأنبياء،

---

[٢٣٤] الشيخ الإمام العلامة حافظ عصره ووحيد دهره أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين (ثلاثة أجزاء)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

[٢٣٥] السابق، ج١، ٣–١٢.

[٢٣٦] السابق، ج١، ٤.

[٢٣٧] السابق، ج١، ٦.

[٢٣٨] التحليل الكمي للأبواب: (١) (١٠)، (٢) (١)، (٣) (٢٠)، (٤) (١٥)، (٥) (١٨)، (٦) (٧)، (٧) (١٠)، (٨) (٢٠)، (٩) (١٨)، (١٠) (٧)، (١١) (٨)، (١٢) (١١)، (١٣) (٩)، (١٤) (٨)، (١٥) (٦)، (١٦) (٣)، (١٧) (٨)، (١٨) (١)، (١٩) (١)، (٢٠) (٢)، (٢١) (١)، (٢٢) (١)، (٢٣) (١٦)، (٢٤) (١٤)، (٢٥) (٦)، (٢٦) (٤١)، (٢٧) (٣٨)، (٢٨) (٢٢)، (٢٩) (٥)،(٣٠) (٥)، (٣١) (٦)، (٣٢) (٩)، (٣٣) (١٩)، (٣٤) (٢)، (٣٥) (١١٦٤).

روعته وهيبته، وأن سامعه لا يمجُّه، وتيسير حفظه؛ كلها أمورٌ نفسية لا إعجاز فيها، والحقيقة والمجاز، والتشبيهات والاستعارات، والكناية والتعريض، والإيجاز والإطناب، والبلاغة، والخبر والإنشاء كلها من أساليب البلاغة العربية التي وضعها البلغاء، وأقسام الكلام، وأنواع البراهين والأدلة، وضرب الأمثال، والآيات الجامعة للرجاء والخوف، والآيات المبهمة، واحتواؤه على أسماء الأشياء، والألفاظ المشتركة، كلها علوم وضعها علماء القرآن، وأخضعوها لقوانين البلاغة أو المنطق. فأين الإعجاز على وجه الخصوص؟ وإذا كان كل شيء معجزًا فلا شيء معجز؛ إذ يستوي الكل ولا شيء. وكيف يكون كل شيء فيه معجزًا ولا يكون للإنسان أي دور في حفظه وروايته وقراءته وكتابته وفهمه وتفسيره؟ أصبح مفهوم الإعجاز فضفاضًا يضمُّ كل شيء ولا شيء.

والوجه الخامس والثلاثون مجرد شرح لألفاظ القرآن طبقًا لترتيب الحروف الأبجدية. فأين الإعجاز؟ والحروف الأبجدية تصنيفٌ عرضي غير دالٍّ مثل الأرقام المتوالية. وبعض الحروف مثل الكاف بها تنبيه ومسألة وفائدة.[٢٣٩] وكذلك اللام بها فائدة وتنبيه ونكتة ووصل وتذنيب وإعلام.[٢٤٠] تضخم الوجه الخامس والثلاثون لأنه مجرد شرح لألفاظ القرآن، تجميعًا من كتب المفسرين مثل القواميس والمعاجم. تناثرت الموضوعات وتفككت دون رابط بينها. وربما يكون هذا التجميع والرصد والحشد والنقل عن السابقين هو المقصود بعنوان «معترك الأقران»، والاعتماد على المفسرين واللغويين، نحاةً وبلاغيين يجعل القرآن قابلًا لأن يوضع في أي علم، ويخضع لقوانين مثل قوانين النحو وأساليب البلاغة. وتظهر بعض موضوعات علوم القرآن من خلال النقل للمفسرين مثل أسباب النزول.[٢٤١] ويختلف تفسير الألفاظ كمًّا بين الطول والقصر، والغالب هو القصر.

ويستمد المؤلف مادته من كتب التفسير.[٢٤٢] ويقتبس نصوصًا من السابقين. ويعتمد على الشعر الذي يخضع هو الآخر لقواعد البلاغة العربية.[٢٤٣] ويقسم وجه الإعجاز إلى

---

[٢٣٩] السابق، ج٢، ٢٢٦–٢٥١.

[٢٤٠] السابق، ج٢، ٢٥٢–٢٩٩.

[٢٤١] السابق، ج٢، ٣٨٧، ٦١٦.

[٢٤٢] السابق، ص٩٨، ٢٩٢-٢٩٣.

[٢٤٣] السابق، ج١، ١٩، ٤٤، ٦٣، ١١٥، ١١٧، ٢٧٧، ٣١٢؛ ج٢، ١٧، ٣٦، ٧٦، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٩٥، ٣٤٦، ٣٧٠، ٣٨٨، ٤٧١، ٥١٠، ٥١١؛ ج٣، ١٥، ٩٥، ١٠٥، ١٧٧، ١٩٤، ٢٢٥، ٢٧٠–٢٧١، ٣٠١، ٣٠٤، ٣١٨، ٣٢٤، ٤٧٣، ٤٩٨.

قاعدة وتنبيه وفصل وفرع. كما يعتمد على الحديث ولكن بصورةٍ أقل. وبعضها ضعيف مثل تلك التي تتدخل فيها الملائكة ويتحدث فيها الله، مثل الأحاديث القدسية التي تغرق في الخيال والإخراج المسرحي لمزيد من التأثير. ويظهر في رواياتها وصياغتها التوجهات السياسية مثل حديث القدرية مجوس هذه الأمة.[٢٤٤] وأحيانًا يتم الاعتماد على الحديث وحده في التفسير.[٢٤٥] وكثير منها معلومات خارج موضوع الإعجاز مثل أسماء السور، مجرد تجميع لمعلوماتٍ قديمة.[٢٤٦] ربما أراد المؤلف إعطاء غطاءٍ نظري خلا الكتاب منه في المقدمة تحت عنوان «أقوال كلية محتوية على ألفاظٍ قرآنية».[٢٤٧] تعطي المعية الزمانية بعد التوالي الزماني.[٢٤٨] وتضم عدة فصول منها «قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها» مثل قاعدة الضمير، وهي قاعدةٌ لغوية، والتعريف، والتذكير.[٢٤٩] هل هي محاولة لوضع منهج في التفسير؟

(٥) «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» لمصطفى صادق الرافعي (٨١٩هـ)[٢٥٠]

ويستمر موضوع إعجاز القرآن عبر مراحل التاريخ من الماضي حتى العصر الحاضر. وهما موضوعان مستقلان؛ الأول «إعجاز القرآن» وهو جزء من تاريخ آداب العرب (ثلاثة أجزاء). والثاني دراسةٌ ملحقة بالأولى وتدل على استمرار بلاغة القرآن إلى بلاغة الحديث. فقد أوتي الرسول جوامع الكلم، وهو أفصح فصحاء العرب؛ فالبلاغة تنسب إلى النبي وليس إلى اللغة العربية، وكأنها مستقلة عنها. فالإعجاز ليس فقط في القرآن بل أيضًا في الحديث.

والأسلوب أدبيٌّ أخلاقي مثل كتب السيرة المعاصرة «على هامش السيرة» لطه حسين و«حياة محمد» و«في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل. لا فرق بينه وبين «تحت راية القرآن». ولا يخلو من منهج الدفاع والتفريط ضد اتهامات المستشرقين بالرغم من اتباع

---

[٢٤٤] السابق، ج٣، ١٦، ٢٧، ١٤٩.

[٢٤٥] السابق، ج٣، ٥٠١.

[٢٤٦] السابق، ج٣، ١٩٧–٢٠٠.

[٢٤٧] السابق، ج٣، ٤٥٢–٤٦٢.

[٢٤٨] المعية الزمانية Synchronic، التوالي الزماني Diachronic.

[٢٤٩] السابق، ج٣، ٤٦٣–٤٧٢.

التاريخ الميلادي بين الحين والآخر بدلًا من الهجري. ويستعمل أسلوب المقال الأدبي وليس البحث العلمي. فالمؤلف أديب. ومعظم أعماله في الأدب والبلاغة. والموضوع لغوي. يعتمد على تحليل التجارب الإنسانية أكثر من الاعتماد على الحجج النقلية، القرآن أو الشعر.[٢٥١] لذلك لا تُنقل أقوال القدماء. وقد تُستعمل الآية كأدب. فاللغة والقرآن، كلاهما يعودان إلى الفطرة. وفي الإشارة إلى القدماء، يميز بين القدماء والمحدثين إحساسًا بالتطور.[٢٥٢] ويشير إلى بعض الفرق الكلامية القديمة مثل المعتزلة.[٢٥٣] والفصول أقل لصالح تجميع الموضوعات.[٢٥٤]

ويقدم للكتاب ثلاثة كتاب من التيارات الفكرية الثلاثة الرئيسية الإصلاحي (رشيد رضا)، والليبرالي (سعد زغلول)، والعلمي العلماني (يعقوب صروف).[٢٥٥]

ويخلو الكتاب من أي موقف. بل هو أقرب إلى الدراسات الموضوعية العارضة الحديثة المعتمدة على المصادر والمراجع والتي لا تظهر في الغالب في الهامش كالعادة بل في صلب الصفحة مع اقتباساتٍ مباشرة مع التنبيه عليها بلفظ «انتهى» أو بالحرفين «أهـ» أو تلخيص غير مباشر لمضمونها وأحيانًا أخرى لا يشار. يحلل الكتب كموضوعات في ذاتها.[٢٥٦] وتُشرح الألفاظ في الهامش مساعدة للقارئ، وتتم المقارنة مع الوافد الغربي سواء الكتب المقدسة مثل التوراة والإنجيل دون تقديرٍ كافٍ لهما بمناسبة شبهة التحريف، أو أعلام الأدب والفلسفة الغربية أو القواد مثل نابليون. ويميل إلى علم اللسانيات النفسي والمنطق.[٢٥٧] والإعجاز ليس بلاغيًّا فقط بل هو تشريعي أيضًا. بل يمتد الإعجاز الأدبي إلى الإعجاز العلمي السائد في هذا العصر.[٢٥٨]

---

[٢٥٠] مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١. ٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ.

[٢٥١] استعمل الشعر خمس مرات (السابق، ص١٤٣، ١٠٣، ٢٠١، ٢١٢، ٢١٦) والقرآن والحديث مراتٍ عديدة.

[٢٥٢] السابق، ص٨٤.

[٢٥٣] السابق، ص١٠١.

[٢٥٤] خمسة في إعجاز القرآن، واثنان في البلاغة النبوية.

[٢٥٥] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٥، ١٢–١٧.

[٢٥٦] السابق، ص٢١٩.

[٢٥٧] الفلاسفة الغربيون، السابق، ص٧٣، ٧٥–٧٦، ٧٨، الأدب الفرنسي، ص٦٧، نابليون ٦٩.

[٢٥٨] السابق، ص١٨٤–١٨٧.

(ب) وجوه الإعجاز

والتعرف على أسرار البلاغة في القرآن وردُّها إلى فنون البلاغة العربية هو محاولة لفهم أسرار الإعجاز. والتناقض هو إذا كان القرآن يسير وفقًا لأساليب البلاغة العربية فما الإعجاز؟

والإعجاز غير المعجزة.[٢٥٩] المعجزة السابقة خرق لقوانين الطبيعة التي يعرفها الإنسان. فإذا ما ازدادت معرفته بها عرف أن كل حادثة تقع طبقًا لها. ولا شيء بمعجز في الطبيعة. كانت مهمتها قديمًا إثارة الخيال واسترعاء الانتباه وإدخال الناس في الإيمان.[٢٦٠] ونجحت للأقلية، البقية الصالحة دون الأغلبية. ولما أتت أكبر معجزة؛ المسيح، بولادته وحياته ومعجزاته ورفعه إلى السماء ولم يؤمن بنو إسرائيل وظلوا على ماديتهم؛ تغير طريق الوحي إلى العرب، وتحوَّلت المعجزة إلى إعجاز، والدليل الحسي إلى دليلٍ عقلي. ففي آخر مرحلة من تطور الوحي أصبح العقل قادرًا على الفهم، والإرادة قادرةً على الاختيار، ولم يعد في حاجة إلى معجزةٍ حسية تخلب اللب، وتثير الخيال، بل إلى إعجاز يتحدى العقل والإرادة. المعجزة الحسية توقفت والمعجزة العقلية مستمرة إلى يوم الدين.[٢٦١]

ليس الإعجاز في كلام الله كصفة للذات بل في الوحي بعد أن تمت صياغته باللغة العربية في الزمان والمكان، ولدى شعبٍ معين، وفي ثقافةٍ محدودة. فلا يجوز التحدي بشيءٍ غير معلوم.[٢٦٢]

---

[٢٥٩] الإتقان، ج٤، ٣–٢٣؛ البرهان، ج٢، ٩٠–١٢٤. ألَّف فيه الخطابي، والرماني، والزملكاني، والرازي، وابن سراقة، والباقلاني، وعزيزي.

[٢٦٠] اعلم أن المعجزة أمرٌ خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضين. وهي إما حسية وإما عقلية. وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبَلادَتهم وقلَّة بصيرتهم. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصَّت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر كما قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا» (السابق، ص٣).

[٢٦١] «إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشهدها إلا من حضرها. ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة. وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته …» (السابق، ص٣).

[٢٦٢] السابق، ج٢، ٩٣.

ليس الإعجاز بتحدي العرب بالكلام القديم الذي هو صفة للذات. فقد خرج هذا الكلام من العلم الإلهي، وتم تدوينه في اللوح المحفوظ المخلوق، ولم يعد قديمًا. ثم خرج من اللوح المحفوظ إلى ذهن جبريل المخلوق، فلم يعد قديمًا مرةً ثانية. ثم خرج من ذهن جبريل على لسانه باللغة العربية إلى محمد المخلوق، فلم يعد قديمًا للمرة الثالثة، ثم خرج من ذهن محمد على لسانه وبلغته للآخرين ومستوى فهمهم وثقافتهم فلم يعد قديمًا للمرة الرابعة.[٢٦٣] ويقوم الكلام بثلاثة أشياء: لفظٌ حاصل، ومعنًى قائم، ورباطٌ ناظم.[٢٦٤]

وينظر إلى الإعجاز من وجهين؛ الأول الإعجاز في نفسه، والإعجاز بصرف الدواعي عن معارضة. الأول داخلي، والثاني خارجي.[٢٦٥] ولا يعني الإعجاز الصرفة؛ لأن التحدي يتطلب الحرية. والصرف قيد منذ البداية، وتقييد الإنسان ومطالبته بالسير. فالصرفة تعني زوال الإعجاز بانقضاء زمن التحدي. وقد انقضى الزمن، والتحدي ما زال موجودًا.[٢٦٦]

الإعجاز مقولةٌ إنسانية للإنس وليس لموجوداتٍ أخرى متعالية على الحس وهو ما يسمى الجن.[٢٦٧] وشروطه العلم باللغة العربية والذوق العربي والفطرة العربية السليمة.[٢٦٨]

والإعجاز صفة للوحي في آخر مرحلة في تطوره خلال مراحل النبوة وتدوين الوحي في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى وكل ما يذكره القرآن. إذ لم تدون هذه الكتب في لحظة إعلانها. ولم تُحفظ بألفاظها بل بمعانيها. فهي أشبه بالتواتر المعنوي وليس بالتواتر اللفظي. والبعض منه لم يحتفظ بلغته الأصلية مثل الإنجيل. فقد تحدَّث المسيح بالآرامية. وفُقدت الأناجيل الآرامية. ولم تبقَ إلا الصيغ اليونانية (السبعينية)، ثم تُرجمت إلى اللاتينية (الفولجات)، ثم تُرجمت إلى باقي اللغات الأوروبية والشرقية.[٢٦٩]

ليس الإعجاز في الإخبار عن تاريخ الأولين من خلال القصص. فليس الوحي كتابًا في التاريخ. والتاريخ نفسه ليس معجزًا إذا ما توافرت الوثائق والحفريات. غاية القصص

---

[٢٦٣] الإتقان، ج٤، ٦، ١١.

[٢٦٤] السابق، ص١٣.

[٢٦٥] البرهان، ج٢، ٩٢.

[٢٦٦] الإتقان، ج٤، ٦–٧، ١١، ١٥؛ البرهان، ج٢، ٩٣–٩٥، ١٢٣ وهو قول النظام.

[٢٦٧] الإتقان، ج٤، ١٩؛ البرهان، ج٢، ١١١.

[٢٦٨] البرهان، ج٢، ١١١–١١٢، ١٢٣.

[٢٦٩] الإتقان، ج٤، ٢١.

هي العبرة بالتاريخ، وبلورة الوعي التاريخي للعرب والمسلمين، ومعرفة قوانين التاريخ، والوحي في تطوره في آخر مرحلة تمت صياغته بناءً على التجريب في الزمان التاريخي.[٢٧٠]

ولا يعني الإعجاز الغيبي التنبؤ بالمستقبل. فتلك كانت وظيفة النبي عند بني إسرائيل. وما زالت بقاياها مستمرة عند قدماء المفسرين. بل يعني معرفة قوانين التاريخ ابتداءً من التحققات الماضية والحاضرة وإمكانية استشراف المستقبل. والإخبار بقصص الأولين لإثبات تحقق قوانين التاريخ في الماضي، وتحويل الوحي إلى وعي بالتاريخ. والإخبار بالغيب عن أمور المعاد جزء من العقائد مثل النبوة، يمثل مسار التاريخ من الماضي إلى المستقبل، وتؤكده التجربة الإنسانية. فكل مقدمات لها نتائج، وكل عمل له جزاء، وكل سبب له نتيجة. وكل نقص له تعويض، وكل ظلم له يوم يسود فيه العدل، «لك يوم يا ظالم!»[٢٧١]

والإخبار عن الضمائر دون إظهارها ليس إعجازًا منفصلًا عن الإعجاز البلاغي.[٢٧٢] وقد انتبه القدماء إلى أن الإعجاز بلاغي لما في القرآن من نظم وتأليف وترصيف من أصناف البديع الموجودة في الشعر والحذق في البلاغة. وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من العيوب. هو التأليف الخاص وليس التأليف على الإطلاق، نظمه وصحة معانيه وفصاحة الألفاظ. وهي باقية بالرغم من تغير العصور وضعف التمكن من اللغة العربية وأساليب البلاغة وعلوم البيان جيلًا وراء جيل.[٢٧٣] الإعجاز في النظم المخصوص في مراتب تأليف الكلام.[٢٧٤] وهي خمس: ضم الحروف في كلمات، ثم ضم الكلمات في جمل، ثم ضم الجمل في مقاطع لها بدايات ونهايات، مداخل ومخارج وهو المنظوم، ثم تطابق آخر الجمل في السجع وهو المسجوع، ثم جُعل له وزن مثل الشعر وهو النظم أو الشكل الأدبي، المحاورة أو المخاطبة والمكاتبة أي الرسالة. وجه الإعجاز هو الإيجاز مع البلاغة، والرصف مع النظم، والتفرد كجنس في كلام العرب من نظم ونثر وخطب وشعر.[٢٧٥] وجه الإعجاز في التأليف الخاص وليس مطلق التأليف.[٢٧٦] وهو إعجازٌ

---

[٢٧٠] البرهان، ج٢، ٩٦.

[٢٧١] الإتقان، ج٤، ٧، ١٥-١٦؛ البرهان، ج٢، ٩٥.

[٢٧٢] البرهان، ج٢، ٩٦.

[٢٧٣] الإتقان، ج٤، ٨، ١٦؛ البرهان، ج٢، ٩٧-١٠٠.

[٢٧٤] السابق، ص١٠-١١.

[٢٧٥] السابق، ١٤.

[٢٧٦] البرهان، ج٢، ٩٥.

دائم غير محدد بفترةٍ زمنيةٍ محددة.[٢٧٧] ويكون الإعجاز في اللفظ والمعنى والملاءمة.[٢٧٨] الألفاظ بالنقل، والمعاني بالعقل.

والتحدي ليس فقط بلاغيًّا أسلوبيًّا أدبيًّا بل هو أيضًا تحدٍّ تشريعي في العلوم الإنسانية. فلا يوجد حكمٌ شرعي إلا ويطابق التجربة البشرية الفردية والجماعية. يجمع بين المثالية والواقعية، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن، بين القيم الإنسانية العامة والخصوصيات الثقافية، بين العزائم والرخص. ركز القدماء على الإعجاز البلاغي لأن العصر كان عصر لغة. في حين ينتبه المحدثون إلى الإعجاز التشريعي الإنساني لأن العصر عصر العلوم الإنسانية. وهو ما يسمى بالإعجاز العلمي. ليس بمعنى العلوم الطبيعية كما هو سائد هذه الأيام، بل بمعنى احتوائه لعديد من العلوم الإنسانية كعلوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون.[٢٧٩]

وقد يكون الإعجاز في اختلاف المقامات وفي نفس الوقت وضع كل شيء في موضع يلائمه. وهو تعدد وتوحد في نفس الوقت مثل الموسيقى المتعددة الأصوات «البوليفونية» التي تجمع بين التقابل الصوتي «الكونترابونت» والانسجام «الهارموني». والأمثلة في القرآن على ذلك كثيرة.[٢٨٠]

ويشتمل القرآن على أعلى أنواع الإعجاز.[٢٨١] وهو التركيب القائم على النسبة والاعتدال في إفادة المعنى. وتتفاوت مراتب الفصاحة. فالقرآن هو الأفصح والأصلح والأرشق والأجلى والأعلى.

وقد يكون الإعجاز بكل الوجوه السابقة. فالإعجاز مقصد، ومداخله متعددة.[٢٨٢] والقرآن معجز كله وليس كمًّا. وليس الإعجاز في السور الطوال وحدها دون القصار بل إن القصار قد تكون أبلغ من الطوال، صحيح أن التحدي وقع بجزء أو بسورةٍ منه، فالعاجز عن القليل عاجز عن الكثير.[٢٨٣]

---

[٢٧٧] السابق، ج٢، ١٠٥.

[٢٧٨] السابق، ج٢، ١٧٤–١٧٥.

[٢٧٩] من العقيدة إلى الثورة، ج٤، النبوة والمعاد، ص٢٠١–٢٠٤.

[٢٨٠] البرهان، ج٢، ١١٨–١٢٠.

[٢٨١] السابق، ج٢، ١٢١–١٢٣.

[٢٨٢] السابق، ج٢، ١٠٦–١٠٧.

[٢٨٣] الإتقان، ج٤، ١٧–١٨، ٢٣؛ البرهان، ج٢، ١٠٨–١١١.

وقد يدرَك الإعجاز ولا يمكن وصفه. يُدرك بالفطرة السليمة وبالأثر المباشر في النفس.[٢٨٤] يُدرَك بالذوق وليس بالتحليل العقلي لأساليب البلاغة وعلوم البيان والبديع. هو صنيعة في القلوب وتأثير في النفوس، لذة وحلاوة، وروعة ومهابة.[٢٨٥] لذلك يُعلم الإعجاز بالإحساس والشعور والوجدان وليس بالاستدلال العقلي والتحليل اللغوي أي عن طريق علوم القرآن، وقد لا يمكن التعبير عنه.[٢٨٦]

والقرآن فن من القول لا يدركه إدراكًا مباشرًا إلا ذوو الفطر السليمة أو الشعراء. فقد أتى ليرث الشعر والقول الشعري.[٢٨٧] الفرق عمليٌّ صرف، في تحول القرآن إلى عمل، وإقامة العمل على الأخلاق. في حين أن الشعر خيال، والخيال لا حدود له. وهو معنى الآية الشهيرة ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. ومع ذلك يلتقي الوحي والشعر إذا ما ارتبط بعض الشعراء بالأخلاق ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. كلاهما يتبع صناعة الإيقاع وصناعة العروض. كلاهما يلتقي في موسيقى القرآن. والإيقاع ليس من فنون الملاهي بل هو إيقاع النفس. كتب فيه إخوان الصفا «رسالة الموسيقى»، تجمع بين الذوق والرياضيات والإحساس النفسي كما هو الحال في تصور القدماء للموسيقى عند الفارابي وغيره.[٢٨٨] وكان الرسول إذا أَنشد شيئًا موزونًا على إيقاعٍ معين غيَّره. فالشعر والوحي يقومان على نفس الذوق.

وتنزيه القرآن عن أن يكون شعرًا، والنبي عن أن يكون شاعرًا، رغبةٌ طبيعية في إعلاء القرآن على حساب الشعر، والنبي على حساب الشاعر، تأكيدًا على الانفصال بين الماضي والحاضر، بين الجاهلية والإسلام، بين الأصالة والمعاصرة، وهو غير طريق الوحي الذي يؤكد على التواصل بين الماضي والحاضر، بين مراحل الوحي السابقة والمرحلة الأخيرة، بين اليهودية والمسيحية من ناحية والإسلام من ناحيةٍ أخرى.[٢٨٩] والفصل بين الوحي والشعر

---

[٢٨٤] الإتقان، ج٤، ١٢، ١٤، ١٦–١٧؛ البرهان، ج٢، ١٢٤.

[٢٨٥] «قارئه لا يكلُّ، وسامعه لا يملُّ وإن تكررت عليه تلاوته» (السابق، ص١٥؛ البرهان، ج٢، ١٠١–١٠٢).

[٢٨٦] السابق، ص١٨؛ البرهان، ج٢، ١٠٠–١٠٦.

[٢٨٧] السابق، ج٢، ١١٢–١١٣.

[٢٨٨] يُروى عن الرسول قوله «لستُ من دَدٍ، ولا ددٌ مني.» ويعني الإيقاع.

[٢٨٩] البرهان، ج٢، ١١٣–١١٧.

هو فصل بين المحمول والحامل، بين النفس والبدن، بين المثال والواقع. ولا يعني ذلك إدخال القرآن في الشعر في صياغةٍ واحدة. حينئذٍ يبدو الشعر ركيكًا، ولا يبدو القرآن شعرًا.[٢٩٠] بل يعني أن كليهما يقومان على الروح الشعرية.[٢٩١]

[٢٩٠]

وقلت لما حاولوا سلوتي	(هيهات هيهات لما توعدون)
أو: وفتية في مجلس وجوههم	ريحانهم، قد عدموا التثقيلا
دانية عليهم ظلالها	(وَذللت لهم قطوفها تذليلًا)

السابق، ص١١٤.

[٢٩١] وهو الفرق عند المحدثين بين الشعر Poetry والشعرية Poetics.

الفصل الثالث

التفسير

(١) التفسير وعلوم القرآن

(أ) علوم القرآن والتفسير

وبعد أن ثبت القرآن تدوينًا وقراءة أصبح منطق النقل الشفاهي وعلم القراءات ومنطق النقل الكتابي من العلوم القديمة التي أدت غايتها. ولن يتقدم أحد بإعادة النظر في نتائجها وتقديم قراءةٍ شفاهيةٍ جديدة أو نقلًا كتابيًّا جديدًا. ما يبقى إذن هو علم التفسير الذي يتطور بتطور كل عصر. ما يمكن هو التفسير أي فهم النص، والفهم مرتبط بظروف المعرفة في كل عصر.

بعد الألفاظ والمعاني وأساليب البلاغة يأتي التفسير وهو ضم اللفظ والمعنى في الذهن، والتحول من المنظوم والمفهوم إلى المعقول بلغة الأصوليين.[١]

ونظرًا لشدة الارتباط بين علوم القرآن وعلم التفسير كان «الإتقان» كان في الأصل مقدمة لتفسير السيوطي، «مجمع البحرَين ومطلع البدرَين» كما كان علم أصول الفقه مقدمة لبعض كتب الفقه. وصنَّف كتابًا آخر «التحبير في علوم التفسير».[٢] وهو أقرب إلى التفسير بالمأثور منه إلى التفسير بالمعقول.

---

[١] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٢٤٧–٤٤١.

[٢] الإتقان، ج١، ٦–٨.

(ب) التأليف في الموضوع

(أ) «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (٢٧٦هـ)[٣]

يعرض للحامل اللغوي، النحو والبلاغة، دفاعًا عن القرآن العربي مثل «تنزيه القرآن عن المطاعن» للقاضي عبد الجبار. ويركز على مباحث الألفاظ، الحروف والأفعال. يتكون من خمسة عشر بابًا. العشرة الأولى مجملة في النحو والبلاغة وخصوصية العرب في البيان والمجاز والاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار والكناية والتعريض، والرد على وجوه القراءات، والتناقض والاختلاف والمتشابه.[٤] وأكبر الفصول تأويل الحروف التي ادُّعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم. وتعرض الحروف في سورةٍ سورة وآيةٍ آية.[٥] وتعرض الألفاظ طبقًا لجدل اللفظ والمعنى، لفظٌ واحد، ومعاييرُ متعددة. ويضرب المثل بأربعة وأربعين لفظًا.[٦] وهناك حروف مثل الأفعال لا تنصرف.[٧] وتدخل حروف الصفات مكان بعض.[٨] ويفسِّر القرآن بالقرآن، والقرآن بالحديث، والقرآن بالشعر والأزجال والأمثال العربية وعادات العرب في الكلام وهو الأكثر. والشعر يتجاوز قسمة التاريخ إلى عصرَين؛ جاهلي وإسلامي. والاستشهاد بالشعر الجاهلي أكثر طبقًا للقول المأثور «عليكم بديوان جاهليتكم ففيه تفسير كتابكم.» وقد يُحال إلى طرق فهم التوراة والإنجيل وتفسيرها. فالموضوع اللغوي والبلاغي يقود إلى التفسير.[٩] وقد يختلف كل عصر عن العصر السابق في إحساساته بالآية لغويًّا وبلاغيًّا عند القدماء، واجتماعيًّا وسياسيًّا عند المحدثين مثل تفسير آية ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾.[١٠]

---

[٣] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: تأويل مشكل القرآن، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

[٤] السابق، ص١٧–١٨١.

[٥] السابق، ص١٨٢–٢٤٦.

[٦] السابق، ص٢٧٨–٢٩٧.

[٧] السابق، ص٢٩٨–٣٠٩.

[٨] أمثال العرب، السابق، ص٦١–١٤١، ١٦٧، ٢٥٨؛ عادة العرب، السابق، ص٦٩، ٨٦، ٨٨، ٩٣، ٩٧، ٩٩، ١٠٣، ١١٣، ١٣٠، ١٤٢، ١٧٨، ١٨٠، ٢٧١، ٣٠٠، ٣٠٦.

[٩] السابق، ص٦٩-٧٠.

[١٠] السابق، ص١٥.

(ب) «تنزيه القرآن عن المطاعن» للقاضي عبد الجبار (٤١٥هـ)

وهو مؤلَّف بين علم الكلام وعلوم القرآن. يتم فيه الدفاع عن القرآن وتبرئته عن المطاعن؛ وهي التناقض بين الآيات في العقائد أو الشرائع، بين التشبيه والتنزيه، بين الرحمة والعدل، بين الكسب وخلق الأفعال، بين الإيمان والعمل. وعلى هذا النحو هو أقرب إلى علم الكلام منه إلى علوم القرآن، لأنه يتعامل مع الموضوع وليس مع النص، مع المحمول وليس مع الحامل. لا تهمُّه الصحة التاريخية في القراءة والتدوين بل التفسير والتأويل. لذلك يدخل أيضًا في موضوع التفسير. وهو أحد جوانب علوم القرآن قبل أن يستقلَّ بنفسه ويصبح علمًا. وهو أيضًا أحد أبواب علوم القرآن في الآيات المبهمات. ويفسر القرآن بالقرآن. ونادرًا ما يذكر الحديث أو الشعر. كُتب بطريقة المسألة والرد عليها، وليس له تبويبٌ نظريٌّ مستقل توضع فيه هذه المطاعن بل تُستعرض سورةً سورة، وآيةً آية، من الفاتحة والبقرة حتى المعوذتَين. وتكثر المسائل في السور الطوال. ويقل العدد في السور الصغار. دون تبويبٍ موضوعيٍّ عرضي للمطاعن يخترق السور.[١١] وهو من آثار كتب التفسير التي تتبع المنهج الطولي وليس المنهج العرضي، المنهج النصي وليس المنهج الموضوعي.[١٢]

هو نوع من الدفاع عن القرآن أسوة بمنهج الجدل عند المتكلمين، الذبِّ عن الإسلام ودحض أباطيل خصومه. فهو بين علم الكلام وعلوم القرآن، وإن كان إلى علم الكلام أقرب. ولفظ «تنزيه» لفظٌ اعتزالي. تنزيه القرآن عن المطاعن مثل تنزيه الله عن التجسيم والتشبيه. ولا فرق بين المعتزلة والأشاعرة في الدفاع؛ فكلهم متكلمون.

والمطاعن في العقائد والمعاني وليس في النصوص والصحة التاريخية، في الرواية والجمع والقراءة والتدوين. وقد كُتب بطريق السؤال والجواب، المسألة والرد عليها دون ترقيم للمسائل بطريقة «قيل»، «قالوا». وهو أقرب إلى التفسير، تفسير القرآن بالقرآن. وتفسير القرآن بالحديث أو الشعر لا يأتي إلا نادرًا، والكتاب خالٍ من التبويب. ويقتصر على ذكر المطاعن سورةً سورة، وآيةً آية كما هو الحال في التفسير الطولي. وفي حاجة إلى إعادة تبويب طبقًا لموضوعات المطاعن كما هو الحال في التفسير العرضي أو الموضوعي للقرآن. لذلك وقع في الجزئيات دون الكليات، وفي الرد المتناثر دون تجميع مجموع الردود

---

[١١] أكثر المسائل في البركة (٩٢)، وفي الناس (١).

[١٢] Method of The thematic interpretation, Islam in the modern world, I, pp 484–509.

في أصولٍ عامة حتى لا تتكرر. لذلك سادت الرتابة، وتكرار النمط، والسير الحثيث وراء كل سورة وآية دون استدراك، عودًا على بدء.[١٣]

(جـ) «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي (٤٢٠هـ)[١٤]

وهو عرض لقضية الآيات المتشابهات كما يوحي بذلك العنوان الفرعي أو لموضوع التكرار في القرآن، أحد موضوعات علوم القرآن.[١٥] التنزيل متشابه ومتكرر، في حاجة إلى فهم وتأويل لدرء التشابه والتكرار. وهو أقرب إلى تفسير المعاني مثل «تنزيه القرآن عن المطاعن» للقاضي عبد الجبار (٤١٥هـ). يجمع بين آيتَين متشابهتَين أو أكثر بعد ذكر أول آية لرفع التناقض بين الآيات، خاصة إذا تشابهت لفظًا وعبارة لدرجة التكرار دون أي تفرد في الصياغة أو في ظلال المعنى. وهو قريب من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لتجميع الآيات المتشابهة حول موضوعٍ واحد.

وقد يكون التكرار ظاهريًّا ولكنه في الحقيقة ليس تطابقًا كاملًا في الألفاظ أو في المعاني. إذ تتعدد الصياغات اللغوية لمنع الرتابة والتكرار الكمي. ولكل صيغة ظلال من المعنى للتركيز عليه والإيحاء به. وتختلف طبائع الناس، وتحتاج إلى مؤثراتٍ لفظيةٍ متعددة طبقًا لتأثير كلٍّ منها. كما أنها تسمح بحرية الفهم والتعددية في اقتناص المعاني.

ويخلو الكتاب من التبويب الموضوعي إلى فصول. بل يتم استعراض الآيات المتشابهة سورة وراء سورة، وآية بعد آية طبقًا لترتيب المصحف وليس أسباب النزول. وهو امتداد لمنهج التفسير الطولي عند الطبري وابن كثير والزمخشري. ويختلف عدد الآيات المتشابهة في كل سورة طبقًا لطولها وقصرها مع بعض الاستثناءات.[١٦] وهناك سورٌ تخلو من الآيات

---

[١٣] قاضي القضاة عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد (إملاء): تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة.

[١٤] السابق، ص٥٣٦.

[١٥] الخطيب الإسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل، في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز برواية أبي الفرج الأردستاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

[١٦] الأعراف (٢٩)، البقرة (٢٣)، الأنعام (١٩)، هود (١١)، العنكبوت (٩)، النحل (٨)، آل عمران، المائدة، براءة (٧)، الكهف، الأنبياء، فصلت (٦)، النساء، الحج، المؤمنون، الزمر (٥)، يونس، يوسف، الشعراء، الروم (٤)، السجدة، الصافات، الشورى، الزخرف، الفتح (٣)، الأنفال، الحجر، الإسراء، مريم، النور،

المتشابهة مثل بعض السور القصار لأنه لا توجد مساحةٌ تعبيرية للتكرار. كما أن وضوح المعنى وتركيزه وتوجيهه إلى الذهن والشعور والعمل لا يحتاج إلى شرح أو إسهاب أو تعدديةٍ نظرية.[١٧] كما يتم التخفيف. ويفسر القرآن بالقرآن أولًا. القرآن يفسر بعضه، ثم يعتمد على الشعر ثانيًا.[١٨] ويقل الحديث للغاية لدرجة الغياب المطلق. والسؤال هو: إذا كانت هذه مشاكل القدماء؛ حل المتشابهات وفهم التكرار ورفع المتناقضات، فإن مشاكلنا فهم الواقع والدخول في تناقضاته.

(د) «مسائل منثورة في التفسير والعربية والمعاني» لابن بري (٥٨٢هـ)[١٩]

وهي كما يدل العنوان مجرد مسائلَ منثورة تتضمن إجاباتٍ لغوية ونحوية. تدور كلها حول الإعراب والقراءات. تخلو من أي تحليلاتٍ نظرية في المقدمة أو الخاتمة. ويتضح عدم بروز موضوع التفسير كموضوعٍ مستقل داخل علوم القرآن نظرًا لارتباطه بالقراءات والتدوين.[٢٠]

(هـ) «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل» لابن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ)[٢١]

بالرغم من أن التفسير هو الموضوع الآخر في علوم القرآن في الحوامل الذاتية بعد اللفظ والمعنى وأساليب البلاغة إلا أنه أصبح موضوعًا مستقلًّا بعد ذلك في التفاسير الطولية

الفرقان، النمل، القصص، سبأ، يس، ص، ق، الذاريات، الرحمن، الحشر، التغابن، المدثر، القيامة، النبأ، التكوير، المطففين الانشقاق، البلد (٢)، الرعد، إبراهيم، لقمان، فاطر، الطور، القمر، الواقعة، المجادلة، الممتحنة، الصف، المنافقون، الطلاق، الملك، القلم، الحاقة، المعارج، نوح، الإنسان، المرسلات، النازعات، الشرح، العلق، التكاثر، الكافرون، الناس (١).

[١٧] الأحزاب، الدخان، الأحقاف، محمد، الحجرات، الجمعة، التحريم، الجن، المزمل، عبس، الانفطار، الطارق إلى الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين.

[١٨] الأشعار (١٣).

[١٩] أربعة كتب في علوم القرآن، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ص١٣–٣١.

[٢٠] مسألة (٣٣)، سؤال (٦).

الكبرى التي تبدأ من الفاتحة حتى الناس. أما التفسير الجزئي لشرح الألفاظ فإنه أدخل في علوم القرآن. ويتضح من العنوان التحول من التفسير إلى التأويل أي من ضبط المعنى عن طريق شرح الألفاظ إلى تعدد المعنى عن طريق التأويل. كما تتضح بداية الدخول في المعارك الكلامية والدفاع عن العقيدة ضد الإلحاد والتعطيل وهو الاتهام الموجه إلى المعتزلة بإنكار الصفات. والسبب في ذلك تشابه الألفاظ في التنزيل. فالتفسير له جانبان: التأويل والتنزيل، الذات والموضوع.

وطريقة العرض السؤال والجواب، سورةً سورة، وبعض الآيات المختارة داخل كل سورة. تتضح فيها بداية الجدل. والاعتماد على الشعر النسق البلاغي الأول قبل القرآن.

(و) «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جُزي الكلبي (٧٤١هـ)[٢٢]

لم يعد التنزيل، يعني أسباب النزول بل «التفسير». وما زال موضوعًا من علوم القرآن كما تكشف عن ذلك المقدمة. فالغرض جمع أكبر قدرٍ ممكن من العلم في أقل حجم، وذكر بعض النكت العجيبة في الموضوع في هذا الوقت المتأخر، القرن الثامن، المولع بالغرائب، وإيضاح المشكلات وبيان المجملات، والتحقق من أقوال المفسرين، الصحيح منها والسقيم.[٢٣] وفي مقدمةٍ ثانية يتم التعرض إلى علوم القرآن من جديد؛ مما يدل على أن علوم التنزيل ما زالت جزءًا منها. فقد نزل القرآن على الرسول في مكة والمدينة. وتضمن معاني وعلومًا في العقائد والتشريعات والقصص وعلوم القرآن ذاتها. ووقع خلاف بين المفسرين. والبعض الآخر لم يشأ أن يدلي في القرآن برأيه. ويبرز الناسخ والمنسوخ باعتباره علمًا، وكذلك علم القراءة المشهورة والشاذة والوقف والابتداء، والفصاحة والبلاغة والبيان، وإعجاز القرآن وفضل القرآن، تعلمًا وتعليمًا.[٢٤] ثم تأتي مقدمةٌ ثانية في تفسير معنى

---

[٢١] الإمام أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ابن الزبير الثقفي الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه عبد الغني محمد على الفاسي (جزآن)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ.

[٢٢] الشيخ الإمام العلامة المفسر أبو القاسم محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم (جزآن)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

[٢٣] السابق، ص٣–٥.

[٢٤] السابق، ص٦–٢٠.

اللغات مرتبةً طبقًا للترتيب الأبجدي، أشبه بقاموس لشرح ألفاظ القرآن.[٢٥] ثم يبدأ بعد ذلك تفسير التنزيل، سورة سورة، وآية آية اعتمادًا على التفسيرات الكبرى السابقة.

(٢) التفسير والتأويل

التفسير هو البيان والكشف من السفر أي الضوء. هو كشف المغلق وإطلاق المحتبس، وفي الاصطلاح هو علم نزول الآية، صورتها وأقاصيصها، إشارتها وترتيبها، محكمها ومتشابهها، ناسخها ومنسوخها، خاصها وعامها، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفسر طبقًا لمباحث الألفاظ. وقد يزداد الحلال والحرام، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، والعبر والأمثال.[٢٦]

هل المعنى هو القصد والمراد أم الشيء؟ قد يجمع القصد بين الاثنين.[٢٧] أعني تعني أقصد. وهو مشتق من الإظهار مثل عنوان الكتاب أو عنت القربة إذا أظهرت الماء، وعنت الأرض أي أنبتت؛ لذلك فسر البعض معاني القرآن.[٢٨]

وهناك ثلاثة دوافع وراء الحاجة إلى التفسير.[٢٩] الأول كمال فضيلة الصنف فإنه لقوَّته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز. والثاني إغفال بعض تتمات المسائل أو شروطها، ويحتاج الشارح لبيان المحذوف. والثالث احتمال اللفظ لمعانٍ مثل المجاز والإشراك ودلالة الالتزام فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف وترجيحه. والتفسير علمٌ شريف من ثلاث جهات: الموضوع وهو الوحي كلام الله، والغاية، والفرض أو شدة الحاجة.[٣٠]

والتفسير أعم من التأويل. التفسير للألفاظ، والتأويل للمعاني، والرؤيا التفسير لكل النصوص. التأويل خاص بالكتب المقدسة. والتفسير لغريب الألفاظ. والتأويل قد يكون لمألوفها. التفسير للألفاظ، والتأويل للمعاني. التفسير يتعلق بنطق الألفاظ، والتأويل

---

[٢٥] السابق، ص٢١–٣٩.

[٢٦] البرهان، ج٢، ١٤٨–٥٢.

[٢٧] السابق، ج٢، ١٤٦.

[٢٨] مثل الزجاج في «معاني القرآن» والواحدي والفراء وابن الأنباري (السابق ج٢، ١٤٦–١٤٧).

[٢٩] الإتقان، ج٤، ١٧٠–١٧١.

[٣٠] السابق، ج٤، ١٧١–١٧٣.

بالمعاني، والفهم للأشياء بناءً على مستويات اللغة الثلاثة: اللفظ والمعنى والشيء.[٣١] التفسير بيان لفظ له احتمالٌ واحد، والتأويل لفظ له معانٍ مختلفة طبقًا للأدلة، صرف الآية إلى معنًى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية ومتفق مع الكتاب والسنة عن طريق الاستنباط. التفسير للظاهر، والتأويل للباطن. التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل وردُّ أحد الاحتمالَين إلى ما يطابق الظاهر. التفسير يتعلق بالدراية، والتأويل بالدارين. التفسير مقصور على الاتباع والسماع، والتأويل مقصور على الاستنباط والاجتهاد.[٣٢]

التأويل من «أول» أي الرجوع إلى المصدر الأول. وقد يعني النقيض أي المآل والمصير والذهاب إلى الآخر. وقد يكون من الأيالة أي السياسة، سياسة الكلام وتوضيح معانيه.[٣٣] والتأويل نوعان: منقاد ومستكره.[٣٤] الأول ما لا تقع فيه بشاعة أو يحدث فيه استقباح. وقد يقع فيه خلاف بين الأئمة إما لاشتراك اللفظ أو لأمرٍ راجع إلى النظم أو الغموض المعنى، والثاني هو البشع إما لتخصيص لفظ أو لتلفيق بين اثنين أو ما يحدث فيه من استعارة أو اشتقاق بعيد. ولا يوجد تأويلٌ مخالف أو متفق مع الشرع محظور أو مباح، عالم أو جاهل بل التأويل مطابقة معنى النص مع تجربةٍ ذاتية للفرد أو الجماعة. فالخلاف في مدى اتساع التجربة الذاتية وصدقها فردية أو مشتركة، مصلحةٌ خاصة أم مصالحُ عامة.[٣٥]

(٣) الأدوات، والأسماء، والأفعال، والأزمان

(أ) الأدوات

والمفردات من الأدوات والبحث عن معاني الحروف مما يحتاج إليه المفسر لاختلاف مدلولها.[٣٦] وهي أمورٌ تفصيلية، حوالي مائة أداة في حاجة إلى إعادة تصنيف وتجميع. مثال ذلك استعمال «على»، و«في».[٣٧]

و«معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر» من حروف وأسماء وأفعال والظروف بين الألفاظ لأنها كذلك، والمعاني لأنها تفيد معنًى، والتفسير لأنها تساعد المفسر على

---

[٣١] الإتقان، ج٤، ١٦٧–١٧٣؛ البرهان، ج٢، ١٤٦–٢١٦.

[٣٢] من النقل إلى الإبداع، مج١، النقل ج٣، الشرح، ص٩–٣٢، تأويل الظاهريات، ص١٤٥–١٦٣.

[٣٣] البرهان، ج٢، ١٤٨-١٤٩.

ضبط المعاني.[38] وهي من أكبر الأنواع حجمًا مما يدل على أهميتها. وتدخل أيضًا في الأسلوب والنواحي البلاغية. ويذكر منها مائة وعشر أدوات وحروف وأسماء وأفعال وظروف. ويمكن توزيعها أيضًا طبقًا لحوامل اللغة، الزمان والمكان أو التعبير عن حالات الشعور أو منطق الحوار.[39] ولا تحدد هذه المعاني المتعددة سلفًا بمنطق اللفظ وحده بل في الموقف النفسي والاجتماعي للقارئ والمفسر، طبقًا للحالة النفسية ومستوى التعليم والثقافة. فهي معانٍ بعدية وليست قبلية، تجريبية وليست عقلية.[40] ولا تهم التحليلات الجزئية للأدوات ورصد اختلافات علماء العصر كسيبويه والفراء والكسائي أو استعمالات المفسرين كالزمخشري بل الدلالات العامة لها مع تعدُّديتها.[41]

(ب) الأسماء

وقد يكون الاسم في صيغةٍ فعلية من «أن» والفعل ليذكر بأن الفعل أصل الاسم.[42]

و «ذو» أو «ذوات» اسم بمعنى صاحب لوصف الذوات بأسماء الأجناس.[43] و«الذي» و«سواء» تعني السوية والمساواة.[44] و«غير» اسم للإضافة والإبهام بين ضدَّين. وقد تفيد

---

[34] السابق، ج٢، ١٧٨–١٨٠.

[35] السابق، ج٢، ١٥٢-١٥٣.

[36] السابق، ج٤، ١٧٥–٤٤٦. مثل: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

[37] السابق، ص١٧٥–١٧٧.

[38] الإتقان، ج٢، ١٤٠–٢٥٩.

[39] السابق، ص١٤٠-١٤١.

[40] وهو ما يسمى في العلوم الاجتماعية في الغرب الحديث اللسانيات النفسية Psycho-Linguistics أو اللسانيات الاجتماعية Socio-Linguistics.

[41] «ها قد أثبت على شرح معاني الأدوات الموقعة في القرآن على وجهٍ موجزٍ مفيدٍ محصِّل للمقصود منه، ولم أبسطه لأن محل البسط والإطناب إنما هو تصانيفنا في فن العربية وكتبنا النحوية. والمقصود في جميع أنواع هذا الكتاب إنما هو ذكر القواعد والأصول، لا استيعاب الفروع والجزئيات» (الإتقان، ج٢، ٢٥٩).

[42] السابق، ج٢، ١٧٠–١٧٣.

[43] السابق، ص١٩٥-١٩٦؛ البرهان، ج٤، ٢٧٧–٢٧٩.

[44] الإتقان، ج٢، ١٩٨-١٩٩.

الاستثناء والبدل أو النفي.[٤٥] و«كل» تفيد الاستغراق والإحاطة، نعتًا أو توكيدًا أو مضافة. وقد تتصل بها المصدرية للتكرار.[٤٦] وهي مشتقة من لفظ «الإكليل» و«الكلالة» أي الإحاطة بالشيء. أو انضمام الذوات المفيد للاستغراق. ويلازم الأسماء ولا يدخل على الأفعال، لازم المعنى وليس للفظ. ويضاف إلى الجمع المعرف والجنس والنكرة المفردة. وتحصل لها ثلاثة أحوال: مؤكدة، ومبتدأ بها مضافة، ومقطوعة عن الإضافة وتوضع لألفاظ التذكير إضافة إلى نكرة أو إلى معرفة أو تقطع عن الإضافة لفظًا. وتتصل «ما» بكل في «كلما». وهي مصدرية تفيد ظرف الزمان أي كل وقت. ويأتي «كل» صفة.

و«كلا» و«كلتا» يفيدان التثنية في الجمع.[٤٧] وبهما معنى الإحاطة. وتفيد ألف لام التعريف. وهو ما يفيد في تحليل المضمون ودلالة الفكرة والمعرفة.[٤٨] ويشمل التعريف الاستغراق. وتضاف إلى «إله» لتصبح «الله». وتكون نيابة عن الضمير في التعريف.

وتدل بعض الأسماء على درجات التفضيل مثل «أحد». فهو أقوى من واحد. الأحد ينفي غيره في حين أن الواحد لا ينفي غيره. هناك الواحد الرياضي والواحد الميتافيزيقي والواحد الطبيعي، «الأحد» هو المتفرد بالوحدانية. وهو الأول، له جمع وهو الآحاد في حين أن الواحد ليس له جمع. ولا يدخل الأحد في الضرب، ويستعمل في النفي والإثبات. ويستعمل وصفًا مطلقًا لله.[٤٩] وهناك أفعال لا تطلق إلا على الله مثل «تبارك»، «تعالى».[٥٠] و«ما شاء» اسم يعني التنزيه.[٥١] و«سبحان» للتسبيح.[٥٢]

و«ما» على اثني عشر وجهًا، ستة أسماء، وستة حروف.[٥٣] الاسمية ضربان: معرفة ونكرة. والنكرة ضربان: الأول يلزم الصفة، والثاني لا يلزمه. وما يلزمه استفهامية وشرطية وتعجب. الأول أسماء خبرية وهي الموصولة، بها تذكير وتأنيث، وإفراد وتثنية

---

[٤٥] السابق، ص٢٠٨-٢٠٩.
[٤٦] السابق، ص٢١٨–٢٢١؛ البرهان، ج٤، ٣١٧–٣٢٥.
[٤٧] البرهان، ج٤، ٣٢٦-٣٢٧.
[٤٨] الإتقان، ج٢، ١٥٦–١٥٨.
[٤٩] الإتقان، ج٢، ١٤٣-١٤٤.
[٥٠] السابق، ص١٨٨.
[٥١] السابق، ص١٩١؛ البرهان، ج٤، ٢٧١.
[٥٢] الإتقان، ص١٩٩.
[٥٣] البرهان، ج٤، ٣٩٨–٤١٠.

وجمع. والثانية شرطية ولها صدر الكلام، وبعدها فعل. والثالثة استفهامية بمعنى أي شيء. والرابع تعجبية، والخامس نكرة يلزمها النعت. والسادس نكرة بغير صفة ولا صلة. والحرفية ستة. الأول نافية ولها صدر الكلام. والثانية مصدرية، وقتية نائب عن ظرف الزمان وغير وقتية تقدر مع الفعل. والثالث كافة للعامل عن عمله. والرابع المسلطة تجعل اللفظ متسلطًا بالعمل، والخامس مغيِّرة للحرف عن حالة. والسادس مؤكد للفظ. ويسمى صلة أو زائدًا.

و «منْ» لا تكون إلا اسمًا فاعلة ومفعولة، مبتدأ وهي أربعة أقسام: موصولة واستفهامية، وشرطية، ونكرة موصوفة.[٥٤] «من» للعاقل، و«ما» لغير العاقل.

(ج) الأفعال

جعل، فعل، لازم أو متعدٍّ يفيد التكوين وتصيير الشيء على حالة دون حالة، والحكم على الشيء.[٥٥] ويفيد «كان» الزمان الماضي والتوكيد والقدرة. وتأتي بمعنى «ينبغي». وقد تأتي زائدة.[٥٦] وتعني «كاد» قارب.[٥٧]

وقد تشير بعض الأدوات مثل «إذا» إلى زمن الفعل أو المفاجأة. وقد تشير إلى التحول من الاستقبال إلى الحال. وقد تكون شرطيةً تفيد اليقين والظن. وقد تفيد العموم. وقد تكون زائدةً طبقًا للضرورة البلاغية.[٥٨] و«هيت» اسم فعل بمعنى أسرع وبادر. وتقرأ أيضًا «هيْتَ» و«هُيئت».[٥٩]

وتفيد «رُبَّ» الاحتمال، للتكثير تفخيمًا أو للتقليل تصغيرًا أو للتسوية.[٦٠] وتفيد «اللهم» النداء. وأصلها «يا ألله» ثم حذفت يا النداء، والنداء أيضًا بحرف النداء «يا».[٦١] «هات» فعل أمر لا يتصرف.[٦٢] و«هلمَّ» دعاء إلى الشيء.[٦٣]

---

[٥٤] السابق، ج٤، ٤١١–٤١٤.

[٥٥] الإتقان، ج٢، ١٩٠-١٩١.

[٥٦] البرهان، ج٤، ٣١١.

[٥٧] السابق، ص٣١٢.

[٥٨] الإتقان، ج٢، ١٤٧–١٥٢.

[٥٩] السابق، ص٢٥٤-٢٥٥.

(د) الأزمان

وأدوات الزمن كثيرة وليس فقط «الناسخ والمنسوخ»؛ إذ تشير إلى الماضي.[٦٤] وقد تفيد التعليل والتوكيد والتحقيق. فالزمان ليس خاويًا بل هو حامل لحالات النفس ومنطقها الذاتي في أنماط اليقين، والموضوعي في علاقات الوجود مثل التعليل والسببية. وتأتي مضافة إلى جملة.[٦٥]

وهي نوعان: ظرف زمان مفاجأة. وتجيء اسمًا وحرفًا. وتجيء للحال. وتستعمل للاستمرار، والظرفية ضربان: ظرفٌ محض، وظرف يفيد معنى الشرط. وقد تجيء لا ظرفًا ولا شرطًا. والظرفية للزمان الحاضر والماضي والمستقبل. وتجاب الشرطية بثلاثة أشياء: الفعل والفاء وإذا المكانية. وتوافق «إذا» «إنْ» في بعض الأحكام. وقد تأتي للقدرة. وقد تأتي بعد «واذكر».

و«الآن» اسم للزمن الحاضر.[٦٦] هو اسم للوقت الحاضر بالحقيقة.[٦٧] وقد تستعمل في غيره مجازًا.[٦٨] وتفيد «أنى» الاستفهام والشرط داخل الزمان بمعنى «متى» أو «أين».[٦٩] وتفيد «ثُم» الترتيب والتوالي وتفصيل المهلة مثل «الفاء» و«الواو».[٧٠] وتأتي مع التراخي في الزمان. وفي العطف تكون للترتيب أي التراخي في الرتبة. و«رويدًا» اسم مصغر من «رود» وهو المهل أي الزمان التدريجي.[٧١]

---

[٦٠] السابق، ج٢، ١٩٦–١٩٧.

[٦١] السابق، ج٢، ١٦٣–٢٥٩.

[٦٢] السابق، ص٢٥٣.

[٦٣] السابق، ص٢٥٤.

[٦٤] السابق، ج٢، ١٤٤–١٤٧؛ البرهان، ج٤، ١٩٠–٢٠٨.

[٦٥] البرهان، ج٤، ٢٠٧–٢٠٨.

[٦٦] الإتقان، ص١٦١.

[٦٧] السابق، ص١٧٥.

[٦٨] البرهان، ج٤، ٢٤٧.

[٦٩] السابق، ص٢٤٩–٢٥٠.

[٧٠] الإتقان، ص١٨٩؛ البرهان، ج٤، ٢٦٦–٢٧٠.

[٧١] السابق، ص١٩٦؛ البرهان، ج٤، ٢٨٠.

و«السين» حرف يفيد المضارع والمستقبل. فلا حاضر بلا مستقبل، ولا مستقبل بلا حاضر ضد تهمة «الماضوية».[٧٢] ومنها «سوف».[٧٣] ويدل على التأخير والتنفيس، وزمانه أبعد من زمان السين لما فيها من إرادة التسويف. و«قد» حرفٌ مختص بالفعل. يعبر عن الماضي والمضارع. التحقيق مع الماضي، والتقليل مع المضارع، والتكثير، والتوقع. و«كاد» فعلٌ ناقص يفيد الماضي والمضارع. ويعني «قارب» أو «أراد».[٧٤] وكان فعلٌ ناقص يدل على الماضي والانقطاع. وقد يفيد الأزل والأبد أو الحال والاستقبال أو التأكيد. و«لات» فعلٌ ماضٍ بمعنى نقص بصرف النظر عن أصلها «ليس» أو اللا النافية.[٧٥] و«لا جرم» مركَّبة من لا النافية و«جرم» أي «كسب» أو «حق». تأتي بعدها أن واسمها وليس فعلًا، ويفيدان معًا «لا بد».[٧٦]

والزمان ليس فقط في الأسماء وفي الأفعال بل أيضًا في الحروف. «لم» حرف جزم لنفي المضارع وقلبه ماضيًا. و«لمَّا» حرف جزم أيضًا لنفي المضارع وقلبه ماضيًا، وتدخل على الماضي، وقد تكون حرف استثناء. و«لَمَا» المخففة من حرفين اللا وما النافية. و«لن» حرف نفي ونصب واستقبال. ونفي المظنون بلن والمشكوك بلا. وقد ترد للدعاء. و«ل» حرف شرط في الماضي يصرف في المضارع. وترد شرطية في المستقبل، ومصدرية، وللتمني، وللتعليل.[٧٧] و«متى» استفهام عن الزمان.[٧٨] وتشير «هيهات» إلى بُعد الزمان.[٧٩] و«أيان» هي «أي» على وزن «فعلان» وتعني «أي وقت». وقد يكون الأصل «أي أوان». وهي مثل «متى» مع مزيد من التعظيم في حين أن متى أشهر. وتستعمل حين التفخيم.[٨٠] وربما لا يأتي بعدها إلا الماضي.[٨١]

---

[٧٢] الإتقان، ج٢، ١٩٧–١٩٨؛ البرهان، ج٤، ٢٨٠–٢٨١.

[٧٣] البرهان، ج٤، ٢٨٢–٢٨٤.

[٧٤] السابق، ص٢١٢–٢١٣؛ البرهان، ج٤، ٣٠٥–٣٠٩.

[٧٥] السابق، ص٢١٥–٢١٧.

[٧٦] السابق، ص٢٣٠–٢٣١.

[٧٧] الإتقان، ج٢، ٢٣٣–٢٣٩؛ البرهان، ج٤، ٣٨٠–٣٨٨.

[٧٨] السابق، ص٢٤٦.

[٧٩] السابق، ص٢٥٥.

[٨٠] البرهان، ج٤، ٢٥١.

[٨١] السابق، ص٢٨٠.

وكما تدل ظروف الزمان على الزمان تدل ظروف المكان على المكان. وذلك مثل «بين» للتوسط بين شيئين.[٨٢] و«ثَم» ظرف مكان يشير إلى المكان البعيد.[٨٣] و«حيث» ظرف مكان.[٨٤] و«دون» ظرف مكان تعني «أدنى»، ونقيض فوق. وقد تعني «غير».[٨٥] وقد تكون اسمًا أو صفة. و«عند» ظرف مكان للحضور والقرب الحسيين أو المعنويين.[٨٦] وقد تأتي مجرورة بمن. ويتلوها «لدى» و«لدن» و«وراء» و«أمام». و«هنا» اسم يشير إلى المكان القريب، و«هنالك» للمكان البعيد. وقد يشار به إلى الزمان توسعًا. فالمكان والزمان قرينان.[٨٧] و«في» ظرف مكان. وقد يكون المكان معنويًّا. وقد يعني «مع» و«عند» و«بعد» و«عن» و«من» و«إلى» و«على». وقد يأتي للتعليل. وقد تأتي للمقايسة والتوكيد. و«كأيِّن» تعني كم للتكثير، كناية عن العدد.[٨٨]

(٤) الحروف العقلية

(أ) السببية والشرط

وتعني الحروف العقلية الحروف التي تفيد السببية، والشرط، والغاية، والجر، والتشبيه، والنفي، والتمني، والاستثناء، والتأكيد، والاستفهام. وكلها أفعالٌ عقلية وراء استعمال الحروف. فأفعال اللغة أفعالٌ عقلية تتطلب التفكير والحكم.

تفيد «إذًا» السببية والشرط، الفعل والجواب، المقدمة والنتيجة، وتُضاف النون في التدوين العربي المعاصر، وتفيد الزمن الماضي. فالزمان حاوٍ للشرط والسببية.[٨٩] كما تفيد «إمَّا» الشرط والتفصيل والتوكيد.[٩٠] وتستلزم الشرط الفاء في الجواب. وقد تكون في

---

[٨٢] الإتقان، ج٢، ١٨٧–١٨٨.

[٨٣] السابق، من١٩٠؛ البرهان، ج٤، ٢٧٠.

[٨٤] الإتقان، ج١، ١٩٤–١٩٥، ج٤، ٢٧٤–٢٧٦، مثل «من دونه».

[٨٥] السابق، ص٢٠٦–٢٠٧؛ البرهان، ج٤، ٢٩٠–٢٩٢.

[٨٦] الإتقان، ج٢ ص٢٥٤.

[٨٧] البرهان، ج٤، ٣٠٢–٣٠٤.

[٨٨] السابق، ص٣١١–٣١٢ مثل: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾.

[٨٩] الإتقان، ج٢، ١٥٢–١٥٥؛ البرهان، ج٤، ١٨٧–١٨٩.

[٩٠] السابق، ص١٦٥–١٦٦؛ البرهان، ج٤، ٢٤٢–٢٤٤.

الأصل مركَّبة من «أم» المنقطعة و«ما» الاستفهامية. و«إنْ» أيضًا شرطية. وأحيانًا تفيد التعليل.[٩١] وتكون بمنزلة لا. وتدخل على الجملة الاسمية وتكون مخففة من الثقيلة فتعمل في اسمها. ويلزم حينئذٍ اللام. وتكون بمعنى «قد».

و«فاء» للعطف والربط والترتيب والتعقيب والاستئناف والسببية،[٩٢] وجزاء وزائدة، وتأتي للمهلة مثل «ثم»، و«كي» للتعليل.[٩٣] و«كيف» للشرط والاستفهام هو الغالب.[٩٤] والنون للتأكيد، خفيفة لتأكيد الفعل مرتين أو شديدة لتأكيده ثلاثًا.

(ب) الغاية والنهاية

و«إلى» حرف جر تفيد الغاية والنهاية في الزمان أو لدى الشخص. وقد تكون مجازًا حقيقة أو مشتركة بين الحقيقة والمجاز.[٩٥] و«حتى» مثل «إلى»، تعني التوجه نحو الغاية تدريجيًّا بعد ابتدائها. وقد تعني التعليل أيضًا مثل «كي»، والاستثناء مثل «إلا».[٩٦]

(ج) حروف الجر

ويعني حرف الجر الإلصاق مثل «الباء»، والاستعانة والسببية والمصاحبة والظرفية والمجاوزة والتبعيض والغاية والمقابلة والتوكيد. وقد تأتي زائدة.[٩٧] وقد تكون للتعدية مقام الهمزة. وقد تستعمل للاستعانة وللمصاحبة وللظرفية وللمجاوزة وللاستعلاء وللتبعيض. و«مع» تفيد الصحبة والاشتراك والاجتماع في الزمان والمكان. و«على» حرف جر تعني الاستعلاء الحسي أو المعنوي للمصاحبة والتعليل والظرفية والفوقية. و«عن» حرف جر آخر يفيد المجاوزة، والبدل، والاستعلاء، والتعليل، والفوقية مثل «على»، والجهة

---

[٩١] السابق، ص١٦٧–١٧٠؛ البرهان، ج٤، ٢١٥–٢٢٢.
[٩٢] الإتقان، ص٢٠٩–٢١١؛ البرهان، ج٤، ٢٩٤–٣٠١.
[٩٣] السابق، ص٢٢٣-٢٢٤.
[٩٤] السابق، ص٤٣٠.
[٩٥] الإتقان، ج٢، ١٦١–١٦٣؛ البرهان، ج٤، ٢٣٢–٣٣٤.
[٩٦] السابق، ص١٩٢–١٩٤؛ البرهان، ج٤، ٢٧٢-٣٧٣.
[٩٧] الإتقان، ج٢، ١٨٢–١٨٥؛ البرهان، ج٤، ٢٥٢–٢٥٧ مثل: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾.

مثل «نحو» أو البعدية مثل «بعد».[٩٨] و«في» حرف جر تفيد ظرف المكان أو الزمان. كما تفيد المصاحبة والتعليل والاستعلاء. وتفيد معاني حروف الجر الأخرى كالباء وإلى ومن ونحو. كما تعني المقايسة والتوكيد.[٩٩] والكاف حرف جر للتشبيه. وتدخل على «ذا» في «ذاك» كاسم إشارة.[١٠٠] وللظرفية وللمجازاة وللاستعلاء وللتبعيض. و«مع» تفيد الصحبة والاشتراك والاجتماع في الزمان والمكان. و«مع» للمصاحبة بين أمرين، ليس بينهما صحبة ولا اشتراك إلا في حكم يجمعهما. والمعية تكون في أفعال الجوارح أو في الأفعال المعنوية.[١٠١] و«من» حرف جر يفيد ابتداء الغاية مكانًا وزمانًا، والتبعيض والتبيين والتعليل وتخصيص العموم والتأكيد.[١٠٢] و«مَن» لا تكون إلا اسمًا، شرطية واستفهامية ونكرةً موصوفة.[١٠٣] وتأتي لعدة معانٍ منها: ابتداء الغاية، والغاية، والتبعيض، وبيان الجنس، والتعليل، والبدل، معنى «عن» و«الباء» و«في» و«عند»، وبمعنى الفصل، والزائدة والملابسة.

(د) التشبيه

تفيد «كأن» التشبيه المؤكد، مثل الكاف. وقد تفيد الظن، ومثل «كأين» وهو اسم مركب من كاف التشبيه و«أي» للتكثير في العدد، و«كذا» للإشارة.[١٠٤] و«كلا» مركبة من كاف التشبيه و«لا» النافية لتقوية المعنى للردع والزجر.[١٠٥]

(هـ) النفي

و«لا» النافية. وتكون للجنس. تعمل عمل «إنَّ» أو «ليس». وتكون لطلب الترك وهي الناهية. وقد تكون للتأكيد. وقد ترد اسمًا بمعنى غير. وقد تحذف ألفها.[١٠٦] و«لولا» حرف امتناع. يدخل على الجملة الاسمية. وجوابها مقرون بلام. وتكون بمعنى «هلَّا» للتخصيص والعرض وللتوبيخ والتنديم في المضارع. وتكون للاستفهام والنفي.[١٠٧] ومثلها

[٩٨] السابق، ص٢٠١–٢٠٣؛ البرهان، ج٤، ٢٨٤–٢٨٧.

[٩٩] السابق، ص٢١١-٢١٢.

[١٠٠] السابق، ص٢١٤–٢١٥؛ البرهان، ج٤، ٣١٠.

[١٠١] البرهان، ج٤، ٤٢٧–٤٢٩.

«لو ما» للتخصيص.[١٠٨] و«ليس» فعل لنفي الحال أو للنفي العام.[١٠٩] و«بلى» جواب على نفي قبلها، وجواب لاستفهامٍ منفي للتصديق والإثبات. وقد تأتي بعد النفي المعنوي أو إجابة لسؤالٍ مقدر. ولا يجوز الحذف أو الإثبات بعدها. و«لا» النافية على ستة أوجه. الأولى للنفي. وتدخل على الأسماء والأفعال. والداخلة على الأسماء عاملة وغير عاملة، تارة عمل «أن» وهي النافية للجنس، وتارة عمل ليس. وغير العاملة يُرفع الاسم بعدها ابتداء. وتارة تكون نكرة وتارة معرفة. والثانية للنهي الحاضر والغائب. وترد للدعاء. والثالثة جوابية أي رد الجواب. والرابعة بمعنى لم دخولًا على الماضي. والخامسة عاطفة. والسادسة زائدة بعد العطف وأن المصدرية وقبل القسم، وأن تكون اسمًا.[١١٠] و«لا جرم» مثل لا النافية. وجرم أي حق. وقد تكون زائدة. وتعني «لا بد».[١١١] و«لات» مثل ليس.[١١٢]

(و) الاستثناء

وتفيد «إلا» الاستثناء.[١١٣] وهو أحد المبادئ اللغوية أيضًا في علم الأصول، وقد يكون متصلًا أو منقطعًا. ويدل على التفرد عن القاعدة. ويأتي بمعنى «بل» وحرف العطف «واو» وبمعنى «غير» و«بدل»، وللحصر، ومن «أن» الشرطية. وتفيد «إما» أيضًا الاختيار بين بديلَين، الإبهام والتفصيل.[١١٤] و«لكن» للاستدراك أو التوكيد.[١١٥] و«لكن» تفيد الاستدراك

---

[١٠٢] الإتقان، ج٢، ٢٤٧–٢٥٠؛ البرهان، ج٤، ٤١٥–٤٢٦.

[١٠٣] السابق، ص٢٥٥–٢٥٨؛ البرهان، ج٤، ٤٣٥–٤٤٢.

[١٠٤] الإتقان، ج٢، ٢١٧-٢١٨.

[١٠٥] السابق، ص٢٢١-٢٢٢.

[١٠٦] الإتقان، ج٢، ٢٢٧–٢٣٠؛ البرهان، ج٤، ٣١١.

[١٠٧] الإتقان، ج٢، ٢٣٩–٢٤٢؛ البرهان، ج٤، ٣٩٦-٣٩٧.

[١٠٨] الإتقان، ج٢، ٢٤٢–٢٤٧.

[١٠٩] البرهان، ج٤، ٢٦١–٢٦٥.

[١١٠] السابق، ج٤، ٣٥١–٣٦١.

[١١١] السابق، ص٣٦٢-٣٦٣.

[١١٢] السابق، ص٣٦٢.

[١١٣] الإتقان، ج٢، ١٥٩–١٦١؛ البرهان، ج٤، ٢٣٦–٢٤١.

أيضًا أو تكون عاطفة إذا تلاها مفرد. و«غير» تعني «لا». وتكون حالًا. وتعني «إلا» إذا كانت استثناء.[١١٦]

(ز) اللام

و«اللام» جارَّة وناصبة وجازمة ومهملة. الجارَّة تفيد الاستحقاق والاختصاص والملك والتعليل، والتبليغ، والصيرورة. والناصبة للتعليل. والجازمة للطلب أو التهديد. والجازمة فعل للغائب. والمهملة غير العاملة للابتداء في المبتدأ والخبر، والجواب للقسم، والشرطية.[١١٧] واللام قسمان: عاملة وغير عاملة. وغير العاملة تدل على عشرة معانٍ: معرِّفة، دالة على البعد، مخفَّفة، موجبة، مؤكدة، متممة، موجهة، مسبوقة، مؤذنة، مواطئة. والمعرفة معها ألف الوصل. والدالة على البعد الداخلة على أسماء الإشارة. والمخففة التي يجوز معها تخفيف إن وهي لام الابتداء، والمفارقة وتحقق الخبر مع المبتدأ. والموجبة بمعنى «إلا». والمؤكدة الزائدة أو الكلام في المبتدأ أو مع إن في الخبر. والمتممة لتتميم الكلام. والموجهة جواب «لولا». والمسبوقة جواب «لو». والمؤذنة الداخلة على أداة الشرط. والموطِّئة التي وطَّأت الجواب للقسم. والعاملة إما جارة أو ناصبة أو جازمة. والجارة تفيد الملك المتبقي والتمليك، والاختصاص، والتخصيص، والاستحقاق والولاية والتعليل والتعدية، والتبيين، وبمعاني «إلى» و«بعد» و«على» و«في» و«عن» و«إن». وتسمى لام التبليغ. والناصبة مثل لام «كي»، ولام العاقبة بالجازمة الموضوعة للطلب. وتسمى لام الأمر. وتدخل على المضارع. وشرطها أن يكون الفعل لغير المخاطب. وتسكن بعد الواو والفاء. وتعني التكليف، والابتهال، والدعاء، والتهديد، والخبر. ويجوز حذفها ورفع الفعل.

(ح) الاختيار

ويفيد «أم» الاختيار. وهو حرف عطف. يحتمل الاتصال والانقطاع.[١١٨] و«أو» حرف عطف يفيد الشك والتردد بين حالتَين، والإيهام على السامع، وإباحة عدم امتناع الجمع، والتفصيل بين الإجمال، والتقريب.[١١٩] وتقع «أو» في الخبر والطلب. وفي الخبر لها عدة

---

[١١٤] السابق، ص١٦٦–١٦٧.

معانٍ: الشك والإيهام، والتنويع، والتفصيل، والإضراب، ومعنى الواو.[١٢٠] والطلب يعني الإباحة والتخيير. و«إما» تفيد التكرار أو الشرطية مركبة من «أن» و«ما». وقد تلحق بها نون التوكيد. وقد تفيد التخيير.

والسؤال هو: هل تفيد كل هذه التحليلات للحروف العقلية في التفسير؟ هل يتم فهم النص بهذا التطبيق الأوَّلي لوظائف الحروف؟ هل تؤدي معرفة الجزء إلى اقتناص الكل؟ لا يكون التفسير إلا حدسيًّا إدراكًا مباشرًا لقصد الوحي وتوجهه وحركته في الوعي وفي العالم. غلبت هذه التحليلات اللغوية لأن الثقافة القديمة كانت ثقافة لغة. أما الآن فمعظم الناطقين بالعربية لا يتحدثون الفصحى. وإن تحدثوها فكثير منهم يلحنون. إنما ثقافة العصر العلوم الإنسانية التي تساعد على فهم وضع الإنسان في العالم.[١٢١]

(٥) الحروف النفسية

وتعني الحروف النفسية الحروف التي تتضمن أفعال الشعور وليس أفعال العقل. تعبر عن بعض الانفعالات الإنسانية في علاقتها بالآخرين وبالعالم. فاللغة موقفٌ انفعالي كما هي موقفٌ عقلي، اتجاه سلوك كما هي حكمٌ منطقي. وأهم الانفعالات المذكورة في علوم القرآن: الحض، والإبطال، والضجر، والتهديد والوعيد، والذم والردع، والزجر، والندم والتعجب والتقبيح، والتمني، والتصديق، والنداء، والاستخبار، والاستفهام. ويمكن إضافة أخرى. فالوحي يصف انفعالات الناس بالرسالة والتبليغ، بين التصديق والتكذيب، اليأس والأمل، الخوف والرجاء، إلى آخر ما وصف الصوفية في المقامات والأحوال.[١٢٢]

---

[١١٥] السابق، ص٢٣١–٢٣٢؛ البرهان، ج٤، ٣٨٩–٣٩١.

[١١٦] البرهان، ج٤، ٢٩٣.

[١١٧] السابق، ج٤، ٣٣٤–٣٥٠.

[١١٨] الإتقان، ج٢، ١٦٣–١٦٥.

[١١٩] السابق، ص١٧٥–١٧٨.

[١٢٠] البرهان، ج٤، ٢٠٩–٢١٤، ٣٦٣–٣٧٥.

[١٢١] السابق، ج٢، ٢٤٥–٢٤٦. مثل ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

[١٢٢] الإتقان، ج٢، ١٥٨–١٥٩؛ البرهان، ج٤، ٢٣٥–٢٣٦ مثل ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾.

(أ) الحض

تدل «ألَا» بالفتح والتخفيف على الحض والعرض والدعوة إلى الفعل والاستفتاح. وقد تكون للاستفهام المنفي. ومثلها «ألَّا» بالفتح والتشديد مركبة من أن الناصبة و«لا» النافية.[١٢٣]

(ب) الإبطال

يفيد حرف «بل» الإضراب والإبطال والتعارض بين ما قبلها وما بعدها.[١٢٤] الإضراب عن الأول والإثبات للثاني يتلوه جملة ومفردًا.

(جـ) الضجر

وتدل «أف» على الضجر والكراهة. وأصلها اسم فعل مثل كُفَّ واترك، أو اسم لفعلٍ ماضٍ؛ كرهت وتضجرت. فالفعل في الزمان أو مضارع بمعنى «أتضجر».[١٢٥]

(د) التهديد، والوعيد، والندم، والردع، الزجر

وتفيد «أَولى» التهديد والوعيد.[١٢٦] و«بئس» و«ساء» فعلان للذم.[١٢٧] و«كلَّا» حرف ردع وزجر.[١٢٨] وقد تعني «حقًّا». و«نِعم» فعل للمدح.[١٢٩]

(هـ) الندم، والتعجب، والتقبيح

«وي» «وكأن» للندم والتعجب. وأصلها «ويلك». و«ويل» للتقبيح.[١٣٠]

---

[١٢٣] من الفناء إلى البقاء، ج٢، الوعي الذاتي.

[١٢٤] الإتقان، ج٢، ١٨٥؛ البرهان، ج٤، ٢٥٨–٢٦٠. مثل ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾.

[١٢٥] الإتقان، ج٢، ١٥٥–١٥٦؛ البرهان، ج٤، ٢٤٨. مثل ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾.

[١٢٦] الإتقان، ج٢، ١٧٩.

(و) التمني

و«لو» على خمسة أوجه: الامتناعية أو امتناعية شرطية، ومصدرية، وللتمني.[131] و«لولا» مركبة من «لو» «ولا». وهي على أربعة أضرب: حرف امتناع لوجوب، والتحضيض، والاستفهام، والنفي. «ولو ما» مثل «لولا».[132] «ولعل» للتوقع والترجي في المحبوب، والإشفاق في المكروه والتعليل والاستفهام.[133] «ليت» حرف ينصب الاسم، ويرفع الخبر، ويفيد التمني.[134] وعسى يعبر عن التمني «عسى». وهو فعلٌ جامد أو حرف. فإن كان فعلًا فهو ماضي اللفظ مستقبل المعنى لأنه إخبار عن طمع.[135]

(ز) النداء

«يا» لنداء البعيد والقريب إذا كان ساهيًا أو غافلًا. فالخطاب نداء. والوحي توجهٌ مباشر نحو المتلقي. والرسالة إيقاظ وتنبيه.[136]

(ح) الاستخبار

الاستخبار هو طلب الخبر بمعنى الاستفهام أي طلب الفهم. وفوائده السؤال وطلب المعرفة والبحث عن اليقين. والسؤال قبل الواجب كما هو الحال في «أسباب النزول». وقد يستطيع السائل أن يجيب بنفسه دون حاجة إلى مسئول. وهو قسمان: الخبر والإنشاء.

[127] السابق، ص١٨٧–١٩٩.
[128] السابق، ص٢٥٢.
[129] البرهان، ج٤، ٣١٣–٣١٦.
[130] الإتقان، ج٢، ٢٥٨–٢٥٩؛ البرهان، ج٤، ٤٤٣-٤٤٤.
[131] البرهان، ج٤، ٣٦٣–٣٧٥.
[132] السابق، ص٣٧٦–٣٨٠.
[133] الإتقان، ج٢، ٢٣٢–٢٣٣؛ البرهان، ج٤، ٣٩٢–٣٩٥.
[134] السابق، ص٢٤١.
[135] الإتقان، ج٢، ٢٠٣–٢٠٦؛ البرهان، ج٤، ٢٨٨–٢٨٩.
[136] البرهان، ج٤، ٤٤٥-٤٤٦.

الخبر نفي وإثبات. وفي حالة الإثبات يسمى استفهام تقرير، وفي النفي يسمى استفهام إنكار.

وقد يتضمن الإثبات الافتخار أو التوبيخ أو العقاب أو التبكيت أو التسوية أو التعظيم أو التهويل أو التسهيل والتخفيف أو التكثير أو الاسترشاد. وقد يكون الجحد بين الكلامَين إخبارًا.[١٣٧] وقد يكون هدف الإنكار تعريف المخاطب أن الادعاء ممتنع عليه وليس من قدرته.

(ط) الاستفهام

والخطاب سؤال وجواب، استفهام وردٌّ. وتقوم الهمزة بهذا الدور. الاستفهام طلب الإلهام، والتصور والتصديق أي المعرفة بالحدود. كما تعبر عن هواجس النفس وخواطرها تسأل عن الإثبات والنفي، وعن العاطف والمعطوف، وعن الشرط والمنادى. فالهمزة توحي بمعانٍ عديدة، وتسمح بتعدد التأويلات، وليست معنًى واحدًا، بوحي باتجاهٍ واحد. فلا يوجد سؤال له إجابةٌ واحدة.[١٣٨] وتجمع «أي» بين الاستفهام والشرط.[١٣٩] «وأيان» اسم استفهام مثل «متى». تستعمل في التفخيم، «وأين» استفهام عن المكان. «وبلى» جواب على استفهام بالإثبات عن طريق نفي النفي.[١٤٠] «وكم» للاستفهام. وتُستعمل خبرية بمعنى كثير.[١٤١] وهي نكرة لا تعرَّف، مبهمة في العدد. وتعني «أين» في الأمكنة، «ومتى» في الأزمنة، «وكيف» في الأحوال، مفردة اللفظ وتعني الجمع.

«وما» اسمٌ موصول واستفهامية وشرطية وتعجبية، ونكرةٌ موصوفة وغير موصوفة، ومصدرية، ونافيةٌ عاملة أو غير عاملة، وزائدة للتوكيد، «وماذا» استفهام وإشارة.[١٤٢] وهل حرف استفهام يطلب به التصديق لا التصور.[١٤٣] وتدخل الهمزة على «الواو» «والفاء» «وثم» «وهل». وتدخل على «رأيت». وتدخل على «لم». «وأم» حرف عطف واستفهام.[١٤٤]

---

[١٣٧] البرهان، ج٢، ٣٢٦–٣٥١.

[١٣٨] الإتقان، ج٢، ١٤١–١٤٣؛ البرهان، ج٤، ١٧٨.

[١٣٩] السابق، ص١٨٠–١٨٢.

[١٤٠] السابق، ص١٨٦–١٨٧.

[١٤١] السابق، ص٢٢٢–٢٢٣؛ البرهان، ج٤، ٣٢٨–٣٢٩.

وقد يجمع الاستفهام الإنكار والتقرير.[١٤٥] واستفهام التقرير هو حمل المخاطب على الإقرار، وهو استفهام إنكار، وقد يأتي الاستفهام بمعنى الإنشاء. وينقسم إلى طلب، ونهي، وتحذير، وتذكير، وتنبيه، وترغيب، وتمنٍّ، ودعاء، وعرض، وتحضيض، واستبكاء، وإياس، وإيناس، وتهكم، واستهزاء، وتحقير وتعجب، واستبعاد، وتوبيخ.[١٤٦]

واستفهام الإنكار لا يكون إلا على ماضٍ.[١٤٧] وحروف الاستفهام ثلاثة: الهمزة، وهل، وأم. وغيرها أسماء استفهام مثل «مَن»، «متى»، «أين»، «أنَّى»، «كيف»، «كم»، «أيَّان». ولكل حرف خصائصه ووظيفته.[١٤٨] «وكيف» استفهام عن حال الشيء لا عن ذاته كما أن «ما» سؤال عن حقيقة، «ومن» عن مشخصاته. لذلك لا يستعمل في السؤال عن «الله». ومنزلتها كالظرف. وقد تدل على ثلاثة أحوال: السؤال عن الحال، والحال دون السؤال، والتعجب. وقد يأتي للنفي والإنكار والتوبيخ، والتحذير، والتنبيه والاعتبار، وللتأكيد وتحقيق ما قبلها، وللتعظيم والتهويل. ونظرًا لأنها تفيد الجحد شاع بعدها «ألا» وقد تجيء مصدرًا وظرفًا. وقد يثبت لها شرط. وقد يحذف الفعل بعدها.[١٤٩] «وهل» للاستفهام. وتأتي بمعنى «ما» «وألا» والأمر، والسؤال، والتمني، وأدعوك.[١٥٠] وقد يعني الاستفهام النفي.[١٥١] وقد تكون الإجابة على السؤال لتخصيص الموضع أو النسبة.

(ي) التصديق

وتفيد «إي» تصديق المخبر ولإعلام المستخبر. وتقع بعد القسم أو الاستفهام.[١٥٢] «ونعم» حرف جواب، تصديق للمخبر، ووعد للطالب، وإعلام للمستخبر.[١٥٣] والتصديق أحد حروف الانفعال مع الضجر والإبطال والحضِّ والتهديد والوعيد والروع والزجر. وليس هو الفعل الأول كما هو حادث في الحياة المعاصرة.

---

[١٤٢] الإتقان، ج٢، ٢٤٢–٢٤٦.

[١٤٣] السابق، ص٢٥٣.

[١٤٤] البرهان، ج٤، ١٧٨–١٨٦.

[١٤٥] السابق، ج٢، ٣٤٤–٣٤٦.

[١٤٦] مثل ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾.

[١٤٧] السابق، ص٣٤٦-٣٤٧.

[١٤٨] السابق، ص٣٤٧.

[١٤٩] السابق، ج٤، ٣٣٠–٣٣٣.

(ك) التنوين

وهو بالصوت لا بالخط. مجرد موسيقى للتأثير دون تمييز بين أفعال الشعور وحروف الانفعالات. فاللغة صوت، والصوت موسيقى، والموسيقى نغم، والنغم يؤثر في النفس، وأفضل حامل للمعنى؛ لذلك تم الحديث عن موسيقى القرآن وموسيقى الشعر.[١٥٤]

(٦) الضمائر

في القرآن خمسة وعشرون ضميرًا متصلًا ومنفصلًا.[١٥٥] ويرجع الضمير إلى مرجع يعود إليه. ويعود إلى أقرب مذكور. فالأصل أن يقدَّم ما يدل عليه الضمير. إذ يعود ضمير الغيبة إلى شيء سبق ذكره في اللفظ بالمطابقة أو أن يعود على مذكور في سياق الكلام، مؤخَّر في الكلام مقدَّم في النية أو أن يدل اللفظ على صاحب الضمير بالتضمين أو بالالتزام أو السياق.[١٥٦]

والأصل توافق الضمائر حذرًا من التشتيت. وجمع العلاقات لا يعود عليه الضمير إلا بصيغة الجمع.[١٥٧] ويدل بالجزء على الكل.[١٥٨] والضمير لا يعود إلا على مُشاهَدٍ محسوس.[١٥٩]

والعدول إلى الضمائر له أسبابه منها: الاختصار، والفخامة، والتحقير.[١٦٠] وضمير الشأن أو القصة هو ضمير المجهول. قد يعود إلى ما بعده ولا يكون مفسره إلا جملة. ولا

---

[١٥٠] السابق، ص٤٣٣-٤٣٤.

[١٥١] السابق، ج٤، ٧٤–٧٧. مثل ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾.

[١٥٢] الإتقان، ج٢، ١٨٠؛ البرهان، ج٤، ٢٥١.

[١٥٣] الإتقان، ج٢، ص٢٥٢.

[١٥٤] السابق، ص٢٥١-٢٥٢.

[١٥٥] الإتقان، ج٢، ٢٨١–٣٢٣. وألَّف ابن الأنباري «الضمائر في القرآن» في مجلدين (السابق، ص٢٨١؛ البرهان، ج٤، ٢٤–٤٢).

[١٥٦] البرهان، ج٤، ٢٥–٢٩، ٣٩-٤٠.

[١٥٧] الإتقان، ص٢٨٧.

[١٥٨] البرهان، ج٤، ٤٠–٤١ مثل: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.

[١٥٩] السابق، ص٤٢ مثل: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

[١٦٠] البرهان، ج٤، ٢٤-٢٥.

يتبع بتابع. ولا يعمل فيه إلا الابتداء أو النسخ، وهو ملازم للأفراد، ولا يُحمل كلية.[١٦١] والفرق بينه وبين ضمير الفصل أن الفصل يكون على ضمير الغائب والمتكلم والمخاطب. فقد يأتي الضمير متصلًا بشيء وهو كغيره.[١٦٢] وإذا اجتمع في الضمائر مراعاة اللفظ أو المعنى يبدأ باللفظ ثم بالمعنى.[١٦٣] والضمير لا يكون إلا بعد الظاهر لفظًا أو مرتبة أو لفظًا ومرتبة. ولا يكون قبله إلا في أبواب ضمير الشأن والقصة.

وقد يعود الضمير على شيء والمراد به جنسه.[١٦٤] وقد يُذكَر شيئان ويعود الضمير إلى أحدهما.[١٦٥] وقد يذكر شيئان ويعود الضمير إليهما جمعًا لأن الاثنين جمع في المعنى.[١٦٦] وقد يُثنى الضمير ويعود إلى أحد المذكورين.[١٦٧] وإذا اجتمعت ضمائر فإن عودها لواحد أَولى من عودها لمختلف.[١٦٨] وإذا عطف «أو» يُفرد الضمير.[١٦٩] وقد تسدُّ مسدَّ الضمير أمور، منها: الإشارة، والألف واللام، والاسم الظاهر.[١٧٠] ويجوز حذف الضمير للعلم به.[١٧١]

و«إيَّا» ضمير.[١٧٢] والضمير هو الشخص، المتكلم أو المخاطب أو الغائب. «ومهما» اسم يعود الضمير عليه للتأكيد. «النون» اسم ضمير النسوة لتفرد النساء. وهي غير نون التوكيد.[١٧٣] «والهاء» اسم ضمير الغائب. «وها» اسم فعل بمعنى «خذ»، واسم ضمير للمؤنث، وحرف تنبيه للإشارة.[١٧٤]

---

[١٦١] الإتقان، ج٢، ٢٨٦–٢٨٧؛ البرهان، ج٤، ٢٩–٣٠.
[١٦٢] البرهان، ج٤، ٣٣–٣٥ مثل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾.
[١٦٣] الإتقان، ج٢، ٢٨٨–٢٨٩مثل ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾.
[١٦٤] البرهان، ج٤، ٣٠ مثل ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾.
[١٦٥] السابق، ص٣٠–٣٢ مثل ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾.
[١٦٦] السابق، ص٣٢ مثل ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾.
[١٦٧] السابق، ص٣٢ مثل ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.
[١٦٨] السابق، ص٣٥–٣٨ مثل ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾.
[١٦٩] السابق، ص٤٠ مثل ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾.
[١٧٠] السابق، ج٤، ٣٨–٣٩.
[١٧١] السابق، ص٤١. مثل ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا﴾.
[١٧٢] الإتقان، ج٢، ١٨١.
[١٧٣] السابق، ص٢٥٠.
[١٧٤] السابق، ص٢٥٢–٢٥٣؛ البرهان، ج٤، ٤٣١–٤٣٢.

(٧) قواعد التفسير

ويحتاج المفسر إلى عدة قواعد مثل:[١٧٥]

(أ) قاعدة الضمائر

فالضمير له مرجع يعود إليه يكون الأقرب إليه مع توافق الضمائر، والمطابقة لما قبله. وضمير المجهول هو ضمير الشأن والقصة، ولا يعود الضمير على جمع العاقلات. ويراعى اللفظ قبل المعنى، وليس المعنى قبل اللفظ.

(ب) قاعدة التذكير والتأنيث

التأنيث نوعان: الأول حقيقي لا تحذف فيه تاء التأنيث إلا إذا وقع فيه فصل. والثاني غير حقيقي فالحذف فيه مع الفصل أحسن.[١٧٦] ومن قواعد التذكير والتأنيث، أن التأنيث ضربان: حقيقي لا تحذف تاؤه إلا إن وقع فصل، وغير الحقيقي الحذف فيه مع الفصل أفضل.[١٧٧] ويذكَّر المؤنث ويذكَّر المذكر؛ مما يدل على أن الفصل بينهما فصلٌ إجرائي. والتذكير أجود طبقًا للثقافة الذكورية القديمة. وضابط التأنيث حقيقي وغير حقيقي. فالحقيقي لا يحذف. وغير الحقيقي يحذف.[١٧٨]

(ج) قاعدة التعريف والتنكير

وأسباب التنكير إرادة الوحدة، وإرادة النوع، والتعظيم، والتكثير، والتحقير، والتقليل. وإذا ذكر الاسم مرتين فله أربعة أحوال: إما أن يكونا معرفتَين أو نكرتَين أو الأول نكرة والثاني معرفة أو العكس.[١٧٩] وفي القرآن تعريف وتنكير.[١٨٠] يدل التنكير على الأعلى

---

[١٧٥] «في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها»، الإتقان، ج٢، ٢٨١–٣٢٣.

[١٧٦] السابق، ص٢٨٩–٢٩١.

[١٧٧] الإتقان، ج١، ٢٨٩–٢٩١.

[١٧٨] البرهان، ج٣، ٣٥٩–٣٧١.

[١٧٩] الإتقان، ج٢، ٢٩١–٢٩٩.

[١٨٠] السابق، ص٢٩١–٢٩٩؛ البرهان، ج٤، ٨٧–٩٣.

والأولى. وللتعريف أيضًا دلالته على الإضمار، والعلمية، والتعظيم، أو الإهانة، والإشارة، والتعريض، والتحقير، والتنبيه، والموصولية، والاختصار، والإضافة ولقصد العموم. وقد يذكر الاسم مرتين، معرفتين أو نكرتين أو نكرة ومعرفة أو معرفة ونكرة.[١٨١] وللتعريف أسباب منها الإشارة إلى معهودٍ خارجي أو ذهني أو الجنس أو الحقيقة.

(د) قاعدة الإفراد والجمع[١٨٢]

ومن ألفاظ الجمع ما لا واحد له.[١٨٣] ومن ألفاظ المفرد ما لا جمع له. وتقتضي مقابلة الجمع بالجمع مقابلة الفرد بالفرد.

(هـ) قاعدة الألفاظ

يظن بها الترادف وليست منه مثل الخوف والخشية. الخشية أشد من الخوف. والشحُّ والبخل والشح أشد. والبخل والضنُّ، البخل بالشيء والضن بالعلم. والسبيل والطريق والأول أغلب. وجاء وأتى، الأول حسي والثاني معنوي. ومد وأمد، الأول في المكروه والثاني في المحبوب. وسقى وأسقى، الأول ما لا كلفة فيه والثاني ما به كلفة. وعمل وفعل، الأول امتداد في الزمان. والقعود والجلوس، الأول به لبث. والتمام والكمال، الأول لإزالة النقص في الأصل، والثاني في العوارض. والإعطاء والإيتاء، والإيتاء أقوى. والسنة والعام، السنة الحول الذي فيه الشدة والجدب، والعام ما فيه الرخاء والخصب.[١٨٤]

(و) قاعدة السؤال والجواب

وهي مطابقة الجواب للسؤال وإلا فالإجابة بعيدة عن السؤال. توحي بكيفية وضع السؤال مثل السؤال عن النظر والجواب بالعمل، والزيادة في الجواب. وقد يُعدَل عن الجواب. وقد

---

[١٨١] البرهان، ج٤، ٩٣–١٠١.

[١٨٢] الإتقان، ج٢، ٢٩٩–٣٠٦.

[١٨٣] مثل: المن، السلوى، الهَدي، أبابيل.

[١٨٤] الإتقان، ج٢، ٣٠٦–٣١٠.

يعاد نفس السؤال. والأصل مشاكلة الجواب للسؤال في الصياغة. والأسئلة القليلة أفضل من الكثيرة.[١٨٥]

(ز) الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

يدل الاسم على الثبوت والاستمرار، ويدل الفعل على التجدد والحدوث. والتجدد في الماضي، وفي المضارع.[١٨٦] وقد يكون الخطاب بالاسم وقد يكون بالفعل.[١٨٧] يدل الاسم على الثبوت والاستقرار، ويدل الفعل على التجدد والحدوث. والتجدد في الماضي يعني الحصول، وفي المضارع التكرار. ومضمر الفعل كمُظهَره. قد يجيء الاسم والفعل على التبادل. والجملة الاسمية أثبت من الفعلية. ومضمر الفعل كمظهره في إفادة الحدوث.[١٨٨]

(ح) قاعدة المصدر

الواجبات تأتي بالمصدر مرفوعًا.[١٨٩] وحرفها «أنْ» حرفًا مصدريًّا ناصبًا للفعل المضارع وتقع مبتدأً وفاعلًا ومفعولًا ومضافًا إليه. وتقع بعد عسى. وقد تكون مخففةً من الثقيلة فتقع بعد فعل اليقين، وتسمى ضمير الشأن. وتكون مفسِّرة بمعنى «أي» لتفسير ما قبلها بشرط تمام الجملة. وقد تكون زائدة بعد «لمَّا» التوقيتية. وقد تكون شرطية، ونافية بمعنى لا. وقد تكون للتعليل، وبمعنى «إذ» مع الماضي.

(ط) قاعدة العطف

العطف عطف على اللفظ، وعطف المحل، وعطف التوهم. ولا يُعطف الخبر على الإنشاء أو الاسمية على الفعلية، أو معمولَي عاملَين أو الضمير المجرور من غير إعادة الجار.[١٩٠]

---

[١٨٥] السابق، ص٣١٠–٣١٦، انظر مقالنا: «فلسفة السؤال»، هموم الفكر والوطن، ج٢، الفكر العربي المعاصر، ط١، ص٧–٢٩.

[١٨٦] الإتقان، ج٢، ٣١٦–٣١٩.

[١٨٧] السابق، ص٣١٦–٣١٩؛ البرهان، ج٤، ٦–٧٢.

[١٨٨] البرهان، ج٤ ص٣٧١.

[١٨٩] الإتقان، ج٢ص٣١٩؛ البرهان، ج٤، ٢٢٣–٢٢٨.

[١٩٠] السابق، ص٣١٩–٣٢٣.

«وأم» حرف عطف نائب عن تكرير الاسم والفعل مثل «أو». يتقدمها استفهام.[١٩١] الإتيان بالمصدر مرفوعًا على سبيل الواجبات.[١٩٢]

(٨) شروط المفسر

يُفسَّر القرآن بالقرآن.[١٩٣] فالتفسير للفهم كما هو الحال في أي نص من العلوم الرياضية أو الطبيعية.[١٩٤] ميزته الالتزام بالنص. وخطورته الوقوع في التفسير الحرفي. وهو التفسير بالسياق الكلي أو تفسير الجزء بالكل. وعند القدماء هو التفسير بالمنقول وليس بالمعقول، بالرواية وليس بالدراية.[١٩٥] التفسير مضطر إلى النقل وهو الأكثر. والثاني يعتمد على العقل وهو الأقل. وقد ترد تفاسير عن الصحابة بقراءةٍ مخصوصة.[١٩٦] فالمنقول اختيار، ولا يخلو من معقول. ولا يمكن في تفسير المتشابه الاعتماد على المنقول وحده لأن اللفظ يتردد بين معنيَين.[١٩٧] وكيف يتم التفسير بالنقل وحده حتى نقل مباحث الألفاظ؟ لذلك يحدث رد الفعل على ضرورة التفسير بالرأي. وكيف يتم النقل عن المفسرين السابقين والمحدثون مثلهم، رأيًا برأي واجتهادًا باجتهاد؟[١٩٨] وقد يحتاج كل تفسير منقول إلى تفسير، وكل تفسير إلى تفسير إلى ما لا نهاية. ومن ثم لزمت العودة إلى التفسير بالرأي، التفسير بالمعقول، والتفسير بالواقع، والتفسير بالتجربة الذاتية.

ومآخذ أي مصادر أو مناهج للتفسير أربعة:

(أ) النقل عن النبي مع خطورة تدخل الضعيف والموضوع خاصة في المغازي والملاحم والتفسير.

---

[١٩١] البرهان، ج٤، ١٨٠–١٨٦.

[١٩٢] الإتقان، ج٢، ٣١٩.

[١٩٣] الإتقان، ج٤، ١٧٤–٢٠١؛ البرهان، ج٢، ١٧٥-١٧٦، وقد ألَّف فيها ابن الجوزي.

[١٩٤] السابق، ص١٧٤–١٧٦.

[١٩٥] السابق، ص١٩٢-١٩٣، وقد ألف السيوطي في التفسير بالمنقول «ترجمان القرآن».

[١٩٦] وألَّف فيه السيوطي «أسرار التنزيل»؛ السابق، ص١٩٣-١٩٤.

[١٩٧] السابق، ص١٩٤.

[١٩٨] البرهان، ج٢، ١٧١-١٧٢، ١٨٠.

(ب) الأخذ بقول الصحابي المرفوع عن النبي. وهي رواية لا رأيًا. به مخاطر النقل. وإذا كان منقولًا عن التابعي تزداد هذه المخاطر. وقد يضاف إليهم التابعون إلى ما لا نهاية حتى طبقات المفسرين بالرغم من أخطار النقل.

(جـ) الأخذ بمطلق اللغة. فالقرآن بلسانٍ عربي. ويكون التفسير طبقًا لألفاظ اللغة العربية.

(د) التفسير بمقتضى معاني الكلام والمقتضب من قوة الشرع. وهو الذي دعا إليه الرسول بتفهيم الدين وتعليم التأويل. فالقرآن ذو وجوه يُحمل على أحسنها.[١٩٩] وهو عود إلى المصدر الأول.

طبقًا للمصدر الرابع يمكن التفسير بالاستنباط والاستدلال إذا تعددت معاني اللفظ مثل «الصراط» بين الحقيقة والمجاز، بين المعنى الحسي والمعنى العقلي. وميزته حرية الحركة من أجل المحافظة على المعاني الكلية للقرآن. فاللغة ليست فقط لفظًا بل معنى، وأصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكر. وعيبه تعدد التفسيرات طبقًا للمفسرين. وقد يسمح لبعض أصحاب الأهواء الخلط بين الرأي والهوى وهو تفسير المتكلمين، ليس المعتزلة وحدهم ولكن الفِرق جميعًا دفاعًا عن عقائدها. وتضرب الأمثلة من تفسيرات فرق المعارضة وحدها وعلى رأسها المعتزلة التي ما زالت باقية ضمن فرق أهل السنة.[٢٠٠] والتفسير بالرأي قد يؤدي عند الفقهاء إلى خمسة مخاطر: الأول التفسير من غير حصول العلوم، وهو تفسيرٌ صوريٌّ فارغ. والثاني تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وهو نفي للمعرفة الإنسانية وغلق لباب الفهم والاجتهاد. والثالث التفسير اعتمادًا على المذهب أو الفرقة بحيث يكون هو الأصل والتفسير تابع، وبالتالي رد الأصل إلى الفرع. والرابع القطع بأن هذا التفسير هو مراد الله دون دليل. والخامس التفسير بالهوى وليس بالرأي والاستحسان طبقًا للمصالح العامة.[٢٠١] وهي ليست مخاطر بل هو واقعٌ إنساني، الحوامل الذاتية للوحي. ولماذا استبعاد التفسير بالرأي؟ لا يعني الرأي الهوى أو وجهة النظر الخاصة بل التجربة البشرية العامة الفردية والجماعية والمطردة عبر الزمان.[٢٠٢] والقرآن

---

[١٩٩] الإتقان، ج٤، ١٨٠–١٨٥؛ البرهان، ج٢، ١٥٦–١٦٤، ١٧٢.

[٢٠٠] الإتقان، ج٤، ١٧٦–١٨٠؛ البرهان، ج٢، ١٨٠–١٨١.

[٢٠١] الإتقان، ج٤، ١٩١.

[٢٠٢] البرهان، ج٢، ١٦١–١٦٤، وهو معنى قول الرسول «من فسر القرآن برأيه فقد أخطأ.» أو «ومن قال في القرآن برأيه فقد كفر.»

له وجوهٌ عده طبقًا لتعدد المواقف.[٢٠٣] يحتاج إلى اختيار أحدها، وهو ما لا يتم إلا بالعقل والمصلحة أي الرأي. وهذا هو أحد معاني التشابه، ووظيفة الرأي تحويله إلى محكم.

وهناك عدة وسائل لإيضاح المعنى حين الإشكال مثل رد الكلمة إلى ضدها أو إلى نظيرها والتمييز بين الخبر والشرط أو صيغةٍ كلاميةٍ أخرى، ودلالة السياق، والنقل عن المعنى الأصلي، ومعرفة أسباب النزول، والسلامة من التدافع.[٢٠٤] وعلى المفسر أن يعرف قواعد أصول الفقه فيما يتعلق بمباحث الألفاظ.[٢٠٥] فالرأي ليس مجرد هوًى شخصي بل له منطقٌ محكم. ويمنع من الوقوع في غرائب التفسير، وهو التفسير البعيد الشيئي التاريخي الحرفي الخاص القائم على الأهواء.[٢٠٦]

ولا يمكن استبعاد تفسير الصوفية.[٢٠٧] وهو التفسير الإرشادي أو الباطني أي التأويل اعتمادًا على فتاوى بعض الفقهاء. فهناك مستويات لفهم المعنى، الظاهر والباطن، طبقًا لدرجة المعرفة لدى المفسر.[٢٠٨] وإرجاع الباطن إلى الظاهر هو إلغاء الباطن، عودًا إلى الظاهر.[٢٠٩] والعمل لا يعني العود إلى الظاهر وإلا تحول القرآن إلى مجموعة من العبادات

---

[٢٠٣] وهناك أحاديث عن الرسول في هذا المعنى مثل «القرآن ذو وجوهٍ محتملة فاحملوه على أحسن وجوهه.»

[٢٠٤] السابق، ج٢، ١٩٩–٢٠٥.

[٢٠٥] السابق، ج٢، ٦–٩.

[٢٠٦] وذلك مثل تفسير ﴿حم * عسق﴾ إن الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية المروانية، والعين ولاية العباسية، والسين ولاية السفيانية، والقاف قدوة المهدى. وتفسير ﴿الم﴾ أن ألف الله الذي بعث محمدًا، واللام لامه الجاحدون وأنكروه، والميم المنكرون، وتفسر ﴿الْقِصَاصِ﴾ بأنه القصص، وتفسير ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أن إبراهيم كان له صديق وصفه له قلبه، وتفسير ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أنه الحب والعشق، وتفسير ﴿مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أنه الذكر إذا انتصب، وتفسير ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ الشجر الأخضر إبراهيم، والنار نور محمد، و﴿تُوقِدُونَ﴾ أي تقتبسون الدين، (الإتقان، ج٤، ٢٠٢–٢٠٣).

[٢٠٧] الإتقان، ج٤، ١٩٤–١٩٨؛ البرهان، ج٢، ١٧٠–١٧١.

[٢٠٨] وذلك مثل ابن الصلاح والواحدي والنسفي والتفتازاني.

[٢٠٩] وهو معنى حديث «لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع.» أو «إن هذا القرآن ليس منه حرف إلا وله حد، ولكل حد مطلع.» أو «القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد.» (الإتقان، ج٤، ١٩٦).

والشعائر والأحكام الصورية الشرعية مع أن الفقه أخلاق.[٢١٠] فالعمل أيضًا نوعان، أعمال الجوارح وأعمال القلوب. الظاهر اللفظ عند الفقهاء، والباطن التأويل عند الصوفية. الظاهر التلاوة، والباطن الفهم. تتعدد وجوه النص مما يحتاج إلى تأويل.[٢١١] يحتاج فهم القرآن إلى تثوير أي إلى فهم وتأويل.[٢١٢] والتثوير اليوم هو تحريض العقول والأذهان والنفوس والضمائر على التحرك وتغيير الوضع القائم إلى ما هو أفضل. وتفسير الصوفية مواجيد وكشوفات تتجاوز الألفاظ إلى الحدوس المباشرة، «عن قلبي عن ربي أنه قال ...» التفسير هو المطابقة بين النص وتجربة المفسر الذاتية.[٢١٣] وقد يستنبط الحكم من السكوت عن شيء. تكفي الإشارة بالمنطوق به إلى المسكوت عنه.[٢١٤] وينقسم القرآن إلى ما هو بيِّن بنفسه فلا يحتاج إلى تفسير. يكفي الإدراك المباشر وما ليس مبينًا بنفسه فيحتاج إلى تفسير. فالتفسير خطوةٌ ثانية وليست أولى. والأمثلة على ذلك كثيرة.[٢١٥] وما يحتاج إلى بيان قد يكون بيانه في آيةٍ أخرى مضمرًا فيها إما بحذف أو بإجمال. وقد يكون اللفظ مقتضيًا لأمر ويحمل غيره. وقد يكون اللفظ محتملًا لمعنيَين في موضع ويُعيَّن في موضعٍ آخر. وقد يكون له ظاهر وباطن.[٢١٦]

والتفسير على أربعة وجوه: الأول وجه تعرفه العرب من كلامها. والثاني تفسير لا يُعذَر أحد بجهالته. والثالث تفسير يعرفه العلماء. والرابع تفسير لا يعرفه إلا الله. وهو معنى حديث «أنزل الله القرآن على أربعة أحرف.» الأول تعرفه العرب. والثاني الفرائض، الحلال والحرام. والثالث يعرفه العلماء. والرابع هو المتشابه، الأول تعرفه العرب من لسانهم، لفظًا ومعنى. الثاني الشرائع والأحكام. والثالث اجتهاد العلماء وتأويلهم واستنباط المعاني وكل لفظ يحتمل معنيَين. والرابع علم الغيب مثل قيام الساعة وتفسير الروح والحروف في أوائل السور والمتشابه حيث يتوقف المفسر فيها وهي

---

[٢١٠] من الفناء إلى البقاء، ج٢، التصوف الذاتي.

[٢١١] قال بعض القدماء «لكل آية ستون ألف فهم» (الإتقان، ج٤، ١٩٧)، وروى ابن أبي حمزة عن علي «لو شئت أن أوقر سبعين بعيرًا من تفسير أم القرآن لفعلت» (السابق، ص٢٠٠–٢٠١).

[٢١٢] قال عبد الله بن مسعود «من أراد علم الأولين والآخرين فليثوِّر القرآن» (السابق، ص١٩٧).

[٢١٣] البرهان، ج٢، ١٧٦.

[٢١٤] السابق، ج٢، ١٨٢–١٨٣.

[٢١٥] السابق، ج٢، ١٨٣–١٩٦.

[٢١٦] السابق، ص١٩٦.

الموضوعات المتعالية التي تخرج عن نطاق الحس.[217] وكل لفظ يحتمل معنيَين، موضوع الاجتهاد والعلماء. إما أن يكون أحدهما أظهر من الآخر، أو أن يكون الاثنان جليَّين سواء اختلف أصل الحقيقة فيهما أم لا، وإذا اختلفا يمكن اجتماعهما أم لا؟ والقول بالرأي على قسمَين: تفسير اللفظ لاحتياج المفسر له أو حمل اللفظ المحتمل على أحد معنيَين.[218]

ولا يوجد تكرار في القرآن بل التعبير عن أوجه المعنى.[219] وهو أحد أسباب ضرورة التفسير الموضوعي للقرآن.[220] كما لا توجد ألفاظٌ مترادفة. فكل لفظ مترادف له أحد جوانب خصوصية المعنى.

يبدأ المفسر بعلوم اللغة، مباحث الألفاظ، ثم علاقة الألفاظ بالمعاني، وعلم التصريف وهو الصيغ الدالة على المعاني، وعلم الاشتقاق وردِّ الأصول إلى الفروع. ثم تأتي علوم التركيب مثل الإعراب، وأساليب البلاغة، وعلم البيان وما يتعلق بالحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وعلم البديع وما يتعلق بالفصاحة اللفظية والمعنوية.[221] وعلى المفسر أن يتحرى مطابقة تفسيره للغة دون زيادة أو نقصان، والتفرقة بين الحقيقة والمجاز وباقي مباحث الألفاظ مع أساليب البيان وفنون البلاغة. وعليه أن يعرف كل الحوامل الموضوعية للوحي مثل المكان والزمان وأسباب النزول، والحوامل الموضوعية الذاتية مثل الرواية، شفاهًا وتدوينًا وقراءة، والحوامل الذاتية اللغوية مثل اللفظ والمعنى وفنون البلاغة ومناهج التفسير.[222] ومن أوجه الزيادة عندما يحكي المفسر عن الله ويقول «حكى الله تعالى ...» ويصنع تفسيره وكأنه هو المتحدث باسم الله وليس رأيه وتفسيره وفهمه.[223]

ويحتاج المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم.[224] وأولها علوم اللغة. فالعبادات للعموم وهي للسمع، والإشارات للخصوص وهي للعقل، واللطائف للأولياء وهي المشاهد،

---

[217] الإتقان، ج٤، ١٨٨–١٩١؛ البرهان، ج٢، ١٦٤–١٦٨.

[218] البرهان، ج٢، ١٦٨–١٦٩.

[219] الإتقان، ج٤، ١٩٩.

[220] Method of the thematic interpretation, Islam in the modern world, I, pp. 484–509.

[221] البرهان، ج٢، ١٧٣–١٧٤.

[222] الإتقان، ج٤، ١٩٨–١٩٩؛ البرهان، ج٢، ١٧٦–١٧٧.

[223] البرهان، ج٢، ١٧٧–١٧٨.

[224] البرهان، ج٢، ١٥٣–٢٥٦.

والحقائق للأنبياء وهي للاستسلام. ولكل علم ظاهر وباطن، حد ومطلع. الظاهر للتلاوة، والباطن للفهم. والحد لأحكام الحلال والحرام أي الفعل والسلوك. والمطلع أي الإشراق، الوعد والوعيد، علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. ويكون على قدر الاستطاعة. وتثوير القرآن هو تحويله إلى تجربةٍ ذاتية، ونقله من مستوى النص إلى مستوى التجربة.[٢٢٥] وعند الصوفية العلوم لا حدود لها. فلكل آية ستون ألف فهم، ويحتوي القرآن على سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم؛ إذ لكل كلمة علم، ثم يتضاعف إلى أربعة. وهي ليست علومًا داخلة في الذات والصفات والأفعال بل هي علومٌ إنسانيةٌ خالصة، يسميها الصوفية علوم المكاشفات.

ويحتاج المفسر إلى عدة علوم مثل اللغة لشرح مفردات الألفاظ، والنحو لتغير المعنى بتغير الإعراب، والتصريف لمعرفة الأبنية والصيغ، والاشتقاق للفصل بين المعنيَين المتضادَّين، والمعاني والبيان والبديع لمعرفة خواص تركيب الكلام من حيث إفادة المعنى ووضوحه وخفاؤه وتحسين وجوه الكلام وهي علوم البلاغة لمعرفة أوجه الإعجاز، وعلم القراءات لمعرفة كيفية النطق بالقرآن، وعلم أصول الدين للحفاظ على قواعد العقائد، وعلم أصول الفقه لمعرفة أوجه الاستدلال على الأحكام واستنباط عللها، وأسباب النزول والقصص لمعرفة صلة الآية بالواقع، والجواب بالسؤال، والناسخ والمنسوخ لمعرفة عامل الزمان وأثره في تطور الأحكام، والفقه لمعرفة أحكام الشرع، والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، وأخيرًا علم الموهبة الذي يورثه الله لمن عمل بما علم، وهو ما يركز عليه الصوفية.[٢٢٦] وهي علوم تجمع بين العلوم النقلية العقلية كعلم أصول الدين وعلم أصول الفقه وعلوم التصوف دون علوم الحكمة، والعلوم النقلية الخالصة كالحديث والفقه دون علوم السيرة ودون العلوم العقلية الخالصة كالحساب أو الطبيعة الخالصة كالطب، والعلوم اللغوية التي تستحوذ على نصف العلوم.[٢٢٧] لذلك لا يغرق المفسر في علوم اللغة والفقه والعقائد حتى لا يردَّ التفسير إليها.[٢٢٨]

وقد تُقسَّم علوم القرآن إلى ثلاثة علوم. الأول علم لم يُطلع الله عليه أحدًا من خلقه واستأثر به. وهو خارج أقسام العلوم الإنسانية. فما فائدة علم لا يعرفه البشر؟ وهل الله

---

[٢٢٥] وهو معنى قول ابن مسعود «من أراد علم الأولين والآخرين فليثوِّر القرآن» (السابق، ص١٥٤).

[٢٢٦] هي خمسة عشر علمًا (الإتقان، ج٤، ١٨٥–١٨٨).

[٢٢٧] وهي الثمانية علوم الأولى.

[٢٢٨] الإتقان، ج٤، ٢٠٠.

يستأثر بعلم وهو يبلغ رسالته، ويرسل رسلًا؟ الثاني ما أطلع الله عليه نبيه من أسرار الكتاب واختص به مثل أوائل السور. وهو أقرب إلى القسم الأول. وما فائدة علم يستأثر به الرسول ولا يبلغه للناس ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. والثالث علوم علَّمها الله للنبي من المعاني الكلية والخفية لتعليمها، وهو قسمان: الأول لا يجوز الكلام فيه إلا عن طريق السمع مثل أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقراءات واللغات والقصص وأمور المعاد. والثاني ما يؤخذ بطريق النظر والاستدلال والاستنباط والاستخراج من الألفاظ، إما تأويل الآيات المتشابهة في الصفات، وهو ما عليه خلاف، وإما استنباط الأحكام الشرعية قياسًا أو بلاغة.[٢٢٩] ولا يعني احتواء القرآن علوم الأولين والآخرين احتواءه على العلوم الرياضية والطبيعية، فهذه علومٌ برهانيةٌ تجريبية، بل يعني قدرته على إعطاء بعض الفروض العلمية للتحقق من صدقها بالبرهان الرياضي أو التجريبي. وقد يشعر العالم الرياضي أو الطبيعي عند قراءاته للقرآن بصدى بعض نتائج العلمَين فيه. فيتفق الحدس والبرهان.[٢٣٠]

(٩) طبقات المفسرين

الرسول هو الطبقة الأولى.[٢٣١] والصحابة عشرة من الطبقة الثانية.[٢٣٢] وكل صحابي يعتبر نفسه هو العالم الأول. يجيب على كل سؤال. يعلم كل آية نزلت بليل أم بنهار، في سهل أم في جبل. وهي معلوماتٌ تاريخية لا أهمية لها في التفسير المتجدد وبمصالح الناس المتغيرة. وآخر يقول: إنه ما نزلت من آية إلا وعلم فيمَ نزلت وأين نزلت، وأن الله وهب له قلبًا عقولًا ولسانًا سئولًا. وقال ثالث ما نزلت آية إلا وهو أعلم فيمَ نزلت وأين، وأنه لا يوجد أعلم منه، وإلا كان قد ذهب إليه. وهو علم يقارب الغرور وإن لم يصل إلى حد الادعاء. ويتأكد ذلك بمباركة الرسول وأخباره وأحكامه وثنائه على صحابته. فهذا حبر هذه الأمة، حكم جبريل يكرره محمد. ويمتد نفس الثناء على التابعين، ويدخل معهم بعض الزهاد

[٢٢٩] السابق، ص١٩١–١٩٢.

[٢٣٠] البرهان، ج٢، ١٨١–١٨٢.

[٢٣١] الإتقان، ج٤، ٢٠٤–٢٥٩.

[٢٣٢] هم الخلفاء الأربعة، ابن مسعود، ابن عباس، أبي بن كعب، زيد بن ثابت، أبو موسى الأشعري، عبد الله ابن الزبير (السابق، ص٢٠٤).

مثل الحسن البصري. وهم نقلة عن الصحابة دون إبداعٍ ذاتي من أنفسهم. وهنا تتحول علوم القرآن إلى علم التفسير قبل أن يستقل في علمٍ مستقل.

وفي الجزء الأخير من باب «طبقات المفسرين» وهو آخر باب في «الإتقان» يظهر الرسول مفسرًا أولًا.[٢٣٣] وهو استعراض لما جُمع من أقوال الرسول في شرح بعض الآيات إجابة على أسئلة له من الصحابة على نحوٍ طولي، من الفاتحة حتى الناس.[٢٣٤] لا يجمعهما هدفٌ واحد ولا رؤيةٌ واحدة، مجرد معلوماتٍ إضافية لمزيد من المعرفة بالآية وبعض ألفاظها المجهولة. فما مصدر هذه المعلومات؟ هل هي الوحي عن طريق جبريل أو الوحي المباشر أو الحدس أو المعلومات التي استقاها الرسول من خلال رحلاته عن الأمكنة والأزمنة من اليهود والنصارى وأمثال العرب وقصصهم قبل الإسلام أم آراء شخصية في موضوعات لا أهمية لها تخطئ وتصيب. وهناك معلوماتٌ خاطئة مثل اعتبار سام أبا العرب، وحام أبا الحبش، ويافث أبا الروم، هذه الشعوب المعروفة وقتها. وماذا عن الشعوب الهندية والأوروبية والآسيوية والأمريكية اللاتينية؟ وأحيانًا يكون رأيًا يحتمل الرأي الآخر. وأحيانًا يكون التفسير حقيقة والأقرب المجاز.

وكثير منها موضوعاتٌ متعالية لا يُسأل ولا يجاب عليها خاصة بأمور المعاد والخلق والعرش.[٢٣٥] يسهل تدخل الخيال فيها وتحويلها إلى خرافات.

وكثير من الروايات ضعيفة أو غير مرفوعة أو غريبة. ويحتاج التفسير إلى ابن خلدون جديد يحول منهج الرواية السبب الرئيسي في أخطاء المؤرخين إلى منهج المشاهدة والعيان المباشر ثم إلى منهج تحليل الخبرات الإنسانية الرصيد الأول للتفسير كما هو الحال في علوم الذوق عند الصوفية. فليست مهمة الحديث إعطاء معلوماتٍ نظريةٍ ظنية بل توجيهاتٍ أخلاقية وتفصيلاتٍ عملية.[٢٣٦] وبنية معظم هذه الأحاديث ضعيفة؛ إذ يكون الرسول هو السائل والإجابة من آخر عن تصورٍ نظري يخشى من وضعه على لسان الرسول.[٢٣٧]

---

[٢٣٣] الإتقان، ج٤، ٢١٤–٢٥٩ «وإذ قد انتهى بنا القول فيما أردناه من هذا الكتاب فلنختمه بما ورد عن النبي من التفاسير المصرح بها برفعها إليه غير ما ورد من أسباب النزول لتستفاد فإنها من المهمات» (السابق، ص٢١٤).

[٢٣٤] ومجموعها ست وسبعون سورة.

[٢٣٥] مثل ضرتان وطارق والذيال وذي الكيعان وذي الفرع ووثاب وعمودان وقابس والضروح والمصبح والفيلق (الإتقان، ج٤، ٢٢٩–٢٣٠).

ويكون السائل أحيانًا يهوديًّا كي يوقع الإسلام في روح اليهودية وتاريخها كما فعل بولص مع الإنجيل وتعاليم المسيح عندما هوَّد المسيحية.[٢٣٨] وتتكرر عبارة «إسناده ضعيف» عدة مرات.[٢٣٩]

والتفسير في غالبيته حدثيٌّ تاريخيٌّ شيئي، وهو ليس المقصود من التفسير الأخلاقي العملي. وهو ليس قصد الآية المتجهة إلى الدلالة وليس إلى الواقعة، إلى المعنى وليس إلى الحدث. فالمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى. وهو تقييد للمعنى، وعناية بالمثل دون المثول.

وصورة الرسول جديدة غير معروفة، الزهو بالنفس وتحديد المسجد الذي أُسس على التقوى بأنه مسجده وليس مسجد قباء، وتحول الرسول إلى شخصيةٍ مركزيةٍ محمدية كما حدث في الإنجيل. وتحول محرروه من الأخلاق العلمية في «المواعظ على الجبل» إلى شخص المسيح عند يوحنا وبولس.[٢٤٠]

ومعاضدة السنة للقرآن في التفسير أحد العوامل الخارجية للتيقن من التفسير الداخلي الذي يعتمد على طبيعة النص ذاته وآليات التفسير.[٢٤١] فكل حديث إنما هو تفسير لآية. القرآن أصل، والحديث فرع. والقرآن أصولٌ كلية والحديث فروعٌ جزئية. القرآن أصولٌ نظرية، والحديث تطبيقاتٌ عملية. القرآن عام، والحديث خاص. القرآن شامل لكل العصور، والحديث في بعض تطبيقاته العملية أول تحقق في التاريخ، في الزمان والمكان والمجتمع.[٢٤٢] الحديث وصف وتعيين وتصريح وبيان وتعريض وتفسير وتأويل وفهم وتصديق وتعبير وتحقيق وضرب أمثلة للقرآن.

---

[٢٣٦] «وهذه التفاسير الطوال التي أسندوها إلى ابن عباس غير مرضية ورواتها مجاهيل» (الإتقان، ج٤، ٢٠٧–٢٠٨)، «فمقاتل في نفسه ضعَّفوه»، «إن هذا الإسناد يروي به السدي أشياء فيها غرابة» (السابق، ص٢٠٨).

[٢٣٧] وهو ما حدث في الإنجيل أيضًا عندما سأل المسيح بطرس «أتعرف من أنا؟ فأجاب: أنت ابن الله الحي» حتى يخرج التثليث الموضوع على لسان غير لسان المسيح (انظر ظاهريات التأويل، ص٢١٠–٢١٨).

[٢٣٨] الإتقان، ج٤، ٢٢٩، ٢٣٢-٢٣٣.

[٢٣٩] «إسناده ضعيف» ج٤، ٢٤٠، «غريب جدًّا» السابق، ص٢٥١، «لا يصح رفعه» (السابق، ص٢٥٧).

[٢٤٠] ظاهريات التأويل، ص١٦٠–١٧٤، ٢٥٠–٢٦٩.

[٢٤١] البرهان، ج٢، ١٢٩–١٤٥.

[٢٤٢] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص١٣٩–١٩٠، ويعطي السيوطي حوالي خمسين مثلًا على ذلك.

وطبقة التابعين مجرد سرد لأسماء رجال دون وضع منهج أو وصف طريقة أو بيان مظاهرَ جديدة.[٢٤٣] يتلوهم الطبري. وتفسيره أجلُّ التفاسير مع أنه مجرد امتداد لمنهج المؤرخين، لا فرق بين تاريخ الطبري وتفسير الطبري في المنهج والغاية والأسلوب.[٢٤٤]

وتتعدد مناهج التاريخ عند القدماء مثل الإخباري الذي ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها والإخبار عما سلف سواء كانت صحيحة أم باطلة مثل تفسير الثعالبي. وهو المنهج التاريخي، والفقيه يسرد الفقه من الطهارة حتى أمهات الأولاد مع أدلة الفروع والرد على المخالفين كتفسير القرطبي وهو المنهج الفقهي. والفيلسوف صاحب العلوم العقلية يملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة لدرجة البعد عن الآية مع التطويل فيها لدرجة الابتعاد عن التفسير مثل تفسير الرازي، وهو المنهج الفلسفي. والمبتدع يحرف الآيات ويطبقها على مذهبه كما فعل الزمخشري في «الكشاف» في تطبيقه التفسير على منهج الاعتزال. والملحد يكفر ويُلحد في آيات الله، ويُقوِّل الآية ما لم تقله وهو ما تفعله بعض فرق المتكلمين مثل الرافضة. وهو ما سيتحول إلى علم التفسير كعلمٍ مستقل من العلوم النقلية الخمسة مع القرآن والحديث والسيرة والفقه.[٢٤٥]

---

٢٤٣ الإتقان، ج٤، ٢١٠–٢١٤.

٢٤٤ السابق، ص٢١٢–٢١٤.

٢٤٥ السابق، ص٢١٢-٢١٣.

الخاتمة

من الأسطورة والخيال إلى السحر والخرافة

وصف القدماء فضائل القرآن بناءً على الرواية؛ فتحولت إلى بركات وأحجبة تُعلَّق في الأعناق وعلى المنازل وفي العربات وتطبع على الحلي. وتحولت إلى تعاويذ وخرافات ووثنيةٍ صماء.[1] وقد تتحول الحروف إلى فضائل تحرس من الشر وتجلب الخير بأحاديثَ ضعيفة. فقراءة الحرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها.[2]

وتعتمد كل الفضائل على روايات الأحاديث.[3] والقرآن لا يَثبت بالحديث لأن الأدنى لا يُثبت الأعلى. والمصدر الثاني لا يثبت المصدر الأول طبقًا لترتيب القدماء للمصادر الشرعية الأربعة.[4] وهي روايات يغلب على متونها النقل بالمعنى والزيادة والنقصان؛ مما يضعف صحتها التاريخية. والمقصود من هذه الأحاديث كلها وإن صحَّت العمل بمضمون القرآن

---

[1] الإتقان، ج٤، ١٠٢–١١٧. وصنف فيها أبو بكر بن أبي شيبة، النسائي، أبو عبيد القاسم بن سلام، ابن الضريس، وقد صنف السيوطي كتابًا مستقلًّا باسم «خمائل الزهر في فضائل السور» (السابق، ص١٠٢).

[2] مثل أحاديث «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»، «القرآن ألف حرف، فمن قرأه صابرًا محتسبًا كان له بكل حرف زوجة من الحور العين» (الإتقان، ج١، ١٩٧–١٩٨).

[3] وهي حوالي مائة حديث.

[4] من النص إلى الواقع، ج٢، بنية النص، ص٩٩–٢٤٣.

وليس التبرك بالآيات المدوَّنة على الورق والقطيفة والذهب والفضة والنحاس والمعادن والأحجار الكريمة والعاج. وقد وُضعت هذه الأحاديث لترغيب الناس فيها. القصد حسن ولكن النتيجة تحويل القرآن إلى خرافة وسحر وشعوذة. وقد جرت في أوساط المتصوفة.[٥]

فضائل القرآن ليست في المدونات الحسية المرئية بل في الكلام النفسي المسموع أثره في السلوك، وهي نظرةٌ تجسيميةٌ تشبيهية للوحي.[٦] وأي قرآنٍ مدوَّن لا تأكله النار وكأنه يندُّ عن قوانين الاحتراق؟ وهو في الجوف يحفظ من المرض، ويحمي من مخاطر الطريق.

وقد انتشرت الظاهرة في أوقات العجز وعدم القدرة على فعل شيء أو تحويل القرآن إلى دوافع للسلوك والحركة والفعل والمقاومة. وهي العصور المتأخرة في العصر العثماني. فالقرآن يظهر كمخلِّص من كل شيء، مُطعم للجائع، ومُروٍ للعاطش، وكاسٍ للعاري، ومسكن لمن على قارعة الطريق، ومغنٍ للفقير، ومساعد للمحتاج. وما يطلب من الله غير المرئي، ويطلب من القرآن الملموس. وهو الحافظ من الفتن، والحامي من الغزو، والحافظ من المخاطر، والمانع من الأذى، والجالب للخير، والدارئ من الشر. وهو الشفيع يوم الحساب.

ثم تتحول خواص القرآن إلى وسائل للعلاج كما هو الحال في الطب النبوي. فالشفاء بالعسل وبالقرآن. وخير الدواء القرآن، وإذا قرئ القرآن؛ سورة الأنعام أو آيتان من آخر سورة البقرة، عند المريض شفي أو خفَّ. ودواء شكاية الصدر القرآن. وخاتمة الكتاب شفاء من كل شيء إلا الموت، وشفاء للسم. وتحمي من لدغ العقرب. ويكتب القرآن في إناء ثم يغسل ويسقى به المريض يشفى. «وتبارك» هي المنجية من عذاب القبر.[٧] تحول القرآن إلى رقيات.[٨] ولا يرقى إلا بالمعوذتين. والتعوذ من الجن وعين الإنسان. وفيهما سرٌّ إلهي. والرَّقي بكتاب الله وبالفاتحة وبكلام الله وأسمائه. وهو نوع من الطب الروحاني إذا

---

[٥] «وضعتها لأُرغِّب الناس فيها»، «لم يحدثنا أحد ولكننا رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن» (الإتقان، ج٤، ١١٨–١١٩).

[٦] «من قرأ القرآن فأكمله وعمل به ...» (السابق، ص١٠٤).

[٧] السابق، ص١٣٧–١٤٤، صنف فيه التميمي والغزالي، ومن المتأخرين اليافعي اعتمادًا على تجارب الصالحين.

[٨] السابق، ج٤، ١٣٨–١٤٣.

كانت الرقية على لسان الأبرار. ولما انقضى أتى الطب الجسماني.[٩] ويقرأ القرآن لقضاء الديون في حالة العجز عن السداد وكما يظهر ذلك في دعاء خطبة الجمعة «واقضِ الدين عن المدينين.»[١٠] ويُقرأ لتسهيل الولادة. ويُقرأ في أذن الدابة إذا استصبت.[١١] ويقرأ أمانًا من الغرق دعاء ذي النون وهو في بطن الحوت. ويقرأ للحفاظ على نعمة الأهل والمال والولد. ويقرأ في أذن المبتلى ليفيق. ويهون على الميت سكرة الموت. ويحنن القلب ويقضي على قسوته؛ لما في القرآن من قدرة على التأثير في النفس. ويبقى القلب في فرح لما فيه من تفاؤل. ويدفع الفاقة، ويذهب الوسوسة. وبعض الآيات فيها شفاء من السحر؛ فالسحر يشفي السحر. وقراءة بعض الآيات أمان من السرقة.

وإذا كان التفضيل يعني أن العمل بآية أولى من العمل بأخرى فهذا ليس تفضيلًا بل منطق للأولويات طبقًا لعموم البلوى، فالجهاد ضد الأعداء والدفاع من أراضي المسلمين له الأولوية المطلقة كما كان يفعل المجاهدون، فريق يجاهد وفريق يصلي على التبادل. وموضوعات أصول الدين مثل الإلهيات والمعاد والنبوات والقضاء والقدر ليست بأولى من موضوعات علم أصول الفقه، ولا العقيدة أولى من الشريعة.

وإذا كانت العلوم أربعة: علم الأصول؛ أصول الدين، وعلم الفروع؛ وهي العبادات، وعلم ما يحصل به الكمال؛ علم الأخلاق أو التصوف، وعلم القصص والإخبار عن الأمم السابقة؛ فلكل علم أهميته ووظيفته. فتصنيف العلوم لا يعني أفضلية بعضها على بعض.[١٢] ولا يعني التفضيل أن تكون بعض الموضوعات أولى من أخرى مثل ذات الله وصفاته وأفعاله وأسمائه. ولا يعني التفضيل أن تكون بعض الموضوعات أولى من أخرى مثل ذات الله وصفاته وأفعاله وأسمائه أولى من موضوع الزواج والتجارة.[١٣]

أفضل القرآن وفضائله قضية إشكالية بين الإثبات والنفي.[١٤] فالكل من مصدرٍ واحد. والمفضول يوهم بالنقص. ولا يعني التفضيل في الثواب، فالثواب واحد.[١٥] وهي نظرةٌ تجارية في تفاوت الأثمان، وأخذ أكبر قدر من المكسب بأقل قدر من الخسارة، وأكبر قدرٍ

[٩] «الرَّقي بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى هو الطب الروحاني إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله، فلما عزَّ هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجسماني» (السابق، ص١٤٣).

[١٠] السابق، ص١٣٩–١٤٢.

[١١] السابق، ١٤٠.

[١٢] السابق، ص١١٩–١٢١.

ممكن من الربح بأقل قدرٍ ممكن من المصاريف. ولا يوجد للقرآن قلب وأطراف، مركز ومحيط. فهذا تصورٌ مركزي. القرآن كله قلب لا أطراف له، ومركز لا محيط حوله.

ويفصل في فضل سورة سورة وآية آية وكأنه كله ليس من عند الله، وحيٌ منزل، لا تفضيل فيه. ولماذا تكون سورٌ أفضل من غيرها؟[16] ولماذا تكون آيات في سور أفضل من غيرها؟[17] ولماذا تكون آياتٌ أفضل من غيرها؟[18] ولماذا تكون فواتح سور أو خواتيمها أفضل من وسطها؟[19] وما مقياس الاختيار في التفضيل لسورة على سورة أو آية على آية؟ ولماذا آية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ خير من ألف آية؟ ولماذا «التكاثر» تعادل قراءة ألف آية؟ ولماذا تعادل سورة أو آية كل القرآن أو نصفه أو ربعه؟ وهل القرآن كمٌّ أم كيف؟ لماذا تعدل الفاتحة ثلثي القرآن؟ ولماذا قراءة «الزلزلة» تعادل نصف القرآن، والإخلاص تعادل ثلث القرآن، وآية الكرسي ربع القرآن؟ والكافرون ربعه كذلك والنصر الربع الثالث وهي ثلاثة أرباع؟ وماذا يبقى للسور الأخرى إلا الربع الأخير قبل أن تعادله سورة أو آيةٌ أخرى؟ ولماذا قراءة «يس» تعادل قراءة القرآن كله عشر مرات؟

ولا تعني مفردات القرآن مباحث الألفاظ بل خصائص الآيات أيهما أعظم أو أجمع أو أحزن أو أرجى أو أعدل أو تفويضًا؟[20] ولا تهمُّ الإجابة بقدر ما يهمُّ السؤال.[21] هل السؤال صحيح أم كل آيات القرآن توصل إلى نفس الغاية. وكلها آراءٌ ذاتية تتوقف على

---

[13] السابق، ص١١٩.

[14] الإتقان، ج٤، ١١٧–١٢٧، ينفي التفضيل الأشعري والباقلاني وابن حيان ومالك ويحيى بن يحيى. ويثبته إسحق بن راهويه وأبو بكر بن العربي والغزالي والقرطبي وجماعة من المتكلمين (السابق، ص١١٧).

[15] السابق، ص١١٩.

[16] مثل سورة الفاتحة والسبع الطوال والمعوذتين.

[17] مثل بعض آيات البقرة وآل عمران، الأنعام، هود، الكهف، ألم السجدة، يس، الحواميم، الدخان، القصص، الرحمن، السبحات، تبارك، الأعلى، القيامة، الزلزلة، العاديات، ألهاكم، الكافرون، النصر، الإخلاص.

[18] مثل آية الكرسي.

[19] مثل خواتيم البقرة، آخر آل عمران، آخر الإسراء.

[20] الإتقان، ج٤، ١٢٨–١٣٦.

[21] اختُلف في أرجى آية في القرآن إلى أحد عشر قولًا (السابق، ص١٢٩–١٣٢).

إحساساتٍ فردية مثل: أَحب، أَخْير. وتختلف الإجابة من حال إلى حال، ومن فرد إلى فرد، ومن موقف إلى موقف. كما يعتمد السؤال على القدرات الفردية مثل: أي الآيات أشد وأيها أرخص؟ ويعتمد سؤال «أي الآيات أخوَف؟» على مدى الثقة بالنفس واليقين الذاتي.[٢٢]

وقد تتحول خصائص الآيات إلى أعاجيب ونوادر أي خصائصَ فريدة. فسورةٌ واحدة بها المكي والمدني، والحضري والسفري، والليلي والنهاري، والحربي والسلمي، والناسخ والمنسوخ. ومن الآيات الأشكل حكمًا ومعنًى وإعرابًا. وآية جمع أصول الأحكام الشرعية كلها: الأمر والنهي والإباحة والخير. وآية تجمع بين ذكر حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وسجن وخلاص، وخصب وحرب. وتوجد آية أعرب ما في القرآن. وحرف جمع النصب والرفع والجر. جمعت السور بين الأطول مثل البقرة والأقصر مثل الكوثر. وأطول آية الدين، وأقصر آية القسم ﴿وَالضُّحَى﴾، ﴿وَالْفَجْرِ﴾، وأطول كلمة حروفًا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾.[٢٣] وآيتان جمعت كلٌّ منهما حروف المعجم، ولا يوجد حاء بعد حاء إلا في موضعين، ولا غين إلا في موضعٍ واحد ولا آية فيها ثلاثة وعشرون كافًا إلا آية الدين، ولا آيتان بهما ثلاثة عشر وقفًا إلا آيتا المواريث. ولا سورة ثلاث آيات فيها عشر واوات إلا والعصر، ولا سورة إحدى وخمسون آية فيها اثنان وخمسون وقفًا إلا سورة الرحمن، ولا آية أولها غين إلا ثلاثة. وبالقرآن أربع شدَّاتٍ متتالية. فهل هذه مصادفة أم قصدية؟

وقراءة سورة البقرة تطرد الشيطان، وكذلك قراءة أربع آيات من أولها وآية الكرسي وآيتين بعدها. وثلاثًا من آخرها تذهب العفاريت والجن. وقراءة آية الكرسي تحفظ الإنسان وذريته، تحفظ داره، وتعين على الكرب. ومن قرأ عشر آيات من البقرة عند منامه لم ينسَ القرآن، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث من آخرها. ومن أدام على قراءة «يس» كل ليلة ثم مات مات شهيدًا.[٢٤] والسكوت أفضل من التفضيل بين السور والآيات. فعدم الدخول في مشكلةٍ زائفة أفضل من اقتراح حلول لها.[٢٥]

---

[٢٢] السابق، ص١٣٢–١٣٤.

[٢٣] الإتقان، ج٤، ١٣٤–١٣٦.

[٢٤] الإتقان، ج٤، ١٣٨.

[٢٥] هذا هو موقف القاضي عبد البر (السابق، ص١٢٥-١٢٦).

ويمكن تأويل كل سورة بحيث تكون شاملة لكل شيء، وهو من دلائل الإعجاز. فإذا كانت مقاصد القرآن ستة، ثلاثةٌ مهمة وثلاثةٌ متمة ووجود ذلك كله في «الفاتحة»، تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم، وتعريف الحال عند الرجوع إليه وهو الآخرة، وتعريف أحوال المطيعين المنعَم عليهم، وتعريف أقوال الجاحدين المغضوب عليهم وتعريف منازل الطريق بالعبادة والاستعانة فإن ذلك لا يعني تفضيل سورة على أخرى. ويمكن قول نفس الشيء في سورة «الإخلاص» و«آية الكرسي». وإذا كان القرآن قسمَين: خبر وإنشاء، والخبر قسمان: خبر عن الخالق وخبر عن المخلوق، ووجودهما في سورة الإخلاص فإن ذلك لا يجعلها أفضل من غيرها. فكل سورة شاملة ومركزة لا فضل لإحداهما على الأخرى.[٢٦]

بل إن التفضيل لا يكون بين مراحل الوحي المختلفة، التوراة والإنجيل والقرآن، وإن القرآن هو الأفضل. فلكل وحي فضله بالنسبة إلى مرحلته التاريخية.[٢٧] الكل وحي لا تمييز بين مراحله. وإذا كانت علوم الأولين والآخرين في الكتب السماوية الأربعة فإنها كلها في القرآن في الفاتحة، وكل الفاتحة في البسملة، وكل البسملة في الباء، وكل الباء في نقطتها، فهذا تصورٌ صوفي يقوم على الدوائر المتداخلة تضيق نحو المركز أو تتسع نحو المحيط.[٢٨]

ولماذا يفضل القرآن على سائر الكلام وفنونه مثل الشعر والنثر قديمًا، والرواية والقصة والمسرحية حديثًا؟ أليس «إن من البيان لسحرًا»؟ وكل فنون الكلام بيان. وإعجاز القرآن نفسه خاضع لأساليب البلاغة.

وقد جمعت إحدى المؤسسات الدينية فضائل القرآن في «الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم» لتأكيد هذه الوظيفة المتأخرة للقرآن في إحداث الوقائع، شفاء المرضى، وجلب الرزق، والانتصار على العدو، والتوفيق في الحياة كما هو الحال في الممارسات الشعبية للأحجبة والتعاويذ المكتوب عليها بعض الآيات للحماية من الحسد والوقاية من الضرر. ويستمر ذلك سورةً سورة، وآيةً آية. وتشمل السنن القولية والفعلية لبيان جانب الممارسة في حياة الرسول. وتقوم المؤسسة بدور المؤلف. ورئيسها الأمير المؤمن الذي يتبرك

[٢٦] هذا هو رأي الغزالي (الإتقان، ج٤، ١٢١–١٢٥).

[٢٧] السابق، ص١١٧.

[٢٨] وهو تصور ابن عربي (السابق، ص١٢٧).

بالقرآن في الحياة العامة وأمام الناس تقبيلًا ورفعًا إلى الجبهة، تعظيمًا وإعلاءً. والإمارة منصبٌ سياسي في حاجة إلى تبريرٍ ديني.[٢٩] ويقدمها بعض المداحين من الأمراء وفقهاء السلطان.[٣٠] وفي مقدمة الكتاب آداب تلاوة القرآن الباطنة مختصرة من «الإحياء» للغزالي، وحكمٌ ثابتة للحافظ السيوطي في فضائل السور، مع شرح مصطلحات الحديث، وثبت بالكتب المصنفة في فضائل القرآن وآياته على العموم، ثم ذكر هذه الفضائل سورةً سورة، وآيةً آية.[٣١]

الجمع للأدلة النقلية وحدها والأحاديث وحدها دون القرآن دون أي تحليلٍ عقلي، تمتلئ بها مقدمات المداحين والكلمات المأثورة مقرونة بالدعاوى الدينية كما هو الحال في ممارسات العامة وأقوال الدجالين في تحضير الأرواح والإبراء من الأمراض وإنجاب العاقرات لا يعتمد إلا على القدماء بما لديهم من هالات التقديس. والأحاديث مطبوعة بالمداد الأحمر لمزيد من التقديس والإبراز والإبهار. وهي بقايا وثنية في شبه الجزيرة العربية نقدها محمد بن عبد الوهاب في رفضه لكل مظاهر التبرك والتوسط. وفي آخر الكتاب ثبت المراجع والمصادر التي تم منها الجمع.

تكثر المصنفات في فضائل القرآن كلما اشتد العجز وقلَّ الفهم وندر العلم مثل فضائل الأماكن، مثل القدس أو الأمصار مثل مصر كلما كانت في أزمة. تشارك تقريبًا في نفس العنوان. ودون ترتيبٍ زماني.[٣٢] النص سلطة مثل سلطة الأمير، وسلطة القدماء، وسلطة الرسول، وسلطة الحديث دون نقد للسند أو للمتن ودون اعتماد على القرآن أو الشعر. كتابته بالمداد الأحمر، وإبرازه سلطة. لا هدف إلا الطاعة لقريش أو الجيش. وعدم اختلاف الروايات سلطة. بل إن سلطة القرآن من سلطة الحديث. وكلاهما من سلطة الأمير. ويخلو الجمع من فهارسَ تحليلية من أي نوع لأن الهدف ليس البحث العلمي.

إن علوم القرآن بالرغم من أهميتها، بيان الحوامل الموضوعية للمحمول وهو الوحي في التاريخ، المكان والبيئة الاجتماعية والزمان، وإظهار الحوامل الموضوعية الذاتية. وهو

[٢٩] مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي: الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم، (الأحاديث التي وردت في فضائل السور والآيات)، عمان، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

[٣٠] تمهيد لصاحب السمو الأمير غازي بن محمد بن طلال، وتقريظ وتقديم للداعية الكبير السيد علي الجعفري (السابق، ص٧–١٣).

[٣١] السابق، ص١٥–٢٥.

[٣٢] الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم، ص٢٣–٢٨.

الرواية، الخبر والقراءة والتدوين، والكشف عن الحوامل الذاتية وهي اللغة، اللفظ والمعنى، وأساليب البلاغة والتفسير إلا أنها لا تعفي من أن الهدف من الوحي هو العمل ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾، ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾. فالوحي محمول. تدرس علوم القرآن حوامله، ولكنه يصب في النهاية في السلوك البشري والأوضاع الاجتماعية والسياسية، ويدفع حركة التاريخ.[٣٣]

[٣٣] النظر والعمل، حوار مع أبي يعرب المرزوقي، دار فكر، دمشق ٢٠٠٣م.

المصادر والمراجع

(١) قتادة (١١٧هـ): الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٢) الزهري (١٢٤هـ): الناسخ والمنسوخ المصفى بأكف أهل الرسوخ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٣) أبو عمرو البصري (١٥٤هـ) (الإمام زبان بن العلاء بن عمار): الإدغام الكبير، تحقيق أنس بن محمد حسن مهدة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(٤) الكسائي (١٨٩هـ) (علي بن حمزة): معاني القرآن، أعاد بناءه وقدم له د. عيسى شحاتة عيسى، دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨م.

(٥) الأخفش الأوسط (٢١٥هـ) (أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البصري): معاني القرآن، قدم له وعلق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٦) ابن سلام (٢٢٤هـ) (أبو عبيد القاسم): الناسخ والمنسوخ في الكتاب والسنة، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(٧) الدينوري (٢٧٦هـ) (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة): تأويل مُشكل القرآن، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٨) ابن قتيبة (٢٧٦هـ) (الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم): تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(٩) المبرد (٢٨٥هـ) (الإمام العلامة أبو العباس محمد بن يزيد): ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن العظيم، علق عليها أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(١٠) السجستاني (٣٣٠هـ) (أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث): كتاب المصاحف، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١١) السجستاني: غريب القرآن على حروف المعجم، دراسة وتحقيق أحمد عبد القادر صلاحية، الطبعة الأولى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩٣م.

(١٢) النحاس (٣٣٨هـ) (أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل): القطع والائتناف أو الوقف والابتداء، تحقيق أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(١٣) ابن خالويه (٣٧٠هـ) (أبو عبد الله الحسين بن أحمد): الحجة في القراءات السبع، تحقيق أحمد فريد المزيدي، قدم له د. فتحي حجازي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧.

(١٤) عبد الغفار الفارسي (٣٧٧هـ) (أبو علي الحسن بن أحمد): الحُجة للقراء السبعة، وضع حواشيه وعلق عليه كامل مصطفى الهنداوي، في أربعة مجلدات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(١٥) الأصبهاني (٣٨١هـ) (الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران): الغاية في القراءات العشر، علق عليها أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(١٦) الأصبهاني: المبسوط في القراءات العشر، تحقيق وتعليق جمال الدين محمد شرف، الطبعة الأولى، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(١٧) ابن جني (٣٩٢هـ) (أبو الفتح عثمان): المُحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، في مجلدَين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(١٨) ابن غلبون (٣٩٩هـ) (الشيخ أبو الحسن طاهر بن عبد المنعم): التذكرة في القراءات، حققه وراجعه وعلق عليه د. سعيد صالح زعيمة، طبعة كاملة الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(١٩) الباقلاني (٤٠٣هـ) (الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيب): إعجاز القرآن، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، مكتبة صبيح، مصر، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

(٢٠) ابن سلامة (٤١٠هـ) (أبو القاسم هبة الله): الناسخ والمنسوخ، الطبعة الثانية، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

(٢١) ابن أحمد (٤١٥هـ) (إملاء قاضي القضاة عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار): تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت، (د.ت).

(٢٢) الإسكافي (٤٢٠هـ) (الخطيب): درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني، طبعة مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ متعددة، الطبعة الأولى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٢٣) القرطبي (٤٣٧هـ) (الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد ابن مختار القيسي القيرواني): التبصرة في القراءات السبع، اعتنى بتصحيحه ومراجعته جمال الدين محمد شرف، الطبعة الأولى، دار الصحابة للتراث، طنطا، (د.ت).

(٢٤) المالكي (٤٣٨هـ) (أبو علي الحسن بن محمد بن إبراهيم البغدادي): الروضة في القراءات الإحدى عشرة، دراسة وتحقيق د. مصطفى عدنان محمد سلمان، في جزأين، الطبعة الأولى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

(٢٥) المهدوي (٤٤٠هـ): بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(٢٦) الداني (٤٤٤هـ) (الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان)، جامع البيان في القراءات السبع المشهورة، تحقيق الحافظ المقرئ محمد صدوق الجزائري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٢٧) الداني: المُحكم في نقط المصاحف، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٢٨) الداني: التيسير في القراءات السبع، عني بتصحيحه أوتو يرتزل، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٢٩) الداني: مُفرَدَة نافع بن عبد الرحمن المدني، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

(٣٠) الداني: مُفرَدَة عبد الله بن كثير المكي، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

(٣١) الداني: مُفرَدَة أبي عمرو بن العلاء البصري، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

(٣٢) عبد الوهاب القرطبي (٤٦١هـ) (الشيخ أبو القاسم عبد الوهاب): المفتاح في القراءات السبع، تحقيق أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(٣٣) النيسابوري (٤٦٨هـ) (أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي): أسباب النزول، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

(٣٤) الجرجاني (٤٧١هـ) (الإمام عبد القاهر): دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله علامتنا الشيخ محمد عبده، والأستاذ الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، ووقف على تصحيح طبعه وعلَّق حواشيه السيد محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

(٣٥) الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، صححه على نسخة الأستاذ محمد عبده ووضع حواشيه السيد محمد رشيد رضا، الطبعة السادسة، مطبعة صبيح، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

(٣٦) الرعيني الأندلسي (٤٧٦هـ) (أبو عبد الله محمد بن شريح): الكافي في القراءات السبع، تحقيق أحمد محمود عبد السميع الشافعي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٣٧) الرعيني: الكافي في القراءات السبع، تحقيق جمال الدين محمد شرف، الطبعة الأولى، دار الصحابة للتراث، طنطا، ٢٠٠٤م.

(٣٨) الدامغاني (٤٧٨هـ) (الإمام الشيخ أبو عبد الله الحسين بن محمد): الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تقديم وتحقيق عربي عبد الحميد علي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣.

(٣٩) ابن سوار (٤٩٦هـ) (الإمام أبو طاهر): المستنير في القراءات العشر، اعتنى به وعلَّق عليه جمال الدين محمد شرف، الطبعة الأولى، دار الصحابة للتراث، طنطا، ٢٠٠٢م.

(٤٠) الأصفهاني (٥٠٣هـ) (العلامة أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل): مُعجم مفردات ألفاظ القرآن، ضبط وتحقيق وتصحيح إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٤١) الواسطي القلانسي (٥٢١هـ) (الإمام الحافظ أبو العز محمد بن حسين بن بندار): إرشاد المبتدئ وتذكرة المنتهي في القراءات العشر، تحقيق د. عثمان محمود غزال، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٤٢) ابن خلف الأنصاري (٥٤٠هـ) (الإمام أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد): الإقناع في القراءات السبع، حققه وعلق عليه الشيخ أحمد فريد المزيدي، قدم له وقرظه د. فتحي عبد الرحمن حجازي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(٤٣) المالكي (٥٤٣هـ) (القاضي أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري): الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(٤٤) ابن الطحان الأشبيلي (٥٦١هـ) (الإمام الشيخ أبو الأصبغ عبد العزيز بن علي): المقدمة في أصول القراءات، علق عليها أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٤٥) السهيلي (٥٨١هـ) (عبد الرحمن): التعريف والإعلام فيما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، دراسة وتحقيق عبد الله محمد علي النقراط، الطبعة الأولى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، طرابلس، ١٤٠١هـ/١٩٩٢م.

(٤٦) ابن بري (٥٨٢هـ): مسائل منثورة في التفسير والعربية والمعاني، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(٤٧) الشاطبي (٥٩٠هـ) (أبو محمد القاسم بن فيره بن أبي القاسم): حرز الأماني ووجه التهاني، ضبطه وخرج أحاديثه محمد عبد القادر شاهين، الطبعة الثانية دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٤٨) ابن الجوزي (٥٩٧هـ) (الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن القرشي): نواسخ القرآن، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

(٤٩) ابن الجوزي: من علم الناسخ والمنسوخ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٥٠) ابن الجوزي: تذكرة الأريب في تفسير الغريب، تحقيق طارق فتحي السيد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٥١) الشافعي (٦٦٠هـ) (الإمام أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السليمي): مجاز القرآن ويسمى الإشارة إلى الإنجاز في بعض أنواع المجاز، القسم الأول،

حققه وقدم له د. محمد مصطفى بن الحاج، الطبعة الأولى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، طرابلس، ١٤١٠هـ/١٩٩٢م.

(٥٢) أبو شامة المقدسي (٦٦٥هـ) (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم): المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، حققه طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

(٥٣) أبو شامة المقدسي: إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع، تحقيق وضبط إبراهيم عطوة عوض، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

(٥٤) الغرناطي (٧٠٨هـ) (الإمام أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ابن الزبير الثقفي): ملاك التأويل، في جزأين، وضع حواشيه عبد الغني محمد علي الفاسي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(٥٥) الموصلي (٧١٣هـ) (أبو موسى جعفر بن مكي): مُفرَدَة ابن كثير المكي، تحقيق وتعليق د. خالد أحمد المشهداني، الطبعة الأولى، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

(٥٦) ابن البارزي (٧٣٨هـ): ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٥٧) الواسطي (٧٤٠هـ) (الإمام العلامة عبد الله بن عبد المؤمن): الكَنَزُ في القراءات العشر، تحقيق هناء الحمصي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٥٨) الكلبي (٧٤١هـ) (الشيخ الإمام أبو القاسم محمد بن أحمد بن جُري): التسهيل لعلوم التنزيل، في جزأين، ضبطه وصححه وخرج أحاديثه محمد سالم هاشم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٥٩) الصفاقسي (٧٤٢هـ) (إبراهيم محمد): المجيد في إعراب القرآن المجيد، تحقيق موسى محمد زنين، الطبعة الأولى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، طرابلس، ١٤١٠هـ/١٩٩٢م.

(٦٠) الصفاقسي: المجيد في إعراب القرآن المجيد، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(٦١) اليماني (٧٤٣هـ) (العلامة تاج الدين أبو المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد القرشي): الترجمان عن غريب القرآن، قرأه وعلق عليه د. يحيى مراد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٦٢) ابن التركماني (٧٥٠هـ) (علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان الماريني): بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٦٣) ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) (الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي الدمشقي): الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت).

(٦٤) الزركشي (٧٩٤هـ) (الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، في أربعة أجزاء، مطبعة عيسى الحلبي، مصر، ١٩٧٢م.

(٦٥) ابن القاصح البغدادي (٨٠١هـ) (الإمام أبو القاسم علي بن عثمان بن محمد بن أحمد بن الحسن): سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي، ضبطه وصححه وخرج أحاديثه محمد عبد القادر شاهين، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٦٦) ابن الجزري (٨٣٣هـ) (الإمام الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي): النشر في القراءات العشر، خرج آياته الشيخ زكريا عميرات، في جزأين، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(٦٧) ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) (الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد): العجائب في بيان الأسباب «أسباب نزول القرآن»، تحقيق وتعليق أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٦٨) الجزري (٨٨٣هـ) (الإمام ابن محمد بن محمد بن محمد علي بن يوسف): تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

(٦٩) ابن العماد (٨٨٧هـ): كشف السرائر في معنى الوجوه الأشباه والنظائر، تحقيق ودراسة د. فؤاد عبد المنعم أحمد، تقديم ومراجعة د. محمد سليمان داود، الطبعة الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٧٧م.

(٧٠) النشار (القرن التاسع الهجري) (الإمام أبو حفص عمر بن قاسم بن محمد المصري الأنصاري): المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر، تحقيق أحمد محمود عبد السميع الشافعي الحفيان، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٧١) السيوطي (٩١١هـ) (الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، في أربعة مجلدات، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٦٧م.

(٧٢) السيوطي: طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٧٣) السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين، في ثلاثة مجلدات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٧٤) السيوطي: الإكليل في استنباط التنزيل، تحقيق سيف الدين عبد القادر، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٧٥) السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

(٧٦) السيوطي: أسرار ترتيب القرآن، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

(٧٧) السيوطي: المختار من كتاب الإتقان في علوم القرآن، اختيار عامر محمد بحيري، مراجعة عبد الوهاب حمودة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د.ت).

(٧٨) الأنصاري (٩٢٦هـ) (شيخ الإسلام زكريا بن محمد): المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، علق عليه شريف أبو العلا العدوى، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

(٧٩) الأشموني (القرن الحادي عشر الهجري) (أحمد بن محمد بن عبد الكريم): منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، علق عليه شريف أبو العلا العدوي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

(٨٠) الهروي (١٠١٤هـ) (المُلا علي بن سلطان): المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية تحقيق أحمد محمود عبد السميع الشافعي الحفيان، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٨١) البناء (١١١٧هـ) (العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني): إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، وضع حواشيه الشيخ أنس مهرة، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(٨٢) الجمزوري (١١٩٨هـ) (العلامة الشيخ سليمان بن حسين بن محمد): الفتح الرحماني شرح كنز المعاني بتحرير حرز الأماني في القراءات، تحقيق ودراسة شريف أبو العلا العدوى، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

(٨٣) يوسف أفندي زاده (القرن الثاني عشر الهجري) (أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الأمامي الإسلامبولي الحنفي): رسالة في حكم القراءة بالقراءات الشواذ، تصدير وتقديم وتحقيق تغريد محمد عبد الرحمن حمدان وعمر يوسف عبد الغني حمدان، الطبعة الأولى، مطبعة الطيرة، الطيرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٨٤) الجبوري (ق١٢هـ) (الشيخ القارئ سلطان بن ناصر): شرح قواعد البقري في أصول القراء السبعة، تحقيق هناء الحمصي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(٨٥) الرافعي (١٣٥٦هـ) (مصطفى صادق): إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٨٦) الزرقاني (الشيخ محمد عبد العظيم): مناهل العرفان في علوم القرآن، خرج أحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، الطبعة الثانية، في جزأين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

(٨٧) ابن طلال (الأمير غازي بن محمد): الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم، تقديم وتقريظ الداعية السيد علي زين العابدين الجفري، الطبعة الأولى، مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٨٨) الصفاقسي (علي النوري): غيث النفع في القراءات السبع، ضبطه وصححه وخرَّج آياته محمد عبد القادر شاهين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(٨٩) الضباع (الشيخ علي محمد): مختصر بلوغ الأمنية على نظم تحرير مسائل الشاطبية، ضبطه وصححه وخرَّج آياته محمد عبد القادر شاهين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(٩٠) قمحاوي (محمد الصادق): البرهان في تجويد القرآن ورسالة في فضائل القرآن، الطبعة الأولى، دار النجم، ١٩٩٤م.

(٩١) الشيخ إسماعيل مخدوم: تاريخ المصحف العثماني، الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى، طشقند وقازاقستان، طشقند، ١٩٧١م.

(٩٢) الكيش (عبد الله محمد): أثر القرآن في أصول مدرسة البصرة النحوية حتى أواخر القرن الثاني الهجري، الطبعة الأولى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٩٩٢م.

(٩٣) أبو ريدة (محمد عبد الهادي): مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوة والأخلاق والكون، الطبعة الأولى، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٩٤) رسلان (صلاح الدين بسيوني): القرآن الحكيم «رؤية منهجية جديدة»، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م.

(٩٥) المنجد (محمد نور الدين): التضاد في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٩م.

(٩٦) المنجد: الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، تقديم د. مسعود بوبو، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٨م.

(٩٧) المدرس (العلامة عبد الكريم): الأصول في تجويد القرآن الكريم، جمع وترتيب الحاج علاء الدين القيسي، الطبعة الخامسة، مطبعة الأشبال، العراق، ١٩٩٠م.

(٩٨) شامة (محمد): الحسد في القرآن الكريم بين الحقيقة والأسطورة، الطبعة الأولى، مكتبة شامة، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٩٩) السنهوتي (محمد الأنور): الكون في ضوء التصور القرآني، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء، العدد الثالث، (د.ت).

(١٠٠) الجبين (إبراهيم): لغة محمد، الطبعة الأولى، دار الينابيع، دمشق، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(١٠١) إبراهيم محمود: الجنس في القرآن، الطبعة الأولى، دار رياض الريس، بيروت، ١٩٩٤م.

(١٠٢) النعيمي (هشام سعيد محمود): حجة القراءات لأبي زُرعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(١٠٣) عياد (شكري محمد): يوم الدين والحساب، الطبعة الأولى، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٠م.

(١٠٤) الشرقاوي (عفت محمد): الفكر الديني في مواجهة العصر، الطبعة الثانية، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م.

(١٠٥) ابن مصطفى (الشيخ محمد كامل): تعليقات على أنوار التنزيل، تحقيق عبد الدائم محمد الباجقيني، الطبعة الأولى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ١٩٩١م.

(١٠٦) رضوان (أحمد حسن): من الكهف إلى الكون، دار الكتب والوثائق القومية، مصر، ١٩٩٠م.

(١٠٧) مؤلف مجهول: شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(١٠٨) مجلة البلاغة المقارنة «ألف»، المجاز والتمثيل في العصور الوسطى، العدد الثاني عشر، ١٩٩٢م.

(١٠٩) مجمع البحوث الإسلامية: الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن الكريم، دار السعادة للطباعة، ٢٠٠٣م.


هنداوي